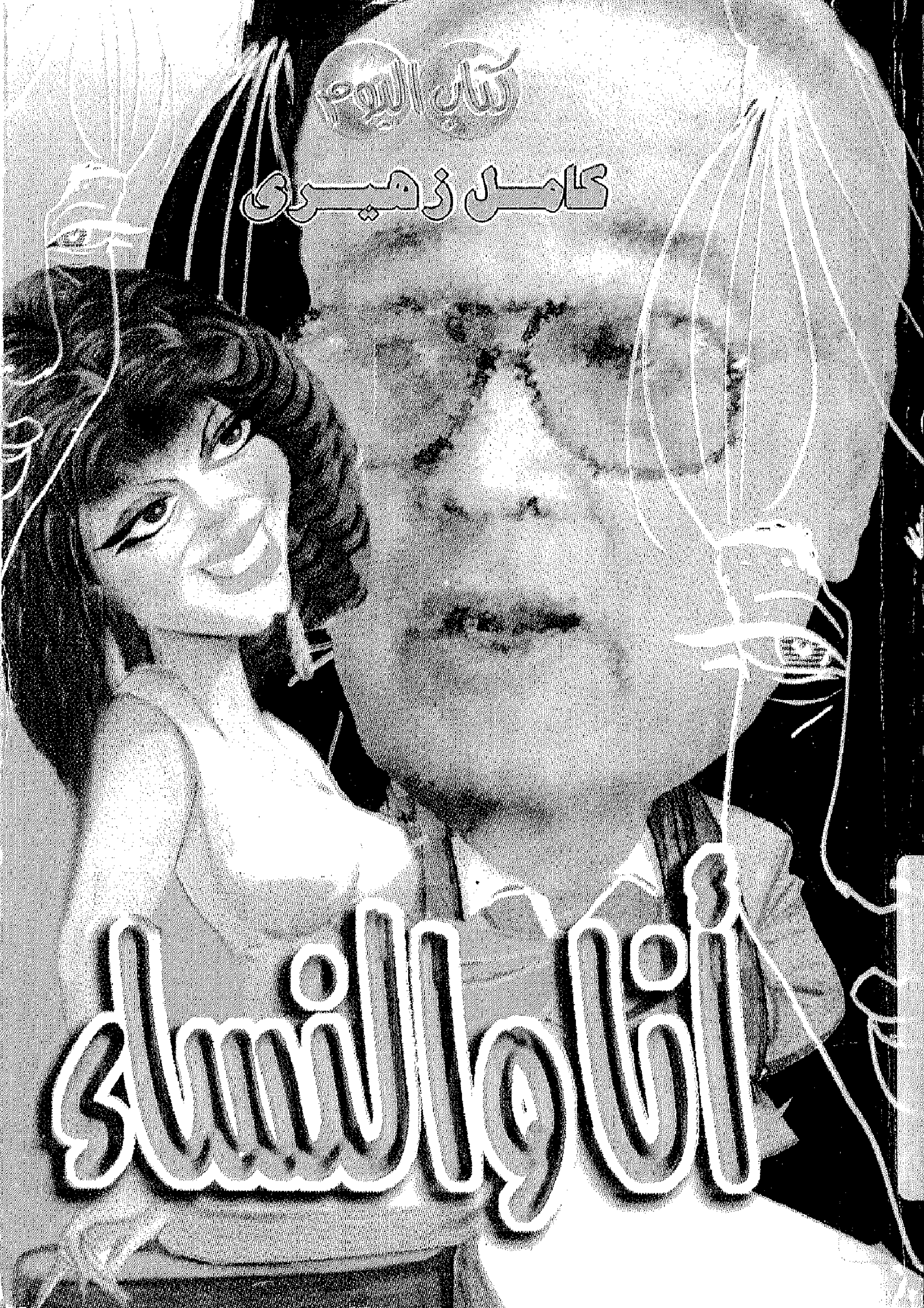

كتاب اليوم
كامل زهيري
أنا والنساء

اهداءات ٢٠٠٢

السفير فتحي الجويلي

دمنهور

دار
أخبار اليوم

قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

عدد يونيه ١٩٩٧

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

رئيس التحرير :

نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الأردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١.٥	دينار
السعودية	١٢	ريال
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١.٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١.٢٥٠	ريال
غزة	٢.٥٠	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالاً
الصومال. نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الامارات	١٢	دراهم
قطر	١٢	ريالات
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنك
ألمانيا	١٠	مارك
ايطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٤٨ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٥ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٠ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٥ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٥ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

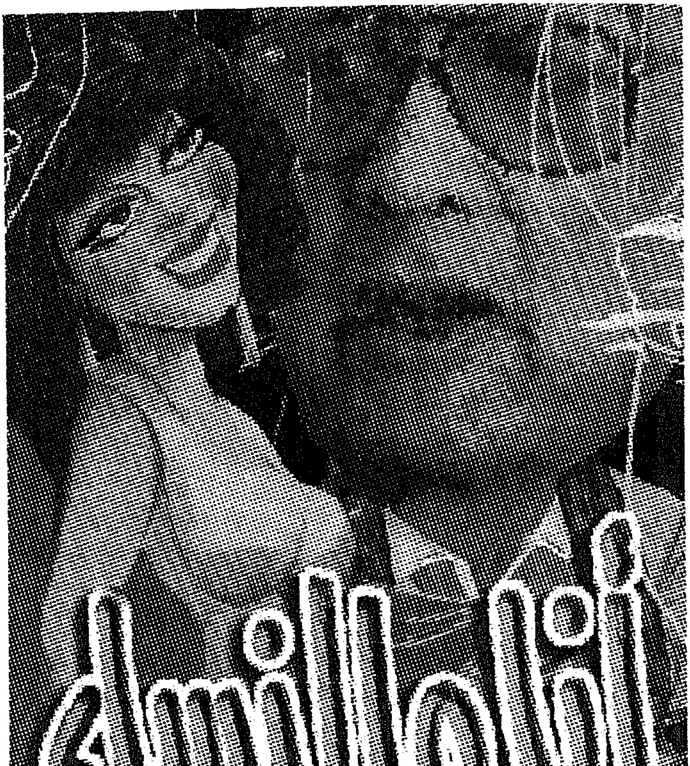
القاهرة ت: ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس: ٥٧٨٢٥٤٠

● تلكس دولى: ٢٠٣٢١

● تلكس محلى: ٢٨٢

كتاب اليوم



أنا والنساء

كامل زهيري

١

هى أيام زمان

عشقت السفر ..

وقد يكون هذا اصطناعا للشوق أو لعبا بالفراق .. فى الذهاب والعودة . ولعل عملى بالصحافة كان دافعه الحميم هو كثرة السفر، لأن القراءة والكتابة سفر بين الكلمات والسطور. وكما كان عشقى للقراءة ثم الكتابة كان عشقى للسفر لأقرأ أيضا العمارة.. والمدن والوجود ..

ولكننى أعترف اننى أحببت على طول السفر مدنا عديدة.. من دلهى وبكين إلى سان فرانسيسكو، ومن الباسو با لمكسيك إلى قرطاجة بكولومبيا ، ومن باريس والبندقية إلى الدار البيضاء وصنعاء واسطنبول .

وأعترف أخيرا أن حب القاهرة كان أكبر، لأننى عشت فيها وعشقتها، وشغفت بالتجوال، لا أشبع بين حواريها وشوارعها وميادينها ومنحنياتها .

وكل مدينة عندى بمذاق، لأن البندقية مدينة عائمة على الحب ، واسطنبول مئذنة طويلة رفيعة تطل على أوربا، وفيها سحر الشرق أقوى. وسان فرانسيسكو هى المدينة الأوربية الوحيدة وسط أمريكا ، فليست فيها ناطحات سحاب ، وما زالت تحتفظ بالترام القديم ، هى أبعد مدينة أمريكية عن أوربا وأقربها إلى الروح الأوربية . وسان فرانسيسكو مدينة صغيرة جميلة متأنقة ودلوعة..وبعض الحسن يشربه الدلال. وليس مثل صنعاء مدينة قديمة ، ولا يمكن لدى مخرج أن يستطيع بناء مدينة مثلها .لم تفقد زجاجها الملون القديم ،فى بيوتها التى تنهض فوق الصخر كالأشجار، وكأن البيوت ثمرات الصخور، ولم تفقد صنعاء طابعها الأسطورى القديم من ألف ليلة وليلة، وقد شهدت الأوربيين فى فنادقها القديمة والتى كانت قصورا ، وقد لبس الرجال بالليل ملابس السهرة والبابيون الأسود وحرصت النساء على الديكولتيه، وسحر الشرق يختلف عن جمال الغرب،كما يختلف عطر الوردة عن رائحة الكولونيا . ولن ينعقد سحر فى مدينة مثل سحر فاس المغربية القديمة ، وسحر فاس لا يفكه سحر آخر، وفيها ندرك سر تخطيط المدينة العربية العريقة . ولا بد من شق المدينة كلها بشارع كبير يجرى وسطها مثل الشريان التاجى من شمالها إلى جنوبها. ولابد بعد ذلك أن يعبرها شارع آخر، من الشرق إلى الغرب، حتى يتم الانتقال والنشاط من وإلى الجهات الأصلية الأربع. ونفس هذا التخطيط القديم فى القاهرة القديمة قبل ظهور القاهرة الأوربية، لأن شارعها وشريانها الرئيسى ينبع من باب النصر فى

اقصى شمالها ويعبرهـا حتى بـاب زويلـة. ثم يمتـد فى عنـاد وثبـات إلى أقصى جنوبها حتى تـلال المقطم عند السيـدة نفيسة، ولـذلك سمى شـارعهـا الرئيسى القديم «الشـارع الأعظم»، ويحمل الآن أسماء عديدة متتـابعة لطولـه وامتداده. ويبدأ هذا الشارع الأعظم الآن باسم المؤسس الأكبر للقاهرة الفاطمية : المعز لدين الله. وكما لابد أن يتحرك القاهريـون من الشمال إلى الجنوب أو بالعكس، كان لابد أن ينزلوا من الجبل والقلعة إلى النيل وينحدروا إليه، ويعبرونـه إلى الجيزة والهرم. وهكذا ظهـر هذا الشريان الثـانى بالعـرض من الشرق إلى الغرب ،ومن الجبل إلى النهر، ومن القلعة إلى السيدة حتى مشارف النيل.

وقـد أحببت القاهـرة، بل وقعت أسيرها، ولم يعـد جـديدهـا يخفى عن قلبى قديمها واحترفت التحـول عن قصد وغير قصد فى الأحياء القـديمة وفى الشـوارع والحوارى والأزقة.. أدق بلا توقف وفى لطف وأحيـانا على استحياء أبواب المبانى القديمـة، وبعض الزمان الـذى يمضى يتعلق بأطراف المبـانى كما يلتصق فيها كالتراب. وفى ساعات الصفاء طالما سمعت نفسى تحدث نفسى: لو لم أكن قاهريا لوددت أن أكـون قاهـريا. ومن لطف القاهـريين حب المبالغـة، وقد يختلط الجد بالفكاهة، لأنهم يطلقون على القـاهرة «مصر»، ويسمـون النيل «البحر» ويطلقون على تل المقطم «الجبل».. وحتى الـذبـابـة يسمـونها أحيانـا «الطيرة». وغـوايـة المبـالغات من الفنـون الشعبيـة القديمـة، أو لـون من فكـاهة أولاد البلـد، وهم يهجرون مـا لا يحبون، ويسقطون فى الحديث مـا لا يألفون. ولهذا أصبح الاسم الشائع لباب الخرق، أحـد أبواب القاهرة الفاطمية القـديمة، باب الخلق. والتغيير ألطف. وهجروا كذلك اسم العتبـةالزرقاء أحد الميادين الرئيسيـة وسموه العتبة الخضراء، والخضرة أغنى من الزرقة، لأن الزرقـة لا تستمر وقد تتحول إلى سواد الليل. وحين أطلق اسم كـافاريللى القائد الأعـرج فى حملة بـونابـرت على الشارع الـذى أقـام فيـه بأحـد قصـور المماليك، غيروا اسم القنطـرة التى تـؤدى إليـه فأصبحت «قنطرة اللى كفر».. بدلا من قنطرة كافاريللى.

وبعض شوارع القاهـرة أحفظها عن ظهر قلب، ومنها شـارع محمد على. فقد أقمت سنوات فى القلعة، وكنت أهبط وأصعد كل يوم فى طريقى إلى العتبة الخضراء حين أذهب للجـامعة وكـانت فى هـذا الشـارع لطشـة من بـاريس لأنه شق أيـام اسماعيل حين كـان يحلم أن تصبح مصر قطعة من أوروبـا. وقد أقيمت فى هـذه الشـوارع البـواكى على غـرار شـارع ريفولى فى بـاريس، ولكنـه تميـز بطـولـه واستقامته، وأنـه يربط القلعة بقلب القـاهرة. وكانوا يسمون ميدان العتبة لأنك تصعد نحو الجبل أو تنزل مـن القلعة إلى الميدان، سرة مصر. ولم يجتمع فى شارع بالقاهرة مثل هذا المشهد، ففى قمته العالية يقوم مسجد السلطان حسن، وهو آية

فى المعمار المملـوكى، ويفضلــه المصلــون فى الصيف لطـراوة الجو بسبب الموقع المرتفـع. وفى وسط شارع محمد على ميدان باب الخلق تقع فيه أقدم مكتبة هى دار الكتب، وأقيمت فى مطلع القـرن. وتحت أقدام الشــارع من ناحيــة الميدان يـوجد المسرح القومى الـذى كان يطل على حـديقة الأزبكية، ولم يجتمع فى شـارع واحد مسـجد ومكتبــة ومسرح ليكتمل هذا المثلث الذهبى من منتصف القـرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين. ولكننى شغفت بالبحث عن مزيد من التفاصيل، وبحثت عن أسباب انتشار محلات بيع الآلات الموسيقية فى هـذا الشارع بالذات. واكتشفت أن السبب أن حارة بأكملهـا كانت تسمى «حارة العـوالم» يسكن فيها المغنون والـراقصات لزوم الأفــراح والموالد. وقد تبقى بــالشارع بعض محلات الزنكوغـراف لأن شارع محمد على كان فى بـداية القرن والربــع الأول منه شارع الصحافة والصحف. والغريب أن زقاقا قديما لايزال يحفظ اسم المدابغ القديمة، ومن هنــا انتشرت محلات بيع الجلود حولها، بشـــارع تحت الربع، بـل اشتهرت منطقة القربية أو صناعة القـرب التى كانت وسيلة نقل المياه قبل ظهور المواسير الحديـدية وشركـات المياه. ولم يكن كل ذلـك صدفــة بحتة، لأن فتـافيت الماضى مازالت متنــاثرة فى هذا الشــارع العجيب. وما صعدت الشــارع إلا توقفت ألتقط أنفاســى، وتمر فى ذاكرتى روايــة «أديب» لطه حسين لأنــه وصف رحلة صــديقه الذى كان يسكن القلعة. ومانزلت إلا توقفت عند حارة العوالم، والمكتبة الخديوية أو دار الكتب ومحلات الموسيقى. ومـر فى ذاكـرتى ما كتبــه تـوفيق الحكيم حين أغواه المسرح، فكان يصاحب فرقة عكاشة، وكان فنانا غريب الأطوار لا يستهجن أن ينـزل الشـــارع وهو يلبس القبقــاب ليـدخل المسرح، ولا يأنف أن يحمل معــه بعض أكـواز الصفيح، وقـد اشتراهــا من بــائع جوال لمجـرد أن ينفعــه من بــاب الصــدقة المستترة. ولكن كل ذلـك الذهــاب والإيــاب والصعود والهبـوط فى ذلك الشارع لا يعادلــه أن تدخل حارة العوالم التى تـزدحم بآلات الموسيقى وملابس الرقص ومقاهى الفرق الموسيقية وهو عالم تحكمه النساء، ويتم فيه الاتفاق على إقامــة الأفراح والليــالى الملاح. وقد اختفى أكثر معــالم هذا الحى النســائى. وعند توسيع الميدان أزيلت بعض المقاهى التى كان يجلس عليهــا مندوبون عن فنانات أخريات كان تخصصهن الغريب هــو الندب والبكاء فى الجنازات. وقد ظللت عادة الندب أو البكاء حتى مطلع الأربعينات. ثم اختفت عادة فـرعونية قديمة. ولم يبق منها غير بعض الصور فى البرديات وحيطان المتاحف.

فإذا أردت أن تبحث عن المرأة فى المدينــة. وأى مدينة. عليـك أن تترك الشوارع الرئيسية لتبحث فى الشوارع الخلفية حيث عالم المرأة الخفى.

٢

اعترافات عابر طـــريق ..

لـو رأيت نفسى أنـا أمشـى فى الشـوارع لأصـابتنى الـدهشـة والعجب من طـريقتى فى المشى ، لأننى أتلكـأ وأتوقف ولا أسير فى طريقى إلى غـايتى وكثيرا ماأدفع ثمن ذلك ، لأننى أصل متأخرا ، طبعا عن موعدى لو قررت الوصول مشيا على الاقدام . وقـد يكـون السبب اننى أصبحت بهوايـة النظـر و«البحلقـة» فى كل شىء ، ولا أستطيع مقـاومة الـوقـوف ثم التوقف عنـد التفـاصيل ، فقد تغـرينى فى عمارة شاهقـة وقديمة طـريقة بناء الشرفـة ، أو طريقة وضع بـرواز فوق نافـذة ، وقد أتوقف لتقدير ارتفـاع النافذة ، أو تخيل اتساع الغرفة بـالنظر من بعيد .. وأنا على مسافة أمتـار عديدة . وقد أتوقف عند سـور حديدى قديم حول فيلـلا صامتة ، وتسير عينـاى مع حديـد السور الخارجى وطـريقة صنـاعته وصيـاغته . وقـد أتوقف عند حجم شجرة صغيرة أو كبيرة ، وأسرح بـالنظر بين جذعها وأغصانها لتخمين عمرها .

وهكـذا أصبحت لا أقـاوم تلك الهواية القـديمـة الغريبـة ، أو ذلك الفضـول البصرى ، فى قراءة البيوت أو الوجوه . وقد تبدو على بعض نظراتى من دون قصد أنها جارحـة ، ويظن من لا يعرفنى أن بها بعض الـوقاحة لانها لا تخلـو من رغبة الاقتحام ، ولكن عـذرى واعتذارى أننى أستعين بالنظـر لأقرأ البيوت والـوجوه ، وأتعلم وأتذوق ، ولعبة النظرات فى الشوارع متعة . وقد تلتقى عابرا بنظرة عابرة ، فتكتشف بنظرات ما وراء النظـرات . والنظرة أحيانا جملـة مفيدة . وقد اكتشفت بعـد مران وخبرة أن أجمل مـا فى الكون هـو الـوجه الإنسـانى .. فى المرأة والطفل والرجل . ولا فرق ، فيما أظن بين وجـه يعبر بالتجاعيد أو طلعة فتاة غضـة ناعمة فصيحـة الجمال. وقد استعنـت بالنظـرة على الألفـة ، لأننى أكـره الأقنعة فـوق الوجـوه كما أكره الأبـواب الموصدة. ولهذا أستعين بـالخيال حتى لـو رأيت بـابا موصدا أو وجهـا جامدا ، وأحيانـا حين أمر على شرفة مغلقة ، علقـت فوق حبالها بعض الثياب المبتلـة ، أتخيل حجم صاحب البيت من جلبـابه أو عـدد الصغار أو اعمارهم من حجم الملابس المنشـورة. وأروع رسـام التقط هـذه الصـورة هـو الرسـام محمود سعيـد حين رسم نفسه ، وفى خلفية الصـورة بلكونـة تطل منها سيدة تنشر ثيابا مبتلـة ، وإلى جانبها «قلة» ماء ، وفى الناحيـة الثانية من الصورة موكب من المشيعين حـول جثمان. وقد رسم الرسام المرأة من الـوجه وهى تطل ،

ورسم المشيعين من أقفيتهم . وأراد أن يرمز بذلك للحياة والموت . وحين صور الرسام الحياة رسم امرأة ممتلئة تطل من شرفتها ، وتنشر غسيل بيتها المبلول .. لأن الماء والثياب رمز الحياة والمرأة و«الخلفة» .

وقد كسبت من عادة النظرات شيئا من الألفة مع الناس والأشياء ، وعلمتني قراءة الوجوه كيف أخلع الأقنعة . وكلما نظرت إلى وجه من الوجوه تجولت فيه باحثا عن التفاصيل .. لأكتشف أن العيون وحدها لا تعبر ، فبعض الشفاه في الوجوه شفاه مؤكدة وذكية ، وبعض الشفاه غبية . وقد أثمرت جولاتي القديمة في شوارع القاهرة وأحيائها العديدة كثيرا من الألفة ، وكدت أحفظ الآن كثيرا من المواقع والبيوت والشوارع والمنحنيات . ولكن المكانين الوحيدين اللذين أحس أمامهما بالغربة هما : البنك ـ وأى بنك ـ ومحلات حلاقي السيدات . وقد تكون غربتي مع البنك انني أحس فيه دائما أنني مثل سائح مؤقت .

ولعل البنك الوحيد ـ وليس لى فيه رصيد ـ هو بنك مصر المركزى الرئيسي . ففيه أنسى شبابيك السحب والايداع والرصيد والفائدة ، وأتفرس متوقفا عند عمارة البنك الجميلة . لأنها تحفة معمارية إسلامية حين انتشرت موجة الطراز الإسلامي فى بناء العمارة الجديدة . ولم يبق وسط البلد من هذه الموجة الآن سوى معهد الموسيقى العربية . وغربتي فى البنوك لاتقل عن غربتي عن محلات حلاقى السيدات ، ويمنع الحياء مجرد النظر مع أنها تنتشر فى القاهرة .

وليس صحيحا أن المرأة العصرية وحدها هى التى تبحث عن التجميل وتصفيف الشعر وفنون الزينة . وفى مطلع هذا العام حين زرت متحف تورينو ، وبه أكبر مجموعة من الآثار الفرعونية ، قبل مجموعة متحف اللوفر وبعد مجموعة المتحف المصرى فى القاهرة ، قالت لى مديرة المتحف: إنها منذ عامين تستغرق فى دراسة كيمياء الألوان عند الفراعنة .

وأدهشتني المديرة حين قالت :إن شركة كبيرة لصناعة الألوان هى التى تنفق علي هذه الدراسة . فمازال الايطاليون يبحثون الآن فى أسرار بقاء الألوان فى النقوش والحلى وأدوات الزينة بعد الاف السنين . واختراع المرآة يعود إلى المرأة منذ قديم الزمان ، وقالت لى مديرة المتحف إن المرأة صنعت المرآة من قرص من البرونز المصقول على شكل قرص الشمس ، كما صنعتها من ألواح الكوارتز اللامع . وتألقت فى صنع مقبض المرآة من العاج والأبنوس . وحتى عادة صباغة الاظافر الطويلة بدأت من صبغة الحناء إلى الألوان المعدنية ورقائق الذهب .

وعادة تصفيف الشعر لم تكن تختلف عن فنون العصر الحديث . وقد سجلت النقوش الفرعونية كثيرا من النقوش التى تصور المرأة وهى مشغولة بعملية التجميل . وفى متحف تورينو . فى إيطاليا ، نقش لسيدة تطلى شفتيها بأحمر

الشفاه بواسطة فرشاة تبلل بها شفتيها باللون الأحمر ، وتمسك بالمرآة وعلبة أحمر الشفاة فى وقت واحد ، وكل ما يقال الآن عن فنون الكحل والبودرة كان معروفا ، وحتى معجون البودرة المجمدة كان يحفظ عند المرأة القديمة فى أوان خاصة من أخشاب الصندل المعطرة . وما يقال الآن عن قص الشعر أو اطالته أو تضفيره فى جدائل رفيعة تكشفه صور نفرتارى جميلة الجميلات. وقد يتسدل الشعر فى استرسال أو ينعقد خلف الرأس على شكل «الشينيون» أو العقدة كما نقول الآن . وعرفت مصر القديمة مصففات الشعر باسم «نشت» كما اكتشف عالم الآثار المشهور «ايمرى» مقبرة بالقرب من أهرام سقارة لكبير مصففى الشعر في عصر الأهرامات ، وكان اسمه «حتب كا». كما وصفت البرديات القديمة أسماء مصففى الشعر للملكة نفرتيتى والملكة حتشبسوت .

وكانت الملكة حتشبسوت أول من استخدمت غذاء ملكات النحل فى مركبات التجميل ، وابتكرت المرأة حينذاك أقراص العطور المجمدة ، وكانت تضع أقماع العطور فوق رأسها لتفوح منها حولها .

وهكذا يبدو أن ما نظنه جديدا فى بحث المرأة الجميلة عن التجميل والزينة ليس جديداً ، ولا جديد تحت شمس المرأة الجميلة .. أو التى تبحث عن الجمال.

٣

الأم الخالدة

أول رحلة فى حياتى كانت إلى الهند ، ثم جاءت رحلتى الثانية إلى فرنسا .

وأقمت فى الهند عاما كاملا ، ثم فى باريس ثلاثة أعوام .

وهكذا كان حبى الأول للهند ، وجاء حبى الثانى لباريس ، وظل حبى الدائم لمصر . وقد اكتشفت فى رحلتى الأولى ان اسعد سنوات العمر فى حياة الشعوب هى السنوات القليلة التى تعقب الاستقلال. فقد اكتشفت أن الجميع يحلمون بعد أن تخلصت الهند من الاحتلال وحققت الاستقلال . وكان هذا «الحلم العام» هو أجمل ما أحسست به فى رحلتى الهندية ، لأن الناس جميعا من الأغنياء أو الفقراء . البراهميين أو المنبوذين ، كانوا يحلمون جميعا ومعا بالمستقبل الجديد بعد أعوام الكفاح الطويلة والشاقة . ولم يكن أحد من الهنود بعد الاستقلال يتخيل المشاكل أو يفكر فى الواقع . وكانوا يبدون لى جميعا ، وكأنهم يعيشون «فوق الواقع» بأمتار قليلة . وكأنهم كانوا أحيانا لا يسيرون على الأرض ، ولا يدبون عليها ، بل يطيرون فوقها من نشوة «الفرح العام» بعد الاستقلال .

وفى الرحلة الأولى يفقد المسافر عادة ـ ما سميته «عذرية العين» لأن المسافر فى أول رحلة فى حياته يندهش كثيرا كلما رأى جديدا. وما رأيته في الهند كان جديدا ومدهشا، وكان ما رأيته فى رحلتى الهندية يختلف عن كل ما قرأته من قبل عن غاندى أو نهرو أو طاغور . وكانت قراءتى الشغوفة عن هذا «المثلث الذهبى» قد افادتنى وأغوتنى بالسفر ، وبدا لى غاندى روح الهند ، ونهرو عقلها وطاغور الشاعر قلبها .

ولكنى رأيت زعماء الاستقلال على الطبيعة وعن قرب . ورأيت وسمعت جواهر لال نهرو أول رئيس لوزراء الهند المستقلة . وكان اديبا قديرا ، وخطيبا جياشا . وقد نزل نهرو من طبقة البراهميين العليا . وهم يظنون فى الهندوسية ان البراهمة من طبقة الأطهار على قمة جبل الطبقات . ولكن هذا البراهمى الارستقراطى المولد أصبح زعيما شعبيا ومحبوبا فقد تأكدت ارستقراطيته الفكرية بثقافة موسوعية واسعة وتعليم عال فى كمبردج ، ومعروفة موسوعية متعمقة بتاريخ الهند والحضارات الشرقية القديمة . وأمضى تسعة أعوام ونصف العام فى سجون الاحتلال . وكتب أروع مؤلفاته فى زنازين السجون المتفرقة فى شبه القارة الهندية . وكانت أروع مؤلفاته «خطاباته» إلى ابنته

الصغيرة حينذاك «انـديرا» . وكان يلقنها فيهـا ما استخلصه من حكمـة التاريخ وفضل الحضارات القديمة العريقة على الإنسانية.

ولم تدهشنـي شعبية نهرو ، لأنه كـان قديـرا وجديـرا . ولكن دهشتي الأولى كانت لمكـان المرأة الهنديـة فى الحركة الوطنيـة ومكانتهـا أيضا . فقـد كانت أول وزيرة فى حكومة الاستقلال هى وزيرة الصحة ، ساروجيني نايدو .

وكانت الـوزيرة شـاعرة ، وكانـوا يطلقون عليهـا «بلبل الهند» . فقـد تدفقت اشعارهـا الوطنية خـلال سنوات النضال ، ولكنهـا توقفت عن الشعر بعـد تولى الوزارة . وكـانت ساروجيني نايـدو بشعرها الأبيض شـديد النعومـة ، ووجهها الحالم وقد زحفت عليه الغضون، تبدو لى امرأة ناضجة ولها تجربة . وكان نهرو أكثر منها شبابا ونشـاطا وكلاما . ولكن مكانة المرأة الآسيويـة عموما ، والهندية كما رأيت كانـت تجربة جديـدة لأن مصر لم تعرف وقتهـا سيدة تتـولى الوزارة . وتأكـد لى بعض ثمار الاستقـلال فى سيـدة أخـرى هي شقيقـة نهرو ، فيجـايـا لاكشمي ، وكانت شخصية سـاحرة. وفيجايا لاكشمى فى اللغة الهنديـة «الزهرة التى تبزغ فى قلب المحيط»، وهو اسم شديد الشاعرية . وكان فى جمالها شىء من اسمها . فقد كانت متوهجة الجمال . وكثيرا ما تخيلت ان جمال الروح حين يلتقى جمال الخلقـة يخلق جمالا ثـالثـا . وحين يلتقى الجمالان فى وجـه المرأة يصبح الجمال آسرا . وقد اصبحت فيجـايا لاكشمي أول سفيرة للهنـد فى الأمم المتحدة ، ثم أول سفيرة فى مـوسكو . وكشف لى مـوقع «السفيرة» و«الوزيـرة» عن مكانـة المرأة بعد استقلال الهند مع فجر الحرية .

وأغوتنى رحلة الهنـد بدراسة دور المرأة وقادتنى كتـابات نهرو إلى اكتشاف العمارة والنحت ، وبـلاغة الصورة فى رسـوم ونحت الفن الهندى القـديم . وكنت أهجر دلهى الجديدة ، وهى «المدينة الحديثة» التى انشأها الانجليز أيام الاحتلال لتكـون العاصمـة الجديدة . وتبعـد مسيرة ساعتين عن دلهى القـديمة . وكـانت دلهى الجديدة على الطراز نفسه الذى تحقق فى القـاهرة فى «جاردن ستى» ، وفيها قصر نـائب الملك والبرلمان ومبنى الاذاعة ودواويـن الحكومـة. ولكنى كنت دائما اهرع إلى دلهى القديمة ، لاقرأ المبانى القديمة ، والقلعة المغولية الحمراء ، و«قطب منار» الـذى بناه الفتح الاسلامى . وكنت أتمتع بالخضرة القطينيـة التى تغسلها الأمطار الغـزيرة فى دلهى الحديثـة ، ولكن لا أشبع من جولاتى فى دلهى القـديمة ، وهى الاصل . أو لأننى شغوف برؤية البسطـاء والفقراء أو ما يسمونهم «صغار الناس» حتى اقترب من الروح الشعبية وأفهم على الطبيعة ما اقرأه فى الكتب .

ومـازال هذا المشهـد بالـذات محفورا فى ذاكـرتى البصريـة كأنه نحت قـديم لا يـزول مع السنين . ففى السـوق الشعبى فى دلهى القـديمـة تسمرت قـدمـاى

وعيناى بمشهد لا أنساه حتى الآن .

ووسط الزحام الهندى المعهود فى سوق دلهى القديمة تستمرت قدماى وعيناى على سيدة تحمل طفلها الصغير مربوطا فيها بالحبال وراء ظهرها على الطريقة الآسيوية . وحين تفرست فيها اكتشفت من ملامحها انها ليست هندية ، وانما سيدة من الصين . وقد لفت نفسها وطفلها بلحاف طرى سميك ، وكانت تسير بخطى ثقيلة . وراعنى ان تلك الأم الصينية تغطيها تماما طبقة خفيفة تكاد تكون ثابتة من الغبار الرمادى ، وقد غطى التراب الرمادى الخفيف كل ملامح وجهها ووجه طفلها ورداءها السميك معا . وبدت لى المرأة مع طلاثها الرمادى المنتظم كأنها تمثال قديم نحته فنان قديم من عصور الفنون الآسيوية القديمة . وقلت لنفسى : لابد ان هذه السيدة قطعت طريقا طويلا وهى تحمل ابنها فوق ظهرها .

وبدا لى ذلك المشهدكأنه مشهد من رواية خيالية . فقد اكتشفت بعدها أن الأم لاجئة سارت على أقدامها من حدود الصين حتى وسط الهند إلى دلهى القديمة . ولابد أن تكون من تلك الطوابير التى تدفقت على الهند بعد سقوط بكين عام ٥٠ . وقد قرأت فى الصحف عن كثير من اللاجئات اللاتى عبرن الحدود خوفا من الحرب أو اتقاء للموت وطلبا للنجاة بعيدا عن السياسة . وبقدر ما حفرت ذاكرتى البصرية عبر رحلات عديدة من صور ، لا استطيع نسيان صورة هذه الأم الشجاعة التى حملت طفلها فوق ظهرها عشرات الآلاف من الاميال سيرا على الاقدام .

ونبهتنى رحلة الهند مبكرا إلى قضية انسانية لم يصورها حتى الآن أديب أو روائى لتصوير قصة اللاجئين عبر الحدود هربا من الحروب والموت أو المظالم .

وحين كنت ازور معسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى غزة وسوريا ولبنان ، ومازال جرح اللاجئين العرب مفتوحا منذ عام ٤٨ ، كانت صورة هذه الأم الصينية تختلط بصور مئات اللاجئات وأطفالهن ، بل الآلاف زادت وأصبحت ملايين .

وقد طلبت منى مجلة تصدرها مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة مقالا يبدو انه يطبع بثمانى لغات منها العربية . وتركت الجوانب القانونية والدولية فى هذه المأساة الانسانية . لأن المفوضية ، كما تقول ، بدأت عام ٥١ لتواجه مليون مشرد ولاجىء ، وهى الآن تواجه ٢٣ مليونا من ضحايا الحرب والتفرقة والاضطهاد والتعسف . ففى كل انحاء العالم من شيلى إلى كمبوديا إلى فلسطين إلى باكستان حتى يوغوسلافيا والشيشان .. ملايين عديدة . ومازالت المآسى مستمرة . نبهتنى إليها مبكرا وفى صدر شبابى صورة تلك اللاجئة التى حملت طفلها على ظهرها مئات آلاف الأميال . رأيتها ومازالت محفورة كأنى رأيتها بالامس فقط .. فى رحلتى الأولى إلى دلهى القديمة .

٤

دمعة على خد الخلود

لم أغفر لنفسى ذلك الخطأ، واعتبرته نوعا من طيش الشباب.

فقد أقمت عاما كاملا فى دلهى الجديدة، ولم أزر مدينة «أجرا» ولم أشهد «تاج محل» إحدى عجائب الدنيا السبع، مع ان مدينة أجرا، حيث تاج محل، لا تبعد عن دلهى العاصمة سوى بضع ساعات، ويكفى نهار واحد للذهاب والعودة.

وبعد ١٧ عاما عدت إلى دلهى للمرة الثانية، وهذه المرة صممت علي زيارة «تاج محل» مهما كان الثمن. ومهما قيل إن الزيارة لم تكن تسمح أو أن الوقت لم يكن يكفى، حين زار الرئيس عبد الناصر دلهى عام ١٩٦٦ ليلتقي لأول مرة بأنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند، وكان هذا اللقاء الثلاثى بين عبد الناصر وانديرا وتيتو لقاء سياسيا، وكنت فى الرحلة مندوبا عن «الهلال والمصور»، وتهيبت أن أقترح زيارة سياحية إلى البرنامج السياسى المشحون. ولدهشتى كان أكثر المتحمسين لزيارة «تاج محل» هو محمود رياض وزير الخارجية، ولم أكن قد اقتربت منه لأكتشف انه عاشق بلا حذر.. للعمارة والأشجار والزهور.

وأخيرا، كان لابد مما ليس منه بد، وحتى لو كانت الزيارة خلسة على هامش الرحلة السياسية. فقد كنت أكثر سعادة وانتعاشا لأننى نجوت من الندم لو كنت كررت الخطأ مرتين، ولم أشهد «تاج محل»، وحتى لا أصبح فى النهاية كمن زار مصر.. واستغنى عن الأهرام.

وحين وصلت «تاج محل» إحدى عجائب الدنيا السبع، كنت أكثر غبطة وتيقظا، لأننى أمضيت عاما فى الهند، وما كنت أراه من جديد كان يعيد بعض ما رأيت من قبل فى صدر الشباب فقد كانت زيارتى الهندية الأولى رحلة فى الألوان.

فاللون فى الهند مثل الحرارة ملتهب. والرسامون فى العالم يطلقون على بعض الألوان وصف «الهندى» حين يكون الأحمر شديدا متمكنا، أو حين يكون الأصفر دافئا ويوشك على الاحتراق من دون أن يحترق، ويسمونه بلغة الرسامين «الأوكر». كما يطلق الرسامون على شريحة من اللون الأزرق البروسى (نسبة إلى بروسيا) حين يكون الأزرق غامقا ورصينا. ويطلقون على شريحة الطيف «الأزرق البندقى» (نسبة إلى البندقية) حين يكون الأزرق صافيا وحالما،

فهم يطلقون الوصف على كل الألوان الصريحة الدافئة التى توشك على الالتهاب .

ومن يعيش فى الهند لابد أن يرى ويدرك ويحس أيضا أن الخضرة فيها من نوع آخر ، لأن الأمطار الموسمية تبلل الأشجار ثم تغسلها ثم تغرقها حتى تمد جذورها بالعافية ، فيصبح الأخضر فيها كالقطيفة ، ناعما فى الملمس ، راسخا فى اللون . وليس غريبا أن يلاعب اللون العيون الهندية ، من الثوب الهفهاف إلى الجواهر المتلألئة . ولا فرق بين وشى الثياب أو تلألؤ المجوهرات فى التيجان .

وليس غريبا كذلك أن يكون عيد الربيع ، حين ينطلق كل شيء فى كل شيء ، من النبات إلى الحيوان والإنسان ، فإذا بالشباب يتعابثون بتقاذف الألوان الماجنة الصارخة على الثياب البيضاء طوال نهار العيد ، حتى يأتى المساء.

ولكن زيارة «تاج محل» هذا الصرح المغولى الاسلامى المذهل ، لم تكن اكتشافا لأسرار عالم الألوان فقط ، لأن تاج محل صبت فيه كل الفنون المغولية الإسلامية فى عهد الامبراطور شاه جهان . وكانت الامبراطورية قد بلغت أوجها فى عهد خامس الاباطرة وامتد حكمه ثلاثين عاما من الازدهار .

وكان الامبراطور لايستطيع فراق زوجته التى أحبها ، فكان يصحبها حتى فى غزواته العسكرية . وكانت «ممتاز محل» جميلة كما ترسمها لوحات عصرها ، شديدة الذكاء . تأنس للموسيقى وتقرض الشعر بالفارسية . وامتلأ البلاط الملكى بالرسامين والعلماء والمؤرخين والمهندسين والفنانين والخطاطين . وتربى «شاه جهان» نفسه فى بلاط جده الامبراطور «أكبر» وكان الحفيد الأقرب إلى قلب جده وإذ تولى الحكم بعد والده «جهانكيز» (١٦٠٥ ــ ١٦٢٨ م) بلغت الفنون المغولية فى الشعر والموسيقى والعمارة والأقمشة والسجاجيد قمة الابداع والتفنن.

ولكن الزوجة المحبوبة «ممتاز محل» تموت أثناء انجاب ابنهما الرابع عشر ، فيعتكف الامبراطور شهورا فى قصره ، لايصدق الفجيعة ، حتى يقرر أن يبنى لزوجته «مشهدا وحديقة ومسجدا» على نهر «يامانكا» فيشترى أرضها من أحد الراجوات ويستغرق بناء «تاج محل» ٢٠ عاما ، يعمل فيه ٢٠ ألف فنان ونقاش ومهندس ، ويكلف على أقوال مؤرخى عصره ٤٦٦ كيلو جراما من الذهب .

وكان «شاه جهان» يشرف بنفسه على الرسوم والخطوط ، وجمع فى تاج محل كل فنانى عصره . وإلى جانب الذوق كان شوق الزوج الوفى الذى أراد أن يجعل «تاج محل» قمة الفنون .

ومنذ عهد «بابور» و«همايون» و«أكبر» . اشتهر الرسامون عبدالصمد وأبو الحسن ومير سعيد وقاسم على والاستاذ منصور ، وقفز الخط العربى

والفارسي إلى قمة النقاء . وكان الخطاط عبدالحق يقول :إن نقاء الخطوط من نقاء الأرواح . ولم يعترف النحاتون بصلابة الرخام والجرانيت وقالوا إنه لابد أن يلين الرخام في يد النحات ليونة الشمع . وكانت حين تصفو الأرواح تستطيع رؤية الصوت وسماع اللون في الحجارة . ولولا ظهور الشعر الصوفي والحب العذرى لما بلغت الفنون مثل هذه الرقة والشفافية .

وحتى لو قيل إن شدة الحر في الهند هي التي تدفع إلى صنع الثياب الهفهافة ، فقد بالغ الفنانون في أن يصبح الثوب الحريرى مثل الهواء . وإذا كان بعض صناع تلك الثياب يفخرون في العصر الفاطمي بالقاهرة برقة الثياب ، ويراهنون أنهم يستطيعون ادخال عباءة بأكملها أو ثوب بأكمله من ثقب خاتم صغير . فقد روى مؤرخ الامبراطور «أكبر» ، عبدالحق ، ووزيره أيضا ، ان الامبراطور غضب على ابنته المفضلة لانها بدت شبه عارية في البلاط ، ولم يقبل عذرها إلا بعد أن عرضت عليه ثوبها ، وقالت انها لفته حول جسمها سبع مرات . ولكن الثوب كان هفهافا ناعما جعلها تبدو عارية من دون أن تقصد .

وقد اجتمعت كل هذه الفنون في «تاج محل» وابتكر «شاد جهان» نفسه فكرة إقامة «تاج محل» من الرخام الأبيض قائلا بمزاجه الفنان : «حتى يصبح التاج مثل المرآة ، ينعكس عليها الضوء عند الفجر والصباح والظهيرة والضحى والمساء .. إلى ضوء القمر» .

وحكى «تاج محل» قصة حبه ووفائه ، فأصبحت خالدة ، وأصبح «تاج محل» كما قال طاغور الشاعر حين رآه بعد أكثر من ثلاثمائة عام : «إن «تاج محل» يشبه الدمعة .. على خد الخلود» .

٥

ابنـــة الـزعيـم

أول انطباع يفاجئك فى الهند سماؤها.

والسماء الهنـديـة تختلف عن كل سماء، لأن السماء فى أوروبا مثقلة بالسحاب ومتخمة بـالضباب، وتحس أنها قـريبة من الأرض، والسماء عنـدنا وسط بين الارتفـاع عن الأرض والقرب منهـا. ولون السماء عندنـا صفاء فى صفاء. كأن الزرقة معجونـة بلون الياسمين. ولكن سماء الهند أعلى وأعرض وأوسع. كأنها أعلى سقف فى العالم.

وقـد عشت فى الهنـد: مـا بعـد استقـلالها، ورأيت نهرو. ثم عـدت إلى الهنـد عام١٩٦٦ لألتقى بابنته انديرا غـاندى، وقد أصبحت رئيسة للوزارة، وأصبحت أقـوى امرأة فى السيـاسـة، وكـانت قد سبقت فى السيـاسـة السيـدة الحديديـة البريطانية مارجـريت تاتشر. والسيدة المخملية الباكستانية بنازيـر بوتو. وكان لقائى مع أنديرا غاندى فى مكتبها بـرئاسة الوزارة. وبدت خصلتها البيضاء تطل من يمين رأسها ولفتتنى البسـاطة الشديدة فى مكتبهـا. فلم يكن عليه ورق كثير. ولم أشم فى مكتبهـا عطـر المرأة. لكنى توقفـت بعينى على الوردة الـوحيـدة التى وضعتها بعنـاية فى زهرية أنيقـة فوق مكتبها، وأدركت أنها تفضل رائحـة الورد الطبيعية على العطور النسـائية، وبقدر ما أحسست أنها رقيقة إلى حد الشـاعرية أدركت أنها حديدية الإرادة.

وتسمرت عيناى على الوردة الوحيدة فوق مكتبها، فقد ذكرتنى بالوردة التى كـان يضعها أبـوهـا جواهـر لال نهرو قبل عشرين عـاما. حين كـان أول رئيس لحكومة الهند بعد الاستقلال، يضعها فى ثـوبه الهندى، وكان نهرو حريصا دائما أن يختار برعما لم يتفتح بعد، وحريصا أن يبدل وردته كل صباح.

ولا أظن أن أبـا أثر فى حيـاة ابنتـه كما فعل جواهـر لال نهرو فى ابنتـه انديـرا غـاندى. وقـد ألف نهرو ــ عام ١٩٣٤ ــ كتـابا اشتهـر بين المثقفين فى مصر فى الخمسينات، وكـان عنوانه : «رسـائل من أب إلى ابنته» أو «نظرات جـول العالم». وكانت هـذه الرسائل هى التى يـرسلها نهرو إلى ابنته من السجن أيـام الاحتلال البريطـانى للهنـد. وقـد سجن نهرو تسـع مـرات، ومن هـذه السجـون تـدفق بالمشاعـر والأفكار والنصائح إلى ابنته. وكان يقصـد مخاطبة الجيل الجديد من الصغـار. وتحدث نهرو عن الحضـارات القـديمة والنظم الحديثـة والأدب والفن،

ونشر هذا الكتاب الفكرى والأدبى، ولخصــه فى مصر الصديق أحمد بهاء الدين فى بداية الخمسينات، ثم نشرته مطابع لبنان بعد ذلك كاملا .

وقد انجـذب جيلنا إلى الشرق كما انجذب الجيـل الذى سبقنا إلى الغـرب (وقد يكون هذا هو السبب فى أن تكون رحلتى الأولى إلى الهند قبل أن أذهب إلى فرنسا). وقد تفتح جيلنا على الهنـد لأن شوقى أمير الشعراء له قصيـدة رائعة عن المهاتما غـاندى حين مـر فى طريقـه إلى لندن، ومنعتـه سلطات الاحتـلال البريطانيـة من النزول فى بورسعيـد خشية المظاهرات. ولحافظ ابراهيم أيضا قصيـدة ثانية عن غانـدى، وللعقاد قصيـدة ثالثة، فقـد كانت مصر والهنـد معا تعـانيان من نفس الاحتـلال، وانعقدت مشـاعر الـود والتضامن بين حـزب المؤتمر الهندى الـذى يطالب باستقلال الهند وحزب الوفد الذى يطالب باستقلال مصر.

وقد نشأت أنـديرا التى كان نهرو يسميها «أنـدو» فى عائلة سياسيـة جدا عن أب، لأن جدهـا موتيـلال كان محاميـا شهيرا ومن زعماء حـزب الحركة الـوطنية واتبـاع المهاتما، وقـد تـرأس حـزب المؤتمر، وانحدرت عـائلـة نهرو من كشمير لتسكن «الله اباد» قلب الهند الذى يحتشد فيها الهندوس والمسلمون والمنبوذون، وتجمع الكل للمطالبة بالاستقلال.. أو «انقلاب زند آباد» أى «تحيا الحرية»..

واشـتركت امها «كمالا» أيضـا فى حـركة «الساتياجراها» التي قـادها غاندى. ولكن «كمالا» بعد سـجنهـا مع زوجها داهمهـا المرض وماتت شـابـة، ولم يتزوج نهرو بعدها. وأصبح «اندو» الصغيرة سيدة البيت بعد وفاة أمها المفاجئة.

وقـد نشرت أخيرا سونيـا غانـدى الايطـالية الأصل، والتى تـزوجت راجيف غاندى، مجموعـة جديدة من الخطابات التى تبادلتها «انـدو» مع «بابو» أوالابنة مع الأب، ما بين عامى ٢٢ و ٣٩، أيـام ذهبت الصغيرة لطلب العلم فى لندن، ويمكن تسمية هذه الخطـابات بالخطابـات «المجهولة»، لأنها لم تترجم بعـد إلى العربية، ولأنها نشرت بعيد رحيل الأب والابنة معا.

والجديد فى هذه الخطابات أنها تشبه الحوار على الورق، وهى تمتلىء بمشاعر الصبية الصغيرة وأفكار الشابة المتفتحـة، وخطابها الأول وهى طفلة فى السابعة باللغـة الهندية، وخطابـاتها الأخيرة بالانجليزية. وتكتشف فيهـا أن الابنة والأب كانا يستخدمان بعض العبارات الفرنسية. وهى خطابات عاطفية رقيقة، وفكرية راقيـة، وبعض خطابـات نهرو كانت مـن السجن أيضـا، ويصف فيهـا مشـاعـر السجين، وتحس أن الأب والابنـة يتبادلان النظـر على البعـد بين لنـدن وزنزانـة السجن فى الهند، وهما يتبـادلان النصيحة والتشجيع، لأن أنـديرا كـانت ضعيفة الجسـد قليلـة الـوزن. وكـان الأب لاينسـى الحديث عن ثيـابها وفصل الشتـاء.

وتكتشف أن الصغيرة وهى فى السابعة حضرت مظاهرة لإحراق الثياب المستوردة حين دعا غاندى لمقاطعة البضائع البريطانية، ودعا الهنود أن يعتمدوا على المغازل اليدوية، وتكتشف من هذه الخطابات نصائح الوالد لابنته حين بدأت غيوم الحرب العالمية فى أوروبا عام ١٩٣٩، وكيف قررت السفر إلى مصر، وقد طمأنها إلى مساعدة النحاس باشا زعيم الوفد حينذاك، ثم تكتشف أيضا أن هذه الفتاة العاقلة كانت شغوفة بالقراءة والاطلاع والتحليل.

وقد نشرت سونيا غاندى قائمة الكتب التى قرأتها فى لندن وسويسرا بالانجليزية والفرنسية. والمفاجأة أنها قرأت «الأيام» لطه حسين بالانجليزية. وأجمل خطابات نهرو وأطولها حين بلغ الخمسين، وهو لا يخفى أنه يحس بمرور العمر، و«أندو» تعزيه أو تشجعه لأن فى الخمسين تبدأ الأحلام.

وقد كتب نهرو هذا الخطاب من الزنزانة رقم ٦ فى سجن نايني، ويقول لها إنه لايحب المواعظ، ويشجعها قائلا: لقد كنت معجبة بجان دارك. وعلينا أن ندافع عن شرف الهند، والشرف هو الاستقلال. وينصحها فى طريق العودة أن تتجنب عبور البحر الأبيض لأنه يمتلىء بالأساطيل والغواصات، ولهذا قررت «أندو» العودة إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح.

وعادت «أندو» أو انديرا لتدخل السجن أيضا. وكانت تلك السنوات هى سنوات الكفاح، جدا وابنا وحفيدة، لأن الكفاح عادة يستغرق أجيالا بعد أجيال.

٦

آخــر المهــراجات

كانت أنثى بيضــاء وفاتنة، عيناهــا زرقاوان واسعتان، تلمعان بالاغراء والدعوة، وتموجان بالضعف والسهولة، خصوصــا فى الدمــوع، وكانــت طريــة الأطراف فى طرب، ولكن ضعفها لم يكن سوى ستــار شفاف لايخفى رغبتها الداخليــة والقوية لكى تسيطر على كل من يقترب، خصوصا إذا كان رجلا.

وكانت تتمنى طــوال حياتها أن تصبح وسط كل شىء، مركزا.. حــولها تدور الأحداث، وفى فلكها يحوم الرجــال. وكانت تتمنى أن تصبح مثل الشمس وحولها رجال مثل زهــرة عباد الشمس، يتجهــون إليها، ويدورون حــولها، ويحيون بها، أو يموتون لو اختفت.

وكأنها تمنت أن يجتمع كل الرجال فى رجل، حتى تملكه، وأخيرا وجدته فى آخر مهــراجات الهنــد. وكان المهــراجا نفســه لأسبــاب أخرى يتمنى لــو اجتمعت كل النســاء فى امرأة حتى يكتفى. وتم اللقاء الغريب بين تلك المرأة وذلك الرجل.

وقصة هــذا اللقاء تدور فى الهنــد عام ١٩٥٠، حين كنت فى الهنــد قرأتها، لنجم الرواية الهنــدية ملك راج أناند، وقــد كشــف لى قصــة المهراجات فى الهنــد فى أيامهم الأخيرة بعد الاستقلال. وقــد مزج المؤلف فيها الحقيقة بــالخيال. ولكننى تمتعت بها، لأنها كشفت لى بعض أسرار مــا كــان يحدث أيــام المهراجــات خلف جــدران القصــور العالية والغابات الشــاسعة والحدائق الغنــاء.

فقد فــوجئت أثناء زيارتى للهنــد أن عاصمتها دلهى الجديدة مليئــة بقصــور المهراجــات السابقين، حيث كانوا يبنــون قصــورا منيعة، ومليئة بــالعز والأبهة فى العاصمة، ولايقيمــون فيها غير أيام قليلة فى السنــة. ولكن القصر كان دائما رمزا للأبهة والجاه، وكان لابــد أن يقيم كل مهراجا قصرا واحد على الأقــل فى العاصمة ليكون قريبا من قصر الحكم العام ونائب الملك. وقد لايقضى فى قصره بالعاصمة سوى أيام أوســاعات قليلة أثناء زيارتــه الرسمية، ثم يعود إلى ولايتــه.. أو يسافر أغلب الصيف فى ربوع أوروبا.

وقــد تحولت أغلب قصــور هــؤلاء المهــراجــات بعــد الاستقــلال إلى قصــور للضيافة، وتحول أحدهــا وهو قصر مهراجا «باتاودى» إلى فندق أقــاموا حديقته ملاحق لسكنى الموظفين. وأقمت فى أحد «البانجيلــوز» أو «الشــاليهات» نحو عام،

ولم أقابل فى الهند أى مهراجا، لأن أغلبهم اختفى بعد الاستقلال.

وحين قرأت قصة ملك راج أنـانـد، كشفت لى قصتـه الأيام الأخيرة فى حيـاة مهراجـا. واسمه فى القصـة «فيكى» تصغيرا لفيكتور، واسمـه الكامل «المهـراجا فيكتـور ادوارد جورج أشـوك كومـار». وقـد اختار لـه والـده المهراجـاكل تلك الأسماء قبل لقبـه تيمنـا بملـوك انجلترا أيـام عزهـا، واسـم أكبر أبـاطـرة الهنـد القدامى. ففيكتـور كان تيمنـا بالملكـة فيكتوريـا. وادوار وجوراج ملكـان فى عز صولجان بـريطانيا، أمـا أشوك فقد كـان أكبر أباطـرة الهند القديمـة. ومثل بقية المهراجات الصغار رويت له فى طفولتـه سيرة أجداده من أمراء القرون الوسطى. وكانـوا فرسانـا ولهم غزوات وجولات. لكنه ارتـوى أيضا فى طفولتـه وصباه من قصص الحشم والخدم ببذاءات القصص الجنسية الجريئة والبذيئة.

وفى عام ١٩٥٠ بعد الاستقـلال لم يعد للمهراجات أى دور سيـاسى فى الهند الجديدة.. لا فروسية ولا غزوات. وتركتهم الحكومة فى مواقعهم، ولم تعد أمامهم من المغامرات سوى المغامرات النسـائية. ويروى طبيبه أن المهراجا الصغير كان يخرج من قصره بحثا عن المرأة. وكان يخرج ملتهبـا ويعود محموما ولايستطيع شيئا. فلم تكن تلك المغـامرات الطائشـة مجرد طيش شباب فقط، ولكنهـا كانت فرارا من شىء. وكان المهراجا يشتد غيظه كلما لاحظ أن الحكومة المركزية تركته فى منصبه، ولكنهـا أمرت بتقليل عـدد المدافع التى كانت تطلق لـه فى ذهابـه وعند إيابه. وقد أخذ العدد فى التنـاقص تدريجيا من دون تفسير. وبعد أن كانت إحدى عشرة طلقة تطلق له فى الذهاب والإياب أصبح العدد سبعا.

وبدأت طلقات المدافع تنقص، وغضبه يـزداد، وهو لايستطيع أن يفعل شيئا. وكان يظن أنه يستطيع أن يستعيـد كرامته فى غزواته النسائيـة الطائشة. وفى هذا العام بالـذات بدأت الحكومة المركزيـة فى دلهى تتدخل فى شئون حكومـة الولاية شأنها شأن كل الولايات التى لم تتحد بعد فى «اتحاد عموم الهند».

ولأول مرة تجرؤ الشرطة على دخول القصر. ولايعرف أحد كيف استطاع والد الفتاة التى اعتدى عليها المهراجا من الدخول.

والوالد يقتحم غرفة المهراجا متوعدا مهددا.

و«فيكى» يقفـز من سريره كـالنمر. عيناه جـاحظتان، وفم يطفح بـالغضب. يريد أن ينقض على الرجل الذى اقتحم قصره، ويتدخل الحشم وضبـاط القصر.

والمهراجـا غاضب، ويزيد من غضبـه أنه سـاخط على نفسه أكثـر من سخطه على الرجل.

ولا تنتهى الفضيحة بهذا المشهد..

فلابد أن الحكومة المركزية دست بعض موظفيها وعملائها داخل القصر.

فكيف يدخل الرجل عليه من دون إذن ؟

ويفكر فى الاتصال بالحكومة المركزية، ولكن كيف يشكو لها، والعلاقة متوترة بينهما وعدد المدافع يستمر فى النقصان. ويصيح المهراجا فى أيامه الأخيرة فى وجه طبيبه الذى يتعهده كلما اشتدت به الأزمة :

أنا فأر فى مصيدة .

ويلجأ الطبيب إلى حيلته القديمة، فيزيد كمية الماء فى كئوس «الويسكى» حتى يستطيع المهراجا أن ينام.

وينام الجميع عدا الطبيب وتلك المرأة التى تسكن القصر وكأنها تملكه، لأنها ملكت على المهراجا كل نفسه. ومع أنها مجرد عشيقة فهم ينادونها بصاحبة السمو. وهى تحضر الحفلات كأنها زوجته تماما منذ أبعد زوجته قبل زمن فى قصر بعيد آخر فى الولاية واكتفى باقطاعها بعض المخصصات ولم يعد يراها منذ سنوات .

وتثير العشيقة أزمة، لا بسبب تلك الفتاة الطارئة فى حياة المهراجا، ولكن بسبب زوجته المبعدة.

إنها تطالبه أن يعترف بها زوجة، وبولدها وليا للعهد .

ويروى الطبيب أن القصر يشبه الغابة. ولايدرى إن كان السبب هو تلك الصالات المليئة بجلود النمور التى اصطادها المهراجا وأصدقاؤه، أم بسبب مؤامرات هذه السيدة العجيبة .

لقد كانت ضعيفة ومتكبرة وهوجاء. وكانت شديدة الجمال والدهاء.

ووقع فيكى فى حبها منذ سنوات. وأطلق عليها «زهرة عباد الشمس».

وكانت السيدة تصف نجمة سينمائية، وكادت تلمع لو لم تكن قليلة الصبر على الجهد، وكانت شديدة الإخلاص ليوم واحد. وكانت تريد أن توقع الرجال ولا تقع، ولهذا فضلت أن تصبح عشيقة للمهراجا وأبعدت زوجته لتحتل مكانها.

ومما زاد الهوان على المهراجا أن مغامراته أصبحت تنتهى بفضيحة، وهذا لايرضى أحدا ،لا زوجته ولا عشيقته .

وجاء صوت العقل من الطيب، واقترح عليه أن يقوم برحلة إلى العاصمة، حتى يقابل وزير الولايات، ويسوى معه خلافاته، بدلا من أن يستسلم لهذا الفرار المستمر من المجهول، ومن الغضب إلى السلوى بالمجون. ويا ليته لم ينصحه .

فلا يكاد المهراجا يصل إلى العاصمة، ويحجز جناحا فى فندق «امبريال» أكبر فنادق دلهى، ولاتكاد الحاشية تتأكد أنه لايوجد أى مهراجا آخر فى الفندق،

ليحظى سيـدهم بـالاحترام المناسب والخدمـة الـلائقة، حتـى تبدأ الاتصــالات بسكرتارية الوزير تليفونيا ثم برسول خاص ثم الطبيب نفسه.

ويضطر المهـراجا إلى الذهاب بنفســه ليطلب موعد المقابلـة، ولكن السكرتير يكتفى بأن يطلب منه أن يبقى فى الفندق فى انتظار تحديد أقرب موعد.

ويعود المهراجـا ثائرا غاضبا. وتمر ثـلاثة أيام من دون موعـد، وبعدها يأتى الفرج فى النهاية. فإذا به كارثة.

لقد أمـر السيد الـوزير أن يترك المهـراجا مذكـرة بمطالبـه عند أحـد موظفى الديوان.

ويعـود المهراجـا إلى الـولاية فى ركبـه وهـو يتمنى أن يحملوه على محفـة على الأعناق.. كجرحى القتال. ويعـود فى ركبه المعتاد وسيارته وخدمـه وسكرتاريته، ولاتطلق هذه المرة أية مدافع على الإطلاق، ويغلق المهراجا على نفسه الأبواب.

ويستطيع أن يقـاوم تـوسـلات عشيقتـه وطبيبـه، وبقيـة الخدم والحشم، ويتلصصـون عليه، فيجدونه معافى، يدور فى غرفته كالفأر فى مصيدة، ويطمئنون أنه ليس طريح الفراش على أية حال.

وتصحـو الـولاية كلها على خبر مزعـج.. فقد خرج المهراجـا ولايعرف الحرس كيف أفلت سيدهم فى جنح الليل. ولايعرف أحد السبب الذى جعله يقتل أول عابر طريق.. يراه فى طريقه.

وتنتهى قصة آخـر المهراجات مـن المجون إلى الجنون. أو هكـذا تنتهى قصة «عباد الشمس» أو آخر مهراجا فى الهند بعد الاستقلال كما كتبها «ملك راج أناند» أعظم روائى فى الهند، ولا يزال حيا حتى الآن، وقد بلغ تسعين عاما أو يزيد.

٧

أجسام غبية ..
وأجسام ذكية

علمتنى صحبة الشعراء الغواية، وكنت أظن أن أعذب الشعر أكذبة، ولكنى اكتشفت بعد صحبة الشعراء أن أعذب الشعر أصدقه. فالشعر هو خلاصة الفن، وفن الخلاصة. وكما تعلمت من صحبة الشعراء فن الخلاصة، تعلمت من صحبة الرسامين أن الفن ألحان. ففى اللون موسيقى. وكما ترى اللون قد تسمعه، فالأذن قد ترى كما تسمع، والعين قد تسمع كما ترى. ولا يختلف سلم اللون عن سلم اللحن وحتى العمارة لابد فيها من الموسيقى، لأن العمارة الجميلة تصبح معزوفة من الاحجار والألوان.

وتداخل الفنون السمعية والبصرية ضرورة فى كل فن جميل والثقافة البصرية لا تقل أهمية عن الثقافة السمعية. وإدراك المكان، والذاكرة البصرية، والإحساس بالحجم والشكل والمسافة ثقافة بصرية ضرورية لتذوق الفنون. وعالم الألوان عالم سحرى، لأن القطط وحدها هى التى ترى الأشكال والأشياء بغير ألوان، وتراها فقط بالأبيض والأسود. وقد يساعدها ذلك «التلخيص» على النظرة الثاقبة فى الليل. وليست القطط فى حاجة إلى الألوان، ولكن عينى الإنسان تتعودان وتتدربان على الألوان منذ الصغر.

وقد يفرح الطفل بالألوان البسيطة، كالأحمر الصارخ، أو الأخضر الصريح، أو الأصفر «الملعلع». ولكن الألوان درجات، وسلم الألوان مثل سلم الألحان، فالأزرق درجات قد تنخفض أو ترتفع، لأن اللون موجات. وزرقة السماء أصفى من زرقة البحر. واللطف فى الأحمر الشفاف غير العنف فى الأحمر القانى.

وقد ابتكر الرسامون تعبيرا معبرا يسمونه «زواج الألوان» حين يتفق الأخضر مع الأحمر، أو الأصفر مع البنفسجى. وقد يكون الاتفاق كاملا ومتدرجا فى درجة اللون وقد يكون تناقضا وتنافرا بين لونين. ولذلك تلجأ السمراء إلى لبس اللون الأحمر، والبيضاء إلى الأسود المعتم أو الأزرق الغامق. والشقراء إلى ثوب بنفسجى. وقد أشرت منذ سنين إلى «محو أمية العين» لأن الثقافة البصرية لا تقل أهمية عن الثقافة السمعية. وحين تكتمل الثقافتان يكتمل الإحساس بالإيقاع والتناسب والتوافق. والذاكرة البصرية، والإحساس بالمكان، والموقع، وإدراك المسافة، والشكل والحجم، يساعد على تذوق الفنون المختلفة. ويعين على إدارك

العلاقة بين السمع والبصر .

وحتى العمارة التى تحتاج إلى الهندسة لا يكتمل فيها الجمال إلا إذا توافرت فيها الموسيقى، لأن العمارة الجميلة تصبح معزوفة من الأحجار والألوان. والمهندس يعلن الحرب على الفراغ ليقيم العمارة. ولكن العمارة الجميلة ليست ملئا للفراغ فقط، ولا يكتمل الجمال فى المبانى إلا بالموسيقى والتناغم والتناسب بين الأحجار والمساحات، ثم التناسق بين الفراغ والكتلة ، ثم التوازن بين الطول والعرض، وهذه هى الموسيقى فى العمارة .

وليس مثل المسرح فن تجتمع فيه كل فنون السمع والبصر، والكلمة والصورة، والأذن والعين. ففى المسرح أقدم لقاء تاريخى بين كل الفنون البصرية والسمعية. وقد أمضيت هذا الأسبوع عشرة أيام فى لجنة التحكيم فى مهرجان المسرح التجريبى فى القاهرة، وشاهدت سعيدا ومضطرا ٣٧ عرضا مسرحيا شاركت فيها ٣٦ دولة. وكان برنامجى مرهقا، ثم ممتعا، رغم أننى كنت أشاهد أربع أو خمس مسرحيات من الظهر حتى منتصف الليل.

وكنت أضطر أحيانا مع لجنة التحكيم للأنتقال بين قارات ثلاث فى ليلة واحدة.. من اليابان إلى البحرين، ومن قازاقستان إلى أوكرانيا أو المجر وسوريا إلى تنزانيا، ومن لبنان إلى مصر، ثم إيطاليا واليونان وبريطانيا وأمريكا. فرق عديدة متنوعة توزعت بين ١٦ مسرحا فى القاهرة. وفى صحبة لجنة التحكيم، وفيها ألمانى وبريطاني واسبانى وفنزويلى وبولندى وكاميرونى وتونسى ومصرى من خبراء المسرح ومخرجيه.

علمتنى الصحبة صبرا على الخلاف. ثم شيئا من فضيلة الحوار. لأن مثل هذا المهرجان لقاء بين الثقافات، وكل مسرح يعكس التقاليد العميقة ويكشف دور الكلمة فى كل ثقافة. والقدرة على التعبير بالصورة والألوان والموسيقى والايقاع. وقد يكون هذا الانجاز الأول والأهم لمثل هذه اللقاءات فليس من حق ثقافة واحدة أو حضارة واحدة أن تزعم انها تمثل وحدها الحضارة الإنسانية كلها، لأن العالم تتعدد فيه الثقافات والحضارات، والمسرح يكشف بالذات عن هذا التنوع والثراء .

وقد عشت فى باريس، فى الخمسينات ،أيام الممثل المخرج الذى أعلن العصيان على المسرح الأوروبى التقليدى الموروث من الاغريق والرومان وعصر النهضة. ودعا إلى انتقال المسرح إلى الجمهور، وقام بإخراج المسرحيات العريقة فى الهواء الطلق بين بقايا وأطلال المسرح الرومانى الذى تبقى فى فرنسا منذ عهد الرومان.. وفى الساحة الواسعة أمام كاتدرائية نوتردام الضخمة، أو على ضفاف نهر السين. وانتبه المخرجون والممثلون إلى فنون التعبير بالنظرة والحركة واللفتة

والايماءة. لأن المسرح هو الفن الوحيد الذى يمكن التعبير فيه بالصمت أيضا. واكتشف الأوروبيون تراثا مسرحيا فى بلاد بعيدة وحضارات أخرى. فى اليابان والصين والهند. ثم اكتشفوا روائع الايقاع فى الرقص الافريقى وموسيقى أمريكا اللاتينية، وجموح الخيال الرائع فى الحكايات والأساطير والسير التى تناوقلتها شعوب الشرق الأوسط. وسقط احتكار المسرح الأوروبى للمسرح العالمى بحثا عن الجديد فى البعيد. ولم يعد البعيد بعيدا بالتقاء المسارح فى حركة التجريب بحثا عن الجديد.

ومع أننا من عشاق الكلام لأسباب تاريخية واجتماعية، لكن التعبير فى المسرح التجريبى مغامرة تستحق الاهتمام. لأن النظرة فى المسرح جملة مفيدة، والحركة ايقاع الانفعالى، والجسد يمكن أن يعبر ببلاغة عند الممثل القدير أو الراقص المشجون.

وفى ظنى أن الذكاء لا يشع من الرأس فقط، ولكن هناك أيضا «أجسادا غبية وأجسادا ذكية». وبعض الأجساد متأججة مضيئة، وبعضها منطفىء، وبعض الوجوه فصيحة الجمال وبعضها قناع منسدل. وحين يكتمل الجمال فى المرأة تدرك أهمية الايقاع بين الجسد والروح، وبين النظرة والقناع. وحين يكتمل الجمال فى المرأة تقلل اعتمادها على أدوات الزينة والماكياج، لأن النظرة واللفتة والحركة تكشف ما وراء القناع. وقراءة الجمال تحتاج إلى ثقافة بصرية وسمعية معا، لأن الجمال رسالة عبر السمع والبصر. والعين، كما ترى قد تسمع أيضا ألحان الجمال.

٨

حريم زمان

بعض المشاهير ينالون شهرتهم عن جدارة، وبعضهم فضوليون يسعون إلى الشهرة من أجل لفت الانظار فقط، ولذلك يحاولون لصق اسمائهم بنجوم الأدب والفن والسياسة. ويطلق على هذا النوع الفضولى انه «مشهور بمشاهيره» ولكن هذه السيدة اشتهرت فى العالم عن استحقاق، لأنها أكبر عالمة آثار معاصرة فى العالم. وقد اشتهرت منذ ثلاثين عاما عند انقاذ آثار النوبة ومعبد أبو سنبل وتماثيل نفرتارى وزوجها من الغرق لارتفاع المياه بعد بناء السد العالى. واشتهرت بعد ذلك بأعوام، لأنها عرضت آثار توت عنخ آمون الذهبية الرائعة فى باريس، وكتبت أشهر كتاب عن توت عنخ آمون ترجم إلى ١٥ لغة غير الفرنسية لغة الكتاب الأصلية.

وكانت كريتيان نوبلكور تنتقل خلال الستينات من باريس إلى القاهرة، وكنا نراها فى القاهرة فى الحفلات الانيقة ثم تختفى، لأن محل اقامتها الدائم فى وادى الملوك ووادى الملكات بين آثار النوبة والأقصر التى تحفظها عن ظهر قلب. ولأن كرستيان نوبلكور عالمة وعاشقة متيمة فقد كتبت ٢٥ كتابا عن مصر الفرعونية. وبدأت منذ خمسين عاما بكتابها الأول عن الجناح المصرى فى متحف اللوفر حين كانت أمينة هذا الجناح. وأصبحت نوبلكور أول سيدة فى مجلس إدارة هيئة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى المنيرة، وعمره الآن يتعدى المائة عام، وكذلك أصبحت المرأة الوحيدة العضو فى الأكاديمية الفرنسية قسم الآثار القديمة، وهى أكبر وأعرق أكاديمية علمية نشأت منذ أيام بونابرت. وكريستيان نوبلكور مازالت تكتب الآن وتنشر، وبعض كتبها يعاد نشره فى سلسلة الجيب التى تطبع ٣٠٠ ألف نسخة، مثل كتابها عن توت عنخ آمون وكتابها عن أبو سنبل. ولكن أجمل كتبها بلا منازع هو كتابها عن «المرأة فى عهد الفراعنة».

وسلالة الفرنسيين الذين كتبوا عن مصر الفرعونية متصلة منذ عالم المصريات ماربيت باشا الذى أصبح أول مدير للمتحف المصرى حين بدأ فى بولاق قبل أن ينتقل إلى مقره الحالى بميدان التحرير. وماربيت هو الذى ألف قصة عايدة الشهيرة التى ذاعت شهرتها لأن الموسيقار الإيطالى فيردى ألف موسيقاها وأناشيدها وألحانها، وكان الخديو إسماعيل حريصا على عرضها فى الأوبرا عند

افتتاح قنـاة السويـس . وقد استطـاع الخديوى بنـاء دار الأوبرا على غـر
الاسكـالا الايطـاليـة فى زمن قياسـى، وهو ستـة شهـور فقط، بفضل ء
وحماسة المقـاول حبيب سكاكيني الذى نـال عنده الحظوة وبعـدها البا
ولكن اقامـة المبانى أسهل دائما من تلحين الأغـانى، لأن فيردى لم يستطع
أوبرا عـايدة بنفس السرعة. واضطر الخديـو إلى عرض أوبرا «رجيليتـو»
جـاهـزة. ولم تعرض «عـايـدة» أمـام الامبراطورة أوجينى وامبراطـور ا
وغيرهما من ضيوف حفل افتتاح قناة السويس .

واستمرت سـلالة الفرنسيين بعـد ماريت بظهور شملبيـون الذى
أسرار حجر رشيـد واللغة الهيروغليفية القديمـة . وآخر هذه السلـة المحـ
العالمة كـريستيان نوبلكـور. وقد كتب كل من كتب عن مصر عن ملـوك
مصر وعـددهـن ١٨ ملكـة تـولين الحكم، وأشهـرهن نفـرتـارى ونفـ
وحتشبسوت. ولكن أجمل من كتب عن المرأة المصريـة القديمة كانت كـر
نوبلكور. وقد يكون السبب انها امرأة. والجديد أيضا فى كتابها عن المرأة
أنها لم تتحدث فقـط عن الملكات الشهيرات وعالم القصـور والفراعنـة. ،
بعد بحث علمى صبور فى البرديات والآثار عن المرأة العادية، ودورها كز
وابنة. وكتابها عن المرأة جديد تماما ورائع أيضا .

وتكشف نـوبلكـور عن خفايـا عـالم الحريم منـذ ٣٠٠٠ سنة، وتقـ
الحريم كن يصبحن الفرعـون فى تنقلاته حتى خارج مصر. وتستخلص ا
أن رمسيس الثانى قبل معركة قادش قال لابنه: «عليك ابعاد النساء والأ
ميدان المعارك» . إن الحريم كـن يصحبن فرعونهن حتى فى حروبـه. وكا
مقر للحريم فى مصر القديمة على مدخل بحيرة «من أور» أو بحر موريس
الآن. وكانت هذه المنطقة الصحراويـة تتميز بالبحيرة الكبيرة والمزارع الـ
للصيـد والقنص. وكانت شـواطىء بحيرة قـارون فى ذلك العهد تضـاهـ
سويسرا الآن على حد قول نوبلكور. وكـانت للحريم مسؤولية وإدارة وه
وكتبه وباب وحراس. ولم ينس الفراعنـة الاستفادة من أوقات الفراغ، لأن
لم يكن للشعر والموسيقى والـرقص والغناء فقط.. أو للإثـارة وحدها، ف
بعض الوقت مخصصا لأعمال النسيج وتعليم الرسم والموسيقى.

وتؤكد حفـريات الفيوم بقايـا مواقع الحريم فى عهد توت عنـخ آمون.
أمينوفيس الثالث والرابع. ولم تخل حريم الفـراعنة بالطبع مثل أى حريم
النساء والمؤامـرات. وتثبت بردية من الـدولة الرابعـة فى عهد الملك بيبى ا
الحريم شهدن مؤامرة قادتها زوجة الملك على الملك. وقد كشفتها امرأة أخ

الحريم اسمها «نبيت» فأنعم عليها فرعون بتزويج ابنتيها من نبلاء الأقاليم.

وتقول المؤلفة إن الحريم شهدن أيضا مؤامرة نسائية أخرى تكللت للأسف بقتل امنمحت مؤسس الأسرة السادسة عشرة. وكان ذلك فى القرن العشرين قبل الميلاد وتحدد المؤلفة تاريخ ذلك الاغتيال بعد حسابات فلكية مدققة بيوم ١٥ فبراير ١٩٦٢ قبل الميلاد.

ولكن عالم الحريم عالم آخر غير الحياة اليومية للمرأة العادية. وقد عكفت كريستيان نوبلكور على حياة المصرية العادية لتؤكد أن «مصر أيام الفراعنة عرفت المساواة بين المرأة والرجل، وبين الأبناء والبنات أيضا». وقد اختلفت الحضارة الرومانية بعدها لأن هيبة المرأة الفرعونية كانت أكبر، فقد كانت المرأة تتساوى مع الرجل، لأنها «كانت تستطيع أن تمتلك، وأن توصى بأملاكها، وتستطيع أن تتصرف فيها حتى بعد زواجها، بل وتستطيع اختيار من توصى بأملاكها من أبنائها». وكانت المرأة تتساوى فى الحقوق والواجبات أيضا. وتثبت بعض القضايا أن بعض النساء قدمن للمحاكمة بتهمة القذف والسب، لأن طول اللسان ليس مقصورا على الرجال وحدهم منذ ألفى سنة قبل الميلاد.

٩

الجميلة العظيمة

البهجـــــة ..

لم يجتمع فى حضـارة قـديمـة، على تعـدد الحضـارات الانسانية، مثل هـذا العدد الكبير من الملكات كما اجتمع فى مصر القـديمـة، فقــد حكمت مصر ١٨ ملكـة، وبعضـهن شهيرات حتى الآن، بعد مرور أكثر من ٢٥ قرنا. وكما اشتهرت بلقيس، الملكة من اليمن، وسميراميس من حضارة مـا بين النهرين، وزنوبيـا من سوريا القـديمة، كـان حظ مصر القـديمـة فى عـدد الملكــات أكبر.. من نفـرتيتي ونفـرتـارى. إلى حتشبسـوت، حتى كيلـوبترا. ومنهن ملكـات اشتهـرن بـالجمال الملكى المذهل، وبعضـهن اشتهرن بالكياسة والجلال أو الذكاء والدهاء وعشق السلطة.

وقــد حيرنى هــذا العــدد الكبير فى ملكــات مصر، وسعيت كثيرا إلى الكتب والمتاحف والـرسم والنحت، لأن الحضـارة المصرية القديمـة مكتوبة ومرســومة ومنحوتة.

ومازالت أذكر زيارتى منذ سنوات طويلة لمتحف برلين، لأشهد رأس نفرتيتى الشهير وهم يضعـونه بحفـاوة فى المتحف الألمانى، كما يضعون بنفس الحفــاوة لوحة الموناليزا الشهيرة فى متحف اللوفر.

وقـد تسمرت أمـام طلعـة نفـرتيتى بضع سـاعات، وتحيرت عينـاى فى سر جمالها.. هل هى تلك الـرقبة الممـدودة المسحوبـة فى رشاقـة وهى تحمل فوقهـا وجها فصيح الجمال؟ وعلاقة العنق والـوجه فى المرأة الجميلة لها سرها الخاص، لأنها تشبه العلاقة بين الغصن والزهـرة، وصعدت عيناى المأخوذتان إلى وجهها الأخاذ، فأخـذنى التناسب الخفى والمؤكـد بين الحاجبين والعينين، ثم الاستدارة اللطيفة للحاجبين لتأكيد النظرة الساجيـة والمؤكدة بالكحل حول العينين، ثم هذا التناسب بين الأنف والفم تناسبا هندسيـا وسحريا حين يتسق الطول والعرض. واجتـذبتنى ألوان الـوجه، لأنها تتـدرج من الأذن إلى الأنف فتتأكـد بالقـرب من الأذن ثم تتلطف وتخف حين تصل إلى الأنف الرشيق.

وبدت لى نفـرتيتى درسا فى الجمال. ولكننى أحسست بما هو أكثـر فى عينيها، وهو الثقـة. فالمرأة حين تصبح شديـدة الجمال تقل نظراتها عن النظـرات اليها، وتصبح للجميلة نظـرة أخرى وخـاصة، كأنها تؤكـد لكل من ينظر إليهـا وتقول دون حاجة إلى الكلمات:

- « أنا واثقة » .

وبدت لى نفرتيتى جميلة و واثقة فى جمـالهـا .

وقد أغـوانى رأس نفرتيتى بدراسـة فن التجميل عند المرأة المصرية القـديمة. واظن كما يـؤكد كثير مـن المؤرخين أن المرأة المصرية أول من ابتكـرت المرآة ، كما أظن أن أشـهر الملوك الذين أحبوا المرآة هو لويس الرابع عشر. وقد توقفت كثيرا فى قاعة المرايا بقصر فرساى الذى بناه ملك فرنسا بالقرب من باريس. والقصر كبير كأنـه مـدينة، وحـولـه حـديقة واسعـة تكشف عن الـذوق الفـرنسى فى تنسيق الحدائق، وحول القصر والحديقـة غابة شاسعـة، لأن القصر للاقامـة، والحديقة للنزهة، والغابة للصيد والقنص. وتوقفت خاصة فى قصر فرساى عند قاعة المرايا لأنها اضخم قـاعة فى العـالم تغطيها المرايـا من كل جـانب. وكنت أقول من بـاب الفكاهة: لابـد أن الملك كان من شدة الابهة مفتـونا بنفسه، ولا يريـد أن يرى أحدا غير خياله وصورته حين تعكسها المرايا .

وافتتان المرأة بـا لمرآة فكرة قديمـة، ففى المتحف المصرى بالقـاهرة ومتحف تورينو بإيطاليا، ومتحف اللوفر ببـاريس، عدة مرايا تبقت من العصر الفرعونى، وبعضها على شكل قرص الشمس. وكانت تصنع من ألـواح الكوارتز اللامع. وقد تفنن صناعها فى صنـاعة المقابض من العاج، وقـد رسم بعضها على شكل ايزيس وحتحـوت.. الهتى الجمال والحب. وعـرفت المرأة توافـق لون الشفـاه مع لـون الشعر. وفن تخضيب الأظافر، احيانا بالذهب، أو الأوان المعدنية أو الحناء.

وعرفت المرأة مبكـرا دهان الشفتين باللـونين الوردى أو القـرمزى، وبعض الألـوان كـان من عصير الفـاكهة مخلـوطـا بعسل النحل. وعـرفت فن انسيـاب الحاجب لتتسع العين حتى لو كانت ضيقة. وفى بعض البرديـات القديمة نصائح جديدة، حين يكـون الوجه مستديـرا أو مثلثا فلابد من تـوزيع اللون الغامق على جانبى الوجه. وابتكرت المرأة اقماع العطـور الجافة لتضعها بين ضفائر شعرها أو فى الباروكة.

ويذكر المؤرخ اليونانى ديودورس كيف كانت المرأة تستقبل ضيوفها بوضع عقود الزهـور حول العنق. وحتى مياه الشرب عرفت ماء الورد ومـاء الزهر. ولم يقتصر استخـدام البخور على المعـابد، ولكنـه يعطـر المنازل والحدائق. وهكـذا امتـلأت المتاحف بـالعقـود والاقراط والخواتم واغطيـة الـرأس وحتى الأحذيـة والصنادل.

وكانت المرأة المصريـة أول من اكتشف البوردة المجمدة وصنعهـا من عجينة التلك بدهن النعـام. وفى الدولـة الحديثة، قبل ألفى عام، استبـدلوا بـدهن النعام

عسل النحل وغذاء الملكات ، عندما اكتشفوا اثره على نضارة الجلد. وكشفت بعض حفريات الدولة القديمة بعض الاقراص التى حللت ليكتشفوا انها تتكون من اللبن والجبن المجفف المعجون بالزيوت النباتية وزهور الثمار الزكية. وكشفت حفريات سقارة عن اقراص من بودرة التجميل المخلوطة بنبات الترمس لعلاج «حب الشباب» . وحتى الباروكة كانت لها أطوال مختلفة، ومنها الطويل والقصير المضفر فى جدائل كما يبدو من صور نفرتارى وزوجات رمسيس الثانى. وقد اكتشف عالم الآثار «ايمرى» بالقرب من هرم سقارة مقبرة مصفف الشعر فى عصر الأهرامات، وكان اسمه «حتب كاى» .

ولكن جمال المرأة وحده لا يكفى، ففى الأدب القديم حكمة تقول : «إن الجميلة حتى لو كانت عظيمة البهجة لا تضمن السعادة». ويقول حكماء الدولة الحديثة: «المرأة الجميلة ليست دائما طيبة، ولكن المرأة الطيبة دائما جميلة ». ويقولون أيضا: «لاتختر زوجتك بعينيك ، بل اخترها بعقلك » .

وفى البرديات القديمة نصيحة الحكيم «بتاح حتب» من الدولة القديمة ، وهى نصائح زوجية قيمة لأنهم كانوا يطلقون على الزوجة «شريكة الحياة» . ويقول الحكيم ناصحا كل زوج : «أحب شريكة حياتك لترعى بيتك وزودها بكسوتها ووسائل زينتها وزهورها المفضلة وعطرها الأثير.. كل ذلك سينعكس على بيتك ويعطر حياتك» .

وتقول بردية أخرى من نصيحة الحكيم «ستب حتب» لابنه: «يا ولدى.. الزواج رحلة العمر فى بحر الحياة، فلا تتسرع وأنت تجادلها إلى الغضب، فذلك يزرع شجرة البغضاء فى دارك. ولا يهدم بيته إلا من تجاهل حقوق زوجته، فإذا اخلصت لها اخلصت لك، و إذا رفعت من قدرها رفعت من قدرك أمام الآخرين ».

١٠ أكثر من الجمال

شوارع روما متاحف، مرصعة بالقصور، خارجها جميل وداخلها أجمل. وشارع الكورسو من أشهرها وأقدمها.

كان الشارع عند إنشاء روما ميدانا للسباق، ويقع الآن فى قلب روما، ويترأسه على القمة تمثال الملك فيكتور عمانويل، وترتفع بعده مسلة ميدان الشعب. وعلى ضفافه قصور عريقة عديدة وبين كل قصر وقصر يوجد قصر آخر ففيه سبعة قصور بابوية وأميرية، وأغلبها الآن متاحف.

وأشهر قصور شارع الكورسو قصر «بونابرت». وعاشت فيه ـ حتى ماتت ـ لايتسيا والدة نابليون بونابرت حين كان امبراطورا وحكم إيطاليا. وإلى جوار قصرها يطل أجمل قصور البابوية فى عهدها القديم «دوريا بامبيلى»، وقد تحول كذلك إلى متحف فنى يزهو. ففيه اروع روائع فن البورترية للرسام الاسبانى ذائع الصيت: فيلاسيكز. وهناك بعده قصور أخرى شهيرة باسماء: شيانو. ودوريا، وسلفياتى، وروداديتى، ثم قصر «روسبولى» الذى يقع فى قلب شارع الكورسو، أو شارع القصور والمتاحف.

ذهبت إلى قصر «روسبولى» فى رحلتى الأخيرة الخاطفة إلى روما لأن فيه معرض «نفرتارى» ملكة الملكات الجميلات فى عصر الفراعنة. ولا تقل شهرة نفرتارى عن شهرة نفرتيتى التى ذاع صيتها فى عالم الفن وبين رواد المتاحف.

ومازال رأس نفرتيتى، بعينيها اللامعتين وحاجبيها المسبوكين ورقبتها الناعمة، نموذجا خلابا للفن الفرعونى القديم. ويزهو متحف برلين ــ منذ أكثر من مائة عام ـ برأس نفرتيتى كأجمل قطعة فنية، رغم ما فيه من كنوز فنية عديدة. ونفرتيتى الملكة ـ زوجة اخناتون ــ لها أيضا رأس آخر فى المتحف الفرعونى بالقاهرة. ولكن رأسها فى متحف برلين أجمل لأن نحاتها كان أروع، فاشتهر رأس برلين أكثر، وكان يمكن أن يكون اسم «نفرتارى» مجرد اسم له رنين وسط حشد من أسماء النساء والملكات الذى يملأ ثلاثة آلاف عام. فلا يذكره سوى المؤرخ عاشق الفنون الجميلة أو دارس الحضارات القديمة. ولكن اسم «نفرتارى» بزغ من جديد ليعود إلينا فى الستينات عندما تقرر إقامة السد العالى عند أسوان. وتوقع المهندسون ارتفاع مياه النيل وراء السد. لتصبح المياه

بحيرة ويرتفع منسوبها فيؤدى إلى اغرق معبد أبى سمبل ، التحفة المعمارية النادرة. ويقع هذا المعبد الذى اقامه رمسيس الثانى جنوبى أسوان وموقع السد العالى الآن بنحو ٢٨٠ كيلو مترا، وقد نحت داخل صخور الجبل الضخمة وكادت قاعدته تمس مياه النيل الجارية. ودخلت اليونسكو فى حملة عالمية لانقاذ معبد أبى سمبل من الغرق، وكان لابد من رفع المعبد بأكمله حجرا بحجرا إلى ارتفاع ٤٦ مترا عن ارتفاعه القديم لإعادة تركيبه كما كان تماما.

ويطل المعبد الهائل بواجهة معمارية ضخمة وتمثالين عملاقين لرمسيس الثانى، بينما تقف خلفه غير بعيد زوجته الاثيرة: نفرتارى. وقد كشفت تمثالها عن ملامحها الجميلة وقامتها وهيئتها الملوكية.

وهكذا أمكن بناء السد، وانقاذ المعبد كما عاد اسم نفرتارى إلى الاسماع بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام، وأصبح اسم رمسيس ونفرتارى على كل لسان.

وأكتمل باسم الملكة نفرتارى هذا المثلث الذهبى للملكات الجميلات فى العصور الفرعونية: نفرتيتى، ونفرتارى، وحتشبسوت أيضا ،ولم تكن تلك الملكة الثالثة أيضا أقل حظا من الشهرة وذيوع الاسم، لان من يزور الأقصر، على الضفة الغربية من النيل، لابد أن يتجه إلى وادى الملوك ووادى الملكات والدير البحرى ومعبد حتشبسوت. ولايزال معبدها كذلك نموذجا رائعا للتوافق الفنى بين الجبل والعمارة، لأن خطوط المعبد بأعمدته العمودية المتكررة ترد على خطوط الطبيعة العرضية التى نحتتها الطبيعة وعوامل التعرية عبر آلاف السنين. وجاء التلحين بين الخطوط الأفقية فى الطبيعة والخطوط الرأسية فى العمارة درسا رائعا ورائدا فى علوم الهندسة المعمارية عندما يختار المهندس موقع البناء.

وحين مررت منذ فترة على روما، لم استطع اغفال معرض نفرتارى، الملكة الفاتنة، فى شارع الكورسو. فقد كان معرض الملكة حديث المدينة، وأهل روما كعهدهم شغوفون بالفن الجميل، القديم والحديث، وهم يتذوقون الفن ويتعلمونه من الشوارع المليئة بالقصور والتماثيل والنوافير، قبل المتاحف والمدارس.

والايطاليون يفتخرون بأن بعثاتهم الآثرية العلمية ذهبت إلى مصر فى مطلع القرن، وأخذت من نفائسها أو روائع فنونها ما ملأ متحف تورينو الإيطالى. ولذلك يطلقون على متحف تورينو «المتحف المصرى». وقد أقام ملياردير من عشاق الفن اسمه روبرتوميمو معرض نفرتارى فى روماتكريما لمرور تسعين عاما على أول بعثة إيطالية ذهبت إلى وادى الملكات. وترأسها عالم الآثار كياباريلى.

وشاركت ثلاثة متاحف عالمية فى هذا المعرض الحافل الذى اسموه: «نفرتارى أو رمسيس الثانى وزوجته الجميلة القوية نفرتارى، ولتروى لمحات من العمار والآثار. وشاركت متاحف تورينو مع متحف اللوفر والمتحف الإيطالى ومع معهد جيتى الأمريكى لحفظ الآثار فى هذا المعرض الذى نقل مصر الفرعونية إلى روما الحديثة.

وجاء معرض نفرتارى وطريقة العرض إضافة فنية فى فنون العرض والمعارض. فقد هيأ العارضون الجو الفرعونى فى قاعاته السبع. وغطت الديكورات الجدران، ورسمت عليها صورة طبق الأصل من مقبرة نفرتارى وعلتها رسوم فرعونية ناطقة بالجمال كما عرضت خرائط منطقة وادى الملكات فى الأقصر على الضفة الغربية من النيل، بل عرضت الأدوات الهندسية والكاميرات القديمة الضخمة التى استخدمتها البعثة الأثرية الإيطالية منذ تسعين عاما بقيادة عالم الآثار كيابارليلى. وضم المعرض يوميات البعثة يوما بيوم، ورسومها، وخطاب عالم الآثار إلى الملك فيتوريو عمانويل الثالث، عند اكتشاف مقبرة نفرتارى عام ١٩٠٤. وجاءت الإضاءة المناسبة على المساحة المطلوبة لتبرز المساحات والخطوط البارزة أو المنحوتة لكل قطعة فنية معروضة مع تجنب الحرارة حتى لا تتعرض الآثار للتلف.

وبينما عرض العارضون نموذجا بنفس الحجم لدهاليز مقبرة نفرتارى وصحونها وساحاتها، علت الرسوم ــ طبق الأصل وبنفس الألوان ـ لقصة الحساب، والانتقال إلى عالم السماء، مع نصوص منقوشة مرسومة من «كتاب الموتى» وخطوات الرحلة البشرية إلى الأبدية.

ولم ينس العارضون كل ما يتصل بالملكة بتاريخها الطويل المجيد، من ادوات الزينة، وما تهتم بـه المرأة من لوازم.. المرآة والكحل وتمشيط الشعر، وهى لوازم تهتم بها المرأة سواء ارتفعت إلى القمة أو بقيت على السفح، وسواء علت إلى قمة الملك والهيلمان أو حتى بقيت فى صفوف العامة. وقدم المتحف البريطانى نماذج من المكحلة والمرآة، وكانت آية فى اتقان الصنع والنحت على الخشب برسوم رقيقة غائرة.

١١

هذه الأسطورة ..
كانت امـــــرأة

ولايزال اسمها يتردد الآن بعد ألفى عام.

وقد يكون غريبا أن يظل اسم «كليوبترا» شعبيا ، فيطلق علي أسماء الفنادق ، أو ماركات السجائر.

وقد بقى أسم «كليوباترا» خالدا، لأن مـأساتها كانت خالدة ، وحياتها أيضـا ، وحتى الروائى محمود تيمور كتب عام ١٩٤٥ رواية من وحي الخيال، وعنوانها : «كليوباترا في خـان الخليلى» والرواية شديدة الغرابة وتبـدو أغرب لوقرأتها الآن. لأنه يتخيل أن أحـد موظفى وزارة الخارجية ، واسمـه محيى الدين فـريد، يكتب يوميـاته فى أعقاب الحرب العالميـة الثانية . ويتخيل أن مؤتمرا للسـلام العالمى ، انعقد فى القـاهرة عـام ١٩٤٥ وتحضره شخصيات شعبيـة لاتمثل الحكـومات. ومـؤتمر القـاهرة بـديل لمؤتمر سـان فـرانسيسكـو الذى اجتمعت فيـه الـدول المنتصرة.

ويضيف محمـود تيمور أن الشخصيـات المدعـوة لن تكون فقط معـاصرة. وسيدعى إليه شخصيـات تاريخية من التاريخ القديم . واختـار تيمور شخصية «كليـوباتـرا» الملكة القـديرة التي عـركت الحياة ، وكـان عصرها عصر حـروب ، وعاشت مرارة الحرب ولوعة الحب ، وكأنها تمثل كل نسـاء التاريخ القديـم .

والغريب أن تيمور اختار من الرجال شخصية «تيمور لنك» المحارب الشرس بعد أن أعلن تـوبته . ويسمى تيمـور مؤتمر القـاهرة «الشعبى» «مـؤتمر المدينة الفاضلـة لدعم السلام». وينعقد مـؤتمر القاهرة فى «قصر الـورد» الذى يطل علي النيل . ويستعين المؤلف بشيخ عجـوز قيل أنه خبير فى تحضير الأرواح . ويشطح تيمور فى خيالـه لأن «كليوباترا» عند ظهـورها طلبت الاقامة فى معبـد بالقرب من الأهرام . كما طلب تيمـور لنك الاقامة فى مسجد السلطان حسـن ، أروع المساجد المملوكية التى بنيت فى عصره قرب القلعة.

ويصور تيمور شخصية «كليوباتـرا» كملكة رائعة الحسن والجمال. حازمة وعـاقة وذكيـة . وهي تترك كعادتها قصر الـورد حيث ينعقد المؤتمر لتتجـول في شـوارع القـاهرة وتختلـط بالشعب تمامـا كما فعلت حين نـزلت رومـا في عهـد يوليوس قيصر. فهى تريد أن تعرف رأى الشعب ، ولذلك تزور خان الخليلى.

وقـد يكون اختيـار تيمور لـــ«كليوباترا» جميلة الجميـلات وملكة الملكـات

نمـوذجا للمـرأة . واختياره كـذلك لتيمور لنك المحـارب الذى يتـوب عن الحرب نموذجا للرجل، ومندوبا عن الرجال.

ولكن مـؤتمر المدينـة الفـاضلـة لاينتهـي إلى شيء، حين تختلف الـوفـود، ويحتدم النقاش، لينتهي إلى لاشيء، وإلى تأجيل المؤتمر إلى «أجل غير مسمى».

وهكـذا، تنبأ محمود تيمـور فى قصته «كليـوبـاترا فى خـان الخليلى» بتأجيل السلام العالمي إلي «أجـل غير مسمى» .. وكان ذلك عام ١٩٤٥ . ولوتـركنا لخيال تيمـور، بل ومسرحيـة شـوقي الشهيرة «مصرع كليـوبـاتـرا» وهي من أروع مسرحيـاتـه، لادهشنا أن «كليـوبـاتـرا» ظلت مقررة على أغلب أدبـاد وشعـراء ومـوسيقى العالم . وحين بـدأ الاهتمام بالمرأة فى الأدب وتصـوير الشخصيـات النسـائية فازت «كليوبـاترا» بأعظم الشعراء. وكتب عنها شكسبير الانجليزي، في مسرحيته «أنطونيو وكيلوباترا» وكورني الشـاعر الفرنسى مسرحيته «كليوباترا الأسيرة» ، وبوشكين الشاعـر الروسى أيضا فى مسرحيته «ليـالى مصرية». ولكن شكسبير كـان أقوى. ولم يكن شكسبير يحب «كليـوبـاترا» لأنـه كان يقـول أن الشـهوة تهزم السلطة .

وصراع المرأة والرجل مثل صراع الانسـان والشيطان، وكان يسميهـا «ثعبان النيل». وقد استند شكسبير إلى كتـاب المؤرخ الرومانى المعاصر «بلـوتارك» وهو مرجـع فى عصر القياصرة. وكـان بلوتـارك أيضا لايحب «كليـوباتـرا» . كما كان يقول: «انها تمثل كل شهوات المشرق. ولاشيء يمكن أن يطفئهـا». ولكنه في نهاية سيرتها روي على لسانها كلمات رائعة شديدة الرقة فى الحب : أعظم مواهب المرأة فى الحياة . وكما كـان بلوتارك فى كتابتـه عن حياة المشاهير قاسيـا كان شكسبير الذى تأثـر به شرسـا، لأنه صـورها فى الفصل الأول من مسرحيتـه امرأة قـوية شديدة الشكيمة ولايغلبها رجل.

وفى الفصل الثـاني صـورهـا ناريـة الغيرة وسريعـة الاشتعـال. وفي الفصل الثالث، صورها ساحرة وكهنية وامـرأة تلعب بمقادير الرجال، لينتهى معها إلى المأسـاة والخاتمة فى الفصل الرابع، حين ينهزم أنطونيو حبيبها فتقول :

ـ كل شيء عـدم . والاستسلام غبـاء. والاجتماع على القدر يشبـه عواء كلب مجنون.

ويصف شكسبير بقوة نهوضها قبل سقوطها، فيما يشبه صحوة الموت. لأن العظماء يحاولون النهوض في اللحظات الأخيرة و«كليـوباترا» لم تمت كما يموت البشر.

وجاءت بعد شكسبير مسرحية كورنى «عن بومبى» أقل تعقيدا وركز علي قوة

الارادة أو المرأة الحديدية في شخصيـة الملكة. تمامـا كما فعل بوشكين فى «ليـالى مصرية» حين تحدث أيضـا عن روعة الجمال، وجمال القـوة فى ثياب امـرأة. وقد عـزف أيضا جـورج بـرناردشـو في مطلع القـرن التاسع عشر علي نفس النغمـة ليعطي صورة جديدة للمرأة. وبدأت صورة «كليوباترا» تختلف عن أيام بلوتارك وشكسبير. وأصبح الأدباء والشعراء أكثر عطفا وتعـاطفا . وأكثر الكتاب عاطفية هو الروائى الرومانسي ـ الفـرنسي تيوفيل جوتييه. وقد زار مصر ١٨٤٥ وكتب ليلة من ليـالى كيلوبـاترا وملاهـا بكثير من الرومـانسية والشجن. وسبقـه جان فرانسـوا مارمـوتيل . ويمتلىء الأدب الفرنسى أكثر من بقيـة الآداب بالـروايات والقصص عن «كليوبـاترا» . لأن أول مسرحيـة مثلتها امرأة على مسـارح باريس كانت مسرحية «كليوباترا الأسيرة».

ولكنك لوقرأت رواية الـروائى الألماني ستيفان زفايج لاكتشفت أن أقوى من أنصفها كـان هذا الألمانى الذى تـأثر بـالشاعر جـوته فى حبه للشرق . وجوتـه هو أستاذ زفايج فى هذا الاعجاب بالحياة الشرقية وحكمة الشرق وتاريخه.

وفى رواية «غانية النيل» يعتمد ستيفـان زفايج علي المؤرخ بلوتارك. ويستند إلى الوقـائع الثابتة. ولاأظن أن روايـة اعتمدت على تصـوير روما والاسكنـدرية، ونهرى التيبر والنيل، وأجواء الامبراطوريـة الرومانية وحـروب يوليوس قيصر ، ومأسـاة مقتله ، وقصـة الحب التي جمعت «كليـوبـاترا» فتـاة العشرين بقيصر الخمسينى ، ثم حب «كليوباتـرا» و«أنطونيو» كما صورتها روايـة «غانية النيل» .يقول عنها : «انها عالم كامل فى امرأة».

وعقل وجاه وجبروت وجسد. ثم هذا الخطر الـذى عاشته طوال حياتها . وهو الذى مـزج بين روحيهما مزجـا شديدا فإذا حل المسـاء تحولت إلى غانيـة . وتبدأ القصـة ، وهى فى قصرهـا فى الاسكنـدريـة ، تطل على رحيل قيصر رومـا . ولـولا المؤرخ بلوتارك لما صدقنا انها لفت نفسهـا فى سجادها ، ليحملها خادمها الأمين ، ليعبر بها وسط الأعـداء ويجتـاز القفـار والبرك ، فتصل إلى قصر القيصر الـذى يكبرها بثلاثين عـاما . وقد أصبح قيصر ملك الملـوك ، بينما روسيا تنهكها الحرب الأهليـة ، والحرب ضد اسبـانيا ، وبـلاط القيصر ، وكلهم خصوم هـذه الوافـدة الأجنبية التي خلبت عقل القيصر بجمالها وذكائها.

وفى القصر بروتس وكاسيوس. وشيشرون الخطيـب الفيلسوف الـذى كان لسانه بقوة ثلاثة جيوش.

وروما بعـد الحرب وقعت فى أيدى أثـريـاء الحرب . ومن الخبـازين من ملك القصور المنيفة. والقصـور ماهولة والمعـابد مهجورة. وتخلب «كليوبـاترا» عقل

القيصر، لأنها فوق جمالها كانت بارعة فى الحديث ، حريصة على الذوق . والاحتشام إلى حد الوقار . وكما يقول جوته : «ماأكثر ما تثنى العقبات أهل العنف عن طريقهم ، لأن عنف الرجال يطيش أحلامهم . أما المرأة الفطنة الذكية ، فتحتال على العقبات ، حتى تجتازها ، وتبلغ غايتها . وحصلت «كليوباترا» علي اعتراف القيصر باستقلالها فى حكم مصر . فإذا زار يوليوس قيصر مصر أخذته البارعة فى رحلة نيلية لتعلمه فن السير على مهل وسط الطبيعة ، فيعود إلى روما ، ليقيم لها تمثالا من الذهب فى معبد فينوس.

ولكن حياة القيصر تنتهي بمأساة اغتياله . لتبدأ «كليوباترا» مأساتها الثانية مع هذا الرجل الذى لايخلو فمه الكبير من نبيذ أو مزاح أو دعابة مشحونة بالغزل. و«انطونيو» هذا الماجن الذى لم يعرف عاطفة الحب على كثرة ماعرف من النساء. وكان فى علاقاته يأخذ ويستمتع ، علمته «كليوباترا» أن الحب عطاء وكرم . فأنقذته من المجون، ولكن مأساة الهزيمة . تنتهى بهما إلى الانتحار على طريقة «كليوباترا» . لأنها اختارت لدغة ثعبان . بعد أن تأكدت أن الموت مؤكد لأن لدغة الثعبان وسريان السم لن يشوه جمالها . وارادت «كليوباترا» الجميلة أن تترك الحياة كما كانت دائما جميلة الجميلات .. أو ملكة الملكات.

١٢ امرأة حرة مستقلة ذات سيادة

حين كنت صبيا كنت أسكن وراء قصر الملك ، وكانت مدرستي «القربية» الابتدائية بالقرب من ميدان الازهار ، وكان طريقي المعتاد كل يوم هو شارع قوله .

وكنت أمر على بيت عتيق له بوابة خشبية ثقيلة، ولكني في بعض الأيام كنت ألاحظ منظرا يتكرر ، وأرى الباب الخشبي في البيت القديم موصدا ، وأمامه جنود بملابس شتوية سوداء ونحن في وسط الربيع ، وكان لايبدو على وجوههم أكثر من الملل والطاعة.

ولم أستطع اكتشاف سر هذا المشهد المتكرر ، ولا سر ذلك البيت الذي يقف حوله حشد من الجنود.

ومهما دارت الأيام فمازلت أذكر ذلك «المشهد» حتى اليوم.

ولم أكن أعرف ، صغيرا أو ساذجا في الوقت الذي أعود فيه من المدرسة ، وقد اتسخت ملابسي ، وتعفر حذائي برمل الفناء الفسيح ، وزادت حصيلتي كلمة أو كلمتين ، أن هناك من يقف حول «المطبعة» حتي يمنع الكلمات من أن تصل إلى الآخرين.

ومعذرة .. فلم أكن وقتها أعرف حتي ماهي المطبعة .

ولامعنى أن تدور مطبعة يختلط فيها الفكر بالخيال والحبر والورق لتصبح الكلمة ألفا أو ألفين تملأ الصفحات. ولم أكن أعرف بعد أن الكلمة ليست حروفا ، بل هي صوت الصمت ، أو صدى الشوق أو رجع القذيفة وسط الفضاء.

ولم يستطع خيالي أن يخرق الغيب وقتها.

وظننت أول الأمر وبادئ الصبا أن القراءة لعبة الكلمات.

ولم أكن أعرف ، وأنا غر صغير مغزى هذا المشهد عام ١٩٣٦ حين يجتمع حول مطبعة ما ، في بيت عتيق قديم ، حشد من الجند ، يلبسون ثيابا سوداء وسط الربيع ، ولايبدو عليهم شيء أكثر من الملل والطاعة.

ولك أكن أعرف شيئا عن «مصادرة» الصحف أو معني «اعتقال» الكلمات ، ولم أكن أعرف أن هناك شيئا يتربص بالكلمات التي تكتب علي الصفحات أو تقال في المدارس أو في تلقى بالجامعات. ولم أكن أعرف يومها أن هناك أوامر باعتقال الكلمة . وحظر التجول علي الأفكار.

وظل هذا المشهد الغريب وصورة الجنود حول مطبعة روزاليوسف في شارع قوله ثابتا لايبارح ذهني بعد طول السنين.

ولم يستطع خيـالي وقتهـا أن يخرق الغيب ، ولم أتخيل انني سأعمل فى نفس هذه المجلة روزاليوسف بعد عشرين عاما. ولم أكن قد رأيت روزاليوسف نفسها ، ولكن مجلتها التي تحمل اسمها كانت هي المجلة المعتمدة في بيتنا صباح كل أحد ، وكنا نحلى بـا لمجلة بعد وليمة الغـداء يوم الأحد من كل أسبوع ، وكـانت مجلة لها مذاق كـالفاكهـة ، وبألوانها وغـلافها وصورهـا الملونـة والساحـرة ، ومقالاتها الناقدة ، حين تصور «جون بول» المفرط فى التخمـة والكآبة ساخرة من الاحتلال و«المصرى أفنـدى» بطـربـوشـه وسبحتـه رمـزا للمـواطن الـوطني. وكـانت روزاليوسف ذكيـة ولاذعة تحمل علي الاحتلال بعنـف وتطالب بعودة الـدستور وتهاجم ديكتاتورية صدقي باشا ومحمد محمود.

ولم تتحقق لى رؤية روزاليـوسف وجها لـوجه ألا بعـد أن عملت با لمجلـة بعد عشرين عاما . وأحسست فيهـا بصلة القرابة ، بالقراءة قبل الكتـابة وبالحب قبل الحوار. وقد قطعت المجلـة ثلاثين عامـا من عمرها منذ مـولدها عـام ١٩٢٥ بعد الدستور بعامين ، وبدأت بشقـة صغيرة فى شارع جلال في بيت أحمد شوقى أمير الشعراء . وكان الأمير قـد اختار موقع بيته من ضمـن عمارات الخديوى بشارع عماد الدين الـذي كان عـاصمة الملاهي والمسـارح في العشرينات والثـلاثينات ، ومازالت فيه بقايا مجد قديم .

وقـد تنقلت روزاليوسف من شـارع جلال إلى شـارع الساحـة بالقـرب من الأهرام القديمة ، وكان مقرها فى المكـان الذي تحتله الآن عمارة مبالغة في الارتفاع بلا سبب تطل على محطة بنزين في تقاطع شارعى الساحة وجواد حسنى .

وكانت السيدة قد اعتزلت فن التمثيل تماما ، وهى فى قمة المجد ، وقالت لى بعد أن عرفتها أن الممثل عليـه أن يعتزل وهو فى قمة الجد . وغامرت السيـدة باصدار أول مجلة تحمل اسم سيـدة ، وكتب عبدالقادر المازنى في عددهـا الأول انها نزوة طارئة، وردت عليه في نفس العدد بعد شكر الناقد قائلة :

«ولكن الأستاذ لايـريد إلا أن يسميها نزوة .. ولتكن كـذلك . اعتقد أن كل عمل مجيد يكون فى أوله نزوة طـارئة . ثم يتحول إلى فكرة، فإذا رسخت أصبحت يقينا فجنونا.

كنت لم أتجاوز الرابعة عشرة حينما خطر لى أن أمثل ، وكانت تربطنى صلات مع أصحاب تياترو شارع عبدالعزيـز وذهبت يوما إلى هناك وانتقيت فستانا من المخمل الأسود الموشي بالقصب والترتر ، ثم رجعت إلى منـزلى الصغير بالفجالة ،

وهناك أسدلت شعرى على كتفى وخططت وجهى بعد أن ارتديت هذا الفستان الذي كانت تلبسه سابقا ممثلة دور «ماري تيودور» . وكان ذيل طويل يصلح لكنس المسرح ، ثم خرجت إلى الطريق أتمادى فى جلال ملكات الجمال واجتزت شارع الفجالة ، فكلوت بك ، فميدان العتبة الخضراء حتي التياترو . وتبعني نفر من الناس ، كما اننى أحسنت كنس الشوارع بذيل فستانى «الخفافى» ولم أنتبه إلى كل هذا ، إذ كان كل مايغمر رأسى انى أسير فى ثياب الملكة مارى تيودور.

... أليست هذه نزوة ياأستاذى العزيز ؟

ولم تكن المجلة نزوة عابرة بل عزيمة حديدية ، فتحولت المجلة من الفن إلى الفن والسياسة. وبعد ستة أعوام واصلت الصحافة باصدار جريدة يومية عام ١٩٣٥ تصدرها عباس العقاد ومحمود عزمي ورياض شمس ، وكانت المطبعة فى شارع قوله ، والتحرير فى شارع الساحة . وحين تكررت المصادرات والغرامات جمعت المقر ــ وحتى سكنها ــ فى شارع الداخلية ومكانها الآن مدرسة التربية النسوية ، وظلت نصف عمرها أى ٣٥ عاما من ١٩٢٥ إلى ١٩٦٠ لاتملك دارا ، ولاتطبع فى مطابعها ، وتنتقل بين أحياء القاهرة .. فى أماكن للايجار . وقد تكون هذه هي ميزة تلك السيدة لأنها لم تنشىء سوى مجلة رأى ، فلا تحتاج إلى إدارة ضخمة أو اعلانات كثيرة ، وتعتمد علي التوزيع فقط .. أى على القراء.

وفي شارع حسين حجازى ــ عبدالحميد سعيد سابقا ــ خلف قصر الأميرة شويكار ، وعلي بعد أمتار من مجلس النواب ، وحي الدواوين والوزارات فى حى الصحافة فى الأربعينات والخمسينات انتقلت روزاليوسف المجلة ، ولم يكن لديها سوي مدير «زهورات» يعمل محاميا في الصباح وفي المساء مديرا .

وكانت الخزانة فى حقيبة «الست» ولم يكن فيها غرف خاصة سوى لاحسان رئيس التحرير ، ثم بهاء حين ترأس صباح الخير، وعبدالغني أبوالعينين لأنه سكرتير التحرير، وكان يشكو لها غير ساخط انه يجلس على مكتب قديم «مايفتتحه من أدراج لايغلق ومايغلق لايمكن فتحه» . وكانت السيدة تؤكد له انه يجلس على المكتب الذى كان يكتب عليه الدكتور محمود عزمي.

وقد تعلم منها احسان فن تشجيع الشباب ، لأن المجلة تفتح صدرها وأبوابها وصفحاتها للآراء الجديدة ، وكان يعرف أن مرتباتنا أقل من المتوسط وطموحنا أكثر من المعتاد ، فيقول لأغلب تلاميذه الذين أصبحوا أصدقاءه : «انكم تأخذون بالباقى مجدا».

ولم أقابل روزاليوسف إلا حين عملت با لمجلة . وكنت أعجب كيف استطاعت بقامتها القصيرة وصوتها الصغير أن تملأ المسرح الكبير ، وكيف استطاعت قامة

قصيرة وصوت طفـولي فى فتاة صغيرة أن يخطفـا الأضواء مـن بطلات شهيرات لهن هـامـات عاليـة وقامـات طويلـة مثل دولت أبيض وصـالحة قـاصين ، وكيف استطاعت أن تقف أمام عمالقة فى الفن وفى القامة أيضا مثل جورج أبيض ونجيب الـريحانى ويوسف وهبى . وكيف استطـاعت أن تستولى على قلـوب الجماهير فى رواية «غاد الكاميليا» فأطلق النقاد عليها : «سارة برنار الشرق».

ولابد أن شيئا غير الجمال أو القوام أو حتى الموهبـة الفنية كان في شخصيتها ولن تستطيع اكتشـاف كل ذلك مـا لم تجلس إليها . فقـد كـان لها حضور أخـاذ لامرأة لاتتكرر ، لأنها سيدة قوية ومستقلة وحرة ذات سيادة.

١٣

نيشـــان القـــراءة

كما كانت فى مصر منذ مطلع القرن ألقاب رسمية .. كانت فيهـا ألقاب شعبيـة ، وكانـت الألقاب الـرسمية يحملهـا الأمراء والوزراء وكبار رجال الـدولة ، أما الألقاب الشعبية فكـان أهل الفكـر والفـن والأدب يطلقـونها على أنفسهم ، ثم تلتصق تلك الألقاب بأسماء مشاهيرها .

وكـانت الألقاب الحكـومية على درجـات .. فأعضـاء العائلـة المالكة هم الـذين يحملون لقب الأمير أو النبيل . ولا يحمل اللقب الأول إلا من كان من سـلالة الخديو إسماعيل ، وقد بذل الخديو جهدا خارقا ليحصل على فرمان من السلطان العثمانى عبد العزيز بقصر الوراثة على أبنائه . ودعـا الخديو إسماعيل السلطان عبد العزيز لزيارة القاهرة فى قصر عابدين الجديد وأطلق اسمه على الشارع الجديد الذى يصل عتبة الخضراء بقصر عابدين ، فى نفس الوقت الـذى شق فيه شارعا جديدا ليصل ميدان بقلعة محمد على وأطلق عليه اسم جده الكبير مؤسس العائلة .

وكانت بقية أعضـاء العائلة الخديويـة لا يحملون لقب الأمير ، ويكتفى معهم بلقب النبيل ، ويسبقه عـادة «صاحب المجـد» ، كما كانت الألقاب الأخـرى لكبار رجال الدولة على درجات ومـراتب . لأن لقب صاحب المقام الرفيع لا يطلق إلا على رئيس الحكـومة حين تتكـرر رئاسته ، لأنـه يحظى بلقب «صـاحب الدولـة» حين يتولى رئاسـة الحكومـة لأول مرة ، وكان الـوزير يحمل لقب : «صـاحب المعالى» وكان ينعم عليـه بالبـاشويـة فور تعيينـه حتى لو كـان من الأفنديـة السـابقين . وكانت الـرتبة التالية للبـاشوية هى البكـوية . وكان بين البكوات أيضـا صـاحب العزة وصـاحب السعادة . وهناك فـرق ، لأن الأول كان درجـة أولى ، والثانى بك درجة ثانية .

وبقدر تنـوع وتفرع وتدرج هذه الألقـاب الحكومية والتى كـان رجال الحكم يفوزون بها عند تولى مناصبهم أو عند اعفـائهم منها ، ظهرت بالمقابل ومن دون اتفاق سـابق عدة ألقـاب شعبية لا تقل ضخامـة بين مشاهير الأدبـاء والمفكرين والفنانين . وفى حفل حاشد فى دار الأوبرا القـديمة حضره لفيف من شعراء سوريا ولبنان . أطلق على شـوقى بك لقب «أمير الشعراء» ، وكـان حفل الأوبرا للمبـايعة شعرا من بقيـة الشعراء . ولقب أمير الشعراء قـديم ، ولكنه عـاد مع شوقى ، وظل يتمتع به وحده ولم يزاحمه فيه بعده أحد . وأيـامها لم يعد لائقا ألا يحمل منافسه وصديقـه وقارىء أشعاره حـافظ إبراهيم لقبـا شعبيا هو الآخـر ، فأطلقت عليه

الصحافة لقب «شاعر النيل» بعد قصيدته الشهيرة عن النيل وحين فصل الدكتور طه حسين بعد كتابه الجرىء «فى الشعر الجاهلى» من منصب عميد كلية الآداب فى جامعة فؤاد الأول . القاهرة الآن ، أطلق عليه النقاد لقب «عميد الأدب العربى» ، ولم يعد الدكتور المفصول عميد لكلية واحدة تدرس الأدب بل عميد للأدب كله . وشملت هذه الانعامات الشعبية أهل الفن أيضا ، وأصبح أول لقب للموسيقار محمد عبد الوهاب «مطرب الملوك والأمراء» ، وأصبحت كذلك أم كلثوم «كوكب الشرق» بلا منازع . وأصبحت المطربة فتحية أحمد «مطربة القطرين» ، على وزن «شاعر القطرين» مطران خليل مطران .

وفازت روز اليوسف فى المسرح بلقب «سارة برنارد الشرق» . وكان اسم هذه الممثلة الفرنسية يملأ دنيا الفن ، لأنها كانت نجمة «الكوميدى فرانسيز» ، وكانت تعرض بعض مسرحياتها الفرنسية فى موسم الأوبرا المصرية .

فكيف وصلت هذه الفتاة الصغيرة ، فاطمة اليوسف أو روز اليوسف ، إلى هذه الشهرة حتى يطلق عليها النقاد اسم شهرتها بأنها سارة برنارد الشرق ؟

لابد أن فيها شيئا أكثر من الأنوثة والجمال ، بل وأقوى من الموهبة ، جعلها نجمة النجوم فى جيلها .

وقد ظللت حائرا فى سرها ، حتى عملت فى روز اليوسف ، وقابلتها بعد ثلاثين عاما من إنشاء المجلة ، واعتزالها المسرح .

ولن تستطيع اكتشاف سر روز اليوسف قبل أن تقابلها وجها لوجه ، فقد أحسست عندما جلست إليها أن ماكان فيها يفوق الجمال والأنوثة والموهبة ، ويمكن أن يسمى بالحاسة السادسة التى لا توهب لنساء كثيرات . كانت موهبة هذه المرأة أنها تستطيع أن تفهم الرجل من نظرة .

كانت موهبة لا تحتاج إلى تجربة ، لأنها تمتعت بها فى أوائل حياتها المسرحية ، ولهذا اختارت عزيز عيد وابتعدت عن يوسف وهبى ، وأصبحت التلميذة زوجة ثم شريكة فى المسرحيات .

وحاسة المرأة السادسة تصبح قوية فيما نسميه الآن قراءة الغيب . وكانت الفتاة تتميز بتلك الحساسية المشتعلة وذلك الذكاء الوقاد والقدرة على استشعار الغد أو المستقبل ، وتنجح هذه الموهبة عادة فى التجديد والتغيير ، لأن النظرة لا تقف عند الحدود وتستطيع أن تتخيل الجديد القادم .

وكانت روزا دائما مشتعلة الخيال وتستطيع قراءة المستقبل فاستند جمالها إلى خيالها ليصل بها إلى قمة النجاح .

وليس صدفة أن تترك المسرح وهى فى قمة المجد ، وليس صدفة أن يرتبط مصيرها بعزيز عيد الذى جدد المسرح فى العشرينات ، وأن يعمل فى مجلتها محمد التابعى الذى جدد الصحافة بعد صدور الدستور ، لأن التابعى كان أيضا مجددا

فى الصحافة كما كان عزيز عيد مجددا فى المسرح . وكما تخلص عزيز عيد من الفخامة والجزالة والاعتماد على المؤثرات البلاغية فى التمثيل ، خلص التابعى لغة الصحافة من فخامة الأسلوب الأدبى ليصل إلى اللغة السهلة البسيطة المعبرة ليصل إلى القراء . وكلا الرجلين فى المسرح أو الصحافة لعبا نفس دور التجديد والتغيير ، ولهذا ظننت أن حياة روز اليوسف لم تنقطع بين المسرح والصحافة ، وكان دورها الحقيقى هو البحث دائما عن الجديد .

وظللت دائما أثناء عملى فى مجلتها لا أظنها قد هجرت المسرح تماما ، لأننا تعودنا جميعا أن نسمعها قبل أن نراها فى الدار . وكنا نعرف قبل أن نراها أين توجد ، وكان صوتها دليلنا لأن يسبقها . وكعادة نجوم المسرح الكبار قبل دخول المسرح يسبقهم صوتهم عاليا بين الكواليس لتنبيه الجمهور قبل ظهور النجم على المسرح . وكان صوتها يسبقها ، فنعرف أنها وصلت إلى الباب ، ثم دخلت إلى المطبعة ، وبعدها مرت على الأرشيف أو دخلت غرفتها أو اتجهت إلى غرفة إحسان المقابلة .

وظللت عامين لم أقابلها وجها لوجه حتى التقينا فى صالة التحرير بالصدفة ، فقالت لى : عايزاك . وأعطتنى موعدا بعد أيام ولم تطلبنى . ولم أعرف السبب حتى لقيتها مرة ثانية بالصدفة أيضا . فقادتنى إلى غرفة سكرتير التحرير الذى كان يصل متأخرا لأنه يسهر حتى الفجر .

وأقفلت الباب ، وجلست على المكتب وأنا اتفحصها لأول مرة عن قرب . كان وجهها لم يتعود على الماكياج ، لأن جمالها لا يحتاج إليه كثيرا . وكان بياضها فيه لون وردى مضىء ، وقد اختارت ثوبا من ألوان الباستيل اللطيف ، وكان شعرها أبيض ولكنه ملىء بالحيوية . وأحسست أنها سيدة لا تتكرر . وتخيلت أن ثوبا لا يستطيع أن يثبت كثيرا فوق كتفها من روعة استدارته ونعومته . وانتظرت أن تبدأ الحديث لتقطع نظراتى المتلهفة المتفحصة .

فقالت بعد عدة كلمات : إننى أقرأ لك .

ووقفت ايذانا بانتهاء المقابلة . وتركتنى مذهولا أتساءل : هل كانت تريد مقابلتى لتزف إلىّ هذا الخبر ، واغتظت قليلا وكأنها كانت تنعم علىّ بلقب فارس ، وتقول لى :

قم ، فأنت كاتب .

وكأنها كانت تنعم على بنيشان جديد ابتكرته اسمه «نيشان القراءة».

وأيامها كنت قعد بدأت سلسلة مقالاتى عن مذاهب غريبة ، وبدأت ألفت الأنظار . وكان إحسان عبدالقدوس يحرضنى أن أترك المحاماة وأتفرغ للكتابة . وظللت مترددا عامين كاملين ، ولم أتخذ قرارى للتفرغ للكتابة والصحافة إلا بعد أن أنعمت علىّ روز اليوسف فى تلك الجلسة القصيرة بنيشان القراءة .

١٤

كل النساء

أثناء زيارتى إلى الصين منذ سنوات اكتشفت أن أدب إحسان عبد القدوس معروف ورائج في بلاد الألف مليون ، فقد ترجموا له «شيء فى صدرى» و«فى بيتنا رجل» و«العجوز يشترى السلاح» ، و«سارق الأتوبيس» و«انتحار صاحب الشقة».

وفى العام الماضى ترجموا له «الوسادة الخالية»، وتضم قصصا عدة تحمل أولها عنوان «الوسادة» ، وقصصا أخرى قصيرة هى «كل النساء» و«دعنى لولدى» ، و«الله محبة» و«عمرنا ٤ ساعات» .

وقد طلبت منى عائلة إحسان عبد القدوس أن أكتب منذ شهور مقدمة للطبعة الصينية من «الوسادة الخالية» فتوقفت طويلا قبل كتابة مقدمتى القصيرة عند ظاهرة إحسان فى الأدب العربى وأدب المرأة . لأننى أعرف أن بعض ما يترجم إلى اللغات الأجنبية العديدة فى الخارج «من قبيل التعارف». فالذين يريدون التعرف إلينا قد يقرأون بعض أدبنا القديم أو الحديث. ولكن استمرار ترجمة إحسان عبد القدوس إلي اللغة الصينية وفى الصين قد يكون ظاهرة تحتاج تفسيرا .

ولابد من أن يكون هناك ما هو أكثر من رغبة التعارف ماداموا يستمرون فى ترجمة أعماله .

وقد لازمت إحسان أكثر من عشر سنوات .. كل يوم تقريبا . وكان عادة يبدأ فى «روز اليوسف» رواياته المسلسلة فى موسم القراءة الشتوى الذى كان يبدأ مع دخول الجامعات والمدارس فى أكتوبر (تشرين الأول) من كل عام، وكان ينتهى مع دخول الصيف. وكانت رواياته سببا فى ارتفاع التوزيع. فأصبح يكتب على مدار السنة ، وبدأ يكتب فى «صباح الخير» أيضا «البنات والصيف» ثم «زوجة أحمد» .

وكان إحسان فى «روز اليوسف» القديمة فى شارع حسين حجازى أو الجديدة فى شارع القصر العينى عاكفا دائما على قلمه . وعاصرته وهو يبدأ بـ«فى بيتنا رجل» عام ١٩٥٧ ، و«شيء فى صدرى» عام ١٩٥٨ ، و«لا تطفىء الشمس» عام ١٩٦٠؛ وكان متدفقا غزيرا ، وقد أدخل هذا اللون الرائج الناجح من الروايات المسلسلة التى يسميها كبار النقاد فى فرنسا «الرواية النهر» ، لأنها تتدفق بانتظام عاما أو بعض عام .

وقـد بـدأ إحسان عبـد القـدوس أولى قصصـه بقصة قصيرة كـان عنـوانها «الفستان» عام ١٩٣٨، وكان لا يزال فى التاسعة عشرة من عمره، ثم استمر يكتب حتى آخر قصـة نشرها قبل وفـاته عـام ١٩٩٠. فظل أكثر من ستين عـاما يكتب القصـة والروايـة والسينـاريـو، وظل من أقدر الكتـاب على تصـويـر المشاعـر النسائية . من الفتاة المراهقة إلى السيدة اللعوب أو الطـائشة، ومن الزوجة الوفية إلى الخائنـة المطلقة، ومن الابنـة أو الزوجـة والأم أو الشقيقة إلى الأم التى تـرعى أولادها بعد الطلاق أو بعد وفاة زوجها . وكان إحسان عبدالقدوس لايترك امرأة ـ باعمارها أو أطوارها ـ إلا ويحللها ، فلم تنج من تحليلاته امرأة . مخلصة وفية أو طائشة ربة بيت أو عالمة ذرة .

وكان إحسان شـديد الذكاء ، وأغلب ذكـائه كان عاطفيا . وكـان خياله سريع الاشتعال . لا يكـاد يسمع خبرا أو حديثا أو يـرى شخصا أو يسمع صـوتا حتى ينطلق خياله. فيتحول عنده إلى فكرة قصة أو رواية ، وكان يقول :

«لا أستطيع الهروب من خيالى . والصحافى يضيع منى داخل الأديب».

واستطاع إحسـان أن يرسـم فى قصصه ورواياتـه ملامح العديـد من النساء، مثل «نـوال» فى قصـة «فى بيتنـا رجل». و «فـايـزة»، و «سميحـة» فى «الـوسـادة الخاليـة»، و «عليـة» فى «أين عمـرى»، و «سنـاء» فى «لا شىء يهم»، و «نـانـا» فى «النظارة السوداء».. وغيرهن الكثيرات.

وبين مجموعات قصصه التى بلغت من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٩٠ نحو ٥٨ كتابا، تجد فى عناوين قصصـه الكثير عن الأزواج والزوجـات. ومنها «البحث عن زوج» فى «بائع الحب»، و «الزوجـة المثالية» فى مجموعـة «عقلى وقلبى»، وقصص أخرى مثل «الـزوجة والابنـة»، و «زوجـاتنا»، و «السكـرتيرة والـزوجة».. و «تـزوجت عجـوزا»، و «كـرامة زوجتـى» و «زوجة وخـادمـة»، و «زوجـة تبحث عن عمل»، و «الـزوجة الثـانية»، و «لماذا تـزوجتها»، و «أين زوجتى»، و «هكـذا يتزوجـون»، و «زوجات ضائعات»، و «الأزواج الأحرار» .

وهكذا كـان يختار أيضا العناويـن النسائية لقصصه الطـويلة أو القصيرة، مثل «أنـا حـرة»، و «ثـلاث نسـاء»، و «هـى والـرجـال»، و «البنـات والصيف»، و «الراقصة والطبال». و «أنا لا عاقلة ولا مجنونة».

ولكن المرأة عند إحسان عبـد القدوس اختلفت تماما عن الأدباء الـذين سبقوا عصره وسبقوه، والمرأة عنـد توفيق الحكيم أو عنـد نجيب محفوظ تختلـف تماما لاختلاف الجيل ولاختلاف النظرة. ففى «عـودة الروح» صور الحكيم أثناء ثورة ١٩١٩ بطلته «سنيـة»، وهى فتاة كـانت تضع «اليشمك» أو «البيشة» الشفـافة

الخفيفة فوق وجهها، بل صور الحكيم قصة الحب قصة عجيبة، لأن أبطال «عودة الروح» يتكدسون معا فى بيت واحد، وبينهم «محسن» البطل الشاب الذى يحب جارته «سنية» حبا عذريا رومانسيا. بينما عمه الكبير الموقوف عن العمل يحبها ويتمناها ولا ينالها. ثم العم الصغير الذى لا يجرؤ إلا على النظر فى لون ثوبها. وأراد الحكيم أن يصور أبطاله فى غرابتهم، لأنهم يؤلفون معا «جمعية» لحب فتاة واحدة، وهى ألوان ثلاثة متنوعة من الحب وأبطال القصة يحبون معا، وينامون ويمرضون ويأكلون معا، والبطلة تضع على وجهها اليشمك الشفاف.. والحب فى «عودة الروح» حب من بعيد.. لبعيد.

وحتى عند نجيب محفوظ. فى رواياته الأولى التى صورت العشرينات فى القاهرة، نجد «ياسين»، الابن الذى ورث عن ابيه «سى السيد» جانبه الحسى يلاحق فى رواية «السكرية» فتاة راقت له مشيتها، ولا يكتشف من وراء اليشمك، أو من وراء «اليشمك»، ويعترض طريقها سائلا :

– على فين يا جميل ؟

فترد الفتاة ـ وهى شقيقته :

– على البيت .. يا سى ياسين .

وقد تغير وضع المرأة بين جيل الحكيم ومحفوظ وجيل إحسان ، وهذا ما أدركه الكاتب بخياله وتجربته. فقد تغيرت مصر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كما تغير الأدب من بقايا الرمانسية إلى بداية الواقعية. واستطاع إحسان اقتحام عالم جديد تماما، وأصبح الحب هو موضوعه المفضل والمستمر والدائم، وأدرك ان دوره الفنى هو ملاحقة تطور المرأة الجديدة فى البيت والعمل .

وخلال خمسين عاما أو يزيد، اقتحم إحسان عالما جديدا لم يجرؤ كاتب أو كاتبة على اقتحامه وتصويره بتفاصيله التى حققت له رواجا وذيوعا بين القارئات. ولكن جرأته لم تشفع له فى حملات الاتهام. فاتهمه العقاد الكبير بأن أدبه من أدب «الفراش» وبلغت الحملة القاسية ذروتها فى السبعينات. حين تقدم أحد النواب باتهامه بعد روايته «أنف وثلاث عيون»، ولم يسعفه أحد من النقاد مدافعا أو محللا وسط اتهامات عنيفة بأنه يتجرأ على معالجة الجنس بصراحة فى رواياته. خصوصا «النساء لهن أسنان بيضاء»، و«أنف وثلاث عيون» و«دمى ودموعى وابتساماتى»، و«العذراء والشعر الأبيض»، و«نسيت أنى امرأة»، و«لا ليس جسدك»، و«فوق الحلال والحرام» .

وكان إحسان يواصل الكتابة بغزارة ، ويدافع عن نفسه قليلا . وفى احاديث قليلة نادرة كان يقول إنه لا يعالج الجنس فى رواياته النسائية، وكان أحيانا

يستنجد بروايات البرتو مورافيا الكاتب الايطالى، أو الكاتبة الفرنسية فرانسواز ساجان، لأنهما لا يكتبان عن الجنس من أجل الجنس والاثارة، ولكنهما يتناولانه بما تفرضه القصة والرواية، وكان إحسان يظن أن أحدا من كبار النقاد سوف ينبرى للدفاع عنه، ليكشف انه حين عالج الجنس بغير حب فى قصته «النظارة السوداء»، كان يريد أن يقول أن الجنس بغير حب يبعث عن الاشمئزاز وأنه يقاوم فى أدبه ان تكون المرأة مجرد جارية ومتعة. وكان يقول انه قصد فى «الهزيمة اسمها فاطمة». وفى «امبراطورية ميم» أنه يدافع عن فكرة الديمقراطية داخل الأسرة ولم يقصد فى «أنا حرة» حرية البحث عن المتعة الحسية، ولكن البحث عن الحب.. الحقيقى والصادق.

ولم يبلغ أديب فى جيلنا كل تلك الشهرة والذيوع والرواج. فانتقلت رواياته المسلسلة وقصصه القصيرة إلى السينما والإذاعة والتليفزيون والمسرح. وساعدت السينما على رواج أدبه حتى أصبح مقررا على مخرجى السينما، فأخرجت له السينما خمسين فيلما. وأعد له المسرح خمسة، وأخرجت الإذاعة تسع قصص، وقدم له التليفزيون ١٤ قصة ورواية، وترجمت له ١٢ قصة إلى الانجليزية، و ٤١ قصة إلى الفرنسية، وإلى الالمانية انتقلت قصتان، وإلى اللغة الاوكرانية قصتان، وأخيرا إلى الصينية.. وصلت «الوسادة الخالية».

ومازال أدب إحسان عبد القدوس يحتاج إلى ناقد ـ أو ناقدة ـ يفسر لنا ظاهرة إحسان فى كتاباته عن المرأة.

١٥ سوازن طه حسين

دخلت فيلــلا « رامتــان » حيث يقيم طــه حسين قـرب الهرم.. وأحسست من خطوتى الأولى سهولـة الخطو بلا عائق ، فقـد خلا مدخل البــاب من عتبة الدخــول المعتادة المرتفعة قليلا عن الأرض .

لكنى توقفت متهيبا .

وحين دخلت إلى مكتبـه قرب بـاب الدخول ، وقـد أرخيت الستــائر على الباب الذى يؤدى إلى الحديقـة ، أخذنى أن ضوءها يستريح إلى ظلها ، والضــوء يدنو من الظل ليمحــو بعضه ، ويبقـى شيء من الظل عالقـا ، كأنها لـوحـة رسام قـديم ، الضوء والظل فيهما لون الطمأنينة .

وتحدث العميد بصوته الطلى العميق .

فأخـذتنى الطلاوة والحلاوة ، لكن بقـى تهيبى . وظللت مشدودا . لاأريـد أن تفـوتنى كلمة من حـديثـه ، حتى خفضت من هيبتى طـلاوة الحديث .. ثم طيف فكاهة ســاخرة ، لعلها من موروث الأزهــر القديم حين امتزج بلطف الثقـافة عند أهل باريس .

ولكننى أدركت فجأة أن حـديثــه الىّ يختلط بحـديثى مع نفسى ، وأحسست أننى أحملق فيه ، وقـد اتسعت حدقتــاى ، فقد راعنى أن طـه حسين لايجلس أبدا جلسة الكفيف . وكــان العميد فى مقعـده يرخى على رجليـه بطانيـة من الصوف . ويضع يده اليسرى إلى جــانب جسمه ، ويمد يده اليمنى على ذراع مقعـده فى هدوء وجلال .

وتنبهت أن طـــه حسين يجلس عمـــودى الصــدر ، مـرتفع الكتفين ، مشرئب العنق .

وظننت انه يدركنى قبل ان ادركه .

وكأنه يرانى ببصيرته قبل أن ألاحقه بالبصر .

وكنت أظن قبل هذا اللقاء ان الكفيف له جلسته « الخاصة » .. يكاد ينطوى على جسده ، ويسقط كتفيه ، ولايبــالغ فى فتح ذراعيه .. وقد يتلمس جسمــه بأصابعه أو يفركها فى انطواء وترقب .

لكنى وجدت طـه حسين مرتفع الهامــة والصدر والكتفين ، كأنما تخلص من

جلسة الكفيف تماما .

وحيرتنى جلسته وهيئته .

فاستنجدت بصديقه الشاعر الفنان عبدالرحمن صدقي . وقد عمل معه سنوات عديدة فى وزارة المعارف ، وحكيت له حيرتى ، فقال لى :

– انها سوزان .

فقد تعهدته فى مونبيلييه ، ثم باريس ، بعد أن أحبته . وقرر أن يتخلص تماما من أيامه الشقية ، حتى وصل إلى أن يتعلم الأكل بالشوكة والسكين . وان يحلق ذقنه بنفسيه . ولم يعد يهاب الجلوس إلى مائدة الطعام فى المآدب والحفلات بعد ان كان يستحى ان يشرب على المائدة مخافة ان يضطرب الكوب فى يده . وبعد ان كان فى طفولته يبالغ فى تصغير لقمته إلى الحد الذى كان يضحك اخوته ، وبعد ان كان يتجنب ان يقع فى مقلب أكل العسل ، حتى لايسيل على ثوبه ، مما كان يثير ضحك الصغار وبكاء امه ، وهو لاينسى ، كما روى فى «الأيام » كيف نسيه اخوه وصحبه ذات مرة فى القطار « فأحس انهم تركوه كالشوال » .

والعجيب ألا تختلف التجربة بين مصر وفرنسا ، حين تقدم أول مرة إلى الأزهر لأداء امتحان القبول ، فقال أحد ممتحنيه :

– اقرأ يا أعمى سورة الكهف .

ثم تغير المكان ومرت السنوات ، فإذا به حين يدخل قاعة المحاضرات أول مرة فى جامعة مونبيلييه ، كان أول جملة يسمعها أيضا من أستاذه الفرنسى يقولها لصاحبه الذى يصحبه :

– أيكون زميلك هذا مكفوفا ؟

فقد رآه الأستاذ يدخل قاعة المحاضرات من دون ان يرفع قبعته كعادة الأوروبيين حين يدخلون المكان .

وهكذا تلاحقت تلك المواقف الأليمة .. لافرق بين دخوله بالعمامة أو القبعة ، جامعة الأزهر أو جامعة مونبيلييه .

وهكذا أيضا ، أصبحت سوزان فتاة مونبيلييه ، والتى سكن فى بيت أسرتها فى باريس ، قارئته ودليلته إلى السوربون ، ثم زوجته . وصمم طه حسين ان يدرس الليسانس قبل الدكتوراه ، ومع أنه حصل على أول دكتوراه فى الجامعة المصرية ، وان يتعلم اللاتينية الصعبة ، وأن يقرأ الخرائط ، ولم تكن قد ابتكرت بعد قراءتها بطريقة برايل ، ولولا سوزان التى صحبته فى رحلته الفرنسية ، ثم جاءت معه إلى مصر ، لشق عليه ان يشق طريقه الصعب . ولعل من أجمل الكتب التى كتبتها زوجة عن زوجها هو كتاب سوزان طه حسين : « معك » .. وتروى فيه قصة حبها

لــه ، ووصــولها معــه إلى مصر ، وانتقـالها من شـارع السكـاكينى إلى شـارع الحوايـاتى بقصر النيل ، إلى الـزمالـك ، ثم فيللا « رامتـان » بـالهرم ، ونلمس ان شرطها الوحيد بين الفقر والغنى ان تكون لهما دائما حـديقة ـ صغيرة أو كبيرة ـ حتى تملأها له بالورود والأزهار .

وقد كـان يوم ١٢ مايـو (أيار) ١٩١٥ ـ منذ ٨٠ عـاما ـ أول يـوم التقت فيه سوزان طه حسـين فى مونبيلييه . وانتقلا معـا إلى باريس ، فى « شارع جى لوساك » ثم شـارع « الأوبزر فـاتوار » . واستمـر حبهما ٥٨ عامـا . وتنقل الزوجـان من السكاكينى إلى الحواياتى إلى الزمـالك ثم الهرم . ولم يستطع طه حسين بناء بيته الأبيض « رامتـان » إلا عام ١٩٥٦ ، وكـان قد بلغ السـادسة والستين . وعهـدت العائلـة السعيدة إلى عائلهـا ان يختار اسم الفيللا الجديـدة فاختار اسما عـربيا قديما هـو « رامتان » .. والـرامة هى الخيمـة ، والمثنى رمز لأن ابنهما « مـؤنس » سيعيش معهما فى « خيمة » أخرى .

وملأت ســوزان حديقة « رامتـان » بالـزهور والورود التى يحبهـا زوجها، وكـانت شجـرة « الفلفل » تصل إلى الشرفـة . وقـد صممت الحديقـة الـواسعـة الفسيحة من دون شجيرات تعترض خطوات العميـد الذى كان يجب ان يسمع فى حديقتهما أجمل الأصوات التى أحبها ، وخـو صوت الكروان . وأحسست فى بيت صاحـب « دعاء الكـروان » بما وراء تلك الطبيعة الجميلـة ، ورأيتها فى ابتسـامته التى تسمع .

كان فى ذلـك البيت مايفـوق حب الزوجين اسمــه « هدوء السر » وقد تـداخلت حياتهما كما يتداخل الضوء والظل فى لوحة رسام قديم .

١٦

وراء كل عظيم ..

قصة حب أو حنان

كان أول حديث صحافى فى حياتى مع عباس محمود العقاد .

وكنت فى التاسعة عشرة . وكان من أحلام طلاب القانون ادعاء الأدب . وكنت فى الأصل شغوفاً بالقراءة ، وظننت أن دراسة القانون ستسمح لى بقراءة الأدب قراءة حرة ، ولهذا لم ألتحق بكلية الآداب ، حتى لاأصبح فى النهاية مدرسا . وظننت أن الشغف بالأدب تكفيه القراءة . فكنت أيامها أعبر فناء الجامعة لاتنقل من أساتذة القانون حتى أسمع الدكتور محمد مندور فى كلية الآداب . وكان مندور نفسه نموذجا خلب جيلنا . لأنه جمع معا بين دراستين وشهادتين : فى القانون والأدب .

ومثل عديد من الشباب الهواة ، فكرنا فى اصدار مجلة أدبية . وكان اسمها «البستان » ، وكان يملكها قريب لزميل من الأرياف . واقترحت أن أحصل لـ «البستان » على حديث صحافى مع عباس محمود العقاد .

وبقدر حبى لطه حسين وتوفيق الحكيم ، كان اعجابى بالعقاد . وكما كانت فى مصر أحزاب غنائية ، منها حزب أم كلثوم وحزب عبدالوهاب ، كان فى مصر أيضا حزب الثقافة الفرنسية وعلى رأسه طه حسين وتوفيق الحكيم . وحزب الثقافة الانجلو ـ سكسونية وعلى رأسه عباس العقاد وسلامة موسى . وآثرت أن أبقى مستقلا بين هذه الأحزاب ، لأننى كنت أحب طه حسين والحكيم وكنت أيضا شديد الاعجاب بالعقاد . وقد تأكدت مكانته فى قلبى منذ العاشرة .

وكنت أذهب إلى ميدان الجيزة كل مساء لأشتري لأبى جريدة « البلاغ » وكان أبى عقاديا . وفى الطريق من الميدان إلى بيتنا القريب بشارع « عباس » ، كنت أقرأ افتتاحية عباس العقاد كل يوم على الصفحة الأولى . ومنذ صباى كنت أتوقف عند عنوان مقاله ، واندهش لأنه الكاتب الوحيد فى مصر الذى يسبقون اسمه بهذا الوصف دائما : « .. بقلم الأستاذ الكبير .. ».

ولم أصدق أن العملاق الكبير سيمنح طالبا صغيراً فى الجامعة مثلى حديثا فى السياسة . ولكنه استقبلنى جادا ثم بشوشا . فى مكتبه المؤقت بجريدة الدستور فى شارع عدلى . وكان مكتبه « مؤقتا » لأنه يكتب فى بيته ولا يحضر للجريدة إلا لمراجعة افتتاحيته . ولعله استجاب للاجابة لجرأة السؤال . فقد سألته :

– هل تـوافق عبـد العزيـز بـاشا فهمى على مـايقـولـه ان دستور ٢٣ ثـوب فضفاض ؟

وكـان عبـدالعزيز فهمى رئيســا لحزب الأحــرار الـذى يصـدر جـريـدة «الدستور » .

وانطلق العقاد مـدافعا عن الدستور ، انتقد رئيـس الحزب بشدة . ومع اننى وقتها لم أكن قد قرأت مواقف عبدالعـزيز فهمى فى لجنة إعداد الدستور عام ٢٣ ، وكان أيامها محاميا للحريات ، شديد الحماسة والحجة لاطلاق الحريات العامة ، وعلى رأسها حرية التعبير والصحافة . ولكن ربع قرن من السياسة جعلته أيامها يلقى بهذا التصريح الذى يميل إلى اعـادة النظر فى الحريات وتقييدهـا بدعوى أن الدستور « ثوب فضفاض » .

وأيامهـا لم يعبأ الأستاذ الكبير بأنه « يعمل » فى جـريدة يصدرهـا أو يترأسها عبدالعـزيز باشـا فهمى نفسه . وتلقيت من أول حديث للعقـاد ما وراء الحديث ، وأول درس فى كبرياء الكـاتب ، واعتزازه بـرأيه ، ،مهما جـاءت العواقب أو كـانت النتائج .

وظلت مكانة العقاد ، من القراءة واللقاء ، فى قلبى منذ الصغر .

ولم أسع إلى صـالـون العقـاد فى بيتـه فى مصر الجديـدة ، لأننى كنت ألقـاه بسهولة فى المكتبات . وبينما كان طه حسين لايظهر كثيرا ، وكان توفيق الحكيم فى محله المختار والدائم على مقهى « ريتز » فى عمارة الأيمـوبيليا . كان المحل المختار للأستاذ الكبير فى المكتبة التجارية فى شـارع محمد على بالقرب من ميدان العتبة . وكـان كل من يعبر الطـريق إلى دار الكتب ، أو حتى يـركب الترام إلى ميـدان بـاب الخلق يراه دائما فى جلسته الدائمة كـل صباح فى تلك المكتبة . وتعودت على العقاد يتجول بين مكتبات « النهضة » و« الأنجلو » وسط القاهـرة ، وباحثا عن مزيد من الكتب وأصبح العقاد عنـدى من مشاهير القـراء في مصر قبل أن يصبح من أشهر الكتـاب . وبعـد سنـوات كـان العقـاد يأتى إلى الـدار المصريـة للكتب فى شـارع عبدالخالق ثروت . ولم يكن صـاحبها لطـف الله سليمان بائع كتب ، بل كان مثقفا يعرف مـا يقرؤه زبائنه ، وكـان يختار قوائم الكتب التى سيشتريها منه زبـائنه ، وكـان يستورد الجديـد المفيد . وفى مكتبتـه كـان يلتقي العقاد وسـلامة مـوسى وأحمد بهاء الدين وأمثالى جورج حنين وأنيس منصور وكثيرون من جيلنا .

وفوجئت من كثـرة زيارتى لهذه المكتبة ، واقامتى فيها بضع سـاعت كل يوم تقريبـا ، أن العقاد كـان يأتى حامـلا معه « شيلـة » من الكتب وفى كل مـرة ،كان يخرج ولا يحمل شيئا .

وظننت أول الأمر أن الأستاذ الكبير يمر بضائقة مالية . وأنه يتخلص من كتبه ببيعها . ولكن المشهد تكرر ، وظل فى نفسى هذا الظن، وأنا لا أجرؤ على سؤال الأستاذ الكبير أو صاحب المكتبة . حتى أفشى لى صاحب المكتبة بالسر بين العقاد وبينه .

فقد كان عباس العقاد ، لكثرة كتبه فى مكتبته . يضطر إلى شراء نسخ ، مكررة ، لسرعة حاجته إليها . واتفق مع صاحب المكتبة على ان يستدل بالنسخ المكررة والكثيرة كتبا جديدة لم يقرأها . وكشفت لى تلك القصة الصغيرة عن شغف الكاتب الكبير بالكتب وحبه للقراءة ، ومنها أدركت مدى « موسوعيته » الفذة لأنه كاتب « كتب كثيراً وقرأ أكثر » .

وظلت صورة العملاق العصامى الذى أفادته « القراءة الحرة » وعلم نفسه بنفسه ، وصمم حين يكتب أن يسبق اسمه دائما لقب «الكاتب الكبير » .

وبقيت فى جيلنا صورة هذا العملاق العصامى ، عملاق الكبرياء فى كل معاركه التى لاتنتهى . وكان يخوضها فى الأدب والسياسة فارسا : قاتلا أو مقتولا .

وكان العقاد شاعرا وجدانيا جياشا رقيقا فى بداية حياته . ولكن صورته الشاعرية اختفت وراء صورة الكاتب الذى يشهر قلمه كالسيف، حتى عرفنا قصة حبه العميق لممثلة فاتنة سمراء . فاض الجمال فيها . وأفرطت السينما فى كشف مفاتنها وملامها وقوامها ومشيتها ، ومهارة السينما هى الاغراق بالتفاصيل بفضل « القطات » الكبيرة » . وكانت الفاتنة الجميلة تتفوق على فاتنات السينما بأنها سمراء وفصيحة الجمال فى كل شىء . ويبدو أن ماخلب أبناء جيلنا ، وجيل العقاد من قبلنا ، أننا كنا نريد جميعا فى أعماق قلوبنا أن نتخلص من البياض الجركسى والتركى الذى خلب أجيالا سابقة ، لنلتقى صورة الجمال الأسمر الجديد . وكانت تلك الممثلة الفاتنة الجمال ، وقتها . صورة لهذا الحلم أو الوهم ، فتعلق بها العقاد . ولكن يبدو أنه أحب صورتها قبل اللقاء بها .

ولم تدم قصة الحب طويلا ، ولم تنته قصتهما بالنهاية الصعيدة المعهودة فى السينما ، وهى زواج البطل والبطلة . بل يبدو أيضا أن ماجذبها للعقاد صورته وشهرته ، فكان الحب فاشلا . ولعل العقاد أرادها له وحده ، وكانت فى بداياتها تسعى إلى شهرة العقاد أكثر من قلبه الجياش . وقد أوحى العقاد إلى صديقه الرسام صلاح طاهر بأن يلخص حبه ، فرسم الرسام « تورتة » لذيذة ولكن يحوم فوقها الذباب.

واثر العقاد أن يكتب كثيرا عن المرأة شعرا أو نثرا ، ولم يجرؤ على الزواج ، وكان يردد من شعره القديم :

يا جنـــــة حســــنها عتـــــاب

يا خمـــــرة عــــذبها عــــذاب

وعزى نفسه كثيرا بقراءته الكثيرة عن عمالقة الفكر الذين لم يتروجوا ، ومنهم « كانت » و « شوبنهاور » .. وكان يحكى ضاحكا قصة لقاء « بيتهوفن » بإحدى المعجبات التى هالها حين ذهبت إليه رثاثة ثوبه ، وفوضى غرفته ، وخاصة حين توقفت عند اظفاره التى لم يعتن بنظافتها . فقالت لإحدى صديقاتها :

— كيف أستمع لموسيقاه بعد ذلك وقد رأيت أظفاره ؟

وهكذا ظل العصامى أعزب ، لانعرف شيئا كثيرا أو قليلا عن حياته العاطفية الخاصة ، حتى كان يوم وفاته مفاجأة . فقد انتحرت فتاة بعد وفاته بيوم حزنا عليه .

وكانت الفتاة تسميه « بابا » وانطلقت الشائعات بأنه أبوها فى الحقيقة . ولكن ابن أخيه عامر العقاد صحح لنا الشائعات ، لأن هذه الفتاة كانت ابنة أحد التجار الشوام الذين تعرف إليهم العقاد فى بداية حياته فى القاهرة ، وكان يسكن فى العباسية قبل انتقاله إلى مصر الجديدة ، وكانت حجرته الصغيرة تواجه شقة سكنت بها عائلة التاجر الذى كان يحب الأدب . ومات الأب عن ابنة صغيرة فجأة عام ١٩٣٣ ، وحزن العقاد عليه . وبعد وفاة العائل بحثت العائلة عن ملجأ للصغيرة، وقرر العقاد أن ينفق عليها حتى لاتضام الصغيرة مادام حياً .

ولم تطق الصغيرة وفاة أبيها وهى صغيرة ، ولم تطق فقدان أبيها بالتبنى وهى شابة ، وفاجأت الجميع بالنهاية الأليمة وهي الانتحار . وقد لايكون وراء كل عظيم قصة حب كبيرة ، ولكن وراء هذا العملاق كانت قصة عظيمة .. من الحب والحنان .

١٧

نســـاء

يحيى حقى

لم تؤثر فى جيلنا قصــة مثل قصة يحيى حقى .. « قنديل أم هاشم». وقــد ظللت أعواما طــويلة أظن أن « إسماعيل » بطل القنــديل هــو نفســـه يحيى حقى . فــالبطل عاش فى أوروبا كما عاش الــدبلوماسي يحيى حقى بعيدا عــن مصر . والبطل نفسـه عاش وغاص فى أكثر احيائها الشعبية كما عاش يحيى حقى أيضا .

ورغم أننى عرفت يحيى حقــى ، وأحببته منذ شبــابى . شـأن جيلى من القراء ، إلا أننى لم أكتشف أنه ليس هو بطل القصة إلا منذ سنين قلائل .

فقــد كشف يحيى حقى فى طبعــة جــديدة من قصـــة « قنــديل أم هـــاشم» تلك الحقيقة فى مقدمتــه الجديدة ، وقال ان بطل القصة هــو اسماعيل كامل أول سفير لمصر فى الهند بعد استقلالها .

وأذهلنى ما قرأت . وأذهلنى أكثر اننى كنت قد عرفت اسماعيل كامل عن قرب بعد قراءتى القصة بسنــوات . وكان السفير يحضر أول مؤتمر فى دلهى للتضامن الآسيوى ــ الأفريقى مع الشعب الاندونيسى .. ولم تكن اندونيسيــا قد استقلت بعد . وفكــر جواهــر لال نهرو ، أول رئيس للحكومة الهنــدية بعــد الاستقلال ، فى دعــوة الـــدول المستقلــة فى آسيا وأفريقيا لتأييد استقلال الشعب الاندونيسى . وكانت الفكرة جديدة .

وشهدت وسمعت اسماعيل كامل يلقى خطابــه ، وكان خطاب السفير مفاجأة فى بلاغتــه . وكان نهرو نفسه أديبا وخطيبــا . وفيه شبهة زهو وشطحـــة استعلاء فكرى لأنه يحب البلاغة ويضيق بالركاكة . وفوجئنا جميعا بأنه ينزل عن منصة رئاسة المؤتمر ليعانق السفير . فقد كان خطابه قطعة أدبية رائعة .

وعــرفت بعد ذلك ان اسماعيل كــامل يجيد عــدة لغات ومنهــا التركية . وكــان نموذجا للمصرى الذى اغترب طويلا ، لأنه من جيل الحزب الوطنى الذى أبعد عن مصر بعد هجرة محمد فريد . ثم عهد الملك فؤاد إلى لطيف باشا سليم باختيار أول سفرء لمصر . فاختار اسماعيل كامل بينهم .

وكان اسماعيل كــامل يبدو لى كــالأسطورة ، لأنه كــان موســوعة تمشى على الأرض من الخبرة والثقــافــة والتجارب . وكــان عــريضــا طويــلا مهيبــا واضح القسمات فضى الشعــر ، ويخفف من هيبته الكــلاسيكيــة طيف فكاهـــة . وحين

اكتشفت انني المصري الوحيد الذي يقيم في الهند في وقتها ، لم يعد يسميني باسمي ، وكان يكتفي بأن يطلق عليّ اسم : « الجالية المصرية » .

ويقول يحيي حقي انه استلهم شخصية اسماعيل بطل القنديل من شخصية هذا السفير ، لأنه كان يعمل معه في شبابه في اسطنبول . ولكن حقي غير وظيفته وجعله طبيبا (في القصة) يذهب إلى أوروبا ليتعلم الطب وشأن كل عائلة متوسطة حرمت نفسها ليتعلم ابنها في الخارج . أكل أبوه الطحين ليأكل ابنه «البفتيك » ويحكي يحيى حقي قصة هذا الجيل الذي سبقنا إلى أوربا وشهد صراع الحضارتين الشرقية والغربية .. « وكان عفيفا فغوى ، وصاحيا فسكر ، ورافض الفتيات وفسق . وهذا الهبوط يكافئه صعود لايقل عنه جدة وطرافة . فقد تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة ، ويتلذذ بلسعة برد الشمال .. ثم تعرف الفتي الشرير الأسمر بماري الانجليزية التي آثرته واحتضنته . وعندما وهبته نفسها كانت هي التي فضت براءته العذراء وأخرجته من الوهم والخمول إلى النشاط والوثوق ، وفتحت له افاقا من الجمال في الفن .. في الموسيقى وفي الطبيعة وفي الروح الانسانية ».

ولكن كان لابد أن يعود إلى وطنه ، وكل مغترب إلى عودة ..عاد طبيبا هوسته حضارة الغرب فكاد ينسى حبه القديم لابنة عمه . وقد أصيبت بمرض يهدد بصرها ، وكانت تعالج عينها بالزيت من قنديل أم هاشم مثل أهل الحي الذين يتبركون بزيت القنديل المعلق في سقف مسجد السيدة زينب ، وإلى حد أن يتخذوه قطرة يقطرون منها في عيون المصابين بالرمد . وقد هال الطبيب الشاب العائد من الغرب ما يراه .. فتأخذه الحماسة أو الحماقة ، وتنتابه موجة من السخط ، ليأخذ عصاه ليهجم علي القنديل حتى يهشمه . بينما يصيح كل من حوله أن الفتى أصابه مس من الجنون .

ولكن القصة تنتهي بعد الأزمة بأن يثوب اسماعيل إلى رشده فيعالج ابنة عمه بالعلم ، على ان يبقى القنديل في قلبه . فلا تصلح الحال إلا بالصلح بين العلم والإيمان . ويقول يحيى حقي : « إن عمل إسماعيل بطل النقديل قبل ان يكون رمزا ، قصدت به ان يكون نزولا — انحطاطا – يتيح له المشاركة الوجدانية مع الشعب .. لأن الهدف الأسمى الذي نسعي إليه هو رفع وجدان الشعب إلى مستوى عقلية إسماعيل العلمية . ولامفر إلى نوع من الصلح لإمكان تلاقي الوجدانية، فعلى هذا التلاقي تثمر كل حركات الاصلاح في عالم المعنويات والماديات » .

ويحكي يحيى حقي قصة هذا الجيل من الذين اخذوا العلم من أوروبا ،

وعادوا إلى الـوطن ، وتعرفوا على صراع الشرق والغرب ، والعلم والإيمان ، وعـرفوا المرأة الأوروبيـة ثم عادوا إلى فتيـات الأحيـاء الشعبية . وقـد صـور يحيى حقى المرأة فى الثلث الأول من هـذا القـرن ، وقارن بين صـورة المرأة الأوربيـة والمرأة الشرقيـة ، ولم يصـورها فى ضعفهـا فقط ، بل كثيرا مـا صـور المرأة المسيطـرة والزوجة الآمرة الناهية ، كما فى قصة « الديك الرومى » . ويصور تسلط النساء فى كثير من القصص . وفى لوحات أربع جمعهـا تحت عنوان « سيداتى ـ آنساتى » فى كتابه « فكـرة فابتسامة » يصـور لنا شخصيات نسائيـة أصيبت بداء التسلط . ويصور الصعيدية فى قصة « الفراش الشاغر » والبحراوية فى قصة « أبو فودة » ، والغجرية فى قصـة « فى سجن » . .نجد سامى فى قصة « ازازة ريحة » يكـاد يؤمن بأن « كل مغامرات المرأة غريزة وليست نتيجة تفكير وتدبر » . ويعتقد يحيى حقى ان الصراع الأكبر فى هـذه الحيـاة بين قـوتين هما الجنس والإرادة . وتلعب الإرادة عنـده دورا كبيرا ، وهى مفتاح شخصيـات كثيرة عنده . وكما صـور الصراع بين العلم والإيمان صور الصراع بين الجنس والإرادة .

ولم يتفرغ يحيى حقى لـروايات الغرام والهيـام . ولكنه اجاد تصويـر الألفة والـــــرافة لأنه كان شاعريا رقيق المشاعر يكره القسوة . وبذلك يصف احدى النساء القاسيات فى لوحاته بأنها « مدفعية ثقيلة » ويقول عن اخرى « حلال فيها الإعدام » .

والغريـب ان هذا الأديب الصوفى كـان متأجج الحواس ، فأجـاد فى قصة « فى سجن » تصوير انجـذاب علوى للغجرية .. « لما فاح له منها من رائحـة غريبة عن أنفه . خليط من عرق وقذارة ، وعطر فيه قـرنفل» . كما صور نرجس البحراوية فى قصة « أبو فـودة » انها « نتاية أكثر فهما لطرق الاغواء للـرجل من فتيات البلد » . كما ـ صـور « الصـعيديـة » فى قصة « الفـراش الشاغر » ، حين تعلـق فؤاد الفتى «بكعبهـا الوردى وشعـرها الملبـد الـذى رأى مقدمـا سحره إذا غسلتـه وتهدلت ضفائر مبتلة على جبينها وخديها » .

١٨

صحبة الرسامين والشعراء

متعتى ان أسمع موسيقى الخطوط المرسومة، وأن أشم رائحة الألوان فى مراسم الفنانين ، ولهذا كانت حياتى فى روزاليوسف متعة مستمرة لأنى لم أعش فيها ١٢ عاما كاتبا، ولكنى عشت مع رساميها تلميذا فى معهد الموسيقى المكتوبة والمرسومة، وأخرجت روزاليوسف أيامها ألمع الموهوبين فى الصحافة بين المصورين ورسامى الكاريكاتير، وعلمتنى صحبة الرسامين فيها هواية قراءة الخطوط. فالنقطة تصبح خطا. والخط يصبح أرضا أو سماء، ثم يصبح شكلا. وأمتع اللحظات هى ميلاد الخطوط الحادة المتشنجة التى يرسمها صاروخان والخطوط التى تكبر فتصبح فكرة. وقد تمتعت بالخطوط اللينة الطرية التى يرسم بها رخا شخصياته الشعبية، والخطوط المشدودة التى يرسم بها الليثى أفكاره، والخطوط الساذجة التى يرسم بها بهجت قفشاته، والخطوط السريعة التى يرسم بها جورج البهجورى رسومه لأنه لا يرفع قلمه عن الورقة حتى يكمل الرسم كله. أو الخطوط الداكنة عند زهدى والشاعرية الهامسة عند ناجى. أو الخطوط المباشرة عند اللباد كأنه يرسم بأسلاك شائكة .

أما حجازى الرسام. فقد كان يرسم ليعيش، لأنه إذا لم يرسم مات كمدا، وكان يرسم كما يتنفس. لهذا كان يملأ غرفته الضيقة جدا بالأزهار والخطوط والألوان كالأغصان الطرية. وكان حظى أن تعرفت إلى والد الشاعر الرسام الموهوب صلاح جاهين، حين كان يكتب ويرسم ويملأ صفحات وأغلفة روزاليوسف ثم صباح الخير. ولعله كان الأب الوحيد الذى يحرص على زيارة ابنه فى مقر عمله بين وقت وآخر. وكان الوالد «بهجت» مستشارا فى محكمة الاستئناف. وكان يزورنا فى روزاليوسف القديمة قبل انتقالها إلى مقرها الحالى فى شارع قصر العينى. وكان يبدو عليه وقار العقلاء فى الحديث والحركة وهيبة القضاة، ولكننى أحسست فيه ماهو أكثر، فقد كانت فى هذا الوالد العطوف أمومة عجيبة .

كان يحب ابنه حبين : حب الأب الأم معا. وأحسست ببعض قلقه حين كان يزور ابنه وكأنه لا يصدق فى البداية أن ابنه على موهبة خارقة. وكان الأب لا يصدق ان صلاح قد هجر دراسة القانون. ولم يستكمل دراسته «النظامية»

وقرر أن ينتقل من مهنة مأمونة مضمونة كالمحاماة أو القضاء إلى مهنة خطرة هي الصحافة والشعر والرسم. ولم يرتبط في ذهني وقتها ان والد المستشار نفسه ووالد الرسام، أي الجد الأكبر لصلاح جاهين كان صحافيا، وهو أحمد حلمي الصحافي والشاعر والخطيب الذي قاد أول مظاهرة شعبية في مصر، دفاعا عن حرية الصحافة عام ١٩٠٩ .

وحتى حين كنت أمر على اللوحة الرخامية الصغيرة في مقر نقابة الصحافيين، وعليها صورة الصحافي أحمد حلمي، والتي ازاح ستارها أستاذنا الجليل فتحي رضوان، حين كان أول وزير للارشاد في أول الثورة. لم أربط بين اسم «أحمد حلمي» الجد، واسم «بهجت» الابن، أو اسم «صلاح جاهين» الحفيد، حتى كتب الدكتور الباحث أحمد بدوي كتابه «مع الصحافي المكافح أحمد حلمي» عام١٩٥٧. وقد حقق الدكتور بدوي نسب صلاح جاهين، إلى جده وأصل جاهين من إهداء الجد أحمد حلمي إلى حفيده محمد صلاح الدين الشهير بصلاح جاهين. وكان الإهداء على ظهر مصحف شريف، بتاريخ ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٤، أي قبل وفاة الجد بعامين، ومن الإهداء، يظهر اسم : «جاهين المهدي» الجد الرابع .

وبفضل كتاب الدكتور بدوي عام١٩٥٧، تابعت سيرة الجد الصحافي الوطني أحمد حلمي الذي بدأ في «اللواء» عام ١٩٠٠، وصادق مصطفى كامل، وترأس تحرير لوائه، وكتب عنه الزعيم الوطني في مراسلاته «انه ذوشمم وأخلاق فاضلة». وبعد اللواء بسبعة أعوام، أسس أحمد حلمي «القطر المصري». وكانت أول أعدادها صباح الجمعة ٢٤ ابريل (نسيان) ١٩٠٨، وفيها طالب بالاستقلال والدستور ومقاطعة البضائع الانجليزية ودعا إلى الاخاء بين المسلمين والأقباط. ولم يكن أحمد حلمي صحافيا وكاتبا فقط، بل كان خطيبا وشاعرا، وكان أول من قاد أول مظاهرة شعبية دفاعا عن حرية الصحافة. واحتجاجا على إعادة الانجليز لقانون المطبوعات القديم. وقالت «القطر المصري» عن هذه المظاهرة انها ضمت ٢٥ ألفا، وقال المؤرخون بعدها انها ضمت عشرة آلاف على الأقل. والمؤكد في الحالين أن تلك المظاهرات الصاخبة استمرت أسبوعا من الجمعة ٢٤ مارس (آذار) إلى الخميس أول ابريل (نسيان) ١٩٠٩ .

وكما كان أحمد حلمي أول صحافي قاد مظاهرة شعبية دفاعا عن حرية الصحافة. كان أول من ألف كتابا عن «تاريخ السجون أيام الاحتلال». وأثناء محاكمته، قال للجمهور : «لا تبكوا ولا تجزعوا مهما فعلوا، لن أتزحزح عن موقفي، ولن افرط في مبدأ خدمته عشر سنوات. ألا وهو : مصر للمصريين » .

لكن الأب لم يذكر لنا شيئا عن أبيه ، كما لم يذكر شيئا عن جده. وساعد اختلاف الأسماء على النسيان. وكنا في حماس الشباب لا نذكر شيئا عن آبائنا أو أجدادنا. فقد كانت الغرفة التى اقيم فيها في «روزاليوسف» تزدحم بالمكاتب وتلتقى المواهب. ففى تلك الغرفة الصغيرة كان يقيم شاعران آخران في نفس الجيل يجددان الشعر الفصيح، وهما صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى. وكان فيها أيضا الروائى والناقد أحمد عباس صالح والرسام الكبير حسن فؤاد. وكان صلاح عبدالصبور هو الذى قال لنا إن أذكانا هو صلاح جاهين، وقال لو أنه اتجه إلى العلوم لأصبح مخترعا.

وكان صلاح جاهين أكثرنا اقامة في الحجرة وأغزرنا إنتاجا، لأنه يرسم أغلفة روزاليوسف وصباح الخير، ويكتب رباعياته الشهيرة، وكانت عميقة وبسيطة. وقد نبهنا أديبنا الذواقة يحيى حقى إلى خطورة رباعيات صلاح جاهين، لأنه كان مؤمنا بالشعر العامى الفصيح. فهناك عامية سوقية، وعامية راقية فيها رشاقة وجمال.

وكان يعتقد أن الرباعية هى أحب قوالب الشعر لأنها تعين على فن التلخيص والركيز، والشعر هو فن الخلاصة وخلاصة الفن. والرباعية تعين على نفى الفضول، والتحرر من أسر القافية، فتجىء كل رباعية كالومضة المتألقة أو الحجر الكريم. ويصف يحيى حقى إحدى رباعيات صلاح جاهين. بأنها تشبه «القنبلة اليدوية» حين يقول صلاح :

خرج ابن آدم من العدم ، قلت ياه
رجع ابن آدم للعدم، قلت ياه
تراب بيحيا وحى بيصير تراب
الأصل هو الموت والا الحياة !
عجبى !

وقد علمتنى صحبة الشعراء والرسامين ان الموسيقى والايقاع أهم ما فى الصورة والكلمة. وكلما ثقلت نفسى تأكدت ان شفائى بعينى.. إذا استراحت استرحت، وتكفينى نظرة إلى الخضرة أو البحر أو الصحراء أوأى افق متسع لاتصدمه عمارة أوحجارة، وفى كل مدينة أبحث عن المتاحف الشهيرة ولاأعرف أسماءالفنادق الكبيرة، حتى أصبحت متعتى ان أسمع موسيقى الخطوط المرسومة، وان أشم رائحة الألوان في مراسم الفنانين، وأروع لقاء لم أتوقع روعته وتأثيره حين قابلت الرسام محمود سعيد فى بيته أوقصره فى الاسكندرية عام ١٩٥٤ . .كنت قد عدت من باريس بعد ان شبعت من متاحفنا ومعارضها التى

أغوانى بها توفيق الحكيم، واستقبلنى محمود سعيد بنظارته الطبية المستديرة ووجهه المستدير فى غرفة الاستقبال بالدور الأرضى. وكان محمود سعيد قاضيا فى المحاكم المختلطة، وهو ابن محمد سعيد باشا، رئيس الوزراء الأسبق، ويقع بيته فى شارع يحمل اسم أبيه. وظننت ان الحديث بيننا سيكون صحافيا قصيرا، ولكن جاءت سيرة الشعر، وحدثته عن الشاعر بودلير، فقال: ان أجمل ماقرأه كتاب عبدالرحمن صدقى عن الشاعر بودلير، وقال ان العبرة ليست بضخامة الكتاب ولكن بالرعشة التى يكتب بها الكاتب، واكتشف محمود سعيد اننى معجب قديم بالشاعر والكتاب، وكان الحديث عن بودلير كلمة السر التى فتحت لى قلب محمود سعيد، فقد صعدنا إلى غرفته المحببة على السطح وقد اتخذها مرسما، وكانت النافذة، ومازلت أذكرها حتى الآن، تطلُّ على فضاء فسيح ومايشبه الرمال والنخيل، وقد أفرط البياض، فأوشك ان يطغى كل شىء نور وضاح صبيح.

ويومها اكتشفت من الرسم الفرق بين الضوء والنور، لأن الضوء خارجى والنور داخلى. ورسوم محمود سعيد فيها النور الداخلى الذى لاينبعث من قلب الرسام، ولاينتقل إلى لوحته إلا إذا كان الرسام يقرأ الشعر ويعشق الموسيقى.

١٩

دمــــوع الشــــعراء

عرفت الشـاعر صـلاح عبدالصبـور فى الخمسينات فى روز اليوسف القديمة، حيث أقمنا معـا أعواما نقرأ ونأكل ونكتب ونضحك.

وكـان حى روز اليوسـف نقلة أو «تخشينـه» بين عالمين، بين حى قديم وحى جديد، أو حى شعبى مغرق فى العراقـة وحى أرستقراطى مستحدث، بين السيدة زينب وجـاردن سيتى. والاسم وحده يفضــح، لأن حى السيدة كـان يحمل اسم السيـدة زينب أوالست الطاهـرة «أم العواجـز» شفيعـة زوارها من أهل الـريف الكرام والغلابة الطيبين من أبناء الحى الشعبى، بينما كانت جاردن سيتى، اسما أطلقه الانجليز فى مطلع القرن ليكون الحى كما يقول اسمه «مدينة حديقة»، حيث تغوص العمارة والحجارة فى الخضرة والحدائق والزهور.

وكانت روزا القديمة فى هذا الحى نقلـة بين عالمين. وكان فى هذا الحى «الثالث» أغلب الوزارات أوحتى النظارات منذ عهد اسماعيل. وحول شارع الدواوين كانت وزارات المالية والصحة والحربية والمعـارف ومجلسا النواب والشيوخ. ولم يكن غريبا فى ذلك الوقت أن تقوم دور الصحـافة من باب لزوم الشيء، ومنها صحف «البلاغ» و«الصبـاح» و«الكشكول» و«مصر الفتاة» و«السيـاسة» ثم «المصرى» وبعدها «دار الهلال» و«روز اليوسف» التى عرفناها.

وكانت روزا القـديمة قـديمة جدا فى مبنـاها العتيق، تتميز بحـوش مكشوف واسع تحتلـه المطابع التى تجمـع حروفهـا باليـد والملقـاط، وتصف بروفـاتها بالـذراع والشبر والتقدير الذى يعتمـد على الذوق المرتجل. وكانت غـرفتنا أوسع الغرف، وكنـا نسمها «غرفـة القراءة». فقد تميـز الشارع (شارع محمـد سعيد) بهدوء اضطرارى أوطبيعى. وبينما كـان شارعنا هادئا، كـانت غرفتنا صـاخبة. ونقطن فيهـا، لأننا نبـدأ فى الظهر ولاننصرف إلا بعـد منتصف الليل، ولهذا نكتب ونقرأ ونأكـل ونضحك على ضحكات صلاح جـاهين، ثم نبكى مع أشعـار صلاح عبدالصبور وعبدالمعطى حجازى.

وكان صـلاح عبدالصبور يقـول: إن أذكانا هو صـلاح جاهين، ولولا ميـوله الفنية لأصبح مخترعا. وكان صلاح عبدالصبور أكثـرنا حزنا وأشعرنا تخصصا فى معرفـة ألوان الحزن. وكنـا نضحك معه وعليـه، لأنه نصب نفســه محاميا عن

الأحزان العامة. لأنه يشرح لنا ألوان الحزن ويصف بعضه بالحزن الضرير أوالحزن الكتوم أوالحزن العمومي. وكان يترافع بثقافته الواسعة والمبكرة ويحدثنا عن أحزان يسوع ونيشه وباسكال وفان جوخ وأبى العلاء. وأحيانا يعترف أنه كان يبكى ولايزال فى العاشرة مع سيرانو دى برجراك، وأنه كان يقرأ هاينى، وهو بالجلباب والشبشب والجاكتة مثل «أفندية» الزقازيق. وظل المنفلوطى صاحب «العبرات» معبوده المفضل، حتى تعرف على جبران خليل جبران الذى قاده كالمسحور إلى ميخائيل نعيمة ومن حزن إلى حزن.

ولم يكن صلاح عبدالصبور يكتب الشعر بل كان الشعر يكتبه. فقد بدأ مبكرا فى قريته فى الثالثة عشرة. ثم نشر ديوانه الأول «الناس فى بلادى» فى الخامسة والعشرين. وتغنى جيلنا بقصيدته «شنق زهران» عن أحداث دنشواى، ولفت الأسماع بموسيقاه الجديدة وصوره البسيطة من الحياة اليومية. ولم يكن يخطر لشاب مثلنا خاطر عن الموت، لأننا كنا فى أعمار متقاربة، وفى الثلاثين. ومن يكن فى متوسط العمر يقف دائما فى الوسط. إذا تلفت يمينه وجد مايساوى يساره، وما مضى من عمره يساوى ما سيأتى. ولكن صلاح عبدالصبور فى عز الشباب كانت تساوره هواجس الموت المبكر. وفى كتابه «عمر من الحب»، الذى نشرته له بعد ذلك فى الكتاب الذهبى لروز اليوسف، قال فى أول سطر من كتابه الجميل :

«يخطر لى أحيانا أنى سأموت فى مفترق الطريق القادم». وقبل الخمسين، اعتبر الشاعر نفسه «معمرا»، فكتب كتابه «على مشارف الخمسين» وكأنه يودع الحياة بعد ساعات.

ولم أعرف شاعرا حزينا بالسليقة مثله. وكان حزنه السرى الدفين يدفعه إلى الاحتفال بمجالس الفكاهة والقفشات اللفظية. وكان فى سمره أقرب إلى «الدراعمة» (خريجى «دار العلوم») والأزهريين منه إلى خريجى كلية الآداب. وللأزهريين الذى «فسدوا» ولع بالفكاهة والقفشات، ومنهم المشايخ السابقون كمال الشناوى عبدالعزيز البشرى وحافظ ابراهيم.

ومازلت أذكر حين اشترى شاعرنا أول سيارة فى حياته، أنه صحب معه زميلا مطيعا فى أول تجاربه فى قيادة السيارة الجديدة. فاتجه بعنف شديد إلى أقرب شجرة ليصطدم بها، وتهشمت السيارة تماما، ورقد زميله شهورا «مدشدشا» و«مفشفشا». ونجا صلاح عبدالصبور ولم تمسه سوى سحجات خفيفة، وعيرته أن الموت لايصطفى من يكابدون الألم فى حياتهم، ومن يحترفون الكتابة عن الأحزان. ولكن كان دائما ينفى عن نفسه تهمة الحزن أو «الاستحزان» أى طلب الحزن قائلا : «أنا شاعر متألم، ولست شاعرا حزينا».

وكان يقـول إن الحب ليس هو العشق، ولا الشغف، ولا الـولـع. وكان أكثـرنا ثقافة لفظية. وكـان يقول ليس هناك لفظ أكثر بلاغة من الآخـر، ولكن هناك لفظا أكثـر صدقـا. وأثبت صلاح عبدالصبور أن أعـذب الشعر ليس أكـذبه، بل هـو أصدقه. لأن أعظم الفضائل فى الحياة عنده، هى الصدق والحرية والعدل، وأخبث الرذائل، هى الكذب والظلم والطغيان. وكان المثلث الذهبى فى أشعاره عن الصدق والحرية والعـدالة. وجاءت مسرحيتـه «مأساة الحلاج» وقصيدتـا «هجم التتار» و«شنق زهران» فى ديوانه الأول «النـاس فى بلادى»، وقصيدته «الحرية والموت» و«ثـلاث صور من غـزة» فى ديوانـه «أقول لكم»، وقصيـدتا «لـوركا» و«أحـلام الفارس القديم» كلها تمجيدا للحرية.

وخلال عشرة أعوام قضيناها معا فى روزا القـديمة، كنا نعيش فى غرفة واحدة، وننام فى بيـوت متقاربـة من دار روزا، لأنه كـان يسكن فى نفس البيت الـذى كان يسكن فيه الشاعـر عبد الرحمن الخميسى فى شارع نوبار. وعلى مقـربة منه كان يسكن أحمد عبـدالمعطى حجـازى فى شارع ضريح سعـد. وعلى بعـد أمتار كـان يسكن يـوسف إدريس فى نهاية شـارع الفلكى. وكنت أسكن فى شـارع اسماعيل أباظة على بعد خطوات.

وكان أكثـرنا ولعا بالمغـامرات يوسف إدريس. وكنت أغيظه بقـولى : إن هناك فرقـاً بين الغزو والحب، وبين المحب الحنون والغـازى الذى يظن الحب معـركة. وكان أكثرنا رمانسية هو صلاح عبدالصبور.

٢٠

عبد الصبور والنساء

ولم أعرف شاعرا حزينا يحفل بمجالس الفكاهة والمفارقات والقفشات اللفظية مثله. ولذلك كان الشاعر الصديق صلاح عبدالصبور سريع الانضمام الى أى حزب فكاهى. وقد تعددت هذه الأحزاب، خصوصا بعد الغاء الأحزاب السياسية. وكان يمكن للشاعر صلاح عبدالصبور أن يمضى ليلة كاملة من الضحك المتواصل لأنه كان يجيد لعبة الاشتقاقات اللفظية، ويطرب لما يسمونه «القافية» فى جلسات الفكاهة. ولكن الشاعر كان أكثرنا حزنا حين ينفرد بنفسه، وشدتنى اليه قصيدته «الحزن» لأنه يتحدث فيها كالخبير عن الحزن «الطويل» من «الجحيم الى الجحيم» والحزن الضرير، والحزن الصموت، وكنا نضحك معه. ونتهمه أنه نضب نصب نفسه محاميا عاما عن الأحزان. وكان يترافع عن ثقافته الواسعة، ويحدثنا جادا عن أحزان وأشجان «نيتشة» و«باسكال» و«فان جوخ» و«أبى العلاء». ثم كان يعترف أنه كان يبكى وهو صبى فى العاشرة مع «سيرانو دى برجراك» و«ماجدولين».

وكان يقرأ «هاينى» وهو بالجاكيت والجلباب والشبشب مثل أفندية الزقازيق. وظل المنفلوطى صاحب «العبرات» كاتبه المفضل حتى تعرف الى جبران خليل جبران الذى قاده كالمسحور الى ميخائيل نعيمة.

وأحسست أن صلاح عبدالصبور لم يكن يكتب الشعر، ولكن الشعر كان يكتبه. فقد كتب الشعر مبكرا فى قريته، وهو فى الثالثة عشرة، ثم نشر ديوانه الأول «الناس فى بلادى» فى الخامسة والعشرين. وتغنى جيلنا بقصيدته «شنق زهران» عن دنشواى. ولفت الأسماع بموسيقاه الجديدة وصوره العميقة والبسيطة من الحياة اليومية. وكانت رسالته المخلصة هى البحث عن موسيقى الأفكار دون الاكتفاء بموسيقى اللغة. وأثبت صلاح عبد الصبور فى تجديده أن أعذب الشعر ليس أكذبه، بل أصدقه. لأن أعظم الفضائل فى الحياة، كما كان يقول، هى «الصدق والحرية والعدالة»، وأخبث الرذائل هى «الكذب والطغيان والظلم». وقمة الصدق هى الصدق مع النفس، حتى يعرف الانسان وجوده، ويعرف مكانه فى الحياة، ويتحمل دوره وعبء وجوده. وكان هذا المثلث الذهبى: «الصدق والحرية والعدالة» وهو محور بعض قصائده وأغلب مسرحياته. وكانت مسرحية «مأساة الحلاج»، وقصيدتا «هجم التتار» و«شنق زهران» فى ديوانه «الناس فى

بلادى» وقصيدتا «الحرية والموت» و«ثلاث صور من غزة» فى ديوانه «أقول لكم» وقصيدتا «لوركا» و«أحلام الفارس القديم»، كلها تمجيدا للحرية.

وكنت قد قرأت بعض الشعر الفرنسي الحديث عن «أندريه بريتون» و«جاك برفيه» و«أنطون أرتو». وبهرني «رامبوا»، وأذهلنى «بودلير». ولذلك كنت أظن أن الشعر الجديد لا ينشأ الا للتعبير عن أغراض جديدة حتى لا ينكسر عموده، ولا تختل موسيقاه. وأحسست أن صلاح عبدالصبور سيصل بثقافته الواسعة الي التجديد بأغراض وأهداف ومعان جديدة.

وحين ثارت معركة الشعر الجديد. كان عباس محمود العقاد يترأس لجنة الشعر فى المجلس الأعلى للثقافة. وقرر العقاد الكبير حجب أى جائزة عن أى شاعر جديد. بل قرر ساخرا إحالة ما قدمه الشبان من الشعر الى لجنة «النثر». وظل صلاح عبدالصبور بعد المعركة، يعترف لنا بفضل العقاد على الشعر لأنه أنصف ابن الرومى وأحياه من مرقده وساواه با لمتنبى والمعرى. وحاول فى جيله أن يزلزل شوقى أمير الشعراء. لولا أن قوائمه كانت من الحجر الصوان. وأذكر أن العقاد قال بعد تلك المعركة الساخنة:

— «أريد أن أناقش هذا «الولد»، فهو قرأ بعض الشعر، وهو ليس جاهلا».

وأذكر أننا احتفلنا فى حزبنا الفكاهى بشهادة العقاد الكبير لهذا «الولد» الذى يقرأ. ثم ضحكنا لأن العقاد كان يطالب فى شبابه مع المازنى بتجديد الشعر وينتقد شوقى ثم حرم التجديد على الجيل الجديد، بعد الوصول الى الحكم.

وقد اهتدى صلاح عبدالصبور مبكرا، وكان من تلاميذ الشيخ المجدد أمين الخولى فى جامعة القاهرة، مع أحمد كمال زكى وفاورق خورشيد وعبدالغفار مكاوى. الى قراءة أشعار «ريلكة» و«شيلى» و«ووردزوورث» و«فاليرى» و«ت.س اليوت»، وأصبح ولوعا بـ«جارسيا لوركا» الشاعر الأسبانى حتى ترجم له ١٣ قصيدة. «وقسطنطين كفافيس» الشاعر السكندرى اليونانى، والموظف السابق فى بلدية الاسكندرية، وترجم له ثلاث قصائد، و«ليوبولد سنجور» الرئيس السنغالى والشاعر وزميل الدراسة مع الرئيس بوميدو، وترجم له قصيدتين، و«ايفتشنكو» الشاعر السوفيتي المغضوب عليه وترجم له قصيدة. وأظن أن صلاح عبدالصبور كان أكثر شعرائنا المجددين فى جيله تعرفا الى الأدب العالمى. وقد يكون ذلك بفضل تملكه الانجليزية. وبحكم دوره الصحافي فى منتصف الخمسينات فى مجلتى «روز اليوسف» و«صباح الخير».

وكان يقدم ويلخص فى «صباح الخير» كل أسبوع قصصا وروايات غربية، ومنها «سيد البنائين» لإبسن النرويجي، و«يرما» للوركا الأسبانى، و«حفل الكوكتيل» لإيليوت الانجليزى.. و«الجلد» لمالابارته الايطالى، و«جريثا» لكولدويل الأمريكى،

و«خريف امرأة»، لتنيسى ويليامز الأمريكي أيضا.

ورغم نجاحه فى الصحافة قرر صلاح عبدالصبور أن يتركنا ليصبح موظفا فى وزارة الثقافة، وأدهشني ذلك القرار، ولكنه كان يشفق على فنه من مهنة الصحافة. وقد فسر لى قراره المفاجىء أنه يتخذ نجيب محفوظ مثلا أعلى فى تنظيم وقته، لأنه يعمل القليل فى الحكومة ويكتب الكثير فى الأدب، وبعد سنوات سألنى الشاعر محمود درويش عن أخبار صلاح عبدالصبور، فأجبته انه فضل الإدارة على الصحافة. ثم قلت: ولكنه على أى حال مدير مقل، ولا يذهب كثيرا الى عمله كما يفعل كبار الموظفين. وقدجذبنى الى صلاح عبد الصبور وربطني به أننى لم أحس فيه صلفا ولا نرجسية. فقد كان شفافا كالدمعة، وكان شاعرا يعيش قيمه الشعرية فى حياته اليومية، وكانت متعته فى وحدته. وكان مقلا أيضا فى صداقاته، وحريصا على الأنس من وحشته بأصدقائه القدامى الذين لم يغيرهم مثل فاروق خورشيد ومكاوى وعبدالرحمن فهمي وعز الدين اسماعيل من رواد مقهى شارع قولة من تلاميذ أمين الخولى. وظل ولعا بفكاهة الاشتقاقات والقفشات، يخفى عالمه الداخلى ويدخره ليبحث فيه عن موسيقى الأفكار.

وقد شهدت قصة حبه الأولى فى القاهرة. وكانت فتاته وزوجته بعد ذلك تأتى اليه فى «صباح الخير» فى سنوات عملنا معا. وكان حبا أضفى عليه الشاعر من روحه، لأننا بعد سنوات فوجئنا بطالقه. وكنت أسكن فى شارع اسماعيل أباظة، على مقربة من الفلكى حيث يسكن يوسف إدريس، ومن سعد زغلول حتى أحمد عبدالمعطى. لأن كل هذه البيوت لا تبعد غير أمتار قليلة عن «روز اليوسف» القديمة. وفجأة دعانى بصوته الحزين الى بيته فوجدت فاورق خورشيد. وإذا به يدعونا الى أن نشهد علي طلاقه. ولم تفسد المحاولات لأن الاتفاق على الطلاق كان بين الزوجين. وقد تزوج صلاح عبدالصبور بعدها وأنجب ابنتين لهما ميول أدبية وفنية.

وقد عرفت عن صلاح عبدالصبور فى شبابه قلة الغزل فى شعره لأنه كان مشغولا بالفكر أكثر. وقلما يخطر لشاب فى الثلاثين خاطر عن الموت، لأنه فى هذا العمر يقف في متوسط العمر. ما مضى يساوي ما يقبل، وإذا تلفت يمينه وجد ما بيساره يساويه. لكن صلاح عبدالصبور فى كتابه الذى نشرته له فى الكتاب الذهبي، عام ١٩٧٠، «عمر من الحب»، استهل أول سطر من كتابه قائلا:

«يخطر لى أحيانا أنى سأموت فى مفترق الطريق القادم!»

وقبل الخمسين، اعتبر الشاعر نفسه «معمرا» فكتب على مشارف الخمسين!

وفى سهرة عابرة، انطلقت كلمة طائشة من زميل، كالرصاصة، وقتلت الشاعر كلمة، وكأنه مات مبكرا.. بالسكتة الشعرية. فى عز الشباب.

٢١

الحرام والعيب ويوسف إدريس

حين سئل الموسيقار محمد عبدالوهاب عن صوت أم كلثوم قال: إن صوتها لم يكن فقط صوتا قويا ذكيا حساسا ومعبرا، بل كان صوتها الفذ يتميز أيضا بميزة خاصة هي الزعامة. وكانت زعامتها فى صوتها الرخيم تضمن لها الفوز بالاجماع.

وأظن أن أدب يوسف إدريس فى القصة القصيرة كان مثل صوت أم كلثوم.. فيه الزعامة، وكان مؤهلا لها بقلبه المشتعل وفضوله الشديد وعقله التحليلى، بل وهيئته الخاصة. فقد كان يوسف إدريس بيننا طويل القامة، عريضا بعنفوان، بهي الطلعة. وكانت عظامه عريضة قوية، وفى داخله طفل كبير له ضحكة مجلجلة وجريئة.. وصافية مثل العسل.

وكان يوسف إدريس هو أديب جيلنا المكشوف. فأغنانا عن الأدب المكشوف. وكان يكفى أن تقرأ السطور الأولى التى يبدأ بها قصة من قصصه القصيرة الأولى حتى تجد قطعة من قلبه الصاخب الثاقب. وكان يعتقد أن مهمته الأولى فى الحياة أن يعطى فنه وقراء فنه كل ما يستطيع، وما هو أكثر. وكان أكثرنا توترا، فاستهلك بعض قلبه فى عمليتين متلاحقتين بالقلب، واستعاد بعدهما بعض صحته فى عملية جراحية ثالثة.

ولست أظن أديبا من أدباء العربية قابل الموت وجها لوجه مثل يوسف إدريس. وكنت أحس من طول معاشرته أنه يؤمن أن حب الحياة هو التعويذة والمعجزة التى تطرد الموت دائما.

وحين كنا معا فى زيارة الأراضى المقدسة لأداء العمرة لأول مرة — عام ١٩٨٦ — انصرف كل منا إلى حالة من الصفاء العلوى. ثم عدنا الى لحظات من الصفاء الأخوى. وكان لايزال بملابس الإحرام فسقط ثوبه عن كتفه قليلا، وأدرك أننى لمحت آثار عملية القلب شقا طويلا جدا لون صدره العريض.

وبموهبة الفنان الذى لا يحتاج إلى كلام أدرك ما بداخلى لأنه عادة يدير الحوار بينك وبينه، وعنه وعنك دون أن تحتاج إلى كلمة واحدة. وكفته نظرتى فأدرك ما بداخلى، وقال لى:

— لولا تمسكى بالحياة لكنت منذ سنين فى عداد الأموات.

ولم أنطق ولكنى غطيته بنظرة حب.

ومنذ إصابة يوسف إدريس بجرح غائر فى رأسه، وهو فى التاسعة عشرة،

وكان طالبــا عام ١٩٤٦ فى إعدادية طب جــامعة فؤاد الأول أثناء حــوادث كوبرى عباس، ومنــذ سفره للجــزائر عام ١٩٦٢، على حــدود تونس للــدخول مــع ثوار الجزائر لــرفع العلم الجزائرى على حصــن كبير داخل الجزائر قــرب الحدود، وسقوط القنابل عليه، ووقوعه فى حفــرة عميقة، واصابته فى ركبته، أدركت أن هذا الفنان الفــذ يبحث فى الحياة عن الأكثر، ومن أجل هــذا الأكثر أعطانا قلبــه وعقله وما هو أكثر.

فقد أعطى يوسف ادريس حياته لفنــه، وأهدى فنه لقرائه، واستحق أن يكون بين أدبــاء جيله زعيما بــالاجماع، وبــالأغلبية الســاحقــة المذهلة. ولايــزال دوى «أرخص ليالى» عام ١٩٥٤ ـــ فى أغسطس بالذات ـــ يدوى فى أذنى وآذان جيلى منذ ظهر هــذا الأديب الفنان الذى لم يدرس الآداب فى كليــة الآداب، ونجا. فلم يقع أسير دراسة البــلاغة والجماليات الشكليــة والموسيقى اللفظية. وكــان يعتقد أن الأسلوب يأكل المضمــون، واللغة ليست غاية ، وكــانت أذن يوسف إدريس كبيرة لاتسمع الكلمات فقط ، بل تسمع النهنهــات والهدهدات والهمهمات والتأوهــات، والصرخــات، بل كان يسمع صــوت الصمت. وإلى لغــة «الآى آى» عنوان إحــدى قصصه، اتجه يــوسف إدريس الى اكتشاف لغة إدريسيــة فنية.. لا نكتب بها، ولا نتحدثها. وكان يتهم البلغاء أنهم بهلوانــات يلعبون لعبة «العارضة والمتوازيين»

وكــان يوسف ادريس لا يهدأ في البحث عن لغــة جــديدة عــارية من الأسلــوب أو القشرة. وكنت أحس أنه يتوجس دائما مــن الهدوء، لأنه يذكره بوحشــة طفولته فى القرية. وقد أعلن يوسف إدريس الحرب على الوحشة بالحكايات التى كان يؤلفها لنفســه وحيدا وهــو فى الطريق من القــريــة إلى المدينة. ومن مــدرسته إلى بيتــه فى طريق العودة. حيث كان يسلى نفسه بالتأليف. وكان يؤلف فى الخيال لنفسه قبل أن يؤلف للآخرين. وكانت القصة سلوانا وعزاء للطفل المنفرد الذى يقطع الطريق كل مساء عائدا وسط الحقول والقفار.

وهكــذا أصبح يوسف إدريس يــرى فى الكتــابة وصــلا ووصالا وانــدماجــا بجمهــوره وقــرائه. وكان يظن أن أى تكــرار فى المعنى هــو الموت الحقيقى. ولهذا طوى كثيرا مما كتب فى بــدايته، ولم ينشره لأنه كان يظن فيه شبهــة التكرار وهو يبحث عن الجديد المتجــدد. ولهذا دوت مجموعته الأولى «أرخص ليــالى» فى جيلنا. فسأل طــه حسين تلميذه الــوفى الكــاتب سامى داود عــن مؤلف «أرخص ليــالى» وكان يوسف ادريس أيامها معتقــلا. وحين خرج من الاعتقال كتب طه حسين له مقدمة مجموعته الثانية «جمهورية فرحات».

ولم يهدأ يــوسف إدريس الى حبــوب المجــد «المهدئة». وكــان يحول سنــوات السجن والاعتقال الى سنوات دراسية، وبعثات تطبيقية لدراسة النفس البشرية..

وهي عارية تماما. وفى المستشفي أو السجن أو المظاهرات كانت مختاراته العلمية لدراسة الشجاعة والحماقة والخوف والبطش والقهر. ومنها استخرج شخصياته ورواياته وقصصه ومسرحياته.

وظل يوجعه ويؤرقه ويحيره أن الانسان ليس ـــ كما كان يقول ـــ مثل تمارين الهندسة أو مسائل الحساب يخضع لقانون واحد، أو تفسره نظريات فى الكتب.. وكلما اكتشفنا حقيقة، وتخيلنا أننا بها وصلنا إلى سره. فإذا بها تفتح الطريق إلى مناطق كنا نجهلها».

وكما أن لكل سؤال جوابا. ففي كل جواب سؤال جديد. ،لهذا شق عصا الطاعة منذ اليوم الأول الذى التقى فيه دعاة «الواقعية الاشتراكية»، وقد راجت بيننا فى الخمسينات. وكان دعاتها يروجون للالتزام. ويتهمون الآخرين بالانحلال. وابتكر يوسف إدريس واقعيته «الخاص»، وأحب القصة القصيرة لأنه كان يعتقد أن «الرواية الطويلة» ـــ الغنية حقا ـــ لم تبدأ بعد. وكان يتمنى أن يكتب هذه الرواية الطويلة الجديدة عن حياته الصاخبة.

وأذكر أيام كنا معا فى مجلس تحرير مجلة «الكاتب» الشهرية عام ١٩٦٣، أنه طلع علينا بثلاث مقالات فى البحث عن رؤية جديدة لمسرح مصرى. واتهم مائة وخمسين عاما من المسرح المصرى بأنها تقلد المسرح الأوروبى الاغريقى. وابتكر ما سماد حاسة «التمسرح» حين ينقلب الممثل متفرجا، والمتفرج ممثلا، وتتكسر جدران المسرح. ودليله ما كان يشهده فى قريته فى حالات المسرح «المرتجل».. فى حلقات الذكر أو حفلات الزار، أو قعدات الربابة، وسهرات السامر. حين يصبح الواقع تمثيلا، والتمثيل واقعا، وتنشأ «الحالة» المسرحية، خصوصا أننا نقول فى العامية: «عمل فيه فصولات بايخة»، أى أن المسرح أيضا شكل من أشكال الحياة اليومية. وخرج يوسف ادريس بعدها بشكل جديد للمسرحية فى «الفرافير». وكما كانت قصة «أرخص ليالى» نقطة تحول فى القصة القصيرة أصبحت «الفرافير» نقطة انطلاق جديد فى المسرح.

واستمرت اكتشافات يوسف إدريس لا تتوقف، لأنه كان يعتبر منافس يوسف إدريس الوحيد هو يوسف إدريس نفسه.

واكتشف لنا الفرق بين «الحرام» فى القرية، و«العيب» فى المدينة، وكانت له مغامرات عاطفية عديدة. واعترف لى أنه تزوج ابنة الرسام المكسيكى «دييجو دى ريفيرا»، ولكنها تركته. وكنت أعايره أن هناك فرقا بين العاشق الغازى والمحب الحنون. وتكررت غزواته. ولعله كان أيضا يرى فى تلك العلاقات الطارئة، وأشهرها مع مطربة شهيرة، تجارب لدراسة المرأة. ولكن المرأة الوحيدة التى فهمته تماما كانت زوجته «الفاضلة» التى أخلصت له رغم النزوات، وكان صبرها وجمالها أيضا طوق النجاة فى حياة زعيم العاطفية الصاخبة.

٢٢

نســـــاء

نجيب محفوظ

كنت فى باريس عند فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل. وقبل أن يظهر الخبر في الصحف حدثنى صديق بالتليفون، وأحسست فى صوته بفرحة عارمة. لأنه لم يكن يتكلم، بل كان يهتف في نهاية الخط، وكأنه يخطرني بخبر عظيم مثل تأميم قناة السويس.

وبعد اليوم وصلت القاهرة فوجدتها تموج بالانفعال، فقد أقبل الناس على الفرح باشتياق، وكأنهم يحتاجون إليه. وكعادتنا فى أفراحنا نحب اللمة والهيصة والزفة. ولم يقتصر عيد نجيب محفوظ على أهل الأدب والفكر والسياسة. حتى أننى جلست فى المساء علي مقهى بلدى وسط القاهرة، فاقترب منى ماسح أحذية فى خريف العمر، فعل الكد والعناء بوجهه أكثر من عمره الذى جاوز الخمسين، واخترق الرجل تلك المسافة الوهمية «المفروضة» عادة فى مقاهى القاهرة بين الأفندى زبون المقهى، وماسح الأحذية وأقبل على قائلا:

ـــ «والنبى تسلم لى على الأستاذ، والسلام أمانة».

ولم أدرك أن الرجل يعرف أننى أعرف نجيب محفوظ، ولكننى أدركت أنه اكتفى بالعثور على، وتوسم من ملامحى أننى من أهل القراءة مادمت ألبس نظارة طبية. وتفرست فى وجهه مندهشا فقد كان الفرح يتلألأ فى عينيه ويغمر وجهه، وكأنه يمحو لبضع لحظات كل أعباء السنين، وهو يقول: «والسلام ياشيخ أمانة». هزتنى فرحته، وتداعت داخلى ما أحسست من بهجة وأنا فى باريس حين دخلت فى ميدان السوربون إلى مكتبة الجامعات بالحى اللاتينى، فوجدتهم قد وضعوا أعمال نجيب محفوظ المترجمة للفرنسية على رأس المائدة الممدودة قرب باب الدخول.

وانتقل نجيب محفوظ، أديب الحارة المصرية، بفضل جائزة نوبل إلى لغات لم يكتب بها. وانتقلت طبعاته إلى كتب الجيب التي تطبع منها ملايين النسخ. وقد حرصت فى مكتبة القاهرة الكبرى منذ عام على جمع هذه الكتب المترجمة، وأذهلنى أن نجيب محفوظ وصل إلى قراء بلغات منها الدانمركية والهولندية واليابانية والصينية واليونانية والقشتالية إحدى اللغات الأسبانية والمتحدثون بها نحو ستة ملايين فقط. بل اكتشفت أنه ترجم الى لغة لم أسمع عنها من قبل،

وهى اللغــة الفروزيــة، وهى إحــدى لغات اسكنــدنافيــا، وهي قــريبة من اللغــة الأيسلندية، ولها صلــة باللغتين الدانمركية والسويــدية، ويتحدث بها ٤٠٠ ألف فقط، بين بعض الجزر المتناثرة والتابعة الآن للدانمارك. وقد وصلت حارة نجيب محفوظ وعالمه الخاص الى لغات الشرق فى الصين واليابان ومــاليزيا واندونيسيا، كما وصلت الى لغات نادرة فى الغرب، مثل تلك اللغة الفــروزية الى جانب الايطالية والاسبانية والالمانية والفرنسية والانجليزية طبعا.

وكثيرا ما توقفــت عند ظاهرة نجيب محفــوظ واستمراره فى الكتابة عنــد قوله: «ان الفن حيــاة لا مهنـــة. وحينما تعتبر الفن مهنـــة لا تستطيع أن تشغــل بــالك بانتظار الثمرة. بل كنت اكتب، وأنا معتقد أنى سأظل على هذه الحال دائما».

ويقول نجيب محفوظ:

ــ «أتعرف عناد الثيران؟

انه خير وصف للحالة النفسية التى كنت أعمل بتأثيرها».

وهكذا تميز نجيب محفــوظ بالدأب والصبر، فأخرج مــا يقرب من ٤٥ رواية ومجموعــة قصص. بدأهــا بمصر القديمــة عام ٣٢، و«همس الجنــو ن» عام ٣٨ و«عبث الأقــدار» ٣٩ و«رادوبيس» ٤٣، وكفــاح طيبة» ٤٤. ثم كــانت النقلــة من الرومــانسية التاريخيــة إلى الواقعية المحفوظيــة فى «القاهرة الجديــدة»، وكاد أن يأتى كل عــام جديــد بــرواية جــديــدة. من «خان الخليلى» إلى « زقــاق المدق» إلى «السراب» الى «بداية ونهاية» من عام ١٩٤٦ حتي عام ١٩٤٩.

ثم كانت وقفــة التأمل بعد الثورة عــام ١٩٥٢، فأتحفنا بعدها بــروايته «بين القصرين» عام ٥٦، وظل منــذ ذلك حتى عام ٨٧ يتحفنا كل عــام برواية جــديدة واحدة على الأقل.

فقد اعتبر نجيــب محفوظ الفن «حيــاة لا مهنة». وبــدأ بدراســة الفلسفة أولا. وحرضه توفيق الحكيم على تذوق الفنــون التشكيلية. ولنجيب محفوظ فى شبابه رسالــة ماجستير فى علــم الجمال لم يكملها. وقد التحــق فى أيام دراسته فى كلية الآداب بمعهد الموسيقى العــربية، واختار آلــة «القانون» الشرقيــة البحتة. وتعلم النــوتة، وحفظ عــدة «بشــارف». وكــون مكتبة شبــه علميــة من تأليف صروف واسماعيل مظهر وســلامة مــوسى. وقرأ روايــات القمم مثل «الحرب والسلام» لتولستوى الــروسى. و«البحث عن الزمن الضــائع» للفرنسى مــارسيل بروست وتقع فى ثمانيــة أجــزاء ضخمــة، و«يــوليــوس» لجيمس جــويس، وتقع فى نحــو ثمانمائة صفحة، وقرأ شرحها لستيوارت جيلبرت فى ثمانمائة صفحة أخرى. كما قــرأ معظم مؤلفــات جــوته وشكسبير، وأقبل على أنــاتول فــرانس بــالفرنسيــة

لسهولته، وفضل ترجمات فلوبير الفرنسى بالانجليزية أو العربية لأنه كما يقول كـان يفتح القامـوس الفرنسى العـربى على حوالي ثـلاثين كلمة فى كل صفحـة.

ويقول نجيب محفوظ أنه عشق أعمال شكسبير فى سنـوات التكوين، وتولستوى ودستيـوفيسكى وتشيكوف ثم بـروست وتومـاس مـان وفرانـز. كافكـا، ومن المسرحيين برنارد شو وابسن. وأثناء دراسته الفلسفـة تنازعه الأدب. وعذبه هذا التنـازع حتي بلغت الأزمـة قمتهـا، وهـو يعـد دراستـه للماجستير مع الشيخ مصطفى عبد الرازق، فانقطع وسط الطريق، وتمنى أن يكتب تاريخ مصر القديم كله على شكل روائى على نحو ما فعل «وولتر سكوت» مع تاريخ بريطانيا. ويقول نجيب محفوظ: أنه أعد فعلا أربعين موضوعا لروايات تاريخية، وبدأ بكتابة ثلاث روايات تاريخية هى «عبث الأقـدار» و«رادوبيس»، و«كفاح طيبة». وفجأة أحس أن الرغبة فى الكتابة التاريخية الرومانسية تموت فى داخله. وتحول إلى الواقعية فى «القاهرة الجديدة»، وعثر نجيب محفوظ على نفسه وفنه فى الحارة القاهرية التى ولد فيها، ليصبح مؤرخ الوجدان المصري. ويقول:

«البعض يقع اختيـارهم على مكان واقعى أو خيالى، أو فترة من التـاريخ، لكن عـالمى الأثير هـو الحارة»، و«حنينى إلى الحارة جـزء من حنينى الى الأصـالـة»، و«لكل كـاتب نوعيـة من الشخصيـات يحب التعامل معهـا، وخلال سنـواتى فى الجمالية عرفت نماذج عديـدة من البشر. ومازالوا يعيشون معى حتى الآن، حتي وان رحل معظمهم عن الدنيـا». ويقول أيضـا. «ومع تقدم العمر يشعـر الانسـان ويدرك أن منشـأه هو المأوى».

وفى هذه الحارة عـرف نجيب محفوظ ألوانـا من النساء فى الأحيـاء الشعبية. وتعـرف على الـدلالة بـائعـة القماش، وقـارئة البخت، والأم والـزوجة الـوفيـة، والعـانس الثـريـة، والأرملـة الطروب، والمرأة المتمـردة المستهينـة بـالعـادات والتقاليد. ويقول: «لعبت المرأة فى حياتي وأدبى دورا قد يفوق دور السياسة».

وعرف نجيب محفوظ قصـة حب فاشلة فى بداية حياتـه لفارق السن وفوارق الطبقات، ثم عرف قصة حب «عايـدة» التى نقلها فى الثلاثية فى تجربة بطله كمال عبدالجواد فى الثلاثية، ونقل صورة «أمينة وزوجها سى السيد» من بيت الجيران وصاحبه الشيخ رضوان، وكان هذا البيت في حارة درب قرمز.

ومن هذه الحارة الضيقـة جاء عـالم نجيب محفوظ الـذى اتسع، ولعبت فيه المرأة دورا يفـوق السيـاسـة. لأن عالم الأديـب كان فسيحـا مـزج فيـه الـواقع بالخيال، والموهبة بالفن الذى فاق الخيال.

٢٣

سينما

نجيب محفوظ

لم تكن أكبر مغامرة فى الجيل الذى سبقنا هى زيارة الأهرامات أو حديقة الحيوان أو القناطر الخيرية أو حتى مشاهدة المعرض الزراعى الصناعى فى أرض المعارض الواسعة بقلب جزيرة الزمالك ، وقد احتلتها الآن دار الأوبرا الجديدة.

ولكن المغامرة الأعظم والأكبر كانت الذهاب لأول مرة لمشاهدة فيلم عربى أو أمريكى أو حتى فرنسى فى إحدى دور السينما . وكانت القاهرة تعج بدور السينما الشتوية المغلقة والصيفية المفتوحة فى الهواء الطلق. وأكثر حدائق القاهرة كانت بها سينمات صيفية. وكانت حديقة الأزبكية، أكبر حدائق القاهرة، فيها سينما صيفية ، وعلى مقربة منها بشارع عبدالعزيز سينما بارادى، وفى وسط القاهرة عدة سينمات صيفية وكانت تقتصر حفلاتها المفتوحة فى صيف القاهرة الذى يجب السهر على بضعة شهور فى السنة ، لأنها تتحول فى برد الشتاء إلى قاعات للتزحلق على البلاط بالقباقيب المتحركة وهى موضة الشباب منذ خمسين عاما.

وحتى القاهرة الفاطمية القديمة عرفت دور السينما.

ولا ينسى نجيب محفوظ أول عرض سينمائى شهده أيام طفولته فى فندق بحى الحسين والجمالية، وكان اسم الفندق «البوسفور» تيمنا بأيام الأتراك. وكان هذا الفندق يجاور مطبعة الحلبى القديمة. وقد تغير اسم الفندق إلى «الصفا والمروة»، وكان الوافدون إلى القاهرة من أهل الريف الكرام للزيارة والبركة لاينسون دنياهم ، ولا ينسون تجربة المغامرة النادرة لمشاهدة السينما لأول مرة. واستمرت السينما فى نفس الفندق بعد أن تغير اسمه للمرة الثالثة وأصبح «الكلوب المصرى».

وكانت السينما فى أوائل القرن يصحبها عازف البيانو يصحب الصورة المتحركة. وكانت الترجمة إلى العربية تعرض علي شاشة صغيرة مجاورة للشاشة الكبيرة التى تعرض الصور لأنهم لم يخترعوا بعد طبع الترجمة على نفس الفيلم.

وكثيرا ما كانت تحدث المفاجآت المضحكة. لأن الصورة كانت تعرض على شاشة كبيرة والكلمات على شاشة صغيرة. وكثيرا ما كان العامل يترك الآلتين

بعد بداية الفيلم ويكتشف الجمهور أن مايقرأه لاينسجم مع مايراه من صور متحركة. ولاينسى نجيب محفوظ تجربته فى صباه فى فندق «الكلوب المصرى»، لأن الجمهور الشغوف المتحمس كان يصيح ساخطا بين وقت وآخر :

ـ اعدل .. اعدل .

وأذكر اعترافات صديق صحافى سكندرى لاينسى تجربة أول فيلم شاهده أو على الأصح لم يشهده . وكان قد أنفق كل مدخراته لشراء تذكرة ليومه الموعود. وتأهب لمشاهدة الفيلم . وما أن دخل قاعة السينما المغلقة حتى ترامت إليه أصداء هتافات قارعة مليئة بالشتائم الساخطة تدوى باسمه.

وكان الجمهور يصيح باسمه متوعدا . ولم يدرك من صياح الجمهور الغاضب بما يشبه الهتاف :

ـ عربى .. ياابن .. عربى يا.. ويا..

وهذا الصحافى كان اسمه إبراهيم العربى، ويشاء حظه أن يكون أول فيلم يشهده فيلما أجنبيا. ويبدو أن عامل السينما قد اغفل كالعادة متابعة الترجمة مع الصورة . وأدرك الجمهور أن العامل قد غاب عن مهمته . وترك الترجمة العربية تجرى دون انضباط أو انسجام مع ما تعرضه الشاشة الكبيرة التى تعرض الصور .

وقرر إبراهيم العربى النجاة بنفسه ، وهو لا يعرف من تجربته الأولى أن الجمهور يقصد بصياحه الغاضب لفت نظر العامل الذى اغفل الترجمة العربية .

وتجربة مشاهدة أول فيلم لأول مرة تجربة لا تنسى. ومازلت أتذكر أول فيلم رأيته وكان لشارلى شابلن واسمه أضواء المدينة. وكان شابلن عبقريا لأنه كان يسخر من تأثير الآلة على الحياة ، وهو يصور عاملا فى أحد المصانع، يستطيع صاحب المصنع أن يراه على شاشة صغيرة من غرفة الادارة ، وكأن شابلن قد تنبأ مبكرا بفكرة الكمبيوتر والكاميرا الخفية. ولكننى لم أدرك نبوءة شابلن فى ذلك الوقت لأننى أغرقت فى الضحك على حركاته وألاعيبه. وقد احتل شابلن عند جيلنا والجيل الذى سبقنا مكانة نادرة، ويذكر لى صلاح أبوسيف انه ترك طنطا ليمضى ثلاثة أيام ينتظر وصول شارلى شابلن إلى القاهرة فى زيارة سياحية. وكان صلاح أبوسيف قد اكتشف هذا الفن الساحر الجديد وهو السينما تماما كما اكتشفه جيل نجيب محفوظ. ويتذكر نجيب محفوظ أيام سينما أوليمبيا ، ومازالت قائمة فى أول شارع عبدالعزيز ، وقد شهد فيها فيلما أجنبيا يقوم فيه أحد الأطباء باجراء عملية جراحية . وقد بلغ تأثر نجيب محفوظ بهذا المشهد أن عاد إلى بيته ، لينصب فوق سلم البيت عيادة . وأحضر نجيب

محفوظ سكينا حاميا من المطبخ لاستخدامه كمشرط ، واتفق مع أصدقائه الصغار على أن يتمدد كالمريض . وانتهى الفيلم الحقيقى بجرح مازالت آثاره على يد نجيب محفوظ أطال الله عمره . وهو لا ينسى فى عمره المتقدم هذه التجربة مع السينما حين يختلط الخيال أيام الصبا ، ولا ينسى تلك المغامرة كما لا ينسى نجمته المفضلة مارى بيكفورد التى تزوجت بالنجم أوجلوس فيربانكس.

ويذكر نجيب محفوظ سينما رمسيس وكانت على أيامى شتوية وصيفية فى فنائها المتسع . وكانت تقع فى العتبة الخضراء بشارع الرويعى فى حى تجارة الجملة. ولكن السينما لم تكن مجرد نزوة صبا أو طيش شباب فى حياة نجيب محفوظ. لأنها لعبت دورا أساسيا فى أدب نجيب محفوظ وساعدته حتى فى فن كتابة الرواية . وليس صدفة أن يكتب نجيب محفوظ تسعة سيناريوهات ، وأن يحاول صلاح أبوسيف اقناعه للتفرغ لكتابة السيناريو. وقد أفادت السينما نجيب محفوظ فى فنه الروائى لأنه تفنن فى «الفلاش باك» أو العودة بالبطل إلى الماضى حين يتذكر . وافادته فى فن الاختصار والنقلات فى الزمان أو المكان . وساعدته جرأة السينما على تقديم المرأة . والسينما لا تستغنى عنها فى تصوير الشخصيات النسائية بواقعية مذهلة.

وإذا كان أدب نجيب محفوظ قد كشف للقارىء عالم «الحارة» القاهرية فى ثلاثيته الشهيرة «من زقاق المدق» إلى «بين القصرين» و«السكرية» و«قصر الشوق» ، ثم بداية ونهاية» ، فقد تفوق نجيب محفوظ على معاصريه من الروائيين فى تصوير عالم المرأة بأعماقه وابعاده عبر أجيال متعاقبة . وسوف يذهل القارىء من عدد النساء الذى تعقبه نجيب محفوظ فى رواياته الأولى .

وفى شجرة عائلة عميد الأسرة أحمد عبدالجواد أو سى السيد يصور نجيب محفوظ مطلقته هنية التى أعقبت له ابنه ياسين الذى ورث عنه أحد جوانبه الباحثة عن الملذات . وقد تزوج ياسين وطلق زينب ، واعقب منها رضوان ، وتزوج وطلق مريم ولم تنجب ، ثم تزوج زنوبة واعقبت له كريمة . وتزوج عميد الأسرة «أمينة» نموذج الأم العطوف والزوجة الوفية وأعقبت خديجة وفاطمة وعائشة وكمال .

ومعالجة الأجيال ، رجالها ونسائها ، فى الثلاثية تشبه طريقة تولستوى فى الحرب والسلام ، وروايات توماس مان . وفى الثلاثية نحو عشرين امرأة فى البيت بين الزوجة والبنات ، ولكنها تصور أيضا جو الدلالة والبائعة والخاطبة ثم عالم العوالم والراقصات مثل جليلة وزبيدة وياسمينة .

وأجمل من صور الأم العطوف والزوجة الوفية هو نجيب محفوظ فى قصته

«دنيا الله» «وقصة «قوس قزح» . وسيان أن تكون الأم جاهلة أو مثقفة ،لأنه يصور هنا الفضيلة الحميمة عند الأمهات حين تصبح الأمومة مهنة التضحيات من أجل الأبناء. ولكن نجيب محفوظ يصور العانس الثرية أيضا ، فى قصة «جوار الله» . والأرملة الثرية فى قصته «حلم نصف الليل» . وكيف تصبح الثرية مطمعا للرجال ، بين يأس الأبناء من زواج الأم . لأنه لا يصح أن يحل محل الأب رجل آخر.

ويصور نجيب محفوظ المرأة المتحررة المستهترة فى قصته «بيت سيىء السمعة» . وقصته «كلمة فى السر» . ويعالج أيضا الخيانة الزوجية فى قصة «ثمن السعادة» ، وقصة «روض الفرج» .

وحتى المرأة التعيسة التى تنحدر لبيع جسدها يصورها نجيب محفوظ فى «نفيسة» . فى بداية ونهاية إحدى روائعه ، وسمارة ونبوية وفردوس ولبلبة فى قصص قصيرة أخرى .

ويعترف نجيب محفوظ أن المرأة شغلته منذ طفولته ، وكما صور الأم والزوجة المخلصة أو الخائنة عالج فى قصصه عالم المنحرفات أيضا .

ويعترف نجيب محفوظ انه تعرف فى أحد الأيام إلى ضابط بوليس بمكتب حماية الآداب ، وكان شقيقه يعمل موزعا لأفلام السينما ، وكان هذا الضابط يحكي له ما يشهده من فظائع الواقع .

ويقول محفوظ : ان رواياته حشمة بالنسبة للواقع .. وبين الأديب المفكر الفنان وضابط البوليس فرق كبير ، لأن الأديب يعرض الواقع بكثير من العطف والحنان.

٢٤ أولاد حارتنا

أكثـــر من أربعين عـــامـــا من المودة والحب جمعتنى بالمخرج الفنـان صلاح أبوسيف وتعمقت العـلاقة ، لأننا كنـا جيرانا أكثـر من ثلاثين عاما فى نفس الحى ، وعلى بعد أمتـار ، فى جزيـرة الـزمالك. وكـان صـلاح أبوسيف يسكن على الضفـة اليمنى الـواسعة من نـهر النيل ، ويطـل من شقته الفسيحـة فى الـدور الثالث على بـولاق (الحى الشعبى الذى ولـد فيه) . وكنت أسكن بـا لمقابل على بعد أمتـار على الضفة اليسرى الضيقة من النيل ، وهى تطل على إمبابة (الحى الشعبى الآخر) فى الضفة الغربية من النيل . ومن غرائب القاهرة أن يجتمع فيها وعليها كل شىء.

وكان صلاح أبـوسيف قاهرى المولد والمزاج ولهذا أحببتـه . ولكن كان أيضا بـولاقيـا . وكـانت أمتع أحـاديثـه التى علمتنى الكثير عن أسرار شـوارع بـولاق القديمة وحواريها وأسواقها ومدارسـهـا ومساجدها وفتواتها . وكانت التفاصيل الـدقيقة لاتبـارح ذاكرتـه . وكنت أعرف تمامـا عشق صلاح أبـوسيف للأحياء القديمـة فى أى مدينـة . لأن الأحياء القـديمة هى ذاكـرة المدينة ، وفى تلـك الأحياء تستطيع أن تكتشف أسرارهـا وتقرأ أسرار أحيائهـا . وكثيرا ما دعيت مـع صلاح أبوسيف إلى مؤتمرات ثقافية عربيـة ضخمة ، وكنا نتفق سرا على النجاة من شدة الخطب أو كثرة الحفـلات للقيام بجولـة حرة فى الأحيـاء القديمة . ومـازلت أذكر جولته فى دمشق القديمة العريقة بسحرها وبيوتها وحواريها . وكان يتجول معى بخطى سعيدة ومتعة عميقة ، ويتوقف فجأة عند بـوابة قديمة أو «مسقاطة» بيت حديدية قديمة ، أو شرفة رشيقة تتعجب لطول بقائها واحتمالها .

وأذكر اننـا حضرنا أيضـا منذ سنـوات مهرجـانا فنيـا حافـلا بنجوم الأدب والسينما والمسرح والـرسم فى مدينـة «أغاديـر» المغـربية. وكـانت متعة صـلاح أبـوسيف أن حرضنى أن نبحـث معا عن السـو ق الشعبيـة فى المدينة الجميلـة . وكـانت السو ق بعيـدة . ولكن الجولة كـانت ممتعة . والمخـرج الفنان يستـوعب التفاصيل بذاكـرته البصرية الغنية بـالتفاصيل . وفجـأة توقفنا عنـد بائع عجوز يتسم لنـا ، ويبدأ بـالترحيب اللطيف مع أنه أدرك أن الشراء ليس غـايتنا . وقـال العجوز لصلاح أبوسيف :

الآن تذكرتك . أنت نـجيب محفوظ .

وابتسم صلاح أبوسيف بطريقته الوديعة.
فاستأنف العجوز وقد اتسعت ابتسامته :
لا-بل أنت صلاح أبوسيف.

وحين عدنا من السوق الشعبية إلى الفندق البعيد ظل في ذهني هذا المزج الغائم بين صورة نجيب محفوظ وصلاح أبوسيف في ذهن المغربي العجوز الطيب. وقد يكون الشبه في العمر أو الدور بين الروائي والفنان هو السبب. لأن سنوات التكوين تتشابه. وكما تكونت حساسية الروائي في الجمالية تكونت سنوات المخرج في بولاق. وهما الاثنان من أولاد حارتنا الشعبية، ولم يكن صدفة أن يصور الاثنان الحارة في المكان والزمان، وكأنهما يرمزان بها إلى مصر كلها.

وقد كان من التقاء صلاح أبوسيف بنجيب محفوظ هو هذا العالم الملىء بالأحداث والشخصيات والعمارة والبيوت التي لا تتكرر في المدينة العصرية الحديثة. فلقد ولد نجيب محفوظ في بيت في ميدان في حي الجمالية. اختفى الآن للأسف، وكان البيت من بابه من ثلاثة طوابق، وكل طابق غرفتان. ولذلك كان الدور الأول للمسافرين أو الزوار، وكان الدور الأعلى للسكن. وكان نجيب محفوظ يقول: إن عائلته كانت تسكن رأسيا في بيت من بابه توزعت أدواره طابقا فوق طابق بدلا من أن تتسع غرفه أفقيا لأغراض المعيشة في كل بيت.

وقد كان نجيب محفوظ الفتى الصغير في سنوات التكوين يشهد أحداث ثورة ١٩١٩ من فوق السطح حين تفور المظاهرات، وتخرج من حافة الأزهر لتفيض ولتنساب في الشوارع والحواري المجاورة. وكيف لا، ووراء بيت نجيب محفوظ، شارع بين القصرين، والمنطقة من باب الفتوح وجامع الحاكم بأمر الله هي منطقة الأسواق والتجارة، ولايزال فيها حتى الآن سوق الليمون، وهي منطقة لها تاريخ قديم وعجيب. قد يتناقله العواجيز أحيانا، أو تجده في بطون المقريزي والجبرتي، وخلاصتها أن الطرق الدينية والقوى التجارية كان لها رأي في طلب العدل والانصاف. وكان القاهريون يثورون على ظلم القضاة إذا جنحوا إلى الرشوة والفساد. ويقبضون على القاضي ويركبونه «ركوبة» بغلا أو حمارا حسب الموجود، ويضعونه عليه بالمقلوب، ويسوقونه إلى بيت القاضي لطلب عزله. وتعود فيماذكر المؤرخون، كلمة «التجريس» مرادف «التشنيع» بالعامية المصرية إلى انهم كانوا يستخدمون «أجراسا». ليصبح القاضي المعزول «فرجة وجرسة». وهكذا تداخلت في كل حجره من هذا الحي الشعبي ذكرى أحداث وتقلبات وتطورات، ولا شك أنها أخذت نجيب محفوظ في حارته الشعبية وسنوات التكوين، ما جعله مؤرخ القاهرة وأحيائها وشخصياتها منذ ثورة ١٩

وما بعدها . ولهذا انسجمت العلاقة بين نجيب محفوظ وصلاح أبوسيف لأن المخرج كان قارئا ممتازا ، ولاحظ أن نجيب محفوظ يكتب قصصه بأسلوب جديد فيه ميزة السيناريو. فالجملة عنده مختصرة ، والنقلات واضحة ، والمكان يلعب دورا كبيرا ، وهو ما يحتاجه فن التصوير والسينما . وحاول صلاح أبوسيف أن يقنع نجيب محفوظ بالتفرغ لكتابة السيناريو . وقد كتب نجيب محفوظ تسعة سيناريوهات ، ولكنه كان يعتبرها تمرينات على تصوير الشخصيات ورسمها لأنه ظل أيضا مخلصا لعالم الأدب والتعبير بالكلمة . ولولا الاذاعة والسينما لما انتقل نجيب محفوظ إلى الجماهير العريضة .

ويقول نجيب محفوظ :

«إذا كانت الرواية جمهورها بالالاف ، فإن السينما جمهورها بالملايين».

ولم تتأكد لى ملاحظة نجيب محفوظ عن السينما مثلما حدث حين عمد «مهرجان القاهرة السينمائي الدولى العشرون» إلى الاحتفال بعدة مناسبات ، منها مئوية السينما فى العالم ومصر ، ومرور عشرين عاما على «مهرجان القاهرة» ، ثم الاحتفال بميلاد نجيب محفوظ الخامس والثمانين ، وميلاد يوسف شاهين وتوفيق صالح السبعين .

وتداخلت المناسبات ، وتزاحمت ، ولكننى حرصت على رؤية فيلمين مكسيكيين مقتبسين من روايتى «زقاق المدق» و«بداية ونهاية» لنجيب محفوظ ، والانتاج والاخراج والتمثيل مكسيكى مئة فى المئة . وقد نجح الفيلمان وفازا بعدة جوائز ، وفاز «بداية ونهاية» بالجائزة الذهبية فى مهرجان «سان سباستيان» فى اسبانيا ، والجائزة الذهبية فى مهرجان «كان فى فرنسا» . وأخرج أرتورد رابتشين «بداية ونهاية» والفيلم المكسيكى ١٨٣ دقيقة أى ثلاث ساعات .

ومع أن اللغة اسبانية والشخصيات مكسيكية والاقتباس لم يغير من قصة «بداية ونهاية» محورها الأساسى وهو مصير عائلة يموت عائلها الموظف الصغير ، وتقاتل الأم الصبورة ليتمكن حسن وحسين وحسانين الأولاد على اكمال تعليمهم. وتضحى نفيسة بكل شىء فتشتغل خياطة للجيران والمعارف حتى يكمل اخوتها تعليمهم . والأخوة حسن وحسين وحسانين مختلفون .

حسن يتدهور لأنه الأكبر ليصبح سنيدا فى فرقة غناء ليصبح فتوة فى الأفراح ينتهى إلى كلوت بك ، وحسين يكمل بالكاد البكالوريا ويقرر أن يلتحق بأى وظيفة حتى يكمل حسانين تعليمه العالى. ولكن القدر والحظ يغتال الضعفاء. والأضعف كانت نفيسة لأنها قليلة الجمال. ويضحك عليها ابن البقال واعدا بالزواج ، فإذا بها تنتقل سرا إلى شارع شبرا يلتقطها رجل من هنا أو هناك ، ثم

تعـود إلى البيت لتعكف على ماكينــة الخياطـة . صراع أقدار مع القـدر لاينتهى فى ملحمة إنسانية أبطالها من صغار الناس يتنافسون على التضحية حتى يفوزوا ـ ولو واحد من العائلة ـ باكمال تعليمه . وتنتهى المأساة أو تكون النهاية أن يتخرج حسانين ثم يكتشف كـارثة شقيقته. والمذهل أن قصـة العائلة التى تفقد عـائلها وموردها تتكرر فى الفيلم المكسيكى . ولـو شهدت الفيلمين «زقاق المدق» و«بداية ونهاية» لـدهشت مع أن اللغـة مختلفة ، والشخصيـات واحدة ، والأدوار متغيرة لكن جو الحارة الشعبيـة واحد لايختلف . نفس الانفعالات والعـواطف والحنان والهوس واختلاط الواقع بالأوهام.

وقـد نبهني ذلك إلى نجيب محفـوظ الاديب وإلى اللغـات الأجنبيـة التى انتقل إليها ، خصوصا بعد فوزه بجائزة «نـوبل» . وإن بدأت ترجمته قبل فوزه بأعوام. ولكن الملاحظة المذهلة أن أدبـه قد ترجم حتى الآن إلى أكثر مـن عشرين لغة ، منها الماليزيـة والاندونيسيـة واليابانيـة والصينية والايطاليـة والاسبانيـة . وأغرب اللغات التى بحثـت عنها فى القواميس هى إحـدى لغات اسكنـدفافيـا ، وهى لغة قريبـة من الايسلندية وعلى صلـة باللغة الـدنمراكية والسـويدية ، ولايتحـدثها سوى نصف مليون يسكنون مجموعة مـن الجزر التابعة للدنمارك . وقد توقفت عند هذه اللغة وانهم اختاروا بـالذات «زقاق المدق». وعلمت بعد ذلك أن ١٨ رواية لنجيب محفـوظ ترجمت إلى الاسبـانية أكثر مـن الانجليزيـة أو الايطاليـة. وقد لاتكون صدفة أن تكون الاسبانية أكثر اللغات . لأن أولاد حارتنا لايسكنون فقط حارتنا.. فى القاهرة وفى الجمالية وبولاق.

٢٥

نساء أمير الشعراء من

كليوباترا إلى الست هدى

كلما زرت باريس سعيت للعثور على غرفة فى أول فندق نزلت فيه أيام الشباب. وقد يكون ذلك تمسحا بالحى اللاتينى وأيام السوربون وذكريات الصبا . وقد يكون لأن الفندق القديم له حديقة داخلية دائمة الخضرة شديدة الهدوء وسط الحى الصاخب – على مر الاجيال – بضحكات الشباب وصياحهم. فالحى اللاتينى هو حى المدارس والسوربون والكوليج دى فرانس ومكتبة سانت جنفيف وحديقة اللوكسمبورج . والأغلبية الساحقة فيه من الشباب .

ولم أكن أعرف لسنين طويلة أن فندق «سلكت» . الذى يقع فى ميدان السوربون الصغير ، كان ينزل فيه أمير الشعراء أحمد شوقى وأمير الغناء محمد عبدالوهاب . ولم أكتشف ذلك إلا عندما شهدت مسلسل سعد الدين وهبة الرائع فى حواره مع الموسيقار محمد عبدالوهاب . وفى أحد المشاهد التقى سعد الدين وهبة مع توفيق الحكيم الذى حكى أن أول مرة شاهد فيها عبد الوهاب مع أمير الشعراء كانت أمام فندق «سلكت» بميدان السوربون. وكان عبدالوهاب صبيا يافعا يتتلمذ فى تذوق الشعر على يد أمير الشعراء. وكان شوقى يعتقد أن صوت عبدالوهاب الجميل الرخيم سيصل بأشعاره الجميلة إلى الملايين. وحكى توفيق الحكيم انه يتذكر أمير الشعراء وهو يرجو عبدالوهاب أن يصعد إلى غرفته ليحضر له «البابيون» أو رباط العنق فى تلك الأيام ، وكان قد نسيه فى الغرفة .

وكشف توفيق الحكيم عن سر لقائه بأمير الشعراء فى باريس ، حيث كان شوقى يزمع أن يؤلف مسرحية شعرية عن كليوباترا وكان يريد من توفيق الحكيم أن يبحث له عن كل المؤلفات التى ألفها الفرنسيون عن ملكة مصر العاشقة. فقد ألهمت كليوباترا التى أحبت مارك انطونيو – مع فارق السن – عشرات الأدباء والشعراء والموسيقيين من شكسبير الشاعر الانجليزى إمام الشعر المسرحى ، إلى كورتى الشاعر الفرنسى ، ثم تيوفيل جوتييه الروائى الفرنسى الذى زار مصر ، بل حتى بوشكين شاعر روسيا الكبير ، وصولا إلى جورج برناردشو إمام الساخرين. وقد فتحت باريس لأمير الشعراء عالم المسرح والمسرحيات الشعرية. وقرر أن يعالج أشهر قصة حب بين كليوباترا وانطونيو فى العصر البطلمى بمسرحية شعرية سماها «مصرع كليوباترا».

وكان من عادة أحمد شوقي أن يناطح العظماء ، ويتقن فن المعارضة ، ومادامت كليوباترا الملكة المصرية قد ألهمت عمالقة الشعر فى أوروبا ، فلا بد له أيضا أن تكون له كلمته . وكانت مسرحية مصرع كليوباترا التى كتبها بعد عشرين عاما من لقائه مع توفيق الحكيم فى باريس. وكان من عادة أمير الشعراء أن يعارض من سبقوه من عظماء المؤلفين ، وتأكد لى ذلك حين زرت بيته ـ كرمة ابن هانىء ـ لأبحث فى ما تبقى من كتبه التى يفضلها ويحفظها فى غرفة نومه. وكنت أعد عددا خاصا من الهلال عن شوقى منذ ربع قرن ووجدت بين ما تبقى من كتبه الاثيرة ديوان البحترى ، وقد كتب على صفحة من صفحاته بداية سينيته الرائعة فى وصف الربيع ردا على قصيدة البحترى الشهيرة فى وصف الربيع ، وتكررت نفس هذه العادة لأنه كتبه على ديوان البوصيرى فى مدح الرسول الكريم بردته الشهيرة أيضا. وكان شوقى يكتب بالقلم الرصاص على الصفحات الداخلية من دواوين فحول الشعراء السابقين .

وهكذا كان شوقى مجددا فى المسرح ومخلصا لفحول الشعر القديم. وجاءت صورة كليوباترا الشوقية صورة مثالية لامرأة مثالية ضحت بحبها فى سبيل تاج مصر. تماما كما ضحت «مونتبارس» فى مسرحيته «قمبيز» لتحمى بلدها من بطش قمبيز الجبار. وكان شوقى أخلاقيا، مثاليا ، ورفض صورة العاشقة الهلوك ليعطى صورة مثالية للملكة الفاضلة.

ويقول شوقى أنه رفض الصورة البذيئة التى رسمها المؤرخ الرومانى بلوتارك لكليوباترا، وفضل أن يقومها كانسانة فاتنة لها ما للفاتنات من غى ورشاد. وكملكة عظيمة لأمة عظيمة لها طموح وكبرياء وجلال، ويأبى عليها أن تسلم تاج مصر لاعدائها ، وتفضل الموت على حياة الذل والهوان . وتعكس صورة المرأة فى مسرحيات شوقى عصر شوقى الذى توهجت فيه الوطنية والمثاليات الأخلاقية.

وصورة كليوباترا عند شوقى تختلف عما قدمه شكسبير بقوة ، وجوتييه برومانسية ، وبرنارد شو بسخرية وبوشكين بفحولة . ولم يشاهد شوقى مسلسل الأفلام السينمائية التى اخرجتها السينما لكليوباترا، فقد أصبحت كليوباترا مقررة على السينما العالمية كما كانت مقررة على المسرح والمسرحيات الشعرية ، وكل عشرين سنة يظهر فيلم جديد عن كليوباترا ، ومثلتها أول مرة تيدا بار من إخراج بسى ادواردز ، وبعدها كلوديت كولبير من إخراج سيسيل دى ميل ، ثم كانت الاجمل والأقوى اليزابيث تايلور فى رائعة من روائع الستينات .

وكان شوقى مثاليا وأخلاقيا ، وكان يحترم فى المرأة فضيلة التضحية بنفسها

من أجل وطنها كما فعلت بطلـة مصرع كليوباتـرا وبطلة مسرحيته الثانيـة قمبيز التي قبلت الـزواج منـه لتصبح فـداء لوطنهـا وحتى تحول دون الطمع فى غـزو بلدهـا: مصر. وقد اعتـادت الطبقة العليا التي ينتمي إليهـا أمير الشعراء معـاملة المرأة بـاحترام . وكـان شوقى نفسـه يعتبر ابنتـه «أمينـة» أقرب إليـه من ولـده «حسين» الذي كشف لى ذلك وبعد وفـاة والده بأكثر من أربعين عامـا. وقد يكون هذا الاحترام سببا فى ضعـف الدراما عند شوقـى فى تصوير بطلاتـه، لأنه كان لا يصـور الصراع العنيف فى تطور الشخصية النسائية ، وإن كـانت قدرته وجزالته تخفيان هذا الضعف فى البناء الدرامي . والغريب أن شوقى كتب سبع مسرحيات، ولعبت المرأة فى ست منهـا أدوارا رئيسيـة، ودارت مسرحيته الأولى التي كتبهـا فى باريس عن على بك الكبير حول شخصية رجل .

وفى المسرحيات الســت الأخرى: كليـوباترا وأميرة الأنـدلس وقمبيـز. جاءت صورة المرأة المثالية، وفى مجنون ليلى صـور شوقى صراع الحب والتقاليد. ولكن المذهل أن أمير الشعـراء أثبت أيضـا أنـه أمير الفكـاهـة، ففى مسرحيتـه الأخيرة «الست هـدى» تدور المسرحيـة حول هـذه الست التي استطـاعت بفدادينهـا أن تتزوج قطيعا من الرجال الواحد تلـو الآخر، وكلما مات أحدهم، استبدلت به غيره طامعا فى مالها، حتى فنى الجميـع. وعندما أدركها الموت ظن آخرهم أنه قد أصاب الثروة، وتوافد الجيران عليـه مهنئين، ولكنه يكتشف ان «الست هدى» قد أوصت بكل مالها لبعض صديقاتها وبعض جهات الخير، وأنه لن يرث منها شيئا .

وتدور الـرواية فى حى الحنفى الشعبـى. والغريب أن أمير الشعـراء استطاع تصوير تلك البيئة الشعبية بتدفق وسهولة وروعة.. وكان أمير الشعراء فى طبعته الشعبية رائعـا . ولم تكن الست هدى ـ قـاتلة الأزواج فى الحلال ـــ أقل روعة من كليوباترا العاشقة التي قتلت نفسها .

٣٦

حفيدة
أمير الشعراء

أقام أمير الشعراء أحمد شوقى بيته في موقع فريد بالجيزة، على الشاطىء الأيسر من النيل، واختار موقعا متميزا لأنه إذا أطل من بيته ناحية الشرق رأى قلعة صلاح الدين ومحمد على. و إذا أطل ناحية الغرب رأى الأهرامات الثلاثة، وكأنه اختار هذا الموقع بالذات ليجمع في وقت واحد ومكان واحد أهم معالم مصر، وهى النيل والهرم والقلعة.

وحين زرت «كرمة ابن هانئىء أو بيت شوقى فى صحبة ابنه حسين بك، قال لى: ان بيتهم فى حياة والده كان يصل الى النيل مباشرة قبل شق الطريق الموازى الذى يفصل الآن بين القصر والحديقة والنهر. وكانت الخضرة الشاسعة تمتد حتى مشارف الهرم. لأن البيوت أيامها كانت قليلة، والحدائق والحقول كانت شاسعة.

وقد اختار شوقى بك لفيلته الجميلة اسم «كرمة ابن هانىء» على اسم الشاعر الاندلسى الرقيق، كما أطلق اسم «درة الغواص» على بيته الصغير بالاسكندرية. وكأن هذا عهد الأدباء، فقد أطلق طه حسين اسما عربيا قديما لبيته وهو رامتان» أو الخيمتان، لأن الرامة هى الخيمة، وكان البيت معدا لسكناه مع ابنه مؤنس الذى تزوج من ليلى حفيدة شوقى الصغرى.

وحين صعدت السلم الخشبى القديم متجها الى غرفة نوم أمير الشعراء المطلة على الحديقة الخلفية لم أحس بالغربة، فقد كنت أعرف بعض أسرار البيت من حفيدة شوقى بك الكبرى اقبال العلايلى، وكنا نسميها «بولا» وكانت تأسرنا بملاحظاتها الذكية عن جدها. وكانت تروى لنا مالا نجده فى الكتب أو الصحف وما يخفى من تفاصيل حياته. لأنها كانت الحفيدة المفضلة والمدللة، وكان يصحبها حتي خارج مصر في أسفاره الى لبنان. وقد نشرت لهما صورة فى زحلة، وكانت بولا تجلس جانب جدها فى حديقة فندق الزحلاوى ولا تصل قدماها الى الأرض. لأنها كانت فى السادسة أو السابعة من عمرها والأمير أوغل فى السن. ومن غرائب ما روته بولا عن جدها أنه كان لا يدخل حمامه فى الصباح إلا إذا دلقوا زجاجتين كاملتين من العطر الفرنسى.

وكنت أسعى الى غرفة نوم شوقى كما تركها، لأننى أعد عددا خاصا من مجلة

«الهلال» أكمل به ربـاعية طـه حسين والعقاد وتـوفيق الحكيم. وكنت أبحث عن الكتب التى كان يقرؤهـا شوقى ويضعها الى جانبه عند نومـه، وكان شوقى كما روى ابنه يفضـل الكتابة فى غـرفة نـومه. وهي أصغـر الغرف. ولكنهـا تطل من ناحيـة الغرب على حديقـة واسعة جميلة لهدوئها.. وفى غـرفة النوم كـان لا يزال سريره يحتل أكثـر الغرفـة. بأعمدتـه النحاسيـة العاليـة، ودولاب متوسط ملىء بالكتب المجلدة. ولم أجـد كتابا أجنبيا واحدا سوى كتاب لتعلـم الاسبانية، وكان ابنه حسين شوقى يجيدها منـذ أيام المنفى. وأمير الشعراء يحبها. ويحاول معها لأنها قريبة فى أكثرها من الفرنسية التى يجيدها.

وقال لى ابنـه: إن أحب كتاب اليـه كان «نفح الطيـب». ومنه استوحـى رواية «أميرة الأندلس». وشجعنى على البحث فى كتبـه المفضلة ما عـرفته ما عرفتـه أنه كـان لا يكتب قبل أن يقـرأ. ووجدت فى غـرفـة نـوم شوقي ديـوان ابن الـرومي والشريف الـرضي والبحترى ومختـارات البـارودى وديـوان :أنيس الجلسـاء في ديوان الخنسـاء. وابن زيدون. وشرح سقط الزنـد لأبى العلاء، والأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية. لكننى فوجئت وأنـا أقلب دواوين الشعر بخط شوقى بالقلم الرصـاص، واكتشفت انه كتب مطلـع سينيته التى يعـارض بها سينية البحترى على الصفحـة الأولى من ديـوان البحترى، ووجـدت على بـردة البـوصيرى مطلع قصيدة شوقى فى مدح الرسـول.

وخـرجت من غـرفة شـوقى بخـاطـر غريب، وكأن أمير الشعـراء أخـذ بفن المعارضة فى الشعـر العربى القديم ولم يكتف بمعارضـة شعراء عصره كما كان يفعل الأقدمون، بل قرر أن يعارض البحترى ليكتب سينيته في جمال الربيع، وأن يطاول البوصيرى في مدح الرسـول. وهكذا يكون الطموح فى الفن حين لا يطاول العظماء عظماء عصرهم فقط. ولكنهم يتخطـون عصـورهم، وكأنهم ينشـدون الخلود.

ويبـدو أن بولا العـلايلى حفيدة أمير الشعـراء شربت من جـدها حب الشعـر والموسيقى والرسم. وقـد كانت حفيدات شـوقى الثلاث بنات حامـد بك العلايلى من عاشقات الفن والأدب، فالكبرى خديجة رياض كانت رسامة. والصغرى ليلى تزوجت مؤنس بن طه حسين وعاشت معه فى باريس.

وكانت بولا أكثـرهن نشاطا وتألقا فقـد كانت فى جيلنا فتاة متأججـة، وكانت نشيطة لا تهدأ فى مـراسم الفنانين ومعارض الفنون، خصـوصا حركة التجـديد السـورياليـة التى لمع فيها كـامل التلمسانى قبل أن يصبح مخرجـا، ورمسيس يونان قبل أن يهاجـر الى باريس. ولم تكن بولا قد تـزوجت بعد جورج جنين رائد

السوريالية فى مصر، وكان شاعرا بالفرنسية ومترجما للشعراء أندريه بريتون، وهنرى ميشو، وايف بونفوا.

وكانت بولا رائعة الحسن مذهلة، ولولا لطف الملامح وعذوبة التقاسيم لأخذتك الهيبة من شدة الجمال. وكان الأجمل عينيها الكحيلتين وشعرها الناعم، وكان يجمعها مع بعض أبناء الباشوات والبكوات ذلك الضيق بالجاه والمال، وسهولة انتقال الثروة بالميراث. واتجه عديد منهم الى الفن، فقد يكون فيه القيمة أو السلوى والعزاء. وكان من أوائل السورياليين محمود سعيد الذى كان قاضيا بالمحاكم المختلطة واستقال لفنه. وكان الرسام والقاضى السابق ابن محمد باشا سعيد أحد رؤساء الوزارات. وكان جورج حنين الشاعر ابن صادق حنين باشا وزير المالية الأسبق، ولكنه هجر الإدارة الى الشعر، ثم هاجر الى باريس.

وقد نشرت بولا العلايلى كتابا رائعا بالفرنسية عن ألمانيا ترجمت فيه مختارات من الشعر الألمانى الرومانسى، وكانت مشكلة بولا العلايلى أنها تجيد الفرنسية وتكتب بها ولا تستطيع الإجادة بالعربية، وظلت محصورة فى دوائر النخبة الثقافية التى كانت تتحدث بالفرنسية وتجيدها.

وانتهت بولا العلايلى الى الهجرة الى باريس، واختفت من بيت جدها «كرمة ابن هانىء» بعد أن كانت قد بنت بيتا فى حديقة الكرمة الواسعة. وأغوتها باريس عن البقاء فى بيت شوقى الذى اختار موقعه ليطل على النيل والقلعة.. والهرم.

٢٧

ألـــوان والحـــان

أعشق فن الـرسـم. وفي داخلي رســام نــائم. ومتعتي هي التجـول بين لـوحات الـرسـامين في المعـارض والمراسـم والمتـاحف. لأنني أعشق رؤية الألوان والخطوط. فأدمنت زيـارة مراسـم الـرسامين حتى أصبحت أحـب أن أشم رائحة الـزيت في لوحـات الموهوبين. ومتعة رؤية اللـوحات الفنية أن تكتشف الألحان في الألوان. لأن جمال اللوحة لا تراه فقط، ولكن تسمعه. فالإيقاع والتناسب والتكرار والخطوط الغليظة والرفيعة فيها همسات وفيها أصوات تشبه الموسيقى.

وقد يكون أسباب هذا العشق القـديم للرسم أن أول جائزة حصلت عليها وأنا في الابتدائية كانت في الرسم، وقـد يكون السبب أقوى. لأنني اكتشفت أن ذاكرتي بصرية ويصعب أن أنسى وجها رأيته أومكانا زرته.

وقد يفلت من ذاكرتي قليل أوكثير ممـا أسمعه. لأن ذاكرتي السمعية أضعف. وقـد اكتشفت ذلك منذ أيـام دراسة الحقـوق والقانـون، فقد كـان معنا في كليـة الحقوق شاعر موهوب، وكانت ذاكرتـه السمعية متوحشة. وكانت موهبته الأولى في أذنه. وكان يستطيع أن يحفظ مائة بيت من الشعر في ساعة، وقد استعان علينا بهذه القدرة السمعية الفريدة في التفوق لأنـه كان يستطيع تلخيص مادة القانون الرومـاني في قصيدة طويلـة واحدة، وكـان يكتبها ويحفظها عن ظهـر قلب. وقد تفوق هذا الزميل وأصبح بعد ذلك سفيرا في الخارجية.

وقد اكتشـفت بعـد ذلك أن الذاكرة البصريـة تختلف عن الذاكـرة السمعية. ثم اكتشفت أن هنـاك عائلات بصريـة وعائلات سمعية. وتوقفت عند مغـزى العلاقة بين أسمهان وفـريد الأطرش. ثم بين ليلى مـراد وأخيها منير مـراد ووالدهما زكي مراد. وبين موهبـة محمد الموجي وابنه. ثم محمد القصبجي وابنـه. وتاريخ هذه العلاقات السمعية الموسيقية طويل. ولكن العائلات البصرية أيضا موجودة. لأن الملكة فـريدة عثـرت على موهبتها في الـرسم بعد أن أصبحت ملكـة سابقـة. وقد رسمها خـالها الرسام الكبير محمـود سعيد وهي طفلة. وبين الخال وابنـة اخته الموهبـة البصرية. وعـائلـة التلمسـاني أيضا أخـرجت رسـامـا رائدا هو كـامل التلمساني. وأصبح الرسام مخرجا سينمائيا شهيرا، بروايته «السوق السوداء» التي اكتشـف فيهـا عماد حمدي. وكان الانتقـال بين الصـورة الثـابتة والصـورة المتحركة في السينما سهـلا على كامل التلمساني وشقيقه حسن التلمسـاني. وقد بدأ رساما وانتهى مصورا سينمائيا لـه رائعة «منابع النيل» التي أخرجها المخرج

فيني. ولهما شقيق ثالث هو عبدالقادر التلمساني الذى تعلم فى باريس، وتخصص فى الأفلام الوثائقية، ومن روائعه «القاهرة» وكتاب «وصف مصر». والعجيب أن المصور السينمائي الجديد طارق التلمساني هو ابن حسن الرسام المصور. وقد لاحظت الملاحظة نفسها عن تلك العائلات البصرية، لأن عبقرى الرسم التأثيرى الجميل «اوجست رينوار» أشهر رسامى المرأة فى فرنسا والعالم، ترك ابنه «جان رينوار» السينمائي الكبير. وبعض أفلام الابن السينمائي فيها لوحات فنية يغنى فيها اللون والضوء كما يغنيان فى لوحات الأب الرسام. والقاعدة نفسها بين الرسامة الفرنسية «الفلتة» سوزان فالادون التى بدأت موديلا وأصبحت رسامة. ثم انجبت الرسام «اوتريللو» الذى برع فى رسم بيوت وشوارع باريس بموهبة وروعة. ولكننى لم أكتشف إلا أخيرا أن جدة جوجان، وهو من اشهر رسامي التأثيرية أيضا، كانت تعمل عاملة فى محل نحات فى باريس. ولفتت موهبتها فى الرسم والنحت صاحب المحل، الذى يكبر ها فى العمر. وتزوجها. ثم دب الخلاف بين الزوج وزوجته فهجرته. وحدثت مأساة بينهما حتى حاول خنقها بيديه. وهربت منه لتصبح جدة جوجان لأمه، واسمها «فلورا تريستان» أشهر شخصية نسائية فى القرن التاسع عشر، بل أصبحت زعيمة من اتباع سان سيمون وفورييه، قطبى الاشتراكية الخيالية.

وكان سان سيمون من النبلاء الاقطاعيين. ولكنه أنفق ثروته وأضاعها. لانه تطوع فى الثورة الأمريكية. وعاد لفرنسا مفلسا. وحين عثر عليه أحد أتباعه وحاشيته، وكان لايزال يملك آلاف الأفدنة من «فضلة خير» الكونت، عرض عليه استضافته، ليعكف على كتابة أفكاره وأحلامه. وقبل الكونت سان سيمون ذلك العرض الوفى الكريم، بشرط واحد، هو أن يوقظه خادمه القديم، كل صباح، بهذه الجملة وهذا الشرط : «سيدى الكونت، ان وراءك مهمة جليلة هى تغيير العالم».

وكان سان سيمون يحلم بعصر جديد يتفوق فيه العلم والصناعة فى العالم. وكان سان سيمون من دعاة تحرير المرأة. ولذلك أخلصت فلورا لأفكاره. وأسست جدة جوجان لأمه جريدة عمالية اسمها «اتحاد العمال»، ثم كتبت ثلاثة كتب أعيد طبعها عدة مرات فى حياتها، كما ألفت رواية. وكما طالبت بتحرير المرأة طالبت بإلغاء عقوبة الإعدام. ونسى الفرنسيون هذه المرأة المجددة سنوات طويلة. ولكنها عادت إلى باريس. وأعيد طبع كتبها أثناء حركة الطلبة وعصيان السوربون عام ١٩٦٨، حين انتهت بتنازل ديجول عن الحكم.

وكانت جدة جوجان ابنة لامرأة فرنسية وأحد أثرياء بيرو، ولم تشهد الحركة الاشتراكية امرأة صاخبة مثلها. وكانت شديدة الاشتعال، فأحرقت واحترقت. لأنها ماتت فى الواحدة والأربعين. ولم ينس جوجان ـ الذى اضطربت حياته كما اضطربت حياة جدته التى ورث منها الموهبة البصرية وحب الرسم ـ أصوله غير

الفرنسية. والعجيب أن جوجان هاجر إلى جزر تاهيتى بعيدا عن باريس وفرنسا ليستلهم الضوء واللون فى الآفاق الفسيحة، وكان جوجان لاينكر أصوله الأمريكية اللاتينية.

وأصبح أروع من رسم الطبيعة والمرأة بألوان وأضواء شرقية فصيحة وصاخبة. والمضحك أنه حاول انقاذ ميراثه فى بيرو. ولكنه فشل. وظل فقيرا شديد الفاقة ولايتافسه فى فقره غير صديقه العزيز ذلك الهولندى العبقرى: فان جوخ. وكان الرسم أيضا قد خلب لبه، فترك هولندا المعتمة إلى ريف فرنسا المضىء. وبين الصديقين دارت أروع المساجلات العنيفة والمشاحنات الطريفة. ثم استسلم للجنون. وترك فان جوخ وجوجان أروع روائع الرسم. حتى أصبحت كل لوحة الآن تصل قيمتها إلى ملايين الدولارات. ولكن الغربة فى الوطن كانت أليمة وأشد إيلاما من الغربة عن الوطن، فانتهى جوجان إلى جزر تاهيتى.

فقد عاش جوجان فى بيرو حتى بلغ السابعة، ثم هجر فرنسا ومات أيضا فقيرا. ولم يشتهر من عائلته جده لأمه أندريه الذى كان نماقا وطابعا، ولاشقيقه الذى كان رساما ويعلم الرسم فى متحف التاريخ الطبيعى بباريس. ولا أمه التى اشتغلت أيضا بطباعة الطوابع، ولكنه ورث الموهبة البصرية التى تفجرت فى حياته المضطربة، فأفرغ عنف الحياة فى خطوطه وألوانه واكتشافاته البصرية.

والغريب أننى اكتشفت منذ سنوات قليلة، وأنا أتجول فى متحف دورساى الذى يجمع الآن بباريس روائع الفن التأثيرى، رساما تأثيريا ثالثا هو اميل برنار. وكان المثلث الذهبى لتلك الصداقة الفنية يجمع فان جوخ وجوجان واميل برنار. ومتحف دورساى كان من قبل محطة سكة حديد فى قلب باريس. وبعد أن اتسعت أحياء باريس لم تعد المحطة ضرورية، وتحولت إلى متحف للفن الحديث لتجمع روائع ديجا وسيزان وفان جوخ ومانيه وبونار وبونيه وغيرهم من أساطين الفن التأثيرى. وهى أكبر مجموعة فى العالم تحتشد فى مكان واحد.

وقد رسم اميل برنار جنازة جوجان فى لوحة شهيرة. ولكنه أيضا كان شخصية غريبة لأنه هجر باريس إلى طنطا ثم القاهرة. وبقى فى مصر أحد عشر عاما مستمرة. وكان رساما وشاعرا. ولذلك أسس جريدة فنية بالفرنسية فى مصر اسمها «بارناس الشرق». وبارناس هو جبل الإلهام عند شعراء اليونان. ولاميل برنار لوحات معلقة فى صدر هذا المتحف العالمى. وله لوحة لشقيقته مادلين. وجوجان أيضا له لوحة لهذه الشقيقة. وقد أحبها جوجان حبا لطيفا فرسمها، ولكن حبه لم يستمر، لأنه انطلق إلى جزر تاهيتى، بينما هاجر اميل برنار إلى مصر، وأصبح اميل من ائمة الرسامين المستشرقين. لأن كثيرا من الرسامين هجروا عتمة الغرب، وظلاله وغيومه إلى الضوء والنور فى الشرق. لأن الضوء واللون عندنا يسطع ويتلألأ.. وأحيانا يغنى.

٢٨ ألحـــان وألـــوان

حكمة الخالق أن خلق الأحياء لها عيون وآذان. والعيون ترى والآذان تسمع. وحكمة الخلق أن العيون لها جفون ، نغلقها ونفتحها، والرؤية بالاختيار، بينما الآذان مفتوحة دائما، ولا ينسدل عليها حجاب أو ستار. والحكمة الخالدة أن تكون الأذن مفتوحة دائما ليسبق السمع البصر، وحتى يسمع الإنسان الخطر القادم أو الداهم، ويدركه قبل أن يراه.

ومن هنا كان السمع يسبق البصر. وإذا كان البصر محطة اختيارية، فالسمع محطة اجبارية. وسبق فن الشعر فن الرسم والكتابة، وسبقت رواية الأشعار والارتجال تأليف الكتب ونسخها وطبعها، وسبقت الفنون السمعية الفنون المرئية.

وليس غريبا أن يكون الشعر ديوان العرب. وأن تتميز اللغة العربية بفنون الغناء القديم.

وأروع كتاب بالعربية عن الغناء هو كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الاصفهانى. والكتاب موسوعة أدبية رائعة مع أنها كتبت منذ ألف عام تقريبا. وأمتع قراءاتى فى هذا الكتاب الضخم حين أتخيل مؤلفه الذى لم يتحدث عن نفسه كثيرا مع أنه كان كثير المغامرات، وبعض جمله تستحق التلحين والغناء، لأنها مليئة بما نسميه الآن فن التشويق. وهو كتاب فى ٢٤ جزءا، حافل بالظروف والطرائف، جمع الأغانى قديمها وحديثها، ثم استعاد ذكر الشعراء وترجم لهم ، وسرد القصص المسلية والأخبار المتصلة بتاريخ العرب وملوكهم وخلفائهم وأمرائهم ووزرائهم، وقصص الجوارى، وطرائفهم، وفنونهم فى الشعر والغناء. فقد عاش فى عصر المتوكل، وكان يمتلك ٤٠٠٠ جارية. ورسم لنا الأصفهانى صور النساء هنديات وسنديات، ومكيات ومدينيات، وحبشيات وتركيات، وروميات وأرومينيات. وملأ الأغانى بلوحات فنية زاخرة تموج بالأحداث والطرائف وتصوير الشخصيات، لينقل لنا الصورة حية للقرنين الثامن والتاسع. ومازالت تلك اللوحات زاخرة بالحياة والحيوية حتى الآن .

وقد ولد أبوالفرج الأصبهانى، أو الأصفهانى، فى عائلة أدبية. وكان أبوه وعمه من الأدباء، وزار بغداد والكوفة والبصرة وانطاكية، ونال رعاية سيف الدولة، وإسماعيل بن عباد والمهلبى، وهما من وزراء بنى بويه، كما نال بعد ذلك رعاية الأمويين فى الأندلس. وعاش عيشة الأديب الجوال، وحالت السياسة دون أن

يصبح، رغم موهبتـه الفذة الضخمـة، من المؤدبين أو الندماء فى قصـور الخلفاء العباسيين. وغلب عليه الميل الشديد للرواية والشعر والغناء . ١٠

وكـان انفعاليـا سريع الاشتعال، سهل الخطأ، سريع الاعتـذار. وكان هجـاء داهية سليطـا، ويستطيع أن يلتقط العيوب والنقـائص، ولا يتعفف أو يتورع عن الصور الحسيـة المقذعـة أو الفاجرة لأن رغبتـه فى التأثير على سامعـه تعفيه من الحرج أو الكياسـة، فتغلب عنده شهوة التعبير على التصـوير. فلا يجد حـرجا فى التشنيع على خصومه، حتى لو كان الثمن غاليا، لأنه يفوز فى النهاية بصورة فنية مؤثرة .

وكان أبو الفرج شـاعرا موهوبا حاول تقليـد أبى تمام، فلم يلحقه ، لكنه تميز بالقـدرة على الاتجال والفوز بـالصورة التلقائيـة المبهرة . وكـان شغفه الأصلى بالشعر، وولعـه بالغناء أكبر وافتنانـه بجمال المرأة أكثر وأكثر. وكان أبـو الفرج يميل إلى القديم فى الغنـاء والجديد فى الشعر، وكـان أستاذه ابن المعتز يقـول عنه: «والله ما رأيت جدا فى هـزل ولا هزلا فى جد يشبه هذا الكلام فى بـلاغته وفصاحته وبيانـه وإثارة برهانـه وجزالة ألفـاظه. وفى كلام أبى الفرج كـلام العقلاء ذوى الفضل لا كلام الثقلاء ذوى الجهالة» .

وقد تتلمـذ صاحب الأغانى الظـريف على جحظة البرمكى، وكان أديبـا وعا لما وشـاعـرا. واتصل أبو الفرج بـالحسن بن محمد المهلبى الـوزير، ولم ينقطع عن مجالسـه. وكـان الوزيـر فقيرا فى بدايته فـأصاب ثروة كبيرة، وعـوض حرمـانه القديم بثرائه الجديد، ومال إلى الترف إلى حدود التلف، شأن من أصابه اليسر بعد العسر، فكان يكثر من الحديث على الطعـام، ويكثر من المرح فى الخلوات ، ويصفه أبوالفرج أنه كان «كثير الملاعق» لاحتفائه بمآدب الطعام والكلام .

والغريب أن أبا الفرج كان يدرك زبـائنه، ويحس جمهوره، ومن كتبه العديدة وعلى رأسهـا «الأغانى» وأخبـار الاماء»، وكتـاب عن الحانـات، وآداب الغربـاء، وغيرهـا. وكـان يـؤلف السهل الشيق للمشرق، ولا يتـورع عـن وصف الحيـاة الفاخرة أو الـداعرة، ويبقيها للمشرق، بينما كان يرسل إلى ملـوك الأندلس أخبار الحياة الجادة غير العـابثة. ولم يبخل المستنصر فـأرسل ألف دينـار من الذهب فى طلب نسخة من كتاب «الأغانى» .

وتكشف لنـا «خزانـة الأدب» عن صورة الـوزير الماجن المهلبى، وتلك البيئـة البغدادية التى عاشها ووصفها صاحب «الأغانى» .

وتـروى الخزانة قصـة اللقاء الغـريب بين الشاعـر الفحل المتنبى والوزيـر الماجن المهلبى: ودخل المتنبـى إلى المهلبى فـأذن لـه، وجلس إلى جـانبـه، ومعـه أبو الفرج الأصبهـانى ، صـاحب كتاب الأغانى. وانتظر الـوزير انشاد المتبنى فلم يفعل، وإنما صده ما سمعه من استهتـاره بالهزل واستيلاد أهل الخلاعة. وكان

المتبني مر النفس صعب الشكيمة جادا مجدا.. فخرج .

وتصور هذه الحكاية عن لقاء المتنبي بالمهلبي الفرق بين شاعر شديد الجدية، وشاعر يستعين بالظروف والفكاهة، ويسخر أحيانا من نفسه حتى تمر سخرياته بالآخرين. وهو لا ينكر انه كان يكثر من مدح الوزير، ولكنه يضطر أحيانا إلى هجائه سرا، وقد بلغ من شغف الوزير بظرف النديم أن طلب منه ألا يخفي هجاءه ويقوله وجها لوجه، لأن صوره الطريفة تعطيه الأمان .

ولكن موهبة صاحب «الأغاني» وطرافته كانت تنقذه دائما لأنه كان جادا فى تعقب أخبار الشعر وأسرار الغناء، ويستطع أن يلهى السامع ويطرب الحاضرين، ولا يستغنى عنه فى مجالس اللهو والطرب.

وقد بدأ كتابه الشهير «الأغاني» بذكر المئة صوت التي دونها بأمر هارون الرشيد، وحلل أصوات إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع، ومليح بن جامع، وكان له موقف من الغناء، لأنه يناصر القديم على مذهب اسحاق الموصلى، وينفر من تجديد إبراهيم بن المهدى. وأفاض فى وصف شهيرات المطربات، مثل سلامة القص، وعزة وحبابة، وجميلة السلمية ونؤومة الضحى، وبرد الفؤاد.. وغيرهن كثيرات .

وكما تحدث عن المغنيات اهتم بالجوارى الشهيرات، وأكثرهن من المغنيات. ويكشف أيضا ما يحدث منذ ألفى عام، لأن بعض المغنيات كن يهجرن أسماءهن الأصلية، ويخترن اسماء فنية جديدة، مثل «حبابة» جارية يزيد بن عبدالملك . وقد أحصيت أخيرا عندما عدت إلى «الاغانى» نحو ١٨٠ اسما نسائيا كتب عنها أبوالفرج لأنه كان جادا فى فنه ولاهيا فى حياته، واستعان بالطرف والفكاهة، وكان شعاره الذى يكرره فى كتابه الضخم، سطرا من بيت لبشار بن برد، قال فيه: «والأذن تعشق قبل العين أحيانا» .

٢٩

محو أمية العين

متعتى أن أتجول فى المعارض والمتاحف، وأن أشم زيوت الآلوان فى مراسم الفنانين. فالرسم همس ولمس وأسرار. والرسم همس النور والظلال. وفى الرسم أسرار بين المساحة والمسافة. والعين ترى وقد تسمع، لأن اللون له صوت واهتزاز ورنين وصدى. ومن أجمل من كتب مبكرا عن علاقة الألوان بالألحان الشاعر رامبو فى إحدى قصائده المتأججة. لون صور الحروف تصعد وتهبط، كما تصعد الأصوات فى سلم الألحان.

ومن الكتاب من اشتهروا بهواية الرسم. وعلى رأسهم طاغور شاعر الهند الكبير وجبران خليل جبران، وقد شهدت له معرضا حافلا فى معهد العالم العربى فى باريس، وإقبال أيضا، وشارل بودلير الشاعر الرجيم، وجوته أعظم شعراء ألمانيا وشاعر التجليات الشرقية. ومن المعاصرين جان كوكتو، وقد اشتهرت رسومه لأنه كان يرسم كتبه، وقد زار مصر أيام طه حسين، وله كتاب غريب عنوانه بالفرنسية «معلهش» عن رحلته لمصر، وأندريه بريتون مؤسس السوريالية. وقد أعلن الحرب على النثر وانتصر للشعر، وكان يقول ان النثر كالمشى، والشعر كالرقص. وهناك آخرون، مثل أندريه ماسون، وهنرى ميشو. وقد يكون ذلك الوصال بين الصورة الذهنية فى الأدب والصورة المرسومة فى اللوحات لأن أدباء أوروبا يتصادقون مع الرسامين. ولا يوجد أديب ليس له صديق من الرسامين، كما كان بودلير الشاعر ومانيه الرسام. وأروع الأدباء الذين كتبوا عن الرسم يحيى حقى، وأقواهم توفيق الحكيم. وقد تكون باريس هى السبب. ولو لم يصبح الحكيم أديبا لأصبح ناقدا فنيا، فقد سكن الحكيم متحف اللوفر، وتتلمذ فى مسرح البولفار والأوديون والكوميدى فرانسيز. والمسرح يعتنى بالديكورات والألوان والأضواء. وقد جربت توفيق الحكيم حين رجوته أن يكتب عن أحب اللوحات الفنية إلى قلبه فى عدد الهلال الخاص عنه. وكانت التجربة مفاجأة، لأنه اختار عشر لوحات، منها لوحة الراقصات الفرعونية ولوحة للرسام الأسبانى فيلاسكيز، ولوحة للايطالى رافائيل، ورابعة لمونيه لمحطة سان لازار، وصور فيها القطار والدخان بقدرة فائقة. واكتشفت بعدها أن الحكيم لم ينتق الذائع المشهور، ولكنه عارف متذوق مدقق فى فنون الرسم وألحان اللون والخطوط، والمساحات والمسافات.

ومع اننا نعيش عصر الصورة، أو عصر السينما والتليفزيون، لكنى لاحظت

اننـا مازلنـا نعانى من أميـة العين. وباستثنـاء شوقى والعقـاد والحكيم ويحيى حقى وجبران خليل جبران فإن تـذوق الـرسم بعيد عن أدبـائنـا، مع ان أكثـر الـرسـامين يقرأون ويسمعـون الموسيقى. وقـد يعـود ذلك النقص أو العيب، ان كتابنـا لا يعيشـون مع الرسامين كما عـاش بودلير مع ادوار مانيـه، أو كما عاش الشاعـران أندريـه بريتون وبـول ايلوار مع الرسـام ماكس أرنيست والـرسام جريكو، والرسام سلفادور دالى.

ومازلت حـائرا عند أسباب أمية العين عندنـا، مع ان اللون يلعب دورا كبيرا فى حياة كل انسـان. وقد اهتم عندنـا ابن سينا باللـون، وله دراسة ممتعـة تحليلية فكرية عن الالـوان. وكذلك ابن عربى أمام الصـوفية الراقية، تمامـا كما نجد عند دافنشى الرسام وجوتة الشاعر ونيـوتن العالم ولهؤلاء الثلاثة كتب ثلاثة عن فن الرسم ولعبـة الألوان. فاللون معنى ومغزى ورمـز، وهو يثير ويستثير، ويشف ويهفهف حتى يكاد ينطق. وفى الأساطير القديمـة أن لون الزمرد يفقأ عين الأفعى لأنه أخضر. ويلعب الأخضر دورا مهما فى حياتنا، ومن هنـا كانت مواسم الهجرة إلى الشمال. ومن الأصفر إلى الأخضر، ومن الصحـراء إلى موارد الأنهار. وا لمتنبى شاعرنا الفحل يقول لبست ثوب العيش الأخضر. أى السعيد البهيج. وقد وصف يونس فاطمة كريمـة النبى الكريم (صلى الله عليه وسلم) انها تلبس بردة خضراء لتتشفع للمـؤمنين. وعنـد بعض المؤرخين الثـوب الأخضر من ثيـاب الجنـة. لأن الأخضر هـو لون الأتقيـاء. وعنـد الاغـريق أيضا تلبس افـروديت ملكـة الجمال الأخضر الزاهى.

لكنى اكتشفت أن أغلب أدبـائنا لهم عيـون تشبه عيون القطـط. لأن القطة لا ترى سوى الأبيـض والأسود والرمادى. وعين القطـة لا تدرك الألوان، ولا تحس بالضرورة ببهجتها وألحانها. وبعض كبار أدبائنا لأنهم أهملوا الاهتمام بلوحات الرسامين، وابتعدوا عن الفنون التشكيليـة. يدفعون الثمن. لأنهم يضعفون عند تصوير المكان، ويهجرون التفاصيل المرئيـة. وقد تدهش أن نجيب محفوظ إمام الروائيين الجدد ضعيف فى نقل تفـاصيل الأماكن مع انـه قوى ورائع فى تصـوير الشـخصيات ومراعاتها وتطـورها. وقد يكون ذلك لأنه اعترف انه فى بـداية حياته كان يشفق على نفسـه أن يصبح فن الرواية مثل الرسـم من فنـون الخاصـة التى يعز فيها الاقبـال الجماهيرى العريض. وقد يكون السبب أن نجيـب محفوظ بدأ بدراسة الفلسفة والفكر. .أغفـل العالم المحسوس والملموس والمرئى كما يصوره الرسامون.

وقد لعبت المرأة الـدور الأول فى الرسم، ملهمـة وموديلا، لأن الألـوان لعبتها المفضلة، ولا يقتصر الاهتمام بالألـوان على الأصباغ وألوان الثياب. لأن الـوجوه الملونـة الوحيـدة هى وجوه النسـاء، من الكحل إلى « الروج » والبـودرة، وتلعب

الثياب طويلة أو قصيرة دورا مؤثرا في إظهار الملامح والمفاتن أو تخفيف العيوب . وتتدرب الفتاة منذ الصغر أمام المرآة ، وقد تنوعت فنون الألوان من الرأس إلى الأظافر ، ولذلك كانت المرأة هي الموضوع المفضل لكل رسام .. واستلهم الرسامون موسيقى الخطوط والانحناءات اللطيفة من المرأة .. وأشهر من رسمها بوتشيلى الايطالى ، وأجمل من رسمها رينوار الفرنسى ، وأقدر من رسمها بيكاسو الأسبانى ، وبينهم مئات بل الاف الرسامين . وأروع من رسم المرأة عندنا هو محمود سعيد الذى استقال من القضاء ليتفرغ للرسم ، فيعنه حسية مشتعلة ووجد قوى وصدق ، فجاءت المرأة فى رسومه ليست مثل كل النساء .

وقد أصبحنا الآن نعيش عصر الصورة واللون ، لأنه عصر السينما والتليفزيون . ولكن أمية العين مازالت تلاحقنا ، ولذلك دعوت منذ سنين إلى محو أمية العين .. لأن الثقافة لا تكتمل بالعقل واللغة فقط ، بل بتدريب السمع وتهذيب البصر .. فاللون له صوت ورنين وصدى . والرسم همس ولمس ، حين يهمس النور وسط الظلال .

٣٠

عـــازفـــة الأرغــــول

خطوطهـا تغني، وألوانها تنشــد، وفى لوحاتها غنــائيات وأنغام، لأن هذه الرسامة الموهوبة تحية حليم ورثت أيضـا موهبة الموسيقى عن جدتها لأمها، وعن أمها أيضـا.

فقد كانت الجدة عازفة كمان فى قصر الخديــوى اسماعيل برتبة اليوزباشى، أى النقيب، وكانت أمها أيضـا تجيد العزف على العود فى ساعات الصفاء.

وقـد ورثت تحيـة حليم الموسيقى من هـذا الفـرع النسائي الـذى ينـزل من أصول تركية قوقازية. ونقلت تحية حليم الموسيقى من الأذن الى العين، فوضعت ايقاعها وأنغـامها وغنائياتها فى رسمها. وأغلب لـوحاتها لذلك شديـدة الضخامة واسعة المساحة، هائلة المعمار كالسيمفونيات، وبعضها عزف جميل منفرد

ومنذ أمسكت التلميذة الصغيرة بـالقلم لتتعلم الهجاء، أحست بشغف جارف لألوان «الشخبطة» فى كشكول «الواجب» فى مـدرسـة «الأشرف الابتدائية للبنات» بالعباسيــة، اكتشفت مدرستها مسزدافيـد سون، مدرسة اللغـة الانجليزية، أن التلميذة لا تترجم الكلمات من الانجليزية الى معناها بالعربية، بل ترسمها.

وتذكر تحيـة حليم أن المدرسة فوجئت أن تلميذتها وضعـت أمام كلمة Kick أى «يقذف» أو «يضرب» رسما لولد صغير يركل بقدمه، كرة القدم.

ولقد لفت المدرسة بالكشكول على بقية فصول المدرسة. وعلى فصول الفتيات الأكبر بـالذات للفـرجة على ابتكـار الصغيرة والتحـريض على الفنون الجميلـة. وبقدر ما أحست تحية حليم بـالرضا والزهو، تذكر أن أمهـا الحنون كانت تبدى قلقا من ولع ابنتها الصغيرة بالـرسم بأى شيء على أى شيء. وكانت تعلن فزعها لأن ابنتها الصغيرة كانت تغطى «مخدات» النوم بالـرسوم بكل ما يتوافر لها من ألوان وأصباغ.

ونسيت الأم وسوستها بالنظافـة التامة. وهدأت من روعها من ولع الصغيرة بالرسـم على المخدات قصة كشكول المدرسة حين وصلت قصـــة الكشكول وتلك الجولة بين فصول المدرسة. فقد أدركت الأم أن ابنتهـا تحس ميلا جارفا لا يقاوم للفنون وللـرسم بالذات، واهتمت الأم بمـوهبة الصغيرة التى كـانت قد عكفت الى البيت، ولم تكمل تعليمهـا الثانـوى حتى السنــة الثانيـة، فتعهـدها المدرسـون الخصوصيون وتعهدتها بالـدروس المنزلية، على عادة البعض فى تعليم البنات فى ذلك العهد.

فقد استبـد بالصغيرة حب الرسم حتى اختلط مــا تراه وما تـراءى لها. وكان

لابد أن يرعاها ويضبط رؤيتها واحد من مدرسي الرسم.

وفى مصر الجديدة، وبين شارع الزقازيق أمام سباق الخيل. وشارع «النجوم» واسمه الآن شارع حسن علام، انتقلت العائلة الى بيتها الخاص المملوك لها. وعاشت العائلة فى بحبوحة ولين. فوالدها الأميرالاى محمد أحمد حليم كاتم أسرار حربية. ثم لواء ثان، ثم فى وظيفة الياور الأول للملك فؤاد.

وكانت تحية حليم تنتقل من مصر الجديدة الى ميدان الخديوى اسماعيل ـ أو الاسماعيلية ـ حيث مرسم أستاذها الأول جورج طرابلسى. وكان المرسم يقع فوق مقهى «ايزائيفتش» الشهير لأنه كان مقهى رحبا يجاور محلا لا يقل اتساعا لبيع الفول. وأصبح المقهى يكمل المطعم، وأصبح المكان ملتقى الموظفين والمثقفين لموقعه المركزي. والمطعم يتعهد زبائنه بالنواشف الراسخة. والمقهى بالسوائل الساخنة المهضمة. واستمرت تحية حليم فى ذلك المرسم فوق المقهى والمطعم عامين فى دراسة منتظمة للرسم حتي قرر أستاذها فجأة الهجرة الى كندا.

وفى تلك المرحلة المبكرة حدث لقاء تحية حليم الأول مع الرسام المجدد حامد عبدالله.. وكان قد أصاب شهرة بين المجددين. وكان شديد الحرص على استقلاليته الى حد العنجهية. وكان يأنف من إخضاع الرسم للأيديولوجيات التى غزت مصر بعد الحرب.

وما حاجته؟ فقد كان بسليقته وطبقته وطبيعته شعبيا.. ولد وعاش فى وسط شعبى وسط مزارع حى المنيل. وكان هذا الحى شديد الخضرة. ولم يكن فيه سوى قصر الأمير محمد على، ولم يكن أثرياء الحرب أو الذين اغتنوا من تجارة الجلود والدباغة قد قرروا بعد العبور من حى المدابغ خلف سور مجرى العيون الى جزيزة الروضة لبناء عماراتهم الشاهقة.

وتسمرت تحية حليم الصغيرة أمام لوحات حامد عبدالله. فقد كانت خطوطه معبرة وقوية وبها عنفوان وفحولة. وعناية بالمعمار والتكوين والتوازن.

وفي اللحظة التى كانت تحية تجول بعينيها مع خطوطها القوية المعبرة. وهى تحدث نفسها فى سرها كأنها تتمنى أن تسير فى طريقه. واقترب منها صاحب اللوحة.

وبين اللوحة وصاحبها اعترفت تحية أنها تهيم بالرسم وتتعلمه عند الرسام جورج طرابلسى الذى غادر مصر مهاجرا. وأبدى حامد عبدالله لطفا بالمعجبة الشابة، واقترح أن يعرفها لصديق له من الرسامين اليونانيين، كان له مرسم ومدرسة لتعليم الرسم فى شارع قصر النيل بجوار جورنال ديجيت. وقال إن اسمه جيروم اختصارا فرنسيا لاسم يونانى أطول هو جيرونوميدس.

وفى مرسم قصر النيل التحقت تحية حليم، وتدربت علي رسم «الموديلات» والطبيعة الصامتة. وتنيات الأقمشة. والسيطرة على المنظور بين الظل والنور.

وبين الرسام الواثق حامد عبدالله والرسامة الشابة تحية حليم تطورت العلاقة بين الاعجاب الى الحب .. ثم الزواج، وعاش الرسامان الشابان فى بيت عائلتها فى مصر الجديدة.

وفى تلك المرحلة رسم حامد عبدالله إحدى روائعه لزوجته تحية، وكانت لوحة بالباستيل، تجمع بين الرقة والقوة والألفة الحميمة. وكان الجديد الذى لا يتكرر فى مثل هذه الصور، هو اقتراب الرسام من الموديل أكثر من المعتاد. فجاءت الملامح أوضح وأقوى، وأطلت نظرة الرسام من عينى زوجته وحبيبته. ومازالت تحية تحتفظ بتلك الصورة القديمة فى غرفة نومها. بعد أربعين عاما.

ولكن باريس كانت غوايتنا جميعا فى جيلنا. ومن نجا من عصفور من الشرق وشطحات توفيق الحكيم بين الملاهى والمقاهى والمتاحف والمراسم. لن ينجو بالقطع من أحاديث طه حسين عن أندريه جيد واتيامبل وكوكتو وأندريه موروا، ومن نجا من طه حسين أوالحكيم، ونادرا مايحدث، لابد أن تدهشه مباهاة زكى مبارك بباريسياته أو يطيب له هذا الغزل المفتون بمدينة النور لأحمد الصاوى محمد.

ولم ينج جيلنا من روائع الغزل وفيض الاعترافات. حتى أصبحت باريس حلما وغواية لا ينجو منها مراهق أو رشيد، كاتب أو رسام. وسافر الفنانان عن طريق البحر الى فرنسا فى سفينة يونانية فوق السطح صيفا. وأخطر ما فى باريس كما قال الحكيم أن الفن فيها «على قفا من يشيل» ففيها كل المدارس الفنية. فإذا أردت الجوكندة رأيتها فى اللوفر. وإذا اشتقت للرسم التأثيرى وجدت له متاحف ومعارض. وإذا جنحت للرسم التعبيرى عثرت على روائعه. وإذا تطوحت الى السوريالية وجدت المدرسة جبة بأحبارها وكهنتها، فقد تجمعت عصور الرسم من النهضة الى السوريالية فى مدينة واحدة.

وفى باريس ما هو أكثر، لأنك لا تكاد تفتح النافذة حتى يطالعك منظر جميل يليق برسام. وبقدر ما ازدحم العامان من حياتها الباريسية بالمعاناة والطرائف كشفت تحية حليم عن صبر أيوبى ومثابرة شديدة. فانفتحت لها أبواب الفن على مصراعيها. وعادت من باريس أكثر نضجا وأشد خوفا. فقد تخرجت فى مدرسة الأستاذ السورى، والأستاذ اليونانى، والأستاذ المصرى.. زوجها، ثم مدرسة باريس ليكتمل لها أسلوبها الخاص الذى يبحث عن موضوعه الأثير وهو مصر.

وتوهجت وتدفقت الرسامة لتصبح أشهر رسامة فى جيلها. وتألقت فى رحلتها الى النوبة، وأصبح لحنها المميز هو النهر والناس. وبين الشوق والحنان عزفت تحية حليم أرق الألحان فكانت مثل الناى والأرغول.

٣١

مـــع أجمـــل
موديل فى باريس

من بعيد تبدو كأنها كاتدرائية نوتردام أضخم من جزيرة «سان لوى» وسط نهر السين فى قلب باريس وتبدو الكاتدرائية الضخمة العملاقة كأنها تبتلع الجزيرة التى أقيمت عليها.

وبقدر النشاط والحركة خلال النهار فى الميدان الفسيح أمام الكاتدرائية، كان كل شىء يتوقف عند الغروب. فالمحلات العديدة والمقاهى المزدحمة لا تشتغل إلا على زوار النهار الذين يشترون الزهور ويقتنون اللوحات والتماثيل الدينية.

وفجأة يتوقف كل شىء.

فلا أحد يقبل على تماثيل السيدة مريم، إذا أقبل الليل فى باريس. وبقدر الحركة والصخب ساعات النهار، كان الصمت والغموض ساعة الغروب، وبالذات خلف الكاتدرائية. فالبيوت القديمة فى الشوارع الجانبية مغلقة الأبواب دائما، ولا تكاد تجرؤ على اقتحامها ولو بالنظرة من شدة الصمت والوحشة، حتى تظن وهما أن جريمة قتل غامضة قد وقعت، والشرطة قد انتهت من رفع الجثة وجمع الأدلة، وأهل الحى لم يلتقطوا أنفاسهم بعد.

وكان صديقى الرسام حامد عبدالله يسكن فى أحد الشوارع الجانبية المتقاطعة الكثيرة خلف نوتردام. وعلى جانب الشارع يقع محل واحد، كان دائما يغلق أبوابه الزجاجية ويرفع بابه الحديدى، فلا تدرى إذا كان المحل مغلقا أم مفتوحا. ولكنك تستطيع بنظرة عابرة أن تتبين خلف واجهته الزجاجية النظيفة الصامتة مئات التماثيل الدينية التي تصور القديسين باكين، والمسيح مصلوبا، والعذراء ساجية. وكلما مررت نحو صديقى الرسام كنت أحس بالدهشة من هذا المكان بالذات.. فكيف تتكدس كل تلك «الآلام» مرة واحدة فى بضعة أمتار قليلة؟

وكان بيت صديقى الرسام قديما كالقلعة، فى زاويته محل بقالة، صاحبته هى صاحبة البيت نفسه، اشتهرت بين هواة الفن والمحترفين بأنها تحب الفن والفنانين، ولا تسمح لأحد بسكن بيتها إلا إذا كان موهوبا، ولا يهم بعد ذلك أن كان ذلك الموهوب يدفع أجرة اقامته بالفرنكات أو باللحوات أو التماثيل.

وقيل إن السيدة صاحبة البيت والمحل كانت أيام شبابها على صلة قديمة بالفن، وكانت «موديلا مشهورا لمشاهير الرسامين والنحاتين في «مونمارتر» و«مونبارناس» قبل السمنة والتقاعد». ولكنها بعد سنوات أصبحت غريبة الأطوار لا تسمى سكان بيتها من الفنانين بأسمائهم أو ألقابهم. وكانت تكتفى

بأسماء مدارسهم الفنية. وتطلق على ساكن الغرفة التى تقع تحت «بير السلم» «التكعيبى» وذلك الرسام الذى يسكن بعد السرداب «السوريالى»، وهذا الذى يقيم فى الغرفة التى لها شرفة تطل على الشارع «التأثيرى».. وهكذا.

وتعود الجميع من صاحبة البيت ألا تنادى أحدا باسمه. فإذا فعلت ذلك، ونادرا ما كان يحدث، أدرك الجميع أنها تحس بالوحشة، وترغب فى أن تثرثر أو تبوح ببعض ذكرياتها أيام عزها القديم حين كانت أجمل موديلات باريس.

وفى أول زيارة الى صديقى الرسام، سألت صاحبة البيت، وكانت تجلس وحدها فى دكانها، فقالت:

ــ عليك أن تنزل بضع درجات، ثم تتجه الى الغرفة فى نهاية الحوش الداخلى.

ودخلت غرفة أكبر من أن تكون غرفة، والأصلح أن تكون مخزنا، وشعرت بالرطوبة تعلو من الأرض وتهبط من السقف.

قال صديقى وهو لا يزال واقفا:

ــ تحتنا بئر قديمة، وقد تكون هذه البئر موصولة بسرداب سرى حتي كنيسة «نوتردام».

وهالنى أن يسكن صديقى، وكان قد بلغ شهرة كبيرة بين الرسامين فى مصر، تلك الغرفة الباردة الرطبة.

وأدرك حامد عبدالله حيرتى فقال:

ــ انها اللعينة.

وسألته:

ألم تستطع أن تحصل على غرفة أخرى الى جوار التكعيبى أو حتى قرب السوريالي؟

فقال من جديد:

ــ اللعينة.

وأدركت أنه يقصد صاحبة البيت راعية الفنانين. وقال الرسام:

ــ إنها تقسمنا حسب مدارسنا الفنية.

وحين سألتنى أول يوم عن مدرستى الفنية قلت لها بصراحة:

ــ أنا حر مستقل وليست لى مدرسة.

فأجابتنى اللعينة:

ــ إذن غرفة البئر قد تصلح لك الآن، ومادامت اتجاهاتك الفنية لم تنضج بعد وهل مكانك فى النهاية البئر أم الشرفة.

وضحكنا معا، وعلت ضحكاتنا لغرابة صاحبة البيت، وتواصلت الضحكات. ونحن نمد معا أقدامنا فوق المدفئة ولا تحترق. قلت لصديقى الرسام:

ــ ومازالت فى ملامحها بقايا جمال فصيح. وفى جلستنا فى المحل بعض

«بورات» احتفظت بها منذ كانت موديلا أيام الشباب.

فقال صاحبي. وقد نسى غرفته:

ـــ انها امـرأة أغلبها ذكريات، وتشهد لـوحات كبار الرسـامين فى الثلاثينات المتنـاثـرة فى متـاحب بـاريس الآن انها كـانت من أجمل النسـاء، قبل السمنـة والتقاعد.

وقال: مازالت الى الآن متأججة، سريعة الاشتعال. ويزداد اشتعالها بالغضب حين تحس بالحزن والوحدة، ولكن قلبها أبيض،، شديد البياض.

وكان اللون «الأبيض» هو مفتـاح صديقى الرسام حامد عبدالله منذ عرفته فى مصر منـذ عقود مضت، وكـان يبحث فى شبابـه عن أسرار الضوء وتأثيراتـه على اللون والظل وكان يرى مصر باهـرة الضوء. ولهذا تميزت رسومه الأولى فى نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات بالخطـوط المعبرة القوية القاطعة التى يحيط بها أشكاله وتكويناته، وكأنه كان يستـوحيها من خطوط الفراعنة القاطعة الحاسمة لتأكيد الأشكال بما يحيطها. وتفجرت موهبة حـامد عبدالله التلقائية، فقدم لنا فنا تميـز بالقـدرة على التركيز والتلخيص، مع غنـائيـة موسيقيـة جياشـة عكست شخصيته العنيفة من الخارج، والرقيقة من الداخل.

واشتهـرت فى جيلنـا لـوحـاتـه الأولى «زلطـة»، و«الـدلـوكـة»، و«الكيف» و«التعميرة»، و«اليتيم»، فقـد انجـذب حـامـد عبـدالله الى تصـوير أولاد البلـد فى جزيرة الروضة وسط النيل. والفلاحين والفلاحات، والصعايدة، والجالسين على المقاهى أو الضاجعين فى القيلولة.

ومنذ خمسين عاما كانت جزيرة الروضة حقولا وحدائق أشد خضرة ونضرة، وفى شمـالها ولد حـامد عبـدالله وبـدأ، ووسط هـذه الخضرة الوفيرة بـالأشجار والنخيل والحقول وقنوات المياه والجداول عاش حامد عبدالله صباه الفنى، وبدأ أول خطوطه فى الرسم.

وظل حامد عبدالله ـــ كما عرفتـه ـ طفلا كبيرا تموج فى داخله شاعرية الصبا وفكاهة أولاد البلـد. ولكن غواية باريس أدركته كما أدركتنى منذ كتـابات توفيق الحكيم وطه حسين وأحمد الصاوى محمد وزكى مبارك. وكـان حامد عبدالله قد تعرف الى الفنانـة تحية حليم فى صالون القـاهرة عام ١٩٤٥، وتزوجـا ثم أنشأ مرسما فى شارع مارييت ترددت عليه الفنانتـان انجى أفلاطون وسوسن عامر، ثم قرر الزوجان السفر الى باريس.

واقتربت منهما أكثر فى بـاريس ما بين ١٩٤٩ و ١٩٥١. وانفصلت عنـه تحية حليم لتبدأ رحلتها الفنيـة الطويلة التى تألقت فى النوبة واستمـرت بعدها، وبقى حامد عبدالله فى باريس.

وبعـد عودتى من بـاريس كنت أحـرص على زيارتـه وأبحث عنه، وقـد شق

طريقه الصعب فى الغربة حتى أصبح له بيت صغير له حديقة فى ضواحى باريس.
وفى أول عودتى اليه كنت أبحث عما فعلت بـه أوروبا وسماؤها الداكنة المثقلة بالغيوم، فوجدت خطوطه مازالت قوية صارخة، وكنت انتقل فى الغربة من الواقعية الى التجريد، وبعد لوحات واقعية لبعض ملامح باريس وشوارعها وشخصياتها أخذه التجريد تماما. لكنى لاحظت أن تكويناته التجريدية تتشبث بتنويعات للحروف العربية، وأحسست أن حامد عبدالله. كان يتشبث باللغة بديلاً عن الوطن.

كان حامد عبدالله قد تزوج سيدة أوروبية وأنجب منها، وقال إن اسم ابنه البكر هو مؤنس، واسم ابنته التالية أنيسة، وحين غادرت فى الليل فيللته الغارقة فى الظلمة والخضرة لحقت بآخر مترو يصل من الضاحية الى باريس.

ظللت أفكر خلال رحلة المترو فى مغزى انتقاله من الواقعية الى التجريد، ومعنى تمسكه بالحروف العربية التى تملأ لوحاته.

وظننت أن اختيار اسم مؤنس وأنيسة لابنه وابنته لم يكن مجرد صدفة أو اعتباطا، فقد يكون فى هذين الاسمين ما يشير الى مشاعر الفنان حين يقيم بعيدا عن الأهل والوطن.

٣٢

الفتـــــاة والـــوحش

مصر بعد الحرب العـالمية الثانيـة وقبل الثورة، وصلت نهاية طـريق مسدود . وبين الحرب والثـورة كانـت حرب فلسطين وهزيمـة ٤٨، وبين وباء الكوليرا وحريق القاهرة كانت مظاهرات الطلاب وعصيان الفلاحين.

وهكذا عرفت مصر الحرب والكوليرا والحريق والعصيـان والمظاهرات ، وكان كل شيء يؤذن بالانهيار.

وظهـرت خلال الحرب وبعـدهـا مبـاشرة دعوة السـوريـاليين ، واستلهمت جماعة «الفن والحرية» اسمها، وعقدت القران بين الحرية والفن، استلهاما لبيان الشاعر الفرنسي «أندريه بريتون» مؤسس السوريالية فى فرنسا.

ورفعت شعار إعادة الاعتبار للخيال والبحث فى المجهول والبعد عن المألوف، واعتبرت الفن. كما قال رائدها الشاعر جورج حنين «مخزنا للبارود»، لأن الفن لا يمكن ولايجب أن يكون عاطفيا. ونجح السورياليون فى تغيير أنفسهم على الأقل ، وانضم إليهم عشرات مـن الفنـانين المصريين والمتمصرين والأجـانب ، وكـان بعضهم على موهبة فذة .

وكان المثلث الـذهبي للحركـة السوريـالية فى مصر يتكـون من جورج حنين الشـاعر ، وكـامل التلمسـاني الـرسـام والسينمائي، ورمسيس يونـان الرسـام والكاتب .

وكان الشـاعر أغـزرهـم ثقافة ، وأيضـا الجسر الذى يصل جماعتي القـاهرة وباريس. فقد كان صديقا للشعراء : أندريـه بريتون وهنرى ميشو وايف بونفوا. وكان بريتون يكاتبه صائحا : «كم أحتاج إليك».

ولا أظن أن أحـدا كان يمكن أن يـرى الرسـام كامل التلمسـاني مرة واحـدة ويستطيع نسيانه، فقد كان عاطفيا وجياشا، مشحونا بالقلق ، سريع الملل. وكان صوته عريضا أجش ، وفكه يعبر عن فحولة ، وحاجباه ثقيلين متقاربين ، وشاربه كثا كثيفـا . ولا يحمل تحت شاربه فما .. بل فـوهة ، تظنها فـوهة مدفع أو فـوهة بركان .

وتميز الثـلاثة بأنهم متعـددو الموهبة ، يؤمنـون ويبشرون بوحـدة الفنون ، وعلاقـة الصوت باللـون والكلمة والرسم . ووصلت إلى «جماعـة الفن والحرية»

شابة فى السـابعة عشرة هى إنجى افلاطون، اكتشفت هوايـة الرسم مبكرا، حيث كان والـدها الارستقراطى الثـرى أستاذ العلوم يطلب منهـا نقل صور الحشرات الملونة. وعكفت انجى على نقل صور البطاقـات البريدية، ثم ذهبت، وكانت تسكن وسط القاهرة الافرنجية، أو الـرومية ، على تعبير الجبرتى فى شارع «شمبليون»، إلى مـراسم الفنـانين، وأغلبهم من الفـرنسيين والطليـان. ولكنهـا تمردت على تعليمهم ، أو لم تسترح بخيالها الجامح وعصيانها المبكر لدروس هؤلاء.

وانتقلت انجى أفلاطون إلى كامل التلمسـانى ، وظن الاستاذ أن تلميذته تعتبر تعلم الـرسم نوعـا من الثقـافة النسـائية الجميلـة مثل تعلم البيـانو ، أو اتقـان «البرودرية». وكـانت المفاجأة انـه وجدهـا تعبر فى رسومهـا عن عا لمهـا الداخلى بشحنة نفسية هائلة وخطوط جديدة.

وتـذكر انجى افـلاطـون هـذه الأيام، فقـد كـانت فى مـدرسة داخليـة تتعلم الفـرنسية ، ولاتـدرس التاريخ العـربى بالتفصيل. وكـانت للمدرسـة الداخليـة النسائية أسوار عالية وعليها اشراف حديدى، ولم تكن الصغيرة تجد متنفسا من هذا الجو إلا فى الخيـال. ولأن ثقافة كـامل التلمسانى كانت غنيـة ، تحطمت فيها الحدود بين الرسم والنحت، والمسرح والأدب، فكان يتنقل بها فى فـرنسية غنية فى القراءة وركيكة فى النطق ، بين عصور الفن العديـدة. وكان أعظم ما قدمه الأستاذ لتلميذته انه لم يلقنهـا ، ولم يفرض عليها مدرسته ، بل ولم يعـرض عليها رسومه خشية التأثير عليها ، وتركها للتعبير عن نفسها كما تحس ويتراءى لها الخيال.

وقد تراءت لها فى هذه المرحلة المبكرة صور تشبه الأحلام العنيفة المضطربة ، فرسمـت صورتين .. احداهما «الفتـاة والوحش» لفتـاة تخرج من وسط اللهب . وأشجار تشبه الثعابين المحنطة ، وطيور خيالية جارحة تنقض من السماء .

وعـرضت انجى افـلاطون . صغـرى أعضـاء «جماعة الفـن والحرية» عـام ١٩٤٢ فى المعرض الجماعي للـرسامين ، ولقيت يـومها تـرحيب الشاعـر جورج حنين ، وهى لاتزال في السـابعة عشرة، وكتب عنها في جريـدة «الأسبوع المصرى» بالفرنسية : «انها مفاجأة المعرض».

وكانت تلك الشهـادة جواز سفرها لـلالتحاق بالجماعة، التي تبشر بـالخيال وتـؤمن بـالاستقـلال عن الـرسم التقليـدى الذى يقلـد الطبيعـة وينقل العـالم الخارجي.

وقـادتها عاطفـة العصيـان والاستقلال إلى التمـرد والثـورة. فانخـرطت في الحركات السياسيـة الغاضبة. وكان نصيبهـا «السجن» وفيه اكتشفت نفسها ، وانها لم تخرج من سجن إلا لتـدخل سجنا اخـر . فقد تحررت من سجن الطبقـة

الارستقــراطيــة لتنتقل إلى سجن مـدرسة البنــات الــداخليــة ، ثم أخيرا إلى سـجن النسـاء. واكتشفت أن أخطـر عيوبها انها تجيد الفرنسيـة وترتبك بالعــربية ، ولا تعرف شيئا كثيرا عن مصر.

وقررت استرداد مصريتها.

ولم تجد انجى افــلاطون راحــة من السجون الثـلاثة ســوى فى الطبيعة ولم يطلق سراحها سوى الرسم. فالشمس فى مصر لا تسطع من الشرق الجغرافى . بل تسطع اللـون والضـوء أيضــا . والشمس تشعل اللــون . كما أن الليل يطفئهــا . والنور ينبع من كل الجوانب والزوايا ويشع من كل شيء.

وأصبح اللون عندهــا يمتزج بالخيال ، وبغير الخيال يصبح اللــون صباغة . وبدأت انجى افلاطون الرسامة ترســم الطبيعة كما تراها وتحسها بألوان جديدة وشغفت بــالتنقل بين ربــوع مصر خــارج القــاهـرة . إلى المنيــا وبنى حسن وأبوقرقاص والأقصر وأسوان والجزر النوبية والواحات وسيوة ، وكانت رحلتها فى ربوع مصر الضوئية واللونية غذاء لعينيها وروحها .

وأشبعت عينيها بتلك الخصوبة المصرية العجيبة ، لأن السماء مليئة بالطيور والأرض مـزدانة بخضرة مـزدحمة غير منمقــة . والجو يئــز بالحركــة فى الــرى والزرع والجمع والحرث والغرس والحصاد والتقاط الثمار .

ورسمت إنجى افـلاطون مصر بعيـون نســائية ، واستطــاعت أن تخرج من عذابها عذوبــة نسائية خاصة جعلت لــوحاتها أشبه بالوتــريات ، لأنها أقرب إلى صوت الكمان العذب والمعذب .

واكتمل بإنجى افلاطون مثلث ذهبى للرسامات الثلاث : تحية حليم وجاذبية سرى وانجى افلاطــون ، لأن جاذبية سرى كــانت أقرب فى لــوحاتها إلى الموسيقى النحاسية بألوانها الرنانــة والفصيحة والصريحة والصارخة. وتحية حليم كانت قمة الحنان والشجن، وعازفة الناى الشجى الحنون. بينما كانت انجي افلاطون أقرب إلى الموسيقى الوترية . وعائلة الكمان والفيولا والفيولانسيل .

وظلت ألحان الكمان العذب والمعذب تعلو .. من لوحاتها الجميلة.

٣٣

رسامة شارع

نور الظلام

في الحلمية الجديدة شارع قديم اسمه «نور الظلام»، ويا المعنى هاتين الكلمتين معا ومغزاهما الروحي والضوئي والتصوري.

فقد كان هذا الشارع القديم الطويل كالأخدود بين مرتفعين، مرتفعات تل بني يشكر الذي تربع فوقه أروع مساجد العصر الطولوني أو مسجد ابن طولون ومرتفعات أخرى هي المقطم وبني عليها صلاح الدين الايوبي مسجده وقلعته، رمزا للسلطتين الروحية والدنيوية معا.

ويمتد شارع «نور الظلام» من تحت أقدام مسجد ابن طولون ليصب في شارع محمد على وكانت تقع فيه أهم مبانيه وهي المحكمة الشرعية القديمة، التي تحدث فيها أحداث درامية عائلية هائلة بين الطلاق واعلان الوراثة ومنازعات الأوقاف والشارع فيه دهاليز ومنحنيات وأضرحة منسية ومساجد أثرية، وعلي ناصيته سبيل أم عباس والدة الخديوي، وملجأ عجوز للعواجيز وبيوت قديمة مملوكية وعثمانية كانت قصورا وحدائق يوم كان السلطان في القلعة. وجمع شارع «نور الظلام» بقايا عائلات قديمة انحدرت من صلب البكوات أو الأغوات، وبينهم أفندية أصبحوا سكرين مدمنين يئست من توبتهم الأمهات والزوجات والبنات، وأفندية ظلوا مؤمنين مصلين متقين في غاية التقوى والصلاح.

وهذا مارأته الرسامة جاذبية سري بعيني الطفلة والفتاة في موطنها الأصلي ومحل ميلادها بشارع «نور الظلام».

ولكن جاذبية رأت أيضا الموت.. وتولد فيها من موت أبيها المبكر الفزع من فقد الأحباب والجزع خوفا من موت الأعزاء.

وعثرت الصغيرة على خيط العزاء في القراءة، لأن القراءة تؤنس الوحشة بالخيال. فالتهمت ماتجده من كتب في مكتبة عمها من روايات روكامبول وأرسين لوبين البوليسية حتى شطحات نيتشه الفلسفية.

ولكنها ظلت، وهي صغيرة، لا تستطيع مقاومة البكاء فجأة، ثم الانخراط في النشيج حتي التشنج. وكانت لا تكف أو تهدأ إلا إذا شدوا لها حبلا مشدودا بين مسمارين فوقه ارجوحة يهزونها في البيت القديم على ضوء المصباح الغازي. واشتهرت جاذبية بموجات البكاء المفاجيء، حتى تصوروا انها «مخاوية» للجن والعفاريت من أساطير تلك الأحياء القاهرية القديمة.

ومن لم يعش تلك القاهرة القديمة ببيوتها التى يبست حدائقها . ولم يبق فيها غير بعض النخيل العنيد أو الشجر القديم ، وحيطانها التى تبخ الصهد فى الصيف القائظ والرطوبة تنقش أشكالا عشوائية علي حجارتها . لا يستطيع أن يدرك «الجو» البصرى الذى عاشت فيها جاذبية سرى . وقد يدرك هذا الجو من قرأ روايات نجيب محفوظ ويحيى حقى ويوسف السباعي وألبير قصيرى . لأن بيوت الأحياء القديمة المعمرة تكاد تتحدث في الليل . ولا شك أن جاذبية التهمت بعينيها الباكيتين تلك العمارة المملوكية العثمانية . فإذا انتقلت من دراسة الرسم بالفنون الجميلة ، وعبرت مرحلة تصوير العائلة وعالم الأم والبنات واللعب . ولها لوحة مشهورة اسمها «الأرجوحة» هجمت عليها مرحلة تصوير البيوت القاهرية . فملأت بها لوحاتها الشهيرة. وحين تفجرت فيها كارثة ٦٧ عكست ما أحسه القاهريون من جزع ونقمة وتمرد، فإذا بها ترسم بيوتا متقاربة متزاحمة متقاطعة تمد جذورها القديمة فى الأرض تشبثا بالحياة حتى لا يسهل هدمها واقتلاعها ، وللبيوت فى لوحاتها نفس تلك العلاقات الحميمة المتقاربة بين أفراد أسرة واحدة يتهددها الخوف والجزع .

وكما يتكوم المساكين فوق اكتاف بعضهم ، ويتساندون ، ويتداخلون أيام الشتاء ، وكما يتقارب المعزون أيام الحداد ، رسمت جاذبية سرى أروع لوحاتها ، فجاء أسلوبها فريدا لم يبلغه رسام ولا رسامة فى قدر أشجانها . ووجدت الرسامة فى الوجود القاهرية البليغة التعبير بالعيون ، فتجرأت ، ولم تخش من تصوير ملامح القبح حتى في قامة النساء اللاتى يملن دائما بأردافهن منذ الصغر تباهيا بالنضج قبل الأوان . بينما يضممن صدورهن اصطناعا للحشمة والوقار . ولم تخش من تصوير ملامح فى الافواه التي تعودت علي الأكل والحديث بالفم مفتوحا. وخرجت تلك الصور الدفينة من عالم دفين غير مرئى فى ذاكرتها إلى عالم مرئي يشعشع فيه الضوء ويلمع فيه اللون وتصوره الرسامة بخطوط حارقة قاطعة مشتعلة . وفى مساحات سريعة الاشتعال رسمت وهج القاهرة والقاهريين .. وجاءت ألوانها صاخبة نحاسية كالموسيقى النحاسية ! ولونها المفضل هو الأحمر والبرتقالى .. بين الهمس والهتاف ، فأصبحت لوحاتها أقرب إلى الموسيقى النحاسية ، بينما لوحات انجي افلاطون مثل الوتريات وعزف الكمان . ولوحات تحية حليم عزف على الناى والارغول .

وهكذا اكتمل ذلك المثلث الذهبى لرسامات الستينات (تحية وانجى وجاذبية)، الذى يعزف بالألوان . لأن في الألوان بعض الألحان التي تسمعها حين تنظر إلى لوحات الفنانين ، خصوصا حين تكشف المرأة عن عالمها الداخلى الحميم.

٣٤

بنات بحرى

ينحدر الرسام محمود سعيد من عائلة ارستقراطية قديمة بالاسكندرية. وكان أبوه محمد باشا سعيد أحد رؤساء الوزارة المصرية في العشرينات. والرسام محمود سعيد هو أيضا خال الملكة السابقة فريدة الزوجة الأولى للملك فاروق. ولعلها ورثت منه هواية الفن وموهبة الرسم. وكان الرسام محمود سعيد، سليل العائلة الارستقراطية، قاضيا بالمحاكم المختلطة، ثم استقال في الخمسين من عمره ليتفرغ تماما لهوايته التى أخذت عليه كل حياته. وأصبح هذا الارستقراطى العريق أشهر رسام للحياة الشعبية. وأجمل صور في لوحاته الشهيرة المرأة بنت البلد، خصوصا بنات بحرى. وقد اشتهر بيننا في الحديث الشعبى عن المرأة الاسكندرانية أنها أكثر تحررا وجرأة من القاهرية بنت البلد، وقد يكون السبب هو البحر والهواء الطلق. وكنا نسمع فى شبابنا هذه العبارة الدارجة فى وصف «بنات بحرى»: مياه مالحة، وذيول شالحة، وعيون جارحة.

وقد سعيت إلى لقاء محمود سعيد فى بيته بشارع محمد باشا سعيد بالاسكندرية، وقابلنى فى غرفة استقبال الضيوف بالدور الأرضي ودودا ومتحفظا. واشتبك حديثنا عن الرسم والشعر بكتاب الفنان الشاعر عبدالرحمن صدقي عن الشاعر بودلير، وكان عنوانه «الشاعر الرجيم». وقال محمود سعيد إنه أجمل ما قرأ لشاعر عن شاعر. وكان هذا الكتاب أيضا من أجمل الكتب التى قرأتها، وأحسست بأن بودلير هو كلمة السر بيننا. فقد انفتح لى قلبه، وطلب منى الصعود إلى السطح حيث مرسمه الذي يطل على البحر.

وأمضيت أياما مع محمود سعيد في مرسمه. واكتشفت انه يختار بعض عناوين قصائد بودلير لأسماء لوحاته، ومن أشهرها قصيدة «دعوة إلى السفر». وقد رسم محمود سعيد فيها وجه رجل ووجه امرأة يقتربان جدا، وكأن بينهما همسات للدعوة إلى السفر.

وقادنى بودلير إلى عالم محمود سعيد الداخلى. فقد كان محمود سعيد يشبه شاعره المفضل بودلير فى حب المرأة وكان يشمها عابقة عطرا نفاذا وفواحا، كما يراها بعينه الفنية المتفحصة. وكان يطرب لوسوسة أساورها ووقع أقدامها. ولذلك تغنى الرسام والشاعر بالمرأة شوقا وشبقا.

وكما تغزل الشاعر بالمرأة بكلماته الموسيقية تغزل الرسام بصورة المرأة فى خطوطه وألوانه ، وأصبحت المرأة هى موضوعه المفضل .. زوجة وأما وحماة وارستقراطية وفتاة وامرأة ولودا : وكانت بنات بحرى أروع الصور لنساء محمود سعيد.

وكما تغزل بودلير أيضا باكسسوار المرأة . والأساور والخلاخيل ، ملأ محمود سعيد رسومه بهذه الاضافات الموحية .

وقد رسم محمود سعيد زوجته الجميلة ثلاث مرات ، في ألبسة مختلفة وأقنعة منوعة . ومرة ألبسها ثيابا اسبانية بشالها الحريرى ، ومرة بقبعة من القش الايطالى ، ومرة سيدة لؤلؤية مرمرية. ورسم الرسام أمه بتعبير حزين جليل ، ورسم حماته سيدة مجتمع لا تعترف بالغضون والسن . وأنوثتها الناطقة بإرادتها المطلقة. كما رسم أباه الوقور ، وخاله الضحوك والمقبل علي الدنيا بغير سبب أو ألف سبب. ورسم ابنة أخته فريدة التى أصبحت بعد ذلك ملكة ثم رسامة.

ومن دائرة العائلة انتقل محمود سعيد إلى المجتمع ، وإلى شاطىء البحر ، والأسواق الشعبية . فكانت روائعه النادرة ، وعلى رأسها لوحة بنات بحرى الضخمة بالملايات اللف . ولوحة هاجر . والزنجية ذات الأساور والخلاخيل ، وذات الجدائل الذهبية ، وفاطمة ، والمستحمات، والعائلة، والمدينة، وعلى الأريكة الخضراء والملاية اللف، وعروس البحر، وذات الثوب الوردى، وذات الرداء الازرق، وحاملة الجرة .. وغيرها كثيرات.

وتصوير المرأة عند أى رسام موهوب لا يكون نقلا ونقشا لملامحها ولفتاتها وجلستها كما تنقلها المرآة أو تصورها الكاميرا، فلابد للفنان الموهوب من الشوق والشغف . وقد كان رسامنا محمود سعيد رشيقا ، وكان أقدر رسامى المرأة فى التقاط معنى النظرة والجلسة واللفتة والبسمة .

وتميزت رسومه بالحسية العامة ، وبمزيج مشبع بالشوق والشبق، وكان ينقل مشاعرد بشاعرية ، ويختار اللون ملتهبا يلطفه الضوء المتلألىء الباسم .

ووراء هذه الحسية العارمة كان الرسام يتميز بصوفية غامضة قوية . وتبدو تلك الصوفية واضحة فى لوحاته التـي رسمها أثناء أزماته النفسية . لأن الحياة عنده ، تماما كما كانت عند بودلير ، أوتار مشدودة بين قطبين .. هما الحب والموت. وبين الحب الذى يوحى بأن لحظة من العمر تكفي لتبعدنا عن الموت الوشيك، وتوهمنا أن الحياة . . إلى الأبد وبين الموت.. تلك الفجيعة المؤكدة، تمتد بالأوتار التى يعزف عليها الرسام بألوانه وخطوطه. ولم أصدق اجتماع الحسية

والصوفية عند هـذا الرسام إلا حين تفرست فى لوحته التـى رسمها لنفسه وهو فى صدر الشباب .

فقد رسم محمود سعيد «لوحة ذاتية» لنفسه عام ١٩٢٤ قبل أربعين عاما من وفاتـه ، وقد اطلق بعض لحيته ، وأخـذه شـىء من الوجـد على ملامحه والحزن فى عينيـه. وفى خلفية الصـورة مشهدان يلخصـان الحياة والموت .. ففى جـانب من الصورة مشهد جنـازة يبدو المشيعون فيها من ظهـورهم. وفى الجانب الآخر من الصورة تبدو امـرأة تطل من بيتها، وعلى حبال شرفتها تنشر ثيـابا مبتلة . تحس من ميل الحبال أن الثياب مثقلة من كثرة المياه .

وقد استعان محمود سعيد على وطأة الحياة بـاللطف والفكاهة ، وكان شغوفا بنثر الرموز فى لوحاته ، وتكرر رسمه للحمار والحمامة. وكما كان توفيق الحكيم أبلغ من حاور الحمار فى «حمار الحكيم» ، وكان يحيى حقى أصدق من تغزل فيه ،كان محمود سعيـد الرسام ألطف من رسم الحمار ، واجتمعت فى لوحـاته صور رائعة من حب المرأة بالحس والوجد واللطافة.

٣٥ لمسات نسائية

أيام كنيدى أقمت فى نيويورك شهرا بين مجلة «نيوزويك» والأمم المتحدة وقرية الأدباء «جرينتش» وحى الزنوج فى هارلم. ولكنى لم أنس طبعا متحف المتروبوليتان الشهير، فقد أقيم فيه أكبر معرض لأشهر رسام فرنسي، وهو هنري ماتيس. وكان ماتيس أيامها أغلى من بيكاسو، وكان أحلى.

فقد ظل ماتيس حتى الخامسة والثمانين رسام السعادة. ومنذ بدأ صبيا ينقل لوحات كبار الرسامين القدامى كان يكره الألوان الغامقة والداكنة. وكان ينقل اللوحات مع تغيير الألوان إلى أفتح. فأصبحت ألوانه «رايقة» وصافية وزاهية ومبتهجة. وكعادة الرسامين الفرنسيين الذين «يعبدون» الشمس ويبحثون عن الضوء بعيدا عن الضباب سافر ماتيس إلى مراكش كما فعل من قبله الرسام جوجان فى هاييتى، ومن قبلهما الرسام ديلاكروا إلى الجزائر. وعاد ماتيس من الشرق بالشمس والألوان الدافئة والمساحات السعيدة. وأصبح متفائلا محترفا. واستوحى الزخرفة العربية من المغرب العربى بعد أن درس فيها موسيقى التكرار، والتلاعب بالأحجام، والايقاع بين الخفيف واللطيف من الألوان، وأصبح الرسام ماتيس أجمل من رسم المرأة، وعالمها العائلى الحميم والغرف الداخلية فى بيوت سعيدة تطل بنوافذها العالية علي بحار زرقاء وحدائق خضراء خضرة مخملية. وقد طالت حياة ماتيس السعيدة ـ ٨٥ عاما ـ بالشعر والموسيقى، ونثر الزهور والاغصان والأشجار والنباتات فى لوحاته. ورسم ماتيس أجمل دواوين الشعر الفرنسى من بودلير إلى مالارميه. بل وروايات المشاهير من جوليس الروائى إلى مونترلان المسرحى الذى كانوا يسمونه فى باريس راسين الجديد.

واستقبلت نيويورك معرض ماتيس بما يستحق. وفى اليوم الأخير لاقامتى فى نيويورك وقبل الطيران إلى شيكاغو ومنها إلى لوس انجلوس علي الشاطىء الآخر أمضيت ساعتين فى المعرض حتى لاأندم لضياع الفرصة. فقد كان المعرض أكبر معارض ماتيس لأنه كان معرضا شاملا لأعماله التى حصلوا عليها وجمعوها من كل متاحف العالم. وكعادتى كنت أقطع القصاصات الصحافية التى تكتب

عن المعرض، وكانت كثيرة. وأثناء رحلتي في اليـوم الأخير لاقامتي في نيويورك وفي الطائرة لمحت في «نيويورك تايمز» هذا الخبر الغريب :

ـ فضيحة في معرض ماتيس !

وكان الخبر يقول : بعد شهرين من إقامة معرض ماتيس الكبير وافتتاح عمدة نيويورك وتوافد عشرات الآلاف من الزائرين، وبينهم مشاهير النقاد ، لم يكتشف أحد أن احدى الصور في المعرض كانت معلقة بالمقلوب !

ولم يكتشف هذا السر سوى سيدة عجـوز. كانت تتجول ببطء وعلى مهل وفي يدها كتالوج المعرض. فاكتشفت بالمقارنة مع الكتالوج أن الصورة مقلوبة. ولم ينتبه لا منظمو المعرض ولا مشاهير النقاد ، ولم يستطيعوا حتى الاعتذار بأن اللوحة جميلة حتى وهي معلقة بالمقلوب ، لأنها مليئة فوق وتحت بالزهور والزخارف!

وهذا الاكتشاف بالصدفة في معرض ماتيس في نيويورك تكرر بعد ذلك ، حين نبه أحد نقاد الفن منذ سنوات إلى شكوكه في بعض لوحات الرسام دافيد المعلقة أيضا في متحف المتروبوليتان. وجاك لوى دافيد، كان أكبر رسام فرنسي في عهد نابليون . وكان الرسام المعتمد في البلاط الامبراطوري. وتغطي لوحاته التاريخية الضخمة أحداث الثورة الكبرى وحروب نابليون كما تغطي متحف اللوفر في باريس. وقد فاز متحف «المتروبوليتان» في نيويورك بأكبر مجموعة من لوحات دافيد خارج فرنسا .

وعام ٨٢ شكك أحد النقاد في الفرق بين لمسات الفرشاة بين لوحات دافيد الأصلية وثلاث لوحات كتب عليها اسم دافيد. وبدأت معركة بين نقاد الفن. وتمسك الناقد أن الذين رسموا هذه اللوحات الثلاث هن ثلاث رسامات من تلميذات الرسام الكبير دافيد، لأن اللمسات فيها نسائية.

وثارت بين النقاد معركة فنية بين اللمسات النسائية وضربات الفرشاة عند الرجال.

واحتدت المعركة حول الفرق بين رسوم الفنانات ورسوم الفنانين . وتمسك الناقد بأن دافيد كان يستعين بتلاميذه وتلميذاته أيضا في مرسمه الكبير في باريس . وكان يشجع تلميذاته على رسم البورتريهات واللوحات التاريخية ، واستعان الناقد الأمريكي بالاحصاءات قائلا : «ان عدد الرسامات في مرسم دافيد زاد من ٢٨ رسامة عام ١٨٠١ إلى ٦٧ رسامة عام ١٨٢٢».

وأكد الناقد ان التلميذات ، رسمن اللوحات الثلاث ، .هن كونستانس مارى

شاربنتييــه، والرسامــة سيزارين دافــان ميرنو، وأدلاييد جيرار. وتمسك النــاقد بالفرق بين الـرجل والمرأة فى ضربة الفرشاة. فهناك فرق بين اللمســات النسائية والضربات الرجالية !

ومع ان الناقــد والمؤرخ الأديب أندريه مــوروا لم يكن ناقدا تشكيليــا محترفا، لكنه شارك فى المعركة من باريس ليشهــد علي الفرق بين اللوحات التي علق عليها اسم الرســام دافيد في متحف «المتروبـوليتانش» وبين أسلــوبه فى بقيــة لوحــاته المشهــورة. واستمرت المعــركــة بين النقاد عشر سنــوات . وعــام ٨٠ فقط انتهت المعــركة بأن أزاح متحف «المتروبــوليتــان» اسم دافيــد ، وعلق علي تلك اللوحــات الثلاث هذه الكلمات .

ـ رسام فرنسى غير معروف !

وقد طالت معركة النقاد حول لوحــات الرسام دافيد لكثرة تلاميذه وتلميذاته، فقد تخرج على يديه أشهر فنانى عصره. ومازالت لوحات دافيد لنابليون ومعاركه وأحــداث الثورة الكبرى ومــدام ريكامييــه تحتل الصدارة فى متــاحف اللوفــر فى بــاريس، و«الارميتـــاج» فى لينينجــراد ســابقـــا والقــديس بطـــرسبــورج الآن، و«المتروبوليتان» فى نيــويورك . ومن أشهر لوحات دافيــد «مقتل مارا» أحد زعماء الثورة على يد شـــارلوت كورديه. تلك الفتــاة الشعبية التي تسللت إليه فى الحمام. وطعنته عاريا فى مقتل.

ومن لوحاته الشهيرة «عبور بونابــرت»، ولوحة «لافوازييه وزوجته»، ولوحة دافيد لزوجته الجميلة. وقد أصبح دافيــد الرسام المعتمد فى البلاط الامبراطورى، ومؤرخ الثــورة وأحداث الامبراطــورية الأولى فى لوحــات هائلــة ضخمة. وارتبط مصير دافيد ببونــابرت، وسجن بعد سقوط رومبسير، ثم نفى إلى بــروكسل بعد هزيمة نابليون.

وكان تلاميــذه بالمئات فى مرسمــه فى باريس. وكان أشهرهــم وأولهم الرسام جان أوجست انجــر، وله لــوحات خــالدة في فن البورتــريه. ومن أشهــر لوحــاته العارية .. ملكة الجمال أو ست الحسن ! وامتدت حياة تلاميذه من بعده، فأصبح تلميذه الرسام فرانسواجيرار الرسام الرسمى للامبراطورية. واستمر جيرار بعد نابليــون وعودة لويس الثــامن عشر الذى أنعم عليه بقلب البــارون، ورسم أيضا مدام ريكامييه، كما رسم جدران قصر فرسـاى وقبة البانتيون. وكان من تلاميذه بارون آخر، هو البارون انطوان جــان جرو، وقد زخرف سقف البانتيون (مقبرة العظماء فى باريس) وبعض سقــوف متحف «اللوفر». وكــان أكثر تلاميــذ دافيد

شاعرية، ورسم بونابرت طبعا. وكان شديد الحساسية لأنه انتحر وهو في السادسة والثلاثين، لأن احدى لوحاته لم تعجب النقاد !

وأثارت معركة النقاد حول تلاميذ وتلميذات دافيد قضية مهمة حول أسلوب المرأة في الرسم وأسلوب الرجل .

ثم تحولت إلى قضية أهم :

ـ لماذا لاتشتهر الرسامات كما اشتهر الرسامون ؟ وهل تكتفي المرأة بموقع الموديل أو الملهمة فقط ؟

وأخرجت لنا ناقدة أمريكية ، وهي أستاذة في جامعة «بيركلى» كتابين مليئين بالصور الرائعة لرسامات مجهولات أو مغمورات في كل العصور. والكتابان مليئان باللوحات الجميلة والرائعة. لتثبت الناقدة ان المرأة ليست مجرد ملهمة في التصوير أو مجرد موديل يرسمه الرجال.

وقد شنت الناقدة الأمريكية ويتني شيدواك حملة عنيفة على طريقة كتابة تاريخ الفن الذى يكتبه الرجال وقالت في النهاية :

ـ .. ولكنه ظلم الرجال !

٣٦

حريم السلطان .. بالألـــــوان

دخلت شهر زاد إلى الأدب والموسيقى والأوبرا والسينما والرسم، وخلبت ألباب الأوروبيين. وكانت ألف ليلة وليلة هى البـداية. فقـد طبعت ترجمتها الأولى أكثر من ثلاثين مرة فى فرنسا وانجلترا خلال القـرن الثامن عشر وحده. ونشرت ألف ليلة أكثر من ثلاثمائة مرة بلغـات أوروبا العديدة. ولا يـوجد شاعر مـرموق لم يكتب قصيدة عنها، من «شاتوبريان» الفـرنسى إلى «بايرون» الانجليزى، إلى «جوته» الألمانى. وقـرأ الأوربيـون منذ مئتى عـام عن سحـر الشرق بـالفـرنسية والانجليـزيـة والألمانية.. وتلاعب الأدباء بقصة شهر زاد وشهريار العجيبة. فقد تخيل الروائى الفرنسى «جوتييه» نهاية مختلفة فى الليلـة الثانية بعد الألف، وتخيل أن شهريار لم يشف من الملل والسأم ولم يعـف عن شهـرزاد، وجـاءت شهـرزاد إلى المؤلف تطلب منه أن ينقـذها بقصة جـديدة. وتخيل الشاعـر «ادجار آلن بو» أن النهاية حتميـة مفجعة لأن الملل داء ليـس له شفـاء. وكتب الشـاعر أروع المشـاعـر عن فجيعته فى أجمل نساء العالم وأقواهن خيالا.

وتخيل الروائى الفرنسى «دى رينيه» فى روايته «عالم الحب» أن شهريار هو القتيل فى الليلة الأولى بعد الألف، وتصبح شهرزاد هى السلطـانة فى الليلة الثانية، ولكنها تصـاب بمرض الملوك، وهـو الملل، فتبحث عن قصاص يسليهـا، وتعاقب كل من يفشل بقطع أذنيـه. ولا ينجح الكثيرون حتى يصل غـريب فى قـافلـة من بعيد، وتقع شهـرزاد فى حب الغريب القـادم لأن خياله الجامح يـرقى إلى خيالها العجيب، وتنتهى ألف ليلة الجديدة بنهاية سعيدة.

ولكن سحر الشرق والمرأة الشرقية لم يتـوقف عند الأدب والكلمة والموسيقى والباليه. لأن هذا السحـر انتقل أيضا بالصور الملونة والألوان الـزاهية والشفافة إلى لوحات الرسامين. وظهر فى أوروبا جيل من الـرسامين الرحالة الذين ذهبوا إلى تركيـا والشام ومصر والمغرب وتونس. وظهـر مذهب جديـد فى الرسم الأوروبى يسمونـه الاستشراق الفنى. ولا يقل عدد الـرسامين المستشرقين عن مـائة رسام تحتل لـوحاتهم الشهيرة متاحـف أوروبا الكبرى بعد أن وصلـت قيمتها الآن إلى عدة مـلايين. ومن أشهـر الرسامين المستشرقين «ديـلاكروا» صـاحب اللـوحة الشهيرة عن الثـورة الفـرنسية، وعنـوانها «الحريـة تقـود الشعب»، وهى تحتل الصدارة فى متحف اللوفر، فى قاعة الرسم الرومانسى، وإلى جانبها لوحة ضخمة

شهيرة عن نساء الجزائر، وتصور اللوحة عالم الحريم . والمؤكد أن ديلاكروا لم يستطع اقتحام عالم الحريم، ولكنه تخيل المشاهد والأماكن واستعان بالملابس الشرقية، واستعار قوة الألوان من السجاجيد الشرقية، ونقل إلى لوحاته هفهفة الحرير، وعبث الضوء الناعم بالظل اللطيف الخفيف حتى ينقل مافوق الجمال فى المرأة وهو السحر والجاذبية .

وكان دلاكروا أشهر من صور أحداث الثورة الفرنسية لأنه عاش بين ثورتين، وكان يخلط الخيال بألوان صاخبة عتيقة وتميز بحسه الدرامى فى تصوير المعارك الكبرى، ولكنه بقدر عنفه الجياش كان رقيقا ورقراقا . وكانت رحلته الميمونة إلى الجزائر اكتشافا لعالم جديد تماما، لأن الرسام الأوروبى يفزع من الضباب والسحاب المثقل بالمطر والكمد، ويهرب من الألوان الرمادية التى تعكر السماء الأوروبية .

ولم تبدأ موسيقى الألوان إلا بهجرة الرسامين الأوروبيين إلى الجنوب، ولم تظهر روائعهم إلا بعد انتقالهم إلى الشواطىء والحقول والآفاق المفتوحة . وقضية الضوء هى السبب، لأن الرسام هو الذى يحلل الضوء ليلتقط بعينه الحساسة ألوان الطيف الجميل وينقلها إلى لوحته .

ومنذ ديلاكروا تصاعدت صيحة «الرحلة إلى الشرق» بحثا عن الضوء . وكما توالت رحلات الأدباء من «جيرار دى نرفال» و «الفريد دى موسيه» و «شاتوبريان» و «جوتييه» لينقلوا الشرق إلى الغرب بالكلمة . توالت رحلات الرسامين جنوب البحر الأبيض، والبعض فضلوا تونس ومراكش والجزائر، وآخرون اتجهوا إلى مصر والشام وتركيا لينقلوا بالصورة مزيجا من الخيال إلى الواقع .

وقد شهدت فى الخمسينات أول معرض في باريس شامل للوحات «مايتس» الرسام العصرى المجدد . وقد هجر ماتيس البعد الثالث الذى استمر قرونا فى الرسم الأوروبى . واستوحى ماتيس الرسوم الشرقية الهندية والفارسية والصينية واليابانية والفرعونية المصرية القديمة، وهى تختلف فى موضوعاتها، ولكنها تشترك فى ظاهرة واحدة، لأن شدة الضوء فى بلاد الشرق تلغى البعد الثالث فى اللوحة الشرقية. وامتلأت لوحات ماتيس الجديدة بألوان زاهية تكشف بهجة الحياة فى الضوء المتلألىء الراقص، وتنم عن صفاء السريرة . وتميزت لوحات ماتيس للمرأة والزهور والسجاجيد والأرائك بهذا السحر الذى يسمونه الشرق .

ولا تقل المرأة عند ماتيس الجديد عن سحر المرأة عند ديلاكروا القديم . وبين العملاقين هجر الرسامون الأوروبيون الرحلة التقليدية إلى إيطاليا وفلورنسا

والبندقية على روعة رسوم عصر النهضــة، وأصبح التقليد الجديد هو البحث عن الضــوء في مصر شرقــا أو فى الجزائر وتــونــس ومــراكش فى الشمال الافــريقى . وظهرت أجيـال من الرسامين المستشرقين تعـاقبوا على نفس الغوايـة أو الهواية . وبحث بعضهم عن الآثـار القديمــة العــريقة لتسجيلهـا، أو تجولوا فى الأســواق الشعبية، أو تــوقفوا عند الملامح الشرقيـة . وصعد أكثرهم إلى صعيـد مصر عند الآثار القـديمة ووادى الملـوك والملكات . وكــان من أوائل المستشرقين الــرسامين «أتيين بييه» وكانــت رحلته الأولى للجزائر، وأقام فى مصر أربعــة أعوام، وكان أول من رسم الخديـوى إسماعيل وزوجته الأولى «جنـانيار» والثانيـة «جشيم أفت» عند افتتاح قناة السويس، ويظهر اسمه على قائمة كبار المدعوين مع الامبراطورة أوجينى وامبراطور النمسا .

واختـار ديلسبس رســامــا فــرنسيـا آخر اسمه «برشير» لرسم مراحل حفر القناة . وقــد صعد هــذا الرســام بصحبة رســام آخر لا يقل أهمية واسمه «ليون بيلى» ومثال اسمه «بارتولدى» إلى أسوان فى مركب نيلى .

وفى أكبر متــاحف باريس للصــور الآن، وهو متحف «أورساى» لوحة شهيرة للرسام بيلى عن «قافلة الحجاج إلى مكــة» . ويمتلىء المتحف نفسه برسوم الرسام «أميل برنــار» أحد مؤسسى المذهب التأثيرى وصــديق «فان جوخ» و«جــوجان» و«تولوز لوتريك»، ولا يوجد مرجع حــديث عن الرسم لا يذكره . وقد أقام برنار فى مصر عشر سنوات، ورسم لوحات دينية فى كنيســة سان لوى بطنطا، وتبقى له فى مصر لوحة من الزجاج المعشق الملون، وترك مصر عام ١٩٠٤ .

ولم يقتصر الاستشراق على الرســامين الفرنسيين طــوال قرنين، لأن الإيطــالى «بارتولينى» صــور الجزائر وتونس ومصر، ومن أشهر لوحــاته «نساء الحريم» و«المصلون». وكان يعتنى بتفاصيل المبانى وألوان الثياب العربية الزاهية. وكان الروسى «ليــون باكث» الــذى هاجر إلى بــاريس مع «دباجيليف» راقص البــاليه أروع من صور ديكورات بــاليه شهرزاد فى مطلع القرن .ثم ظهــر الرسام التركى حمدى بك عثمان ابن رئيس الوزراء فى عهـد السلطان عبـدالحميد، وقد تــرك دراسة القانــون فى باريــس، وعكف على دراسة الــرسم. وكان مــوسيقيا وشــاعرا ورســاما، وأصبح مـديــرا للمتحف العثماني عنـد إنشــائه عــام١٨٨٣ . وكـذلك الــرســام الجزائرى محمـد راسم وله قــاعــة خاصــة فى متحف الفنــون فى الجزائر ولا حــاجــة للشرقى إلى الاستشراق، فقد نبغ التركى والجزائرى أيضا فى تصوير سحر الشرق .

وفى الليلــة الثانيــة بعـد الألف، توقفت شهــرزاد عن الكــلام المباح، واستمــر الرســامون فى تصــوير جمال المرأة، والبحث عن مــوسيقى الألوان . ففــى اللون ألحان، واللوحة الجميلة للمرأة الجميلة تسمعها كما تراها .

٣٧

نســـاء

ألف ليلة

أصبحت شهر زاد في الآداب العالمية رمزا للذكاء والدهاء والخيال، لأنها احتالت على شهريار بخيالها المدهش، فامتلكت عقله ثم قلبه، واستطاعت أن تشفيه من الملل والسأم بعد أن كان يقتل زوجة جديدة كل ليلة، وقبلت شهرزاد التحدى، حين حذرها أبوها الوزير، وارتضت أن تكون فداء لكل النساء. وقبلت المخاطرة والتحدى بقبول الزواج لأنها تملك الخيال المتوقد والمسترسل، وتستطيع أن تحتال به على زوجها ليرجىء كل ليلة قرار قتلها حتى تكمل قصتها التى لم تكتمل.. حتى تم له الشفاء، وتحول شهريار القاتل إلى عاشق.

والملل هو داء الملوك، ومرض المرفهين الذين يمتلكون كل شىء، فلا يجدون فى الحياة مايثير الحماسة أو الدهشة أو الفضول، وقد اكتشفت شهرزاد أن الخيال هو الحل.. وفيه الشفاء، ولذلك امتلأت ألف ليلة وليلة بالخيال الخارق، وقصص الجان والعفاريت، ولعبت المرأة الدور الأول فى أغلب الليالى لأن عالم المرأة الغامض يثير الخيال والدهشة، وقد يكون سبب الاستعانة بالجن والعفاريت هو السرعة الفائقة للانتقال من مكان إلى مكان، والجن فى ألف ليلة وليلة أنواع وألوان، ومنها الطيارة والغواصة والعلوية والسفلية، بل ولهم ملوك وقبائل كما تروى اخت حسن البصرى أو تروى قصة الملك قمر الزمان ابن الملك شهرمان.

ومفتاح هذا العالم المدهش الذى يتكرر فى ألف ليلة خاتم سيدنا سليمان أو بساط الريح. ففى الليالى نجد سريرا يسير على الريح، كما نجد فرسا يطير بصاحبه كما فى قصة الصعلوك الثانى. ونجد طاقية الاخفاء التى يحصل عليها حسن البصرى لتخفيه عن العيون، ويكون هذا العالم المدهش الذى يفوق الخيال، وهكذا امتلأت الليالى بالخوارق الموروثة عن قصة سيدنا سليمان. فقد حكم سليمان على الجن بالسجن فى قمقم ألقاه فى البحر، وتتخيل ألف ليلة خروج الجن من سجن القمقم، وكان سيدنا سليمان قد وكل من بعده حكيما اسمه الشيخ نصر ليحكم الطيور من بعده، ويلمع النور من وجه الشيخ وهو يتكىء على عصا من ياقوت.

ولكن الجن فى ألف ليلة تختلف عن العفاريت، لأن الجن لاتقدر على الشر، بينما العفاريت تستطيع شق الحيطان، وتستطيع التنكر فى شكل حيوان، ولايخلو

عالم الرعب من الفكاهة أو الطرافة، خصوصا حين يقع العفريت فى حب انسية. ففى قصة الصعلوك الثانى من قصة «الحمال والثلاث بنات» يسحر العفريت بطل القصة ليصبح قردا. ولايخلو ألف ليلة من معارك العفاريت والانسان، كما فى قصة العفريت وابنة الملك وقصة الصعلوك الثانى .. ولكن ابنة الملك تتعلم السحر وتتغلب بسحرها على العفاريت، وكلما سحرت نفسها حيوانا غلبه العفريت، وتستمر هذه المناوشات المثيرة حتى تتغلب المرأة على العفاريت.

وقد استعانت ألف ليلة بالجن والعفاريت، وطاقية الاخفاء وبساط الريح ليسهل الانتقال من مسافات بعيدة أو للوصول إلى بلاد لايستطيع الوصول إليها أى إنسان. ويشترط الجان على الإنسان ألا يسّبح باسم الله وهو على ظهر العفريت، ولكن بطلنا أبو محمد الكسلان لا يستطيع تنفيذ هذا الشرط، ويقول:

ــ وتقطعت مهجتى من سكوتى عن ذكر الله.

وهكذا يشعشع الإيمان بالله فى قلب الإنسان حتى لو استعان بقدرة العفاريت الخارقة. ولا تخلو ألف ليلة وليلة من قصص تبارك الحب بين الجن والانس، أو العكس. ويلعب الطير دورا كبيرا فى النصر فى الحروب. كما يلعب البطل الطيب دورا فى انقاذ المؤمنين لأن سيدنا الخضر يعيد بلوقيا من البحار السبعة إلى مصر ليصل إلى أهله سالما.

وبين صراع الخير والشر، يفوز الخير دائما رغم المغامرات والمكائد وطول الصراع.

ولم تحفل قصة فى العالم بصور المرأة وألوانها وأنواعها وأعمارها كما حفلت ألف ليلة. والمرأة فى ألف ليلة نموذج للمرأة فى كل عصر، ولكن الخيال يروى قصص نساء من سكان البحر أو تحت الأرض. وقد بدأت ألف ليلة فى المقدمة بصورتين للمرأة فى حياة ذلك العصر الذى ظهرت فيه ألف ليلة، وقد تصلح حتى الآن رغم تغير المرأة عبر العصور. وتتلخص صورة المرأة فى ألف ليلة فى صورتين راسختين فى التاريخ، وهما حواء التى أخرجت آدم من الجنة، ثم امرأة العزيز التى انتقمت من سيدنا يوسف لعفته. فادعت عليه تهمة اغوائها، وهى التى بدأت، وكانت ظالمة، وظلمت يوسف الذى كان نصيبه السجن والعفة. وتستوحى ألف ليلة نفس القصة من حكاية قمر الزمان ابن الملك شهرمان. وتحب بدور وحياة النفوس البطلين، وتشكوانهما لأبيهما، كما شكت امرأة العزيز يوسف لزوجها. ويأمر الزوج بقتلهما. ولكن القصة فى ألف ليلة تنتهى بالوفاق بين الأب وبين الزوجين وهى نهاية سعيدة، وتتكرر نفس القصة فى حكاية الخياط والمباشر والنصرانى، وتتكرر نفس النهاية السعيدة، وتمتلىء ألف ليلة بمجالس الغناء والجوارى الحسان.

وفى قصة طاهر بن العلاء تصوير رائع لبيت من هذه البيوت. وتكشف العجوز فى قصة الوزير الرابع عن مكر النساء أو كيدهن العظيم. ولا يخلو ذلك من التهكم من القضاة حين يصطنعون الوقار ويخلبهم الجمال. وفى قصة زمردة الجارية تصوير للقاضى الفاضل الذى ينسى العدل ويغويه سحر الجمال. ولكن الجمال وحده لا يكفى لاستكمال سحر المرأة، لأن قصص الجاريات التى تمتلىء بها ألف ليلة تحكى عن فن الغناء والشعر، ومتعة النظر لا تكملها غير متعة الاستماع أيضا.

والبطلة الأولى فى ألف ليلة، شهرزاد نفسها، أثبتت أن الجمال وحده لا يكفى، ولا يتم الوصال بغير الخيال والأدب، أو ما نسميه فى عصرنا المكر الفنى الجميل.

٣٨

شـــــهرزاد والليلة الثانية

بعض النســاء مثل الأسـاطير، وأسطـورة الأسـاطير القديمـة والجديدة هى شهرزاد بطلة ألف ليلـة وليلة. ولم تعـد الأسطــورة الخالــدة ملكا للشرق وحده، بل شاعت شهرزاد ذات الليـالى بين الاداب العالمية وكأنها لم تعد امـرأة واحدة، بل أصبحت تمثل كل النساء عندما يجتمع الجمال مع السحر والذكاء.

وقـد سحرتنى فى شبـابى مسرحية «شهـرزاد» لتوفيق الحكيم، وقـرأت أول رواية مشتركة بين طه حسين وتوفيق الحكيـم واسمها «أحلام شهرزاد»، وقرأت بعدهـا «ألف ليلة وليلـة الجديدة» للشاعـر عبدالـرحمن الخميسى. ثم استمرت أسطـورة شهرزاد وألف ليلـة وليلـة مع الشاعـر طـاهر أبـو فـاشا فى الإذاعـة، واستمتعت بـالموسيقار الـروسى ريمسكى كورسـاكوف فى مقطـوعته الجديـدة والشهيرة «شهـرزاد». وتمتعت أيضا بمعـزوفـة الموسيقار الفـرنسى مـوريس رافيل.

وقد دخلت شهرزاد إلى عالم الأدب والموسيقى والـرسم والباليه والسينما من أوسع الأبـواب. ففى مطلع القـرن استوحى ميشيل فـوكيـه أسطورة شهــرزاد. ونقلنا الممثل رودلف فالنتينو أشهر العشاق فى رواياته «ابن الشيخ» و«سندباد» إلى عالم ألف ليلة وشهرزاد ذات الليالى.

ولـم يستطع مقاومتها الشاعـر الأمريكى إدجار آلان بو فكتب قصته الشهيرة «الليلة الثانية بعد الألف»، وفيها تخيل عكس النهاية، لأن شهريار يقتل شهرزاد بعد أن عاد إليه السأم والملل. وبنفس العناد كتب جوتييه الفرنسى نفس العنوان، وهو «الليلة الثانية بعد الألف». ويتخيل فيها المؤلف أن شهرزاد زارته لتطلب منه انقاذهـا بقصة جديدة لأن الملك لم يعف عنهـا. ويأتى كاتب ثالث هـو هنرى دى رينييه، ويتخيل المؤلف فى روايته «رحلة الحب» مقتل شهـريار، وانفراد شهرزاد بـالحكم. ويصيب شهــرزاد ما كـان يصيب شهــريـار من السأم والملل، فتطلب قصاصا يسليهـا .. كما كانت تسلى شهريار بخيـالها الجامح. وتعاقب شهرزاد كل من يفشل بقطع أذنيه، ويتصدى لها الكثيرون، حتى تعثر على غريب قادم مع قافلة بعيدة، وتقع فى غرامه لأن خياله الخصب يرقى إلى خيالها.

وقد أشعلت شهــرزاد بخيالها خيال الشعـراء والكتاب والموسيقيين. ولـم ينج الانجليز أيضـا من أسطورتها، لأن الشاعر تنيســون له قصيدة عنها فى ديـوانه

«الليالى العربية»، واستوحاها كذلك الشعراء كوينى وستروى، وليسنج. وانتقلت شهرزاد من الشعر والموسيقى إلى الباليه، ومن أشهره باليه «نورة فى الحريم»، وأصبحت ألف ليلة وليلة مقررة على القراء، لأنها طبعت أكثر من ثلاثين مرة فى فرنسا وانجلترا فى القرن الثامن عشر وحده، كما نشرت أكثر من ثلاثمائة مرة فى لغات أوروبا الغربية. وأصبحت شهرزاد كما يقول توفيق الحكيم مثل إيزيس بطلة الأسطورة الفرعونية الخالدة، حين يقول على لسانها:

« أنا كل ما كان .. كل ما يكون.. كل ما سيكون. قناعى لم يكشفه بعد إنسان..».

وقد وقع الحكيم فى غرام شهرزاد أيضا، فكتب مسرحيته الشهيرة باسمها. وابتعد الحكيم عن فخفخة القصور ليدخل العالم السحرى الملىء بالأسرار فى النفس البشرية ونقطة البدء فى شخصية شهريار عند الحكيم حين يقول:

« لقد استمتعت بكل شىء، وزهدت فى كل شىء. شبعت من الأجساد.. شبعت من الأجساد.. أريد أن أشعر.. أريد أن أعرف».

وهكذا يعثر لنا الحكيم على مفتاح شخصية شهريار الذى كان يتوهم أن «من ملك فى حجرته امرأة جميلة فقد ملك الدنيا كلها فى حجرته». ويصيب شهريار السأم والملل من سجن الحواس واللذائذ الصغيرة، حين يقول:

ليس فى الحياة من جديد. استنفدت كل شىء. والطبيعة كلها ليست سوى سجان صامت يضيق على الخناق. لقد استمتعت بكل شىء وزهدت فى كل شىء».

وتقوم شهرزاد شهريار لتشفيه من عقدة السأم وقتل زوجاته كل ليلة، لأن هناك عالما جديدا هو المعرفة، وهو عالم لا ينتهى، وتنتقل به كل ليلة إلى بلد آخر، وتسافر إليه بالخيال، وهى لا تقنع بما فوق الأرض، بل تطير فى السماء، أو تهبط إلى عالم الجان والجنيات، والخيال سفينة الروح تنطلق فوق الواقع أو خارج الحدود. وبالخيال ينجو أى إنسان من سجن الزمان وقيد المكان.

وهكذا يكتشف شهريار أن شهرزاد، كما يقول الحكيم على لسانه معترفا: «ليست امرأة ككل النساء».

ويقول شهريار لشهرزاد:

«قد لا تكون امرأة.. من تكون؟ انى أسألك: من تكون؟ هى السجينة فى خدرها طول حياتها، تعلم بكل ما فى الأرض كأنها الأرض. هى التى ماغادرت خميلتها قط، تعرف مصر والهند والصين. هى البكر تعرف الرجال كامرأة عاشت ألف عام بين الرجال. وترك طبائع الإنسان من سامية وسافلة. هى الصغيرة لم يكفها علم الأرض فصعدت إلى السماء. تحدث عن تدبيرها وغيبها

كأنها ربيبـة الملائكة. وهبطت إلى أعماق الأرض تحكى عن مـردتها وشياطينهـا وممالكهم السفلى العجيبـة كأنها بنت الجن. من تكون تلك التى لم تبلغ العشرين قضتها كأترابها فى حجرة..؟ ما سرها؟ أعمـرها عشرون عامـا. أم ليس لها عمر؟ أكانت محبوسة فى مكان، أم وجدت فى كل مكان؟».

وهكــذا يكشف لنــا الحكيم سر شهـرزاد وسر قــوتها فى خيــالها الجامح والطموح، لأن النجـاة فى طلب المعرفة والاستعانـة بالخيال على سجن الـزمان أو قيـد المكان. وكأن تـوفيق الحكيم يـرد على قصيدة بـودلير حين يقول لحبيبتــه: كونى جميلة وكونى غبية. قائلاً على العكس:

ـــ كونى جميلة. وكونى ذكيـة. ففى الجمال مع الذكاء سحر شهرزاد الذى لا ينتهى.

٣٩

الملكة الأسطورة

الذين يتعمقون فى دراسة الأدب الفرنسى القديم، سوف يكتشفون اسطورة أدبية عجيبة انتشرت وذاعت عن صلاح الدين. وقد انتقلت هذه الاسطورة فى أدب القرن الرابع عشر من الأدب الفرنسى إلى الاسبانى ثم الإيطالى. وتحكى الاسطورة زيارة صلاح الدين لفرنسا زيارة غير رسمية بعد انتصاره على الصليبيين. وتصور صلاح الدين فارسا نبيلا يجمع بين الوسامة وشهامة الفرسان. وتحكى رحلته إلى برانديزى على الساحل الإيطالى ثم لومبارديا فى الشمال، ووصوله إلى باريس.

وفى العاصمة لا يقابل الملك فيليب الثانى لأنه كان غائبا، فيقابل الملكة. وتعجب ملكة فرنسا بشهامته وفروسيته لأنه دافع عن براءة كونتيسة مظلومة، واسمها الكونتيسة، دى بونيتى. وتروى تلك الحكاية الأدبية ان صلاح الدين بارز ريتشارد ملك انجلترا، وتغلب عليه بالبرجاس. وتقول ان صلاح الدين قرر بعد تلك الزيارة السرية ان يعود لفرنسا بعد اعداد اسطول قوى. ويعود فعلا، ولكن بارونات فرنسا يقنعون صلاح الدين أن الأولى بالغزو هو انجلترا، وتكشف تلك الحكاية ذلك العداء الخفى والمبكر بين فرنسا وانجلترا، وقد شاعت الاسطورة الأدبية فى أدب القرن الرابع عشر، فانتقلت من الرواية الأدبية إلى الرسم، فأصبحت صور صلاح الدين تملأ اللوحات المعلقة فى قصور البارونات والنبلاء، بل وكانت الاسطورة تمثل فى مسرحيات مرتجلة فى ابهاء القصور. وبقدر ما تميز أدب القرن الرابع عشر بتجميل صورة الفارس الاسطورة الأوروبى، فقد كانت اسطورة صلاح الدين أجمل الأساطير وأكثرها ذيوعا. وقد مهد ذلك الأدب لتحسن العلاقات بين الشرق والغرب بعد حروب دامت نحو قرنين، حتى ان شقيق لويس التاسع، شارك دانجو، كونت دى بروفانس، وسيد مارسيليا، وملك نابولى وصقلية عقد أطيب العلاقات مع الظاهر بيبرس الذى أنهى الحملات الصليبية إلى غير رجعة.

وبين صلاح الدين الأيوبى وبيبرس، وبين الأيوبيين والمماليك امتدت نيران الحروب الصليبية التى انتهت بتحرير القدس والشام ودمياط والمنصورة، وانطوت صفحات من الحروب الدامية التى بدأت منذ ٩٠٠ عام بالتمام والكمال عند بدء أول حملة صليبية عام ١٠٩٦، والتى سميت بحرب البارونات. وتعاقبت تلك الحملات الثمانى من ١٠٩٦ حتى ١٢٧١. وكانت الثامنة هى الأخيرة وختام

الحملات، بانتصار بيبرس فى الناصرة. وكانت السابعة هى حملة لويس التاسع ملك فرنسا ما بين عامى ١٢٤٨ و ١٢٥٤. ولم يحفل ملك فرنسى بالأساطير الأدبية مثلما حفل لويس التاسع الذى يطلقون عليه الآن «القديس لويس» ومازالت أهم جزيرة وسط نهر السين تحمل اسمه، وعليها أقيمت كاتدرائية نوتردام، أضخم كاتدرائية فرنسية، فى قلب مدينة باريس القديمة، وقد اختاروا العاصمة القديمة فى قلب الجزيرة، لأن النهر يحميها من كل جانب. وبقدر ما يمتلىء تاريخ فرنسا بأساطير لويس القديس، يمتلىء تاريخ مصر أيضا بسيرة أول ملكة وآخر ملكة. حكمت مصر الاسلامية. وهى شجرة الدر، أو «شجر الدر» كما يقول بعض المؤرخين. وقد ازدحم عصرها بالأحداث التاريخية الهائلة. وكانت ولايتها القصيرة آخر عهد للدولة الأيوبية وبداية عهد المماليك. ورغم انتقال السلطة. ظلت القضية وهى انهاء الحملات الصليبية.

ولايزال مسجد شجرة الدر باقيا منذ عهدها، ويقع على يسار من ينتقل من مسجد السيدة نفيسة فى أقصى الجنوب الشرقى من القاهرة. حين يتجه منه إلى قلعة الجبل أو قلعة صلاح الدين التى تطل على ميدان صلاح الدين، وكان يحمل اسم «الرميلة» ثم اسم محمد على، وعاد اليه اسم صلاح الدين، لأن قلعة الجبل ظلت مقر الحكم منذ الأيوبيين، حتى عهد اسماعيل حين نزل من القلعة إلى ميدان عابدين. ومازال اسم شجرة الدر يطلق على شارع من أهم شوارع الزمالك التى تنتشر فيها أسماء سلاطين الأيوبيين من صلاح الدين إلى ابن زنكى والكامل محمد. ومازال اسم الملك الصالح زوج شجرة الدر على الكوبرى الذى يصل بين الفسطاط ومصر القديمة وجزيرة الروضة حيث أقام زوجها الصالح نجم الدين أيوب قصرا وقلعة. وكانت شجرة الدر تقيم فى القصر مع الملك الصالح مشرفا على النيل. وبقدر ما حفلت جزيرة الزمالك بأسماء الأيوبيين حفلت جزيرة الروضة بأسماء المماليك البحرية.

ولكن شجرة الدر لم تعش طويلا فى قصرها بالروضة، ولم تنعم بالحياة الناعمة فى حدائقها وقصرها المطل على النيل، وعاشت أهم سنوات حياتها فى الشمال. بين المنصورة ودمياط، لأن زوجها الملك الصالح نقل قيادته إلى الشمال من القصر الملكى بالمنصورة، فقد داهم الملك لويس التاسع فى الحملة الصليبية السابعة دمياط. وانهزم أمامه فخر الدين ابن عم الملك، ورغم مرض الملك الصالح، فقد قرر الانتقال محمولا عليلا على رأس جيشه، وتوالت الكوارث بعد احتلال دمياط، بأن مات الملك الصالح بين يدى زوجته الجميلة الوفية.

وتكشف الأزمة العنيفة ان ذكاء شجرة الدر كان أبهى وأقوى من جمالها. فقد واجهت الأزمة بالحيلة والتدبير، لأن ابن الملك وخليفته تورانشاه بعيد عن مصر فى أقصى الشمال فى حصن كيفا. والعدو يحتل دمياط، والميناء الرئيسى فى وقتها،

ويستعد للهجوم على المنصورة ليمتلك ناحية النيل حتى يزحف إلى القاهرة.

واهتدت شجرة الدر إلى ان الطريقة الوحيدة لانقاذ الموقف هى اخفاء وفاة الملك، واستدعت فخر الدين القائد واتفقا على تحنيط الجثمان ووضعه فى صندوق من الصنوبر. وظل فخر الدين فى القصر الملكى بالمنصورة يستقبل الزائرين كأن شيئا لم يقع، ملوحا ان مرض الملك يحول دون رؤيته.

واستدعت شجرة الدر اق طاي وبيبرس لمبايعة فخر الدين وليا للعهد، ووضع العسكريون خطة الدفاع ليدافع اق طاى عن البحر الصغير، ويدافع فخر الدين عن المنصورة، ويتولى بيبرس الدفاع عن القصر السلطانى.

واستعد المصريون لهجوم لويس التاسع بالمنجنيق أو النار الاغريقية. وحين أمر لويس بإقامة جسر على النيل للوصول إلى المنصورة، تركوه يبنى الجسر، ثم حفروا خندقا مثل الهلال، ليندفع النيل لتحطيم الجسر.

واجتاز ارتوا شقيق لويس النهر، ليدخل المنصورة. وكان القتال شرسا وداميا وانهيت فيه طلائع الفرنسيين. ويروى مؤرخو العصر ان معارك الشوارع كانت دامية، طلبا للنصر أو الشهادة، حتى ان فارسا ملثما سقط فى القتال، ولم يكن الفارس الملثم سوى السيدة فاطمة الدمياطية التى رأت زوجها وأولادها يقتلون أمامها فى دمياط. فأقسمت على الانتقام وطلب الشهادة.

وكان النصر فى المنصورة، فأطلقت شجرة الدر الحمام الزاجل إلى الأمير حسام الدين نائب القاهرة ليحمل أخبار النصر. وكان الوريث الشرعى ابن الملك قد وصل الصالحية بالشرقية، وكان تورانشاه يصحب زوجته شمس الملوك. وغضب تورانشاه من زوجة أبيه شجرة الدر لأنها دفنت زوجها سرا، وقال لها:

ـــ لا يعنى أن أبى كان زوجك انك خرجت عن زمرة الأرقاء. وعليك ان تعودى كامرأة مصونة إلى قصرك فى القاهرة.

وبدهاء المرأة قررت شجرة الدر السفر إلى القدس بعيدا عن سخط تورانشاه. لأن الوطن فى خطر. وهى لا تريد الفتنة والانقسام.

وكان انسحاب شجرة الدر إلى القدس مؤقتا، تنتظر نتائج المعارك الفاصلة التى انتهت بهزيمة الحملة الصليبية، وأسر لويس التاسع فى دار ابن لقمان، حتى يتم الصلح بالفدية. ولكن زهو النصر أغرى تورانشاه بالقضاء على قادته الذين حققوا له النصر، وهما بيبرس واق طاى. وانتهى حفل النصر بفاجعة اغتياله، لتعود شجرة الدر، وتتولى السلطنة لأول مرة وآخر مرة. وبقيت اسطورتها الحقيقية إلهاما لكثير من القصص الأدبية، أشهرها قصة الأديب محمد سعيد العريان المقررة على المدارس الثانوية كقصة أدبية ذات مغزى عن امرأة كانت جميلة.. وكانت أيضا ذكية.

٤٠

اسم الدلع :
عصمت

اتفق أبوها وأمها على اسمين للمولودة الجديدة.

واختارت الأم اسم «عصمت» وهو اسم عربي عثمانلي. واختار الأب اسم «عائشة»، وهو اسم عربي. وحتى لا يختلف الأب والأم، ظل اسمها في البيت عصمت، قبل أن تشتهر باسم عائشة التيمورية.

ولكنهما لم يتفقا على مستقبل البنت. فالأم تريد أن تصبح ابنتها، مثل كل بنات ذلك العصر، زوجة وأما تحسن فنون التطريز وتتأهل لحياة القصور في الحرملك.

بينما الأب يحس في فتاته عائشة ميلا إلى الشعر وتذوق الأدب وحب القراءة. وحتى لا يختلف الأب والأم قال اسماعيل باشا تيمور لزوجته الجركسية:

ـ خذي عفت (أختها الثانية)، وعلميها كما تريدين التطريز وشئون البيت، وأتركي لي عصمت لأنها تحب الأدب.

وكان اسماعيل باشا تيمور يجيد ست لغات هي: العربية والتركية، والفارسية والانجليزية والفرنسية والايطالية وترأس القلم «الافرنجي» في الديوان الخديوي. مما يعادل الآن منصب وزير الخارجية. ثم أصبح الرئيس العام للديوان الخديوي في عهد عباس حلمي أو الخديوي عباس الثاني. وقد تقلب أبوه ما بين عهد محمد على الكبير والخديوي اسماعيل، وكان والده في الأصل ضابطا من أصل كردي، ساعد محمد على في القضاء على المماليك، فبلغ شأنا ونفوذا.

واستقرت عائلة تيمور في قصرها الكبير بدرب سعادة في باب الخلق. وكانت هذه المنطقة غربي سور القاهرة الفاطمية، وتقع قريبا من الخليج المصري، ولهذا بدأت في أول عهد محمد على ثم امتلأت في عهد اسماعيل بالقصور المطلة على الخليج والحدائق. وقد اختفى الآن قصر تيمور القديم في درب سعادة، ولم يبق غير محلات البقالة والتوابل. وان بقيت حتى الآن بعض بقايا قصور قديمة. ومنها قصر منصور، وكان زوج ابنة الخديوي اسماعيل، وهو الآن محكمة مصر الابتدائية. وحفظت المحكمة بعض آثار ضخامة القصر، مع الفرق بين الوجاهة القديمة والجهامة الجديدة، ولاختلاف بين ما كان يدور في القصر القديم عن جاه ووجاهة وما يصدر في المحاكم من احكام في القضايا والجنايات. ومازلت أذكر

هذه المنطقة جيدا، لأنني كنت أدرس في الخديوية الثانوية القريبة من باب الخلق وبالقرب من درب سعادة. وكان باب قديم في السور القديم للقاهرة الفاطمية يحمل اسم باب السعادة. وهو يختلف عن الباب الأخير والقريب ولا يزال حتى الآن، وهو باب زويلة. وقد كان هذا الباب،هو باب الخروج من أسوار القاهرة القديمة. كما كان باب الدخول هو باب النصر أو باب الفتوح في أقصى الشمال.

وارتبط باب زويلة في أذهان أبنائنا بأنه باب الخروج أيضا من الحياة كلها. لأنه كان الباب الذي تنفذ عليه أحكام الاعدام. وقد شهد في الزمان السحيق اعدام طومان باي آخر المماليك الحكام بعد دخول سليم الأول أول العثمانيين. وقد يكون هذا هو السبب الأصيل، لأن يسمى باب الخلق أصلا بباب الخنق. ثم أصبح باب الخلق لأنه شهد حركة عمرانية هائلة بعد محمد على ثم اسماعيل. ومازلت أذكر بعض بقايا القصور حول دار الكتب أو الكتبخانة الخديوية التي نقلت من درب الجماميز إلى باب الخلق عام ١٩٠٤، في عهد الخديوي عباس حلمي، وكان قصر التيمورية في درب سعادة، بينما خلف دار الكتب نفسها قصر المهدي وكان شيخ الأزهر، ثم وهب حفيده أمين المهدي حياته ولياليه لهواية العزف على العود، حتى أصبح أمهر عازف على العود في مصر، وكانت زوجته باهرة الجمال صديقة حميمة لأم كلثوم. وكانت هذه المنطقة تعج بالمدارس والصحف. ففي مصب شارع محمد على باب الخلق كان بيت الشريعي ثم جريدة المؤيد، ولو سرت بعض خطوات إلى الجنوب لاكتشفت ان درب الجماميز شهد ديوان المدارس، أول كتبخانة، ودار العلوم، ومدرسة القضاء الشرعي، وكلها تجديدات عمرانية وثقافية على عهد اسماعيل وعلى مبارك.

وقد عاشت عائشة في ذلك الحي القديم وهو حي المدارس والصحف. ولكن تعليم البنات لم يكن متاحا في المدارس، لأن أول مدرسة نسائية كانت على عهد محمد على لتعليم الممرضات والقابلات فقط. فأحضر لها أبوها الباشا في البيت أستاذين هما ابراهيم أفندي مؤنس لتحفيظها القرآن والفقه وفنون الخط العربي الجميل. وكان مؤنس أفندي أشهر خطاط في ذلك العهد، كما كان خيرت أفندي، والغريب أن لهما شارعين حتى الآن في حي السيدة. وكان الأستاذ الثاني هو خليل رجائي الذي علمها النحو والصرف واللغة الفارسية. وحين أحست عائشة بوجع الشعر وصعوبة الوزن استعانت بسيدتين هما فاطمة الأزهرية لتقوية اللغة، وستيتة الطبلاوية لإيقاع والموسيقى، وقد يكون اسم الطبلاوية لأنها كانت تعلم الإيقاع وتدريب الأذن على الطبلة و«واحدة ونصف» ايماء إلى الموسيقى الشرقية.

ويندر أن تجد كتابا يصف حياة المرأة في عهد محمد على سوى كتب الرحالة

من النســاء الأجنبيـات ممن يستطعـن دخـول الحرملك. وأصـدق الـوصـف فى كتابين، أحـدهما كتاب كتبتـه فرنسيـة سمت نفسها «نيـة سليمة»، وكتبت هذا الأسم بالفرنسية مع انه وصف بالعربية، ويصف ربة المنزل تجلس على المقاعد. بينما بقيــة النســاء على الشلت.. وهما ارفـع قـدرا من الجاثمات على البســاط والسجاد. وتصف المؤلفة «نية سليمة» طقوس تقديم القهوة فى القصور والبيوت الكبيرة، لأن القهوة تحملهاثلاث خـادمات على الأقل، الأولى تحمل الطبق، ويغطيه غطاء مخملى مزركش، تهدلت من حـواشيه النقوش الذهبيـة، بينما تحمل الثانية ابريق القهوة فى شبه مجمرة فضية امتلأت بالرماد المتلظى والثالثة تصب القهوة وتـدور بها على الـزائرات. وكان الحديـث المعتاد يـدور عن الـولادة كما تقـول، والخطبة والـزواج والموت وخصام العـائلات وخصـام الأزواج والثـرثرة وشىء كثير.. أو قليل من النميمة أو الاغتياب.

ولكن عائشة أو عصمت كـانت تفضل السلاملك على الحرملك. لأن السلاملك فيه مكتبة أبيهـا. وهكذا انفردت عائشة دون بقية النســاء بالبحث عن شىء آخر غير الثرثرة والنميمة، حتى امتلكت العربية والفـارسية والتركية. وشجعها أبوها على الشعر ونصحهـا بامتـلاك الوزن والقـافية. ونســاء هذا الجيل ـــ من بنات البيوتات ـــ تنازعتهن مدرستان فى التربية والتعليم بالمنـازل والقصور. المدرسة الأولى كانوا يسمونها «الافرانكا» وفيها تتعلـم الفرنسية والإيطالية والانجليزية، بينما المدرسة الثـانية كانت تسمى «الاتـوركا» وتتعلم فيها التركية والفـارسية. وقد اختـارت عائشــة المدرسة الشرقيــة، حتى امتلكت وكتبت الشعـر بالعـربية والتركية والفارسية معا. وتتذكر هدى هانم شعراوى انها رأت عائشة التيمورية وهى تزور زوجـة أبيها محمد سلطان بـاشا. وقالت عنها انها كـانت ست كدة.. الاتوركا.. بينما يتذكرها ادريس راغب باشا الوزير الأسبق، وقال عنها:

ـــ كانت حلوة والله:

ويتذكـر الروائى محمـود تيمور عمتـه ـ مع الفـارق فى السن، وكـان يقرأ فى طفـولته قصـائدهـا التى تكتبهـا بخط جميل، وتفضل كتـابتها بـالحبر الأحمر. وتذكر الشاعرة الصغيرة عن أبيها انه كلما رأى فى يدها ديوان شعر، قال لها:

ـــ انك إذا أكثـرت من مطـالعـة الشعر الغـزلى سيكـون ذلك سبب زوال كل دروسك من ذاكرتك.

وتولى أبوهـا بنفسه تعليمها البلاغـة الفارسية فى شاهنـامه الفردوسى. ولم تعد تظهر فى مجالس السيدات ألا لتقبل أيدى صديقات والدتها وقريبات أسرتها. وكان زواجها المبكر والمعتاد فى ذلك العصر فى الرابعة عشرة فانقطعت عن الشعر، حتى أنجبت ابنة «شقية» لثغاء وأخذها حب الابنة عن الشعر والأدب. ولكن القدر

لم يمهلها بسعادة الزوجية والأمومة، لأن توحيدة ابنتها الصغيرة تموت فجأة. وبعدها يأتى دور الزوج. وكأن مصيبة واحدة لا تكفى. فوجدت عزاءها فى الشعر باللغات الثلاث. ووجدت فى البكاء ما يعزيها أكثر من الشعر حتى ضعف بصرها. ولم يكن يعزيها سوى صعود أخيها فى عالم الأدب والتاريخ، لأن أحمد تيمور باشا شقيقها كان من عشاق الأدب. وكانت داره الواسعة فى درب سعادة ملتقى الأدباء والشعراء ومنهم البارودى واسماعيل صبرى، وقد شغف أحمد باشا بجمع المخطوطات. ويبدو انه كان أيضا فنانا، لأنه حرص على أن يلتقط بالكاميرا مبكرا صور كل القناطر التى أقيمت فوق الخليج، وذلك قبل ردم الخليج، ليصبح شارعا مرصوفا، تنطلق فوقه أولى عربات الترام عام ١٨٩٨، أى منذ نحو مئة عام، من السيدة إلى السبتية.

وتدرك من قراءة أشعارها أن الحزن يصبح أحيانا مهنة المرأة فى ذلك العصر. لأنها تتحدث فى نثرها عن الغربة.. والوحدة حين تقول «غربة الوحدة أشد من غربة الديار». أو تكتب فى جريدة المؤيد التى كان مقرها قريبا من بيتها:

ـــ لا تصلح العائلات إلا بتربية البنات.

وهكذا سبقت عائشة التيمورية المرأة فى عصرها، وان كانت قد لحقت المرأة فى كل عصر.. فى عالم الأحزان.

٤١

جميلة .. ولكن قاتلة

لم تكن نعمت هانم من العائلة المالكة فى مصر، ولكنها كانت من الحاشية الارستقراطية. وكان أبوها أحمد باشا خيرى وزيرا للمعارف والداخلية ورئيسا لتحرير الوقائع المصرية منذ أكثر من سنة. ولم تحمل نعمت هانم اسم ابيها كما جاء فى شهادة الميلاد، وأرادت أن تحمل اسم زوجها على الطريقة الأوروبية، وكانت توقع خطاباتها التى تكتبها بالفرنسية باسم «نعمت علوى بك».

وكان زوجها عزيز علوى أمينا للمراسم فى بلاط السلطان ثم الملك فؤاد.

وظلت تحمل اسمه مع انها هجرته ، وتركت مصر إلى سويسرا والنمسا ثم باريس. ولو لم تتعرف على أشهر شاعر بالألمانية مابين الحربين، ماريا ريلكة، لما تذكرها الآن أحد، وقصة الشاعر مع الجميلة كانت أغرب من الخيال.

ويبدو أن التاريخ يكره التفاصيل التى تسقط منه على مر السنين. ولايبقى فى الكتب سوى بعض السطور حتى عن العظماء. ولم يكن يمكن لأحد أن يعود الآن إلى الحديث عن «نعمت هانم علوى» ليبحث عن أصلها أو حياتها لولا ان اسمها ارتبط بهذا الشاعر الذى يملأ اسمه الآن أى كتاب عن الأدب الألمانى مع انه مات منذ سبعين عاما. وقد وقعت فى يدى مجلة فرنسية مصورة، وفيها صفحتان بالصور للقصر الذى كان يعيش فيه الشاعر ريلكة فى سويسرا. وحتى الآن يحفظون هذا القصر مع حديقته الفيحاء المعطرة بالورود التى كان يحبها الشاعر. وقد أقام ريلكة فى قصور عدة بالنمسا وسويسرا، ولم يكن يملكها بل كان مدعوا. فقد أحاطت به الارستقراطية الأوروبية بين الحربين بعد أن فقدت عروشها وممالكها، ولم يبق من تلك الدول سوى الممتلكات. وكانت أميرات كثيرات من النمسا والمجر يملكن كثيرا من القصور والضياع. وأصبح الفنانون والأدباء زينة تلك القصور.. تجمع صالوناتها الأدبية أصحاب المواهب من الفنانين والأدباء. وكان ريلكة لاتهمه فخامة القصر ولكن مساحة الحديقة، وعمر الأشجار، ثم عطر الزهور. وكانت الأميرة النمساوية ماريا فون تورن وتاكسس وليه نعمته، وكان أبوها أميرا وأمها كونتيسة وزوجها أميرا أيضا. وكان قصرها على صخرة عالية تطل أو على الأصح تسيطر على البحر الادرياتيكى.

وكانت الأميرة ماريا تستقبل ضيوفها فى القاعة الحمراء أو قاعة الامبراطور. وتزهو الأميرة فى خيلاء مهذب ان الموسيقار فرانزليست عزف على البيانو الذى كان يحتل الصدارة فى القاعة الحمراء. ولكن شاعرنا ريلكة لم يكن يبحث عن المال أو الجاه أو الشهرة. وحين اقترح صديقه الشاعر الفرنسى الكبير بول

فاليرى ان يسعى للحصول له على وسـام «اللوجيون دونير» تكريما لتراجمه عن الفـرنسية لقصـائد فاليرى وفيرلين ومـالارميه و روايـات آندريـة جيد، اعتـذر شـاعرنا شـاكرا، فلم تكن الأوسمة أيضـا تهمه كثيرا أو قليلا. وكان يظن كما قال ان مهمته الأولى فى الحيـاة الأدبية هى تخليص الشعر من النثـر حتى يصبح الشعر نقيا. وكـانت موسيقاه الـداخلية لاتتوقف حتى حين ينـام، لأنه كان يـؤلف وهو يحلم. وبعض قصائده بدأهـا نائما وكتبها حا لما وأكملها فى يقظته. وكـان شـاعرا يـؤجج المشـاعر ويستطيع أن يشعـل الحريق فى الجليد، وكـان خجلـه الطبيعى يشعل النسـاء، لأن بعـض الصـد مثل بعض الشك يحيـى الغـرام. والمرأة التى شبعت من العطور والمجوهرات لاتشبع من الكلمات الـرقيقة واللطف عند الثناء. ومن يقـرأ خطابـاتـه إلى أميراته وملهمـاتـه يجد كلماتـه مثل الجواهر. ومن يقـرأ أشعاره لابد ان يقـع وسط موجاته المغنطـة والمليئة بالصـور المبتكـرة. فقد كان هذا الشـاعر بحر زاخـرا، أو رجلا متلألئا بـاختصاصه. وكـان يسير فى شوارع ميونيخ وبيرن وباريس منحنيا على نفسه، شـديد الأناقة من دون اصطناع، وقد أرسل شاربيه وأطلق سالفيه على الطـريقة الصينية. ولم يكن يلفت الأنظار لشدة هـدوئه كأنـه يسير فى عـالم آخـر. ومثل كثير من شعـراء الألمانيـة تنبـه بفضل شاعـرهم الكبير جوته إلى الشرق. وكـان آندريه جيـد هو الذى وصف لـه رحلته المبكرة إلى تـونس. وقد سبقه إليها الـرسام بول كلى بحثـا عن سحر الشرق. ولم يذهب ريلكـة إلى اليونان كما يفعل شعراء أوروبـا بل ذهب إلى مصر عام ١٩١١. وقارن بين نهرى الفولجا والنيل، وقـال ان النهر ـ بحق وحقيق ـ هـو النيل «لأنه يهب الحياة للصحراء المطموسة التى ليسـت لها بداية ولانهاية». واكتشـف روعة الصحراء وانعكـاس السماء على الرمال. وظن ان «أبوالهول» ليس تمثـالا صنعه مثـال،. بل هو «كـائن حى، وشـاهـد على أمواج الـريـاح والصباح الاف الأيـام، ومالايحصى من النجـوم، ومواكب الأفـلاك فى العلا، وحـرارة السماء الممتدة إلى الأبد»، وهكذا كـان ريلكة يسمع الموسيقى الداخلية فى ما حـوله، ويسجل الألوان الخفيـة فيما يراه، كما يصف فى رحلتـه «الأخضر يصبح شفافـا، والأحمر ينقلب حارا واللازوردى يجلله الخشوع». وقد أوحى لـه عمود فى معبد الكرنك؛ بقصيدة من أجمل قصـائده سماها «الكـرنك». وتوقف عند مغزى زهـرة اللوتس على رأس الأعمدة الفـرعونية. لأن أوراقهـا إلى أعلى وكأنها «تسند السماء» وهـى تـختلف عن بقية الأعمدة اليونانية أو الرومانية التى تتجه أوراقها إلى الأرض.

وقد ظل سحر زيـارته يتردد فى أسفاره وعديـد من قصائده وسعى أن ينضم بعد ذلك إلى بعثة نمساويـة أو ألمانية للتفتيش عن الآثار. لكن مشروعه لم يتحقق، فقـد جـاءت الحرب. وانتقل ريلكـة إلى بـاريـس. واتسعت شهـرتـه بين تشيكوسلوفـاكيا موطنه القـديم وإيطاليا والنمسا وسـويسرا وفرنسا، وأصبح

شاعرا أوروبيا يكتب بالألمانية، ويترجم من الفرنسية وأليها، بل يكتب بعض أشعاره بالفرنسية. وكان لقاؤه بنعمت علوى فى لوزان بعد رحلته إلى مصر بأكثر من ١٥ عاما. ولعبت الصدفة دورا غريبا فى لقائهما، فقد كانت نعمت هانم تقيم فى فندق سافوى فى لوزان وهو نفس الفندق الذى يقيم فيه ريلكة. وكانت نعمت علوى تحدث الكاتب الفرنسى جالوا عن كتاب تحفظه عن ظهر قلب، ولاتعرف أن كان صاحبه حيا أو ميتا «معاصرا أم مجرد رومانسى نسيه الناس»، وسألها جالوا عن الكتاب والمؤلف، فقال لها جالوا:

– التفتي وراءك.. إلى صاحب الشاربين المتهدلين على طريقة الصينيين، هذا الذى يقرأ واحدة تحت الشجرة. انه رانير ماريا ريلكة. وكان شبح شاعر مات منذ عدة قرون ظهر أمامها فجأة كما يقول جالوا، وعرفها ادمون جالوا بالشاعر. وتكشف الخطابات المتبادلة بين ريلكة ونعمت هانم انها دعته فى اليوم التالى إلى نزهة بالسيارة. وتكتشف فى خطابه لها انه سائقة طائشة تنطلق كالطفلة سعيدة بشدة السرعة. وتكتشف من خطابه لها تلك الجملة الخالدة والمتكررة التى تملأ الأفلام الغرامية حين تنشأ العلاقة ويبدأ الاهتمام، ويفترق الرجل عن المرأة قائلا لها تلك العبارات التقليدية والتى تكاد تكون مضحكة:

– خلى بالك من نفسك. وبعد الاهتمام بدأ الانشغال ثم الحب. ورغم الفارق فى السن لم يستطع ريلكة أن يقاوم هذه السيدة الطائشة. فقد كان جمالها خارقا.. كأنه معجزة من معجزات الشرق، وقد تنبه عبدالرحمن بدوى فى كتابه عن الأدب الألمانى إلى ريلكة وقصته مع نعمات علوى. ثم عاد الدكتور ممدوح حقى فى دمشق إلى القصة نفسها بعد ترجمته لاشعار ريلكة. وظللت لاأصدق شيئا عن جمالها الخارق حتى وجدت صورتها بعد أعوام فى صحيفة قديمة. ورأيت وجهها أقرب إلى الاستدارة منه إلى الطول، وعينيها مستطيلتين سوداوين تحف بهما رموش دقيقة منفرجة، ويعلوها حاجبان رفيعان منحنيان فى تقويس بديع، وكأنهما مرسومان بالفحم، وانف رقيق طويل مسحوب فى لطف، وشفتين مليئتين باعتدال مع جبين عريض ناصع يكسوه شعر أسود فاحم. وقد ظنت نعمت هانم انها تستطيع ان تغزو السينما بجمالها، وانها قرينة جريتا جاربو نجمة الشاشة وأجمل جميلات أوروبا فى ذلك العهد. ولكن حلمها لم يتحقق، ولم تكتشف ان الجمال وحده لايكفى. فقد انتهت علاقتها بموت الشاعر فجأة بعد مرض قصير. وقيل انه مات من التسمم لأن شوكة وردة أهدتها له نعمت هانم قد شكت اصبعه، وكان الحادث ثم النهاية المفجعة. وكلما مررت على ناصية شارع الشيخ ريحان بميدان الإسماعيلية أو التحرير حيث الجامعة الأمريكية الآن، وكان مكانها مقر الجامعة المصرية الأولى، رأيت القصر الذى تربت فيه نعمت هانم، لأنه كان قصر والدها أحمد باشا خيرى. ولم يعكف أحد حتى الآن على كتابه قصة هذه الجميلة التى أحبت غريبا.. فى الغربة.

٤٢ البرنيسة

لابد من أن أعترف بأننى قاهرى المولد والمزاج، وان هواية عنيفة غريبة تملكتنى منذ أعوام عديدة هى التجول فى الشوارع لقراءة العمارة فى القاهرة. ولو تعقبتنى فى شطحاتى وجولاتى فى الشوارع، فسوف تلاحظ أننى من القلائل الذين يتلكأون فى السير عن عمد. وأحيانا أتسمر فى مكانى أمام نافذة أو شرفة أو عمود. وقد لاأكمل السير إلا مخافة اثاره الشبهات!

ولو تعقبت معى تاريخ القصور القديمة المتناثرة فى القاهرة منذ عهد إسماعيل، أى منذ مايزيد على مئة عام. أو تعقبت مايبقى منها أو نجا، فقد تتفق معى على هذه الملاحظة العجيبة:

– تتشابه القصور. والسكان يختلفون.

فقد يفرض الطراز المعمارى السائد فى كل عصر تخطيطا وجمالا، وهندسة وذوقا واحدا، مما يجعل العمائر والقصور تتشابه وتتقارب. ولكن البشر غير الحجر!

ومن هنا أجرتنى هواية فقراءة العمارة فى الشوارع على ضرورة قراءة التاريخ.

فالعمارة تكشف أبعاد المكان. ولكن التاريخ يكشف أسرار الأحداث والزمان. وقراءة التاريخ تكشف ما انطوى من سيرة سكان ذلك القصر أو ذاك. وهكذا تضخمت هوايتى حتى قاربت الدراسة، وهى ممتعة. لأنها تكشف لى صلة الزمان بالمكان، والتاريخ بالجغرافيا. فقد لاحظت، مثلا، بعد أن تعقبت البيوت التى «سكن فيها أمير الشعراء أحمد شوقى فى القاهرة، انه تنقل بين أحياء عدة، وكان يسكن، فى البداية، فى حى الناصرية بالقرب من الحلمية الجديدة قرب السيدة زينب، وكان الخديو عباس حلمى قد انشأها. ولما بنى الأمير قصر القبة فى حى المطرية فى أقصى الشمال، بنى الخديوى العمارات بيتا جديدا بالقرب من قصر الأمير، وفى رحابه. ثم لما بنى الخديوى العمارات الضخمة فى شارع عماد الدين فى القاهرة «الأفرنجية». ومازالت العمارات قائمة، اتخذ شوقى له منزلا بالقرب من عمارات الخديوى فى شارع جلال. وهكذا كان مقام أمير الشعراء إلى جوار مقر الأمير دائما، وذلك قبل أن يصبح شوقى أمير الشعر والشعراء، ويتخذ

له قصرا جميلا يطل على النيل، ويرى أيامها القلعة والهرم والنيل معا. وسمى قصره القائم حتى الآن «كرمة ابن هانىء»، تيمنا بالشعر الجميل ووصالا بالشاعر الرقيق ابن هانىء.

ولم يكن انتقال الخديوى إسماعيل بمقر الحكم من القلعة إلى عابدين، وقد استمرت قرونا من الأيوبيين والمماليك والأتراك حتى عهد محمد على، سوى بداية جديدة فى تاريخ القصور.

ومن عابدين بدأت القصور تتناثر غربى قصر عابدين وفى اتجاه النيل غربا. وبنى الخديوى إسماعيل على النيل «قصر النيل». وقد أصبح، بعده ثكنات عسكرية للجيش البريطانى أيام الاحتلال، ثم أصبح معسكرات للجيش المصرى، وأقيمت على أرضه الواسعة جامعة الدول العربية. وكان أمامها، ولايزال، قصر الأمير كمال الدين حسين، ابن السطان حسين، وأول سلطان تولى الحكم أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان الأمير كمال من الأمراء الوطنيين، كما سماهم المؤرخون، لأنه انضم إلى الأمير عمر طوسون المؤرخ الأديب الباحث فى تأييد الحركة الوطنية وثورة ١٩١٩، وتحتل وزارة الخارجية القديمة، ومازالت، قصر الأمير الوطنى كمال الدين حسين.

وفى تلك المساحة الواسعة الشاسعة بين قصر عابدين القائم وقصر النيل القديم، ومن قصر عابدين إلى النيل، اتسعت المساحة لبناء القصور. وفى الوسط كان قصر «البستان» الذى أقام فيه الأمير فؤاد، قبل أن يصبح ملكا حتى عام ١٩٣٦ وقد تحول إلى متحف للعلوم وكان أول مقر للجامعة العربية فى عام ١٩٤٥، ثم عملت به معاول الهدم، لتهدمه ليصبح جراجا متعدد الطبقات! ولم يبق من البستان والقصر الآن إلا اسم شارع البستان! ويطل عليه على بعد أمتار «النادى الخديوى» الذى أصبح نادى محمد على، ثم النادى الدبلوماسى، وكان هذا النادى ملتقى الساسة وكبار رجال الدولة خمسين عاما. ومازالت مكتبته القديمة عامرة، وجدرانه مغطاة بلوحات الرسامين الفرنسيين النادرة والرائعة.

وقد يدهشك أن حى الاسماعيلية من عابدين إلى النيل كاد يحتكر أغلب قصور الأمراء والأميرات والباشوات وكبار رجال الدولة. وكان الحى يسمى حى الدواوين. فقد قامت فيه القصور القديمة، التى قامت فيها وزارات المالية والداخلية والصحة والأشغال العمومية والمعارف والحربية، ويطلق على الحى اسم «لاظوغلى» أيضا، ولم يبق من هذا الاسم الغريب سوى تمثال فى ميدان خلف وزارة الداخلية وأمام وزارة المالية «القديمة».

وكان «لاظوغلى» وزيرا مقربا من محمد على، ويحمل اسم محمد على أيضا.

وكان من المستحيل أن يحمل الرجـلان اسما واحدا. وترك الوزيـر اسمه القديم، محمد على، ليصبح «لاظ أو غلى» نسبة إلى موطنه الأصلى والتركى مدينة «لاظ» !

وفى هذا الحى الذى يتوسطـه، الآن مبنى البرلمان الذى أصبح مجلس الأمة، ثم مجلس الشعب، يقع قصر الأميرة شـويكـار. ولايـزال تحفـة فنيـة معماريـة فى مواجهة البرلمان. وكان مقرا للرئاسة فى أول الثورة. وقد فرضت الوزارات القديمة على دور الصحف القـديمة أن تتخـذ بيـوتها ومطابعهـا بـالقرب منهـا. وفى حى الـدواوين شهدت صحف قـديمة بـدايتهـا ونهايتها، ومنهـا جريـدة «المصرى» و«روزاليـوسف» القـديمـة. و«البـلاغ»و«الصبـاح» و«السيـاسـة»، وكـانت «روزاليوسف» القديمـة خلف قصر شويكار بالقـرب من البرلمان. ومازلت أذكر يوم إعلان الـوحدة بين مصر وسوريا كيف قذفتنى الجماهير المتدفقـة إلى حديقة القصر، أنا والشاعر أحمد عبدالمعطى حجـازى لنسمع إعلان الوحدة من شكرى القوتلى، وكانت أول مرة اسمعه فيهـا، ومن جمال عبدالناصر. وكان حماسا ليس بعده حماس .

وقد ذاعت سيرة الأميرة شويكار سنوات طويلة قبل الثورة، فقد كانت الزوجة الأولى للملك فؤاد. ويبـدو أن العلاقـة بينهما لم تكن سعيدة فـانتهت إلى الطلاق. وحـاول شقيقها اطـلاق الرصـاص عليـه فى النادى الخديـوى. ونجا وأخـرجت رصاصتـان. وبقيت رصاصـة لم يستطع الأطبـاء نزعها لأنها أصابت حنجـرته. وبقى صوت الملك فؤاد مبحوحا سنوات عدة حتى مات !

وقد تتشـابه القصور، ولكـن سكانها يختلفون، لأن قصرا آخـر شهد الأميرة فاطمة إسماعيل، بنت الخديوى، وكانت لها بعد عزل إسماعيل معركة حول تركة الخديـوى. وظن بها كثير من النـاس حب المال والبخل. فإذا بها تتبرع بأكثـر أطيـانها ومجوهـراتها لانشاء الجامعـة المصريـة. ومـازالت كليـة الآداب تحفظ اسمها الآن محفورا على مبناها عرفانا لجميلها وفضلها وحماستها للتعليم .

ولكن اسم الأميرة نـازلى فـاضل غطى على اسم الأميرة شـويكـار والأميرة فاطمـة. وكان قصرها بـالقرب من عابـدين. وكانت ابنـة الأمير مصطفى فاضل شقيق الخديوى إسماعيل. وكـان قصرها صالـونا أدبيا لأن سيـدة القصر كانت تجيـد أربع لغـات، وكـان الخديـوى عبـاس حلمى لا يحبهـا وكـذلك السلطـان عبدالحميد. ولكن صـالونها شهد سعد زغلول وشقيقـه فتحى زغلول. كما شهد قاسم أمين والشيخ الإمام محمد عبده. وقيل إن كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين كان استجابـة لآراء الأميرة. وقد كانت رائعة الجمال. لها حضـور وتأثير. ويقول ستورز، فى كتابه عن مصر أيام الاحتـلال: «إنهـا كانت تحب الحديث سـاعتين

لا تترك لسامعها سوى بضع دقائق» !

وكانت من الجناح الذى مال للانجليز، وكان من ضيوفها اللورد كرومر واللورد كتشنر. ولكن أغرب ماقرأته عنها هو المقال الذى كتبه شيخ الأزهر الأسبق مصطفى عبدالرازق. وكان شيخا جليلا. وتولى وزارة الأوقاف سبع مرات. وقد أجاد الفرنسية وتعلم فى جامعة ليون بعد الأزهر، وترجم كتاب الشيخ محمد عبده إلى الفرنسية. كما كان يلقى المحاضرات عن العربية والإسلام فى جامعة ليون. وقال عنها الشيخ مصطفى عبدالرازق: «إنها تميزت منذ نشأتها بذكاء ودهاء. ربيت على النمط الأوروبى ، وكان أبوها من دعاة الحرية والثائرين فى وجه الاستبداد في تركيا. ثم كانت زوجة للسفير العثمانى فى لندن، فاتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية». وأضاف الشيخ الجليل، فى مقاله عن أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده، الذى أعدت نشره فى الهلال الماسى لمرور ٧٥ عاما على مجلة «الهلال» .

وجمعت إلى ذلك كله جمالا رائعا وبيانا حلوا ولطفا نسويا فنانا، كانت ساحرة النظرات، عذبة الملامح، رشيقة القوام، ناصعة الجبين، ذات ثغر رقيق يفتر عن ابتسامة فيها معنى الألم العميق والسخرية بالألم، ومعنى العزيمة الماضية ومعنى الرجاء لا يصل إليه اليأس .

وهكذا لا تكفى قراءة العمارة والبحث فى الشوارع، لأن قراءة التاريخ، أيضا تكشف أسرار القصور، وما كان يحدث خلف الأسوار .

٤٣

٣ صـــالونات أدبيــة نسائيــة

عرفت القاهرة موضة الصالونات الأدبية مبكرا .

وبدأت الصالونات الأدبية فى القصور الكبيرة، وكانت تقتصر فى البداية على الرجال. لأن الحريم فى الحرملك والرجال فى السلاملك، ولكن ظاهرة الصالونات الأدبية النسائية انتشرت بعد ثورة ١٩١٩. وبعد مظاهرة النساء، حين نزلت المرأة إلى الشارع لأول مرة، فى أول مظاهرة نسائية لتأييد الرجال، وقادتها هدى هانم شعراوى، وكانت هدى هانم ابنة باشا، وزوجة باشا، وكان الأب محمد سلطان باشا أغنى أغنياء الصعيد، والزوج ابن عمها، على شعراوى باشا الذى ترأس الوفد المصرى قبل الزعيم سعد زغلول.

وكان نصيب المرأة من أرباح ثورة ١٩١٩ هو رفع الحجاب أثناء المظاهرات، ثم بعدها، لمن شاءت بعد ذلك رفع الحجاب. وكان كتاب قاسم «تحرير المرأة»، وجريدته «السفور» يعبر عن مولد الحركة النسائية التى ولدت مع الثورة. وكأن ثورة ١٩١٩ كانت ثورتين: ثورة على الاحتلال، وثورة على الرجال

لكن كتاب «تحرير المرأة» نفسه ولد فى صالون أدبى كان كل جمهوره من الرجال، لأن المرأة الوحيدة فيه كانت الأميرة نازلى فاضل، وهى ابنة الأمير مصطفى فاضل شقيق الخديو إسماعيل. وقد عرف الصالون فى القاهرة كلها باسم صالون نازلى فاضل أو صالون الأميرة. وقد نفى أبوها الأمير مصطفى فاضل إلى تركيا، وعاش فيها الأمير المنفى، ولكنه كان يميل إلى حركة «تركيا الفتاة»، وكان بينه وبين السلطان عبدالحميد آخر السلاطين جفوة وجفاء.

وعاشت الأميرة نازلى فاضل فى قصرها قرب عابدين، وكانت العلاقة مع الخديوى عباس حلمى تتأرجح بين البرود والحرارة. واستطاعت الأميرة الجميلة الذكية أن تلعب دورا كبيرا فى صالونها الأدبى. وكانت مثقفة على الطريقة الأفرنجية، أى «ألافرانكا»، التى كانت تختلف عن الطريقة العثمانية أو «آلا توركا».

وكانت الأميرة الجميلة تجيد لغات عدة، وتتحدث فى حياتها اليومية بالتركية والقليل من العربية. وتجيد الفرنسية، وتفضل الحديث بالإنجليزية، لأنها كانت

تستضيف فى صـالـونها اللـورد كرومـر، واللـورد ألـدون جورست، ثم اللورد كتشنر.

وقد تـرك لنا «ستورز» المستشـار الشرقى فى السفارة البريطانيـة صفحات مليئة بالـذكريات عن صالـون نازلى فاضل. وهو يظن أن وزيـر المعارف وقتها سعد زغلول بـدأ يتعلم الفرنسية بتحريض ذكى لطيف مـن الأميرة نـازلى فاضل. وقد تعلمهـا على كبر. وكان سعد زغلول وزيـرا رزينا فى وزارة بطرس غـالى الذى كانت الأميرة تكرهه بعنف.

ويعتقد الشيخ مصطفى عبدالرازق الذى تولى وزارة الأوقاف تسـع مرات، ثم أصبح شيخ الجامع الأزهر، وهو البـاشـا الوحيد فى تاريخ الباشـوية الذى تنازل عن لقبـه عند اعتـلائه منصب الشيخ الأكبر، إن الإمـام محمد عبـده تأثر أيضـا بتردده على صالون نـازلى فاضل. ويظن مصطفى عبدالـرازق أن أسلوب محمد عبده فى الكتـابة تـأثر بالمنـاقشات فى الصـالون الأدبى، وأصبـح أكثر سـلاسة وبساطة كما أصابه شىء من روح الفكاهة.

وكان صـالون نازلى فاضل يستضيـف عددا من القانونيين ورجـال محكمة الاستئناف. فقد كان سعد زغلول ومحمد عبده أيضا وقاسم أمين وفتحى زغلول شقيق سعد من مستشـارى محكمة الاستئنـاف. وكان سعد زغلـو ل على كفاءة كبيرة، رزينـا فى التعبير عن عواطفـه، بينما كـان شقيقه فتحى زغلـو ل يتمنى أن يصبح وزيرا مثل أخيه، ولكنه ظل «مشتاقـا» إلى الوزارة ولم ينلها، رغم انه ترجم كتاب ديمولان «سر تقدم الإنجليز فى بلادهم»!

وقد تزوج سعـد من صفية فهمى ابنة رئيس الوزراء مصطفـى باشا فهمى. وقـد ترأس الـوزارة ١٣ سنة متصلـة. وقد سمعت روايتين مختلفتين عن قصـة زواج سعد من صفية. واحدة من الأديـب فتحى رضوان، المحامى الشهير والذى أصبح أول وزيـر لـلإرشاد بعـد الثورة المصرية. ولأنـه كـان من زعماء الحزب الوطنى المخلصين وخصـوم الوفد التقليـديين، فقد قدح فى سعد زغلـول وزواجه من صفية هانم ابنة مصطفى بـاشا فهمى. وقد روى لى فتحى رضوان القصة فى بيته بمصر الجديدة الذى لم ينتقل منه منذ كان محاميا. وروى لى حـافظ محمود، نقيب الصحفيين الأسبق قصة تختلف، لأنـه عاصرها صحفيا من حـزب آخر هو حزب الأحـرار الدستوريين. وقـال لى حافظ محمود إن الأميرة نـازلى فاضل هى التى أوحت لسعـد بالـزواج من صفية حين تحدثت إليـه عن المعجبين به وكـانوا كثيرين من الرجال والنسـاء. والتقط سعد زغلـول بداية الخيط من حديث الأميرة. وقـال لى حـافـظ محمـود إن صفيـة كـانت تحمـل أجمل لقب فى مصر وهـو «أم

المصريين». وروى لى قصة هذا اللقب الذى خلعه عليها المتظاهرون بعد نفى سعد زغلول أثناء الثورة.

فقد وصل ضابط بريطانى مع ثلاثة من الجنود المسلحين إلى بيت الأمة لاعتقال سعد وكان «اللورى» ينتظر على الباب.

ونزل سعد إلى الباب فنزلت وراءه صفية زغلول، وصممت على أن تصحبه. فأمرها سعد ان تعود إلى البيت. فقالت صفية:

– لولا أمرك أنت لما رجعت.

وحين عاد سعد زغلول من المنفى بعد عامين فى إبريل (نيسان) ١٩٢٣، روى سعد زغلول فى أول خطبة أمام الجماهير تفاصيل القبض عليه وماقالته زوجته، وكان فى عينيه ما يشبه الدموع.

وهتفت الجماهير المحتشدة والمحتفلة بعودته:

– تحيا أم المصريين.

ولازمها هذا اللقب الجميل طوال حياتها وبعد وفاة سعد زغلول عام ١٩٢٧. وكما أثر صالون نازلى فاضل فى الحركة الفكرية فى الربع الأول من القرن، أصبح صالون هدى شعراوى أثناء الثورة، وبعدها، صالونا نسائيا بحتا. ولم يكن يتردد عليه من الرجال غير القليل. ومنهم إبراهيم الهلباوى، أشهر المحامين فى عصره، وكان محاميا عن هدى شعراوى، وكانت هدى تتحدث بالعربية فى مصر، والفرنسية فى الخارج. وقد نشأت عن هذا الصالون الحركة النسائية، لأن أم المصريين وزوجة سعد أصبحت رئيسة شرف لجنة الوفد النسائية، وهدى شعراوى الرئيس الفعلية: وكان الصالون الأدبى يستمع إلى الأديبة مى زيادة، ولبيبة هاشم صاحبة مجلة «فتاة الشرق»، وباحثة البادية ملك ناصف.

وتوقف الصالون الأدبى والفكرى، عن الكلام إلى العمل، لاهتمام هدى شعراوى بإنشاء مدارس تعليم البنات. وكانت المدرسة الأولى فى شبرا، ثم مبرة محمد على فى شارع البرامونى بالقرب من مدرسة القضاء الشرعى فى عابدين.

وكانت الثمرة الثانية لثورة ١٩١٩ هى السعى لتعليم البنات وإنشاء المدارس، ثم الجمعيات الخيرية، ولايزال بعض آثارها قائما فى القاهرة حتى الآن قرب مستشفى قصر العينى.

وهكذا كان الصالون النسائى الأول فى مطلع القرن صالونا تقوده الأميرة نازلى، وكانت المرأة الوحيدة فيه، لينشأ الصالون الثانى وكان نسائيا فى أغلبه، وهو صالون هدى شعراوى حتى انشأت الأديبة مى زيادة صالونها الأدبى فى بيت أبيها ١٩ شارع أبوالسباع، أو عدلى الآن. وشهد هذا الصالون أغلب أدباء

عصرها. لطفى السيـد على القمة، وقد صـحـب تلميذه طه حسين إليهـا. ومنصور فهمى رئيس دار الكتب. ومصطفى صـادق الـرافعى الأديب، ثم عباس محمـود العقاد، وحافظ إبراهيم وخليل مطران. وكان الصـالون ينعقد يوم الثلاثاء من كل اسبوع. وقد أحبها كل الأدبـاء ولم تحب أحدا سوى جبران خليل جبران. ولم يكن الشاعر الكبير والـرسام الموهوب فى القاهرة، وابتكـرا معا حبا من نوع جـديد هو الحب.. بالمراسلة.

فقد كانت مى خجولا فى الحديث جريئة عند الكتابة فى رومانسية جميلة.

واستطـاعت مى زيـادة أن تطاول أدبـاء وشعـراء القمة لثقـافتهـا العربيـة الفصيحة، لأنه درست فى الجامعة المصريـة، وزاملت الأديب زكى مبارك، وكانت تتقن لغات عـدة، بل كانت تكتب بالفرنسيـة أيضا شعرا ونثرا. وتميـز صالونها بالتجديد، وكان صورة لمصر التى تنتقل بعـد الثورة من الخاصة إلى العامة، ومن الباشوات إلى الأفندية.

وبينما كانت نازلى تجمع اللـوردات والباشوات فى صالـونها، اتسع صالون مى زيادة لأصحاب المواهب من الـدكاترة والأدباء والشعـراء. وكان الانتقال من كلمة السلطان إلى سلطان الكلمة انتقالا طبيعيا بعد الثورة الوطنية عام ١٩١٩.

٤٤

حبيبة الأدباء

أصبحت الأديبة الشاعرة مي زيادة حبيبة الأدباء فى القاهرة، وحتى أمير الشعراء أحمد شوقى قال فيها شعرا. وكان الأمير كعادته لايترك مناسبة وطنية أو عاطفية إلا ويقول فيها شعرا، وأحبها عباس محمود العقاد حبا متكبرا وفاشلا. ولم يكتشف مبكرا ان عقدة الكبرياء ستكون سببا فى فشل غرامياته اللاحقة. فقد أحب مرتين بعد مى، وعوض هزيمته بقصائد الشعر أو رواية «سارة». ووصف طه حسين مى، حين أخذه أستاذه وأستاذها لطفى السيد إلى صالونها. وكان الشيخ قد ودع الأزهر ودخل الجامعة الجديدة وحصل على الدكتوراه عن أبى العلاء المعرى، قبل ان يغادر القاهرة إلى تولوز ثم السوربون. وجن بها الأديب مصطفى صادق الرافعى، وأراد ان يقلد فى حبها مجنون ليلى على الطريقة الكلاسيكية القديمة، حيث كان يظن ان الحب لايصبح رائعا إلا بالعنف وباصطناع الشوق حتى الجنون.

وأصبح صالون مى الأدبى عصر الثلاثاء من كل أسبوع ملتقى الأدباء والمفكرين فى بيت أبيها ١٩ شارع أبوالسباع، أو شارع عدلى الآن.. على مقربة من سينما مترو وسينما ميامى بعد ذلك. وكان الشيخ طه حسين خبير الأصوات، وأجمل من وصف الأصوات النسائية وكل الأصوات، وهو الذى اختار عناوين بعض كتبه من وحى الأصوات، مثل «دعاء الكروان»، و«صوت باريس». وهو الذى وصف أيضا صوتا نسائيا ناعما قائلا: كان صوتها مثل « مس الحرير على الحرير»، ولم يفته طبعا صوت مى حين سمعها أول مرة فى حفل تكريم الشاعر مطران خليل مطران:

«لم يرض الفتى عن شىء مما سمع إلا صوتا واحدا سمعه، كان الصوت نحيلا ضئيلا و، وكان عذبا رائعا، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ إلى القلب كان صوت مى».

ولعل مى كانت من القلائل التى كشفت عن وجهها، وقصت شعرها الأسود الطويل على موضة «ألا جارسون» المنتشرة فى أوروبا فى العشرينات. وكان الجمهور يراها ويسمعها فى محاضراتها الأدبية، ولكن منصور باشا فهمى، مدير دار الكتب، كان أدق من وصفها قائلا:

«كانت فتاة ربعة بضة، وجهها الصبيح أقرب إلى الاستدارة، تقاسيم مليحة، عيناها دعجاوان واسعتان.. يشع منهما بريق الذكاء، ويعلوهما حاجبان يمتد كلاهما، عريضا أسود من أول العين إلى آخرها، في تقوس منسجم دون أن يتقاربا، من أعلى أنف أزلف جميل، وفمها يزدان بشفتين رقيقتين لا تمتدان فى خديها الريانين إلا بما لا يتجاوز قليلا نهاية الأنف. أسنانها بيضاء فيها فلج، وفى الغالب لا تفارقها الابتسامة. شعرها أسود فاحم لامع.

وقد تقترن أحاديثها بحركات ناعمة متواصلة عند رأسها وجيدها، فتبدو هذه الحركات الخفيفة كأنها نبرات من الضحك الهادئ ينسجم مع البسمات المتواصلة الرشيقة تزيدها ظرفا وتكسبها لعوبية وسحرا».

ولكن مى لم تكن جميلة وذكية فقط، بل كانت اصدق من وصفت نفسها فى خطاب إلى إحدى صديقاتها، حين قالت عن نفسها:

« وجد وشوق وجوع فكرى لايكتفى، وعطش روحى لايرتوى، يرافق ذلك استعداد كبير للطرب والسرور، واستعداد أكبر للشجن والألم».

ولهذا ظل صالون مى الأدبى قبلة الأدباء فى ذلك العصر. وكان أكثر المنتظمين على ندوة الثلاثاء طه حسين ولطفى السيد والعقاد والزيات ومنصور فهمى ومصطفى عبدالرازق وخليل مطران.

ووصف العقاد صالونها الذى استمر نحو عشرين عاما قائلا:

«كنا نحو ثلاثين كاتبا وأدبيا ووزيرا، اجتمعنا فى بيت مى للاحتفال بالعيد الخمسين لمجلة المقتطف سنة ١٩٢٦. وكان اجتماع هذا المجلس عند مى إبان المناسبات السياسية التى وصلت إلى حد التقاطع. وقضينا عندها ساعتين نسينا فيها ان فى البلد اضرابا أو منازعات، وذلك بفضل براعتها فى التوفيق بين الاراء والأمزجة، وقدرتها على توجيه الحديث إلى أبعد الموضوعات عن الخلاف. وما أحسب ان أحدا غير مى قد استطاع الذى استطاعته فى تلك الأيام».

وقال طه حسين: «كان الرجال والنساء فى صالونها يتحدثون بلغات مختلفة. وربما استمعوا القصيدة تنشد، أو مقالة تقرأ، أو قطعة موسيقية تعزف، أو أغنية تنفذ إلى القلوب».

وقال العقاد أيام رضائه: «لو جمعت الأحاديث التى دارت فى ندوة مى لتألفت مكتبة عصرية تقابل مكتبة «العقد الفريد» ومكتبة «الأغانى» فى الثقافة الأندلسية والعباسية».

وهكذا كان صالون مى الأدبى رائدا فى الحياة الأدبية والثقافية، لأن صاحبته كانت شاعرة وأديبة وخطيبة، وتعرف دور الصالونات النسائية، لأنها كانت

تكتب عن صالونات باريس، وخصوصا الماركيزة دى سفينييه. وكانت ثقافتها الواسعة والعميقة أيضا تدرك أسرار الأدب الفرنسى والإنجليزى والألمانى معا، لأنها كانت تكتب بالفرنسية باسم مستعار هو إيزيس كوبيا، وبدأت على استحياء بالعربية باسم مستعار هو «خالد رأفت»، وحين تأكدت من تأثيرها اختارت اسم «مى» وهو اسم الدلع لاسمها الأصلى «مارى».

ومن يقرأ الآن كتبها ومقالاتها ومحاضراتها وخطاباتها، بعد أكثر من خمسين عاما، يذهل من اتساع ثقافتها باللغات المختلفة، ويذهل أكثر من اهتمامها بالفنون والعمارة والموسيقى، لأنها كانت أيضا تغنى كما يروى طه حسين. ويذهل لأنها كتبت فى الهلال والمقتطف، مقالات طويلة أقرب إلى الأبحاث، عن الفيلسوف بروجسون حين زار القاهرة عام ١٩١٨، وعن المذاهب الفكرية مثل الفوضوية بل العدمية، وهى تعرض لأفكار الاشتراكيين الأوائل، فى كتابها «المساواة» واهتمت بالدفاع عن تحرير المرأة وأخرجت كتابا عن باحثة البادية الأديبة ملك حفنى ناصف، والشاعرة عائشة أو عصمت التيمورية. وبلغت شأنا ونفوذا حتى أصبحت الأهرام تنشر مقالاتها فى الصفحة الأولى.

وبقدر ثقافتها الغربية الواسعة، حرصت ان تتعلم وتجيد العربية، واعتنى بها لطفى السيد حتى التحقت بالجامعة المصرية القديمة فى دفعة زكى مبارك. وبقدر اتساع ثقافتها، دافعت عن الموسيقى الشرقية، والعربية الفصحى ضد دعاوى الكتابة بالعامية. وكانت حياتها فى قوة أدبها، لأنها ولدت من أب لبنانى. وأم فلسطينية، وعاشت فى مصر، وكما قالت: «ولدت فى بلد، وأبى من بلد، وأمى من بلد، وسكنى فى بلد، وأشباح نفسى تنتقل من بلد إلى بلد».

واختارت الأديبة الشعر والأدب والفن، واشتهرت على كثرة الرجال من حولها بالعفة واللطف. لأنها احبت واخلصت لشاعر واحد كان رساما وشاعرا موهوبا هو جبران خليل جبران. وكان جبران من شعراء المهجر، وابتدعت معه فنا جديدا فى الأدب هو أدب الرسائل. ومن يقرأ رسائلهما يكتشف تبادل الاعترافات.. حين يقول لها جبران: انا بركان صغير.. سدت فوهته. وحين تقول له مى:

اعتذر عن عدم الزواج

ومع ذلك استمرت الرسائل الأدبية الجميلة، لأن مى ابتدعت أيضا نوعا جديدا من الحب، هو الحب.. بالمراسلة.

٤٥

المــــوت شــــوقا

لم تكن قصيرة ولم تكن طويلة. وكان قوامها نحيلا يريد ان يمتلىء وسمينا يـريد أن ينحل. هكـذا وصـف الشـاعر كامل الشنـاوى الشاعرة الأديبة «مى» فى صالونها عصر الثـلاثاء وسط القـاهرة، ولا يـوجـد أديب فى مصر لم يصف ملامح مى.. من طـه حسين إلى سلامة موسى، ومن العقـاد إلى مصطفى صادق الرافعى، ومن المازنى إلى خليل مطران. وتستطيع أن تتخيل تأثير مى فى رجال عديدين حولها. ويبدو أن براعـة سيدة الصالـون الأدبى أنها كانت تستطيع أن تشعـر كل رجل حولها على اختلاف العمـر أو الثقافـة أنه رجلهـا. وكانت مليحـة، تمزج اللطف بـالحشمة، وتلطف الجو بـاللطف وبـراعـة الحديث. وكـان يكفى أن تبتسم مى عن أسنـان بيضاء مفلـوجة تتلألأ بـروحها الرقيقة الشـاعرية. وكـانت عيناها الـواسعتان العميقتـان تشعان بـالحضـور والجاذبية فيهما مـزيج من العـذوبة والعـذاب. وتشف تلك العـذوبة عن عـذاب روحى لاتكشف عن أسرارد وأسبابـه بسهولـة. ولكن المعجزة لم تكن فى العينين الجميلتين فقط. وينـدر أن يكتمل الجمال فى وجه صبيح بـروعـة انحنـاء الحاجبين فـوق العينين كما يتسق فى وجـه «مى» كـان حاجبـاها هـلالين مسترسلين بامتلاء ورقـة. والمسافـة بينهما منضبطة، وحتى حين قصت «مى» شعـرهـا الأسود الفـاحم «ألا جـارسـون» على آخر صيحـات الموضة الأوروبية فى العشرينات، ظل، الحاجـب الهلالى والعين الجياشة والشعر الفاحم ثلاثيا كاللحن الجميل والنادر ينطق ويشع بجمالها الفصيح.

كـان جسمها وكسمهـا ووجههـا مقدمـة مـوسيقية. لأن مـن يراهـا غير من يسمعها. مضيفـة فى الصالـون أو خطيبة فى المنتديـات. تكشف عن ثقافـة غنية غذتها روح هائمة، وموهبة موسيقية، ومقـدرة غنائية وشغف لايستقر بالمعرفة. ومن يصـدق أن هذه الفتـاة المهاجـرة إلى القاهـرة كانت تمتلك خمس لغـات غير العربية. وكانت تجمع بين المتنبى والمعـرى وشكسبير وبايرون. وقد طلبت العلم فى الجامعة المصرية وكانت فى دفعة زكى مبارك. وعلمت نفسها العربية. لأنها كما انتقـدت نفسها، وكما قـالت لأستاذهـا يعقوب صروف رئيس تحريـر «المقطم»، كانت تفكر فى بدايتها بالفرنسية. ثم ملكت العربية شعرا ونثرا. وأبحرت فى الأدب والفن حتى وصلت إلى أعالى البحـار. ومن يقرأ الآن إحـدى مقالاتها فى «المقتطف» أو «الهلال» يذهل من أعماق ثقافتهـا الموسوعية. فهى تتحدث عن صـالون مدام «دسيفينيـه» الباريسيـة. وتكتب عن «بيرجسـون»، وتدافع عن الفصحى ضـد

دعوة الكتابة بالعامية، وتنصف الموسيقى الشرقية، وتتحدث عن حرية المرأة، وتكتب وتخطب، فلا تقلد الذكور ولكنها تبدأ مانسميه الآن «الأدب النسائى» مبكرا، وفى مطلع العشرينات. وأجمل مافى أدب المرأة هو الرقة والايقاع. ولهذا تمتلىء عباراتها بالايقاع الداخلى الموسيقى واللطف الذى يشف، ويندر أن تجد فى نثرها كلمة «ثقيلة» الوزن. وموهبة الايقاع فى الحركات واللفتات والحديث والكتابة لايملكها غير الشعراء.

وقد كانت مى شاعرة بالفرنسية والإنجليزية والعربية. وفى نثرها الجميل الإيقاع السرى للشعر والموسيقى. وقد روى طه حسين أنه كان يسمعها وهى تغنى عندما ينفض الصالون ولايبقى فيه غير الأصفياء. ولهذا تعلق العقاد بها لأنهما تعلقا بالشعر والنثر معا. وكان العقاد يراسلها شعرا، وترد عليه. وطلب العقاد أن يقابلها فى غير أيام الصالون. وكانا يتجولان ـ كما قالت ـ فى حوارى مصر الجديدة التى يحب العقاد المشى فيها. وقد تأججت العاطفة بينهما حين سافر إلى لبنان، وحين سافرت إلى ألمانيا وفرنسا. وحين يحب شاعر شاعرة لاتتأجج العاطفة إلا مع البعد. وأجمل خطابات مى كانت مع شاعرين هما العقاد وجبران خليل جبران. وقد هجرت الأستاذ الكبير حين ردت عليه فى التليفون بعد عودته «سارة» التى كتب عنها روايته الوحيدة. ويروى العقاد أن مى زارته بعدها فى «البلاغ» ولم تعاتبه سوى بدمعتين. وانتهت القصة بينهما إلى بدايتها، وهو الاعجاب المتبادل والصداقة الروحية. وعلى قدر ما أحاط رجال كثيرون بهذه السيدة الجميلة الذكية تعددت قصص الحب الأفلاطونى أو الحب من طرف واحد. وقد ذكرت مى للعقاد فى أحد خطاباتها أنها كانت مولعة أن يحيط بها المعجبون، وكأنها لاتريد من الرجال غير ومض العيون حتى تتسع، وترى صورتها تنعكس على عيون الرجال .. وهكذا أصبحت مى ذخيرة حية لكل الأدباء والشعراء فى عصرها. فهى المرأة الوحيدة التى تجرأت أن تقيم صالونا أدبيا. وكان صالونها ديمقراطيا كما قال طه حسين. وأضافت إلى ضيوفها هواوينى أجمل خطاط بالعربية. لأنها كانت مولعة بالخط العربى، وكان خطها جميلا حتى ظن المازنى أنه مدعو إلى حفلة رسمية وأن الدعوة مكتوبة بخط يشبه رقاع الدعوة الحكومية.

وكان أعنف وأصدق من أحبها هو الأديب مصطفى الرافعى. وقد كتب من وحيها «أوراق الورد». ولعله من وحى ديوانها بالفرنسية «أحلام الورد». وكان الرافعى وقتها موظفا فى محكمة طنطا. وكان حريصا أن يحضر من طنطا إلى القاهرة كل ثلاثاء فى صالونها. ولم يكن يسعفه الوقت من محطة مصر إلى الصالون، أو يستطيع الصبر لشىء من الأناقة. وذات ثلاثاء حضر الرافعى ببدلة جديدة. ولم تفت شاعر النيل حافظ إبراهيم ظاهرة الحلة الجديدة التى تقمش

بها أديبنا العاطفي. وكان حافظ ابن نكتة، وتضاحك مع الرافعي، سائلا:

- امال فين التراب يا صادق!

ولكن قصة حب مصطفى صادق الرافعي على عنفها اشتعلت وانطفأت، وانتهت كما بدأت، وهكذا أحبها الجميع ولم تحب أحدا أو أحبتهم جميعا. وتلاعبت بالغيرة لاثارة الاعجاب. لأنها أحبت وأخلصت للشاعر الرسام جبران خليل جبران مع أنه يعيش في بوسطن أو نيويورك وهي تعيش في القاهرة. ولايوجد في أدب المراسلات مثل تلك الرسائل المتبادلة بين جبران ومي طوال عشرين عاما. ولم يتقابلا. ولكنه استحضر صورتها ورسمها وأرسلها إليها. وقد كشفت عن حبها لجبران للعقاد نفسه. وكان العقاد لايميل إلى جبران ولا إلى شعره. وكتبت للعقاد: «.. لاتحسب انني اتهمك بالغيرة من جبران. فإنه في نيويورك لم يرني. ولعله لن يراني. كما انني لم أره إلا في تلك الصورة التي تنشرها الصحف. ولكن طبيعة الأنثى يلذ لها أن يتغاير فيها الرجال، وتشعر بالزهو حين تراهم يتنافسون عليها!».

وقد أعجبت مي بجبران. وبقدر بعده عنها اقتربت منه. وقد لايعرف القرب إلا من ابتعد. واتصل الوصال الأدبي بين الأديبين سنوات طويلة. وعرض عليها الزواج. ولكن جبران كان فلتة أدبية فنية لاتتكرر. وقد بدأ رساما مهاجرا. وذهب إلى باريس ليسكن شارع مين في حي «مونبارناس» حي الرسامين المجددين مثل «موديلياني» و«سوتين». وأحب جبران رسوم دافنشي وشاعريته. وعشق نحت «رودان». ولكنه كان يبحث عن لغة الوجوه والأيدي عند الرسامين. ولذلك عشق «كاريير» لأنه «فهم الشخصية الإنسانية في عمقها، وتألم كثيرا، وعرف سحر الألم. وفهم أن الدموع تكسب كل شيء لمعانا». وفي باريس أكمل موهبته البصرية «فقد كنت أفهم الناس والأشياء بحاسة سمعي، وكان الصوت هو أول من يبلغ نفسي. والآن ابتدأت أفهم الأشياء والناس بعيني. ويبدو أن ذاكرتي تحفظ أشكال الأشخاص والأشياء وألوانها».

وفي الخطابات المتبادلة بينهما كشفت مي أسرارها ودقائق مشاعرها، لأنها كانت خجولة في الحديث جريئة عند الكتابة. والغريب أن جبران تنازعته امرأتان هما مي، وماري الأمريكية التي كانت تكبره، وساعدته حتى أصاب شهرة في الرسم والكتابة. ولم يتزوج جبران مي أو ماري. وقد يكتفي الشعراء من الحب بالشوق.. ومن بعيد.

٤٦

أول مظاهرة نسائية

للمظاهرات تاريخ فى مصر منذ بداية القرن.

وقد عرفت شوارع القاهرة المظاهرات الصاخبة والعنيفة، ولم تقتصر المظاهرات على الرجال فقط، بل كانت هناك أيضا مظاهرات نسائية، ولم تظهر مظاهرات المرأة إلا فى ثورة ١٩١٩ مع أول مظاهرة نسائية قادتها هدى شعراوى زعيمة الحركة النسائية.

وبين مظاهرات القاهرة مظاهرات شهيرة فى الحركة الوطنية، واشهرها مظاهرة ١٩٠٨ احتجاجا على قرار جيش الاحتلال البريطانى القيام باستعراض عسكرى فى ميدان عابدين واعتبر المصريون قرار استعراض الجنود الانجليز بأسلحتهم فى ميدان عابدين اهانة للمشاعر الوطنية،فردوا عليه بمظاهرة وطنية صاخبة. ومن أشهر المظاهرات فى العام التالى (١٩٠٩) مظاهرات أواخر مارس (آذار) وبداية ابريل (نيسان)، واستمرت اربعة أيام، احتجاجا على قرار الاحتلال بإعادة قانون المطبوعات الذي يقيد حرية الصحافة. وقاد هذه المظاهرات الصحفى أحمد حلمى، رئيس تحرير «اللواء» السابق ورئيس تحرير «القطر المصرى» وجد صلاح جاهين الشاعر.

وبدأت مظاهرات حرية الصحافة من ميدان حديقة الأندلس الذى أصبح بعد ذلك ميدان سعد زغلول، وأقيم فيه تمثال الزعيم الوطنى الذى نحته المثال محمود مختار، وأقيم عند مدخل كوبرى قصر النيل بالجزيرة. وقد توجهت تلك المظاهرات إلى قصر عابدين، وردها البوليس فتحولت إلى ميدان الأوبرا، وضمت عشرة آلاف غاضب، وتوالى فيها الصحفى أحمد حلمى والشاعر محمود نظيم على الخطابة.. ثم السجن.

وعادت المظاهرات فى نفس العام (١٩٠٩) احتفالا بالذكرى الأولى لوفاة مصطفى كامل، وتجددت عام ١٩١٠ احتجاجا على مد امتياز قناة السويس أيام اللورد كرومر وبطرس باشا غالى رئيس الوزراء حينذاك. وجاءت الحرب العالمية ١٩١٤ بالكرباج والاحكام العرفية وفرض الحماية، ثم تقييد الاجتماعات ومنع المظاهرات وبلغ الاحتلال العسكرى قمة العنفوان والغطرسة.. فكانت ثورة ١٩١٩.

وبدأت الشرارة بمظاهرة لطلبة المدارس العليا فى الجيزة، وعبرت النيل إلى

القصر العينى حيث مدرسة التجارة العليا. واتسعت إلى حى السيدة زينب الشعبى. وفى اليوم التالى تجمع الغاضبون فى الجامع الأزهر الذى اصبح مخزن الغضب وملتقى الخطباء، ثم اصبح مسجد آخر هو مسجد ابن طولون الاحتياطى الاستراتيجى. وحين حاصرت قوات الاحتلال مسجد الأزهر فوجىء الانجليز بمسجد آخر لم يتوقعوه.

وتواصل حى الأزهر بالسيدة زينب بالقلعة، وتشابكت المظاهرات فى كل شوارع القاهرة لأن الثورة كانت قد تفجرت وتحركت ولا يستطيع الاحتلال وقفها وحصارها.

وأيامها كانت قوات الاحتلال العسكرى تعسكر على النيل وفى القلعة. ولكن مقر القيادة العسكرية كان فى فندق سافوى الذى كان يقع فى شارع سليمان باشا (طلعت حرب الآن) فى عمارات بهلر. كان الجنرال مكسويل القائد العسكرى يقود مقاومة المظاهرات، ومن اضخمها بلا شك مظاهرة ١٧ مارس (آذار) ١٩١٩، لأنها ضمت ٥٠ ألفا، واستمرت ثمانى ساعات، وشملت العلماء والقضاة والمعلمين والتجار وأبناء البلد وبدأت من الأزهر إلى الغورية، إلى الحلمية الجديدة، ثم ميدان عابدين والأزهار إلى شارع البستان وقصر الدوبارة حتى قصر العينى، ثم شارع سليمان والمناخ حتى ميدان الأوبرا «القديمة».

واصبحت بعض المقاهى والمحلات العامة تغذى الثورة فأصبحت مقرا لقراءة المنشورات، ومن اشهرها قهوة السلام وقهوة الجندى وقهوة الشيشة بالعتبة الخضراء، ومحلات جروبى فى شارع المناخ (عبدالخالق ثروت الآن) وصولا إلى شارع فؤاد ومقهى ريش الذى اشتهر بعد ذلك بلقاءات المثال محمود مختار والكاتب يحيى حقى وبعده نجيب محفوظ. وأصبحت بعض البيوت محطات للقاء، ومنها بيت عبدالرحمن فهمى بشارع قصر العينى، وفى بدرومه كانت المطبعة.. السرية طبعا. وكان فهمى سكرتير حزب الوفد. وأصبح بيته دار الأدباء عدة سنوات. وكانت بيوت محمود باشا سليمان بشارع الفلكى، ومصطفى القاياتى الصحافى بالسكرية، وأمين الرافعى الصحافى شقيق المؤرخ عبدالرحمن الرافعى، محطات للقاءات والاجتماعات. ولكن أشهر هذه البيوت جميعا كان بيت الأمة أو بيت سعد زغلول بشارع الفلكى.

ومن هذا البيت بدأت أول مظاهرة نسائية ضمت ٣٠٠ سيدة وفتاة يوم الأحد ١٦ مارس (آذار) ١٩١٩. وكان أمام البيت بشارع الفلكى مساحة واسعة تصلح للتجمعات، ويقوم الآن فوقها ضريح سعد زغلول الشهير. وكان على رأس هذه المظاهرة هدى شعراوى، زوجة على شعراوى باشا وابنة عمه. وصفية زغلول،

زوجة الـزعيم التى أطلق عليها لقب أم المصريين، وابنة محمود سـامى البارودى الشاعر والـوزير فى حكومة وثـورة عرابى، والمئات من زوجات وبنـات عديد من عظماء تلك الفترة، وحـاصر الاحتلال المظـاهرة ساعتين لمنعهـا من الـوصول إلى السفارات لتقديم احتجاجها على سفك الدمـاء واطلاق الرصاص على المتظاهرين وعـادت المظاهـرة تحمل الأعـلام المطالبـة بـالاستقلال، وقـد كتبت بـالعربيـة والفرنسية صباح ٢٠ مارس (آذار) ١٩١٩.

وكـان خروج المرأة من البيت إلى الشـارع لتنظيم المظـاهرات حـدثـا جديـدا جـريئا، وكـان الميلاد الحقيقى لتحـرير المرأة ولم تقتصر المظـاهرات على بنـات العائلات أو سليـلات الأسر المعروفة، لأن أول شـهيدة سجلهـا دفتر وفيات قسم الخليفة بحى القلعة كان اسمها السيدة شفيقة أحمد. وكانت جنازتها أول جنازة يسير فيها الرجال مع النسـاء.

وهكذا ولدت الحركة النسـائيـة الجديدة فى أتون الثورة، ودفعت الثمن قبل أن تطـالب بتحريـر المرأة وحقـوقهـا. ومن هذه المظـاهـرة ظهـرت زعيمة الحركـة النسـائيـة هدى شعراوى التى آمنت بأن تحرير المرأة لا يعنى مجرد المشـاركة فى المظاهرات والخروج إلى الشارع بل شـاركت فى إنشاء الجامعة المصرية وأنشأت جـريـدة بـالعـربيـة والفـرنسيـة قبل أن تنشىء الاتحاد النسـائى وتشترك فى المؤتمرات الدولية للمرأة.

وقد روى لى أبى، وكان شابا فى ثـورة ١٩١٩ وكان فى التاسعة عشرة من عمره تفـاصيل لم أقـرأها عـن مظاهـرات هـذه الفترة. وكـان يحكى لى عن خططهم فى التجمع بـالأزهر. والتسرب إلى الحوارى والشـوارع الخلفيـة والجانبية ليكـون اللقـاء الأخير حشودا فى ميـدان الأوبرا. وكـان يحكى لى الطـرائف التى تغيب عن كتب التاريخ ومنهـا أن سـعد زغلول كان من انبغ وأبلغ الخطبـاء وأكثرهـم تأثيرا، وكانت لـه لازمة فى نطق القاف كـافا، وكـانت كلمة الاستقلال على لسـانه فى كل خطاب. وقال لى: إن سعدا كان أول خطيب يفتتح خطبـه، وخاصة بعد عودته من المنفى، بكلمـة «سيداتى وسـاداتى» لأنه أراد أن يعبر عن تقـديره لـدور المرأة فى الثورة منـذ بدأت أول مظـاهرة اجتماعيـة بخروج المرأة إلى الشـارع.. لتعلن عن رأيها وإيمانها بالوطن والحرية.. والاستقلال.

٤٧

اعترافات زعيمة

كانت هدى هانم شعراوى زعيمة الحركة النسائية المصرية منذ ثورة ١٩١٩ حتى عام ١٩٤٧، بنت الباشا وزوجة الباشا. وكان ابوها محمد سلطان باشا من أغنى أغنياء الصعيد، وكان زوجها وابن عمتها على شعراوى باشا أغنى من أبيها. وكان اسم هدى شعراوى فى جيلنا يملأ الصحف مثل أم كلثوم. وكانت الزعيمة تخطب بالعربية فى مصر وبالفرنسية فى الخارج. وكانت تصدر مجلة «المصرية» منذ سبعين عاما بالعربية والفرنسية. وصدرت مجلة «المصرية» لسان حال الاتحاد النسائى المصرى منذ سبعين عاما لأول مرة بعد مجلة «روزاليوسف» بعدة شهور.

وكنت شاغوفا فى صباى بمطالعة الصور وقراءة العيون. وكثيرا ما تحيرت فى وجه هذه السيدة العظيمة، فقد كان جمالها يكسوه الوقار، ولكن حزنا دفينا كان يطل من عينيها.

وكنت احتار كلما رأيت صورتها فى سر هذا الوجه الجميل المضىء الحزين.

ولم ادخل إلى عالم هذه المرأة الخفى واحزانها إلا بعد أن تعرفت إلى حواء ادريس ابنة خال هدى شعراوى. وكانت حواء تنزل منزلة الابنة المتبناة للزعيمة. وكانت تلازمها فى بيتها ونشاطها ورحلاتها. وكانت حواء ادريس على جمال لا يترك ناظره إلا فى ذهول، وكان جمالا مؤكدا متأكدا تحيطه هالة من العفة ثم غلالة من الحزن.

والعفة مع الجمال يوحيان بشىء من الحزن والإباء. ويبدو أن الجمال مهما كان آسرا لا يضمن وحده السعادة للمرأة، لأن حواء ادريس اثناء نشاط الحركة النسائية لم تتزوج. والرجل الوحيد الذى وثقت فيه بعد وفاة هدى هانم خدعها، وكانت قد اعطته قلبها ثم ثروتها فى مشروع مشترك لإنشاء دار للسينما الصيفية فى المنيل، ووقع لها الشريك المرتقب على إيصالات مكتوبة، ولكنه تنكر لها، ومزق الإيصالات أمام عينيها وهى مذهولة. وتقاربت مع حواء ادريس فى محنتها، ولعلها سعت إلى لأن بدل أتعاب المحامين الشبان أقل. لكننا لجأنا معا إلى أمهر وأشهر المحامين الجنائيين فى ذلك الوقت مصطفى مرعى، وصدمها بما لم استطع عليه، لأن القانون ينص على أن أى مبلغ يزيد على عشرة جنيهات لا يثبت

بشهادة الشهود. ومادامت الأوراق تمزقت، فلا أمل فى الشكوى. وتدهورت احوالها المالية، وسكنت فى غرفة صغيرة فى «بنسيون» قديم بشارع قصر النيل. والعجيب أن هذا «البنسيون» يقع فى الشارع نفسه الذى كان يطل عليه قصر هدى شعراوى الذى اقامت فيه حواء ادريس أيام العز والنشاط. وكان القصر يتصدر زاوية الشارع رقم ٢، وقد تحول لعدة سنوات إلى متحف الفن الحديث. وكان هذا القصر آية فى العمارة العربية الاسلامية حين راجت بعد ثورة ١٩١٩ الدعوة إلى الأصالة فى العمارة. وأصبح قصر هدى شعراوى تحفة معمارية لا ينافسها فى نفس الطراز سوى بنك مصر، المقر الرئيسى بشارع عماد الدين. وقد تناثرت بعض هذه التحف العربية فى عمارة معهد الموسيقى العربية، ومقر جمعية الشبان المسلمين بشارع رمسيس. وكان من قبل اسمه شارع عباس لانه يؤدى إلى العباسية، ثم أصبح شارع الملكة نازلى، ثم أصبح لا يحمل سوى اسم الملكة فقط بعد أن غضب الملك فاروق على والدته.

ولا يزال مكان قصر هدى شعراوى بشارع قصر النيل محاطا حتى الآن باللوحات الخشبية، وبعد أربعين عاما، لأن مياه الأرض الجوفية من النيل القريب تعاند أى مشروع لاقامة أى بناء آخر عليه.

وكثيرا ما تجولت فى متحف الفن الحديث. واخذتنى عمارته قبل لوحاته. لكننى لم اكتشف حياة القصر فى حياة صاحبته هدى شعراوى ونزيلته حواء ادريس إلا بعد أن قرأت اخيرا مذكرات هدى شعراوى. وقد ظلت هذه المذكرات الصريحة حبيسة الأدراج، كالوثائق الرسمية، حتى نشرتها أمينة السعيد بعد ربع قرن من وفاة الزعيمة. وتنقلك هذه المذكرات إلى أسرار الزعيمة الخفية، فقد تحدثت عن حياتها العامة والشخصية بصراحة مذهلة. وبأسلوب أدبى نبيل، ومن يقرؤها يكشف خفايا احزانها التى اخفتها فى حياتها العامة.

وبينما تدافع عن زوجها وابن عمتها على باشا شعراوى، ودوره فى ثورة ١٩١٩، لأنه كان وكيل الوفد، ورئيسه أثناء نفى سعد زغلول. فهى تحكى قصة زوجها، وكيف تزوجت وهى فى الثالثة عشرة، وكان زوجها فى سن ابيها، وقد عاد إلى زوجته الأولى وأولاده مع انه تعهد بغير ذلك.

وانفصلت هدى شعراوى عن زوجها سبع سنوات. وكانت سنوات الانفصال هى اخصب سنواتها لأنها قررت أن تجيد العربية حتى توازى اجادتها للتركية والفرنسية وتكشف عن ميولها الفنية والأدبية، وحبها للشعر، فقد ختمت القرآن وهى صغيرة، واكتشفت أن تعليم المرأة هو الحل لإنقاذ المرأة، وكما يقول الشيخ الأديب عبدالعزيز البشرى: «إن تحرير المرأة هو تحرير الرجل من المرأة الجاهلة»

ولذلك آمنت هدى شعراوى بأهمية التعليم، وأعجبت بدعوة قاسم أمين لتحرير المرأة رغم صيحات الغضب أو حتى اللعنات التى نالها صاحب كتاب «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة».

وتكشف هدى شعروای ان الحركة النسائية فى بدايتها لم تكن تطالب برفع الحجاب عن الوجوه، ولكن رفع الحجاب من على العقول. ولذلك كان قاسم أمين سكرتيرا لحركة إنشاء أول جامعة مصرية، لأن الاحتلال كان يدعو إلى الاهتمام بالتعليم الابتدائى بدلا من التعليم الجامعى. ولكن زغلول وقاسم أمين كانا من انصار إنشاء أول جامعة مصرية. وقد تحققت هذه الجامعة بالتبرعات، وكان على رأس المتبرعين الأميرة فاطمة بنت الخديوى اسماعيل، وتبرعت بستة أفدنة واوقفت ستمائة فدان على الجامعة. ولايزال اسمها على مبنى كلية الآداب فى الجيزة، ولكن الجامعة الأولى بدأت عام ١٩٠٨ فى قصر أحمد باشا خيرى مكان الجامعة الأمريكية الآن. واهتمت هدى شعراوى بإنشاء مدارس البنات. وأول مدرسة كانت فى شبرا، ثم انشأت مبرة محمد على بشارع البرامونى بالقرب من مدرسة القضاء الشرعى فى عابدين. وكانت المحاضرات النسائية تلقى فى بيتها أو فى الجامعة المصرية يوم الجمعة من كل أسبوع، أو فى صالة «الجريدة» التى انشأها لطفى السيد، ومن المحاضرات الأديبة مي زيادة ولبيبة هاشم صاحبة مجلة «فتاة الشرق»، وباحثة البادية ملك حفنى ناصف.

وهكذا انتقلت هدى شعراوى من «الحرملك» إلى الشارع، لأن احداث ثورة ١٩١٩ داهمت مصر، وكان لابد من اشتراك المرأة فى طلب الاستقلال. واصبحت زوجة سعد رئيسة شرف لجنة الوفد النسائية، وهدى شعراوى الرئيسة النشيطة التى تجمع التبرعات، وتنظم المظاهرات. وكشفت هدى شعراوى عن عزيمة تعز على بعض الرجال. فقد أخفت احزانها عن الجميع، وكانت لا تبوح بأسرارها إلا حين تختلى إلى نفسها ومذكراتها.

وبعد ربع قرن، قرأت مذكراتها واكتشفتُ ما حيرنى فيما مضى وحين كنت أطالع صورتها، فيأخذنى جمالها الذى يكسوه الوقار، والحزن الدفين والعزيمة والقوة فى عينيها.

٤٨

الأظافر الملونة

أقيم معرض نفرتاري بروما منذ عامين، وكانت له ضجة كبرى، لأن ثلاثة متاحف عالمية شاركت فيه، وأولها متحف تورينو الإيطالى وفيه أكبر مجموعة من التحف الفرعونية فى أوروبا. وهو ثانى متحف فى الاهمية بعد المتحف المصرى بالقاهرة. وتقيم فيه المجموعة الفرعونية التى حصل عليها دروفيتى الذى كان قنصلا فرنسيا فى مصر أيام محمد على.

وقد جاء دروفيتى الإيطالى مع نابليون، ثم بقى فى مصر قنصلا فرنسيا. وبعد سقوط نابليون وحين عاد نهائيا إلى أوروبا لم يذهب لفرنسا ولكنه عاد لوطنه الأصلى: إيطاليا.

وقد انضمت إلى هذه المجموعة المذهلة فى متحف تورينو ومنها تمثال ضخم لرمسيس الثانى، مختارات رائعة ومذهلة أيضا اخذها سكاباريللى أشهر عالم آثار إيطالى. قام باكتشافاته المعروفة فى وادى الملوك ووادى الملكات بالأقصر فى مطلع القرن. وقد شارك فى معرض نفرتارى بروما المتحف البريطانى أيضا. وله شهرة عالمية كبيرة لمجموعاته الفرعونية والآسيوية. وقد يكون أشهر من متحف تورينو، ولكنه لم ينج من السخرية حين قيل وبحق: «ليس فى المتحف البريطانى شيء يمت إلى بريطانيا سوى اسمه». والمتحف البريطانى من أغنى متاحف العالم. وقد أضاف منظمو معرض نفرتارى متحفا ثالثا وهو اللوفر. ولا تكتمل زيارة أى سائح لباريس بل ولا تبدأ إلا بزيارة اللوفر ورؤية برج إيفيل. وهى لا تكتمل تماما الا بزيارة ضاحية فرساى التى كانت عاصمة أيام الثورة الكبرى، وكانت مقرا لاقامة ملوك فرنسا، ومتحف اللوفر نفسه على الضفة اليمنى من نهر السين كان قصرا ملكيا قديما. تحول إلى متحف بعد الثورة بعد أن كان مقرا لنابليون. ومنذ قرنين تتوالى عليه التجديدات والتوسعات. وكان آخرها أيام الرئيس ميتران، حين اقيمت فى فنائه اهرامات زجاجية تتميز بالهندسة العصرية. والغريب أن الذى فاز فى المسابقة كان مهندسا يابانيا.

ولأننى شبعان دائما من التماثيل الفرعونية والمومياوات المصرية توقفت كثيرا عند ادوات الزينة الملكية أيام الملكة نفرتارى. وكانت المفاجأة هى ادوات تصفيف الشعر، والكحل الفرعونى، والروج المستخلص من الزهور الحمراء،

والحناء، وكانت أنواع المرايا مذهلة. لأنها فى احجام مختلفة. واغلبها من العاج والابنوس، ومرصعة بالأحجار الكريمة التى يغلب عليها اللون الأزرق المفضل عند الفراعنة.

وقد تسمرت أمام مرايا الملكة مذهولا من روعة الاتقان. وقلت فى نفسى:

— من حق المرأة شرعا أن تدعى أنها صاحبة حق اختراع المرآة ومنذ آلاف السنين تلازم المرأة. سواء كانت ملكة أو نصف ملكة، أو حتى من عامة الشعب.

وتذكرت زيارتى السابقة لفرساى .. ولأننى كثيرا ما أعتنى بالتفاصيل، تذكرت اننى توقفت كثيرا فى قاعة المرايا فى قصر فرساى وهى صالة هائلة وشاسعة، كانت الاستقبالات الملكية تتم فيها أيام لويس الرابع عشر. وما يلفت فى هذه القاعة الفريدة أن كل شىء تغطى بالمرايا، لتصبح صورة العشرة مائة، والمائة ألفا.. على مدى البصر.

وأيامها أيضا قلت لنفسى:

— يبدو أن لويس الرابع عشر كان نرجسيا وكان يحب أن يرى نفسه ولا يحب أن يرى غير نفسه منعكسا على مئات المرايا.

وبين مرايا الملكة الفرعونية ومرايا الملك الفرنسى تذكرت ما قرأته لشيخنا الطهطاوى فى أول زيارة له فى بعثة دراسية لباريس عام ١٨٢٦. وقد كتب رفاعة الطهطاوى رحلته فى تلخيص الابريز فى وصف باريز وحكى كل ما رأه. لكننى وقفت عند وصفه للأيام الأولى عندما وصل إلى مارسيليا. وقد ذهبت البعثة كلها إلى أوروبا بملابسها الشرقية. لأن البذلة الاوروبية لم تظهر فى مصر إلا فى عهد اسماعيل. ويحكى الطهطاوى انه دخل أحد المقاهى الصاخبة فى مارسيليا، وفى أيامه الأولى، وانعكست صورته بعمامته وملابسه الشرقية الفضفاضة على أحدى المرايا الكبيرة فى المقهى. ويتوقف الطهطاوى كثيرا عند هذا المشهد. وله حق فهى أول مرة يلمح فيها صورته فى المرآة فى أول أيام الغربة. ويستفيض الطهطاوى عند وصف هذه التجربة. لأنه بعد أن رأى صورته، وثبت بصره على صورته، أحس انه يختلف عن الآخرين. معمم بين لابسى القبعات. وبملابسه الفضفاضة بين لابسى البذلات والفساتين. ولم يكن غريبا أنيتفوت على يقظة الطهطاوى مثل هذا المشهد.

— رفاعة والمرآة

وبين مرآة الزينة الملكية عند الملكة نفرتارى، أو مرآة الأبهة عند الملك لويس الرابع عشر بدت لى مرآة الطهطاوى.. انها مرآة البحث عن الذات بين الآخرين. وما قرأت كتابا لكاتب، أو قصيدة لشاعر الا وتخيلت أن الكتابة هى مرآة لمن

يكتب. وكثيرا ما اترك العمل الادبى لأتخيل كاتبه. لأنه مهما بلغ من المكر الفنى فى اخفاء حقيقته، وحتى حين يبتكر بالخيال شخصيات أخرى، إنما يعكس شخصيته وأفكاره ومبادئه وتاريخه وتجاربه. ومتعة القراءة تتضاعف حين تكتشف صورة الكاتب من كتابته. ولا تكفى أن تقابل كاتبا أو حتى أن تعاشره سنين دون أن تقرأ كل ما كتب. لأن الكتابة هى المرآة التى تعكس الحقيقة. وميزة القراءة انك تدرك بها الكاتب قبل أن تقابله. وقد لا تحتاج أو لا تستطيع المقابلة. وحتى ادرك حال المرأة احاول الإلحاق بما تكتب من روايات وقصص. لأن الأدب النسائى أو أدب الاظافر الملونة أو الأدب الذى تكتبه المرأة الآن يختلف عما يكتبه الرجل عن المرأة. وكثرة الكاتبات الآن يفيدنا. لأن ما نكتبه عنها غير ما تكتبه هى عن نفسها. والأدب النسائى مرآة المرأة. وهى المرآة التى تعكس صورتها الحقيقية. لأنها تتحدث عن عالمها الخصوصى الحميم. تبوح فيه بأسرارها حتى دون أن تقصد.

وقد هجم على الأدب القصصى فى مصر الآن عدد كبير من الروائيات وكاتبات القصة القصيرة. وبدأ الأدب النسائى فى مصر فى مطلع القرن مع عائشة التيمورية وملك حفنى ناصف ومى زيادة. ولكنه كان ادبا نسائيا على استحياء. وكانت المرأة تقلد الرجل. وحتى الأسلوب كان فيه تقليد الجزالة والفحولة والبلاغة. ولكننا الآن أمام ثلاثة اجيال من الروائيات، قدمن تجارب جديدة وصورا جديدة لمشاعر المرأة وقضاياها وعالمها. وعشرات من الأسماء المعروفة أو الصاعدة تكتب الآن القصة والرواية، وقراءتها تفيد فى أن يتعرف الرجل على المرأة الجديدة.

وبين نحو ثلاثين كاتبة كتبن الرواية والقصة القصيرة فى مصر تتعاقب ثلاثة أجيال من المرأة الكاتبة. وبين جيل الرائدات: بنت الشاطىء وسهير القلماوى وامينة السعيد وجميلة العلايلى وصوفى عبدالله وجاذبية صدقى ولطيفة الزيات وملك عبدالعزيز، ومن جيل الوسط: زينب صادق وسناء البيسى وفوزية مهران ونوال السعداوى وسكينة فؤاد وحنيفة فتحى وسعاد حلمى واحسان كمال وأليفة رفعت وفتحية العسال وزينب رشدى وهدى جاد وغيرهن. وجيل الوسط أكثر عددا وأوفر انتاجا. ثم يأتى الجيل الشاب والمعاصر، وتمثله سلوى بكر ومنى رجب ومنى حلمى واعتدال عثمان وعائشة أبو النور وسحر توفيق، وغيرهن كثيرات صاعدات.

ومن المثير دراسة صورة الرجل وصورة المرأة فى ادب المرأة مع انتقال الادب نفسه من الرومانسية إلى الواقعية: ولا يعنى انتماء الكاتبة إلى جيل معين انها

تشبه غيرها. إن الرجل عند لطيفة الزيـات يختلف عن الرجل عند جاذبية صدقى. مع أن الكاتبتين من جيل واحد. وتختلف المرأة كذلك فى روايات لطيفة عن روايات جاذبيـة. بل وتختلف صورة العـلاقة بين الـرجل والمرأة فى الأجيال الثـلاثة. وفى الجيل الرائد كانت العلاقة هى الخضـوع، ثم اثار الجيل الثانى قضية «التسلط» بين الـرجل والمرأة وتحدث الجيل الجديد عن عـلاقة «التـوافق». وفى ادب الجيل الأول روح التمرد السلبى أو الشكـوى من ظلم المجتمع وأنانية الـرجل واعتباره المرأة اداة المتعة. وتصـوير المرأة الخاضعـة يتوافـر أكثر عند بنـت الشاطىء فى روايتهـا «الشـاطىء» وعنـد سـهير القلماوى فى «احاديث جـدتى» وعنـد صـوفى عبدالله فى «بقايا رجل» و «نصف امرأة» و «كلهن عيوشة».

وقد تكون ميزة الأدب النسائى أو على الاصح الأدب الذى تكتبه المرأة انه يرد على اتهام الرجل التقليـدى للمرأة، بأن دورهـا التقليدى هو الصمت أو الثـرثرة. وهـذا الأدب الجديـد يحتاج إلى تحليل لنـرى المرأة فى مـرآتها وأدبها حتى نـرى الصـورة ونترك الحقيقة.

٤٩ أدب النســـاء

منذ ربع قرن زاد قلقى على قلبـى. فذهبت إلى باريس إلى مستشفى بـروسـو عنـد أشهـر طبيب قلب. ووضعنى الطبيب فى اختبارين ليقيس قوة قلبى. مرة وأنا أستلقى فى هدوء. وثانيـة وأنا أحرك قدمى على عجلة بعـد مجهود. واغاظنى الطبيب الشهير لأنـه طلب منى أن انتقل بين السريـر والعجلة عـدة مـرات . وهـو لا يتخذ قـرارا. وفجأة سـألنى: ماذا تعمل فى الحيـاة؟ فقلت له اننى صحـافى. فقال: والآن أدركت السبب.

وشرح لى الطبيب سر طلبه بانتقالى عدة مرات بين السرير والعجلة.

قائلا: لقد حيرنى قلبك. كان يبدو مضطربا على الشاشة حين تنام على السرير وتعتدل نبضاته وتنضبط وأنت تبذل مجهودا كبيرا.

ونصحنى الطبيب بإلغاء الإجازة ثم العودة إلى العمل فـورا. وقررت أيامها أن تتحول إجازتى المرضية فى باريس إلى خطة عمل.

وكنت مشغوفـا ـ ومازلت ـ بالتجـول والسياحة حتى الصعلكـة فى شوارع باريس لقـراءة العمارة واكتشاف القصـور والبيوت والحدائق والمتـاحف وهذه المرة قررت أن أتعقب تاريـخ المصريين الذين ذهبوا إلى باريس منـذ أكثر من قرن ونصف القـرن، فى طلب العلم أو المتعـة. وكنت قد تـوقفت عنـد أحد المهنـدسين المصريين الذين كـانوا فى أول بعثـة دراسية ذهبت لبـاريس أيام محمـد على عام ١٨٢٦. لدراســة الهندسة مع شيخنا إمـام البعثة رفاعة رافع الطهطـاوى. وكان المهندس محمد مظهر ـ وله الآن شـارع رئيسـى كبير فى قلب الزمالك ـ قد ذهب إلى باريس فى السابعة عشرة.

وكنت قد كتبت عنـه عام ٦٨ عدة مقالات فى الهلال لأنه أصبـح وزيرا للرى فى عهد تـوفيق. وبنى منـارة الاسكندريـة، وشارك فى بنـاء القناطـر الخيرية، حين أصبح كبير المهندسين. وكنت أبحث فى تاريخه لأنه لم يترك شيئا مكتوبا كما فعل أمام البعثـة شيخنا رفاعـة الطهطاوى. وتحولت اجـازتى إلى خطة عمل، استعين فيها بالمراجع والخرائط حتى عثرت على عنـوان أول بيت سكنت فيه البعثة الأولى فى شـارع دى رجـار. ثم شـارع كليشـى. وتفرعت جولاتى فى انحـاء باريس. لاننى

تعقبت محمد مظهر فى مدرسة البولتكنيك (الهندسة العسكرية) . حين كانت فى شارع ديكارت بقلب الحى اللاتينى على بعد أمتار من السوربون والكوليج دى فرانس ومكتبة سان جنفييف والبانتيون مقبرة العظماء. ثم تابعت انتقالات محمد مظهر، لأن الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت كان معيدا فى المدرسة واستاذا لمظهر يدرس له الهندسة الوصفية قبل فصله أثناء ثورة ١٨٣٠ . وكان كونت قد افتتح مدرسة خاصة، مازالت باقية، وأصبحت متحفا فى شارع مسيولى برانس بالحى اللاتينى قرب حديقة لوكسمبورج. ويبدو أن كونت كان يتمنى أن يذيع أفكاره بين أبناء الشرق، لأننى عرفت أن بين تلاميذه من كان تركيا ومن كان مكسيكيا. وتأكدت لى علاقة التلميذ محمد مظهر بالأستاذ أوجست كونت لأننى عثرت فى متحفه على ثلاثة خطابات تاريخها عام ١٨٤٣ ، ويقدم فيها مظهر إلى صديقه الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت ميل، ويصف أوجست كونت التلميذ مظهر «انه كان من انبغ تلاميذه الشرقيين أيام مدرسة البولتكنيك» ولكن الفارق بين عامى ١٨٢٦ و ١٨٤٣ يثبت أن العلاقة استمرت بين التلميذ والأستاذ وان مظهر الذى كان يعود إلى باريس بسبب بناء القناطر الخيرية، كان لا ينسى زيارة أستاذه القديم.

وافادتنى الاجازة المرضية فى سياحة باريس حتى لا اكتفى بالعبور السريع أو سياحة الرحلات المنظمة. واغرانى اننى وأنا اتعقب تاريخ محمد مظهر واوجست كونت اننى انتقلت إلى الضفة اليمنى من نهر السين لأبحث عن كنيسة صغيرة بناها الفيلسوف فوجدتها مغلقة للاصلاحات. ولم استكمل حسرتى لأننى وجدت المكان مغلقا لأننى فى عودتى وجدت أمامى باب قصر قديم. له حوش عتيق لا يزال مبلطا بحجارة القرن الثامن عشر. وعلى الباب هذا العنوان :

— المكتبة التاريخية لمدينة باريس .

وبدلا من دليل المسافر السائح وجدت قصرا فيه آلاف الخرائط والصور والكتب عن باريس بل وجدت بعض الكتب التى تشبه القواميس. ومنها تعرفت أين أقام العلماء والكتاب والأدباء والفنانون. ويحدد الأعوام التى عاشها كل منهم والكتب التى ألفها فى ذلك البيت.

وزادتنى المكتبة التى اعتدت عليها كلما زرت باريس على متابعة مشروعى لاكتشاف البيوت التى اقام فيها المصريون. وعرفت بعد ذلك أين أقام طه حسين فى شارع الأوبزرفاتوار أو المعهد بالحى اللاتينى فى نهاية بولفار سان ميشيل، وأين أقام توفيق الحكيم فى شارع بلبور بالقرب من مونمارتر حى الفنانين.

وهكذا يكشف المكان عن الفرق بين مزاج الحكيم وطه حسين، أو بين أحياء الفنانين وحى المدارس والجامعات.

وهدتنى مكتبة باريس التاريخية إلى اسرار باريس التى لا تجدها فى الكتب. واغوانى ذلك للدعوة إلى انشاء مكتبة عن القاهرة لتجمع كل ما نشر من خرائط وكتب الرحالة العرب والاجانب وكتابات المؤرخين والجغرافيين وصور الرسامين عن القاهرة، والغريب أن يتحقق هذا المشروع منذ ثلاثة أعوام فقط، والأغرب أن تقع المكتبة الجديدة فى شارع محمد مظهر بالذات.

ولم أعد ازور باريس سائحا على غير هدى بل تحولت جولاتى فيها إلى التنقيب عن البيوت وساكنيها، والقصور ونبلائها، والصالونات الادبية وروادها . ولم اعد اكتفى بفرنسا الحديثة منذ الثورة الكبرى، بل توغلت فى فرنسا الملكية قبل الثورة. لأكتشف ظاهرة الصالونات الادبية والفكرية التى انتشرت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكانت هذه الصالونات تقودها النساء الثريات وبعضهن جميلات وفاتنات، محشمات أو مستهترات. وكانت تلك الصالونات الادبية تقيم حفلات للقراءة فلا يخرج كتاب أو مسرحية أو قصيدة الا ويلتقى حولها جمع من المدعوين والمدعوات. ولا يخلو اللقاء من نميمة ومقالب. بين من يعتادون تنافق اطراف الحديث. ففى صالون مدام رامبوييه بالقرب من اللوفر، يتنكر الأديب فواتار فى ثياب كاردينال فيخدع الحاضرين الذين لا يكشفونه عند الحفاوة به. وترد عليه صاحبة الصالون. بأن تطبع إحدى قصائده الحديثة وتلصقها بكتاب قديم وتتقن التزوير، ليقرأ الشاعر قصيدته، وهو لا يصدق أن شاعرا قديما سبقه إلى نفس القصيدة بيتاً بيتا وكلمة بكلمة.

وقد لعبت الصالونات النسائية التى تترأسها دوقة «ماركيزة» ـ على الأقل ـ دورا كبيرا فى الحركة الادبية وتجديد الأدب. وبفضل مكتبة باريس التاريخية عرفت أن الصالون الادبى لمدام دى لابير كان فى قصر يقع مكان المكتبة الوطنية بشارع ريشيبيو.

وعرفت أن شارع فوجيرار الذى كنت اعبره كل يوم لعدة سنوات فى الحى اللاتينى ـ فى مقتبل الشباب ـ كان فيه قصر الماركيزة دى لافاييت. وهى أول روائية كتبت رواية نفسية تقوم على التحليل النفسى، وخلصت الأسلوب الأدبى من مبالغات البديع والزخرفة اللفظية. وبفضل صالون مدام ديسفينيه وصديقتها مدام دى لافاييت انتقل الأدب من الشعر إلى الفكر. وقد تزوجت نبيلا، له ثروة ضخمة، ولكنه يكبرها بثلاثين عاما. وكانت حياة هؤلاء النبلاء الرجال

غريبـة، لأنهم يهجرون قصـورهم، ويقضون أغلب أوقـاتهم فى حروب فـرنسا العديـدة مع هولندا أو آسبانيـا أو إيطاليا. وقد امضى زوج دى لافـاييت عمره فى الحروب أو منـازعات المحـاكم. وكـان زواج الصغيرات الجميـلات من عواجيـز النبلاء ينتهى إلى أن تصبح الزوجة الجميلة ارملة تـرث اموالا طائلة بعد أن يموت الـزوج فى الحرب أو على الأقل فى مبارزة. ومن هنـا ظهـرت «الارملة الطـروب».. وحين اختفى الزوج لافاييب ظهر الأديب لاروشفـوكو الذى كتب لها بعض كتبها الأولى، ثم كتب معها كتبا أخـرى. وهكذا استمرت النميمة الادبيـة حول مدام دى لافـاييت أن لاروشفوكـو يكتب لها كتبهـا. حتى مـات لاروشفوكـو، فأخـرجت روايتين، وكـانت المفـاجأة انهما أكثر صـدقـا لأديبـة على موهبـة كبيرة وكـانت موهبتها الأكبر انها حافظت على اديبها الذى قـالت عنه: اعطانى الروح، فأعطيته القلب. وبالروح والقلب بقيت صفحات خالدة فيما نسميه الآن: ادب النسـاء .

٥٠

اللطيفة الجسورة

عرفت الأديبة الناقدة أستاذة الجامعة بعد أن بلغت الخمسين. ولم أعرفها إلا من بعيد أيام الدراسة. وقد يكون السبب أننى كنت أدرس القانون بينما كانت لطيفة الزيات تدرس الأدب فى كلية الآداب المجاورة. ولكن اسم لطيفة الزيات كان مشهورا فى جيلنا، ومدويا أثناء حركة الطلبة والمظاهرات الصاخبة التى انتهت بحادث مأساوى، هز الشباب جميعا، حين فتحت الشرطة كوبرى عباس بين الجيزة والقاهرة أمام مظاهرة عاصفة حاولت عبور النيل من ضفة إلى أخرى. وسقط فى النيل عدد من شهداء الطلبة وسط وابل الرصاص.

وكان أغلب جيلنا مشتغلا بالسياسة ومشغولا عن الحب. ولم يكن مسموحا للفتيات والفتية بالاختلاط داخل أسوار الجامعة، وكان من الوقاحة أن يحدث زميل زميلته، ومن العيب أن ترد الزميلة على زميلها، فاكتفينا جميعا بالنظرات.

وكانت كلية الحقوق بالذات، لا تضم أكثر من سبع فتيات فى دفعتنا، وقد خصصت لهن إدارة الكلية غرفة خاصة إلى جانب غرفة العميد فى الدور الأول، وخصصت لهن «مشرفة» كانت ألمانية، وكان وجهها ممصوصا صارما، وكانت مقددة العود، ممسوحة الصدر، تلبس دائما ثوبا رماديا لا يتغير ولا يعبر عن شىء. وكانت دفعة البنات تتحرك معا، وتسير معا، وتدخل قاعة المحاضرات معا، لتتجه إلى المقاعد المحجوزة فى الصف الأول، ولم تكن تلك الدفعة هى الدفعة الأولى للآنسات فى دراسة القانون، وقد تكون الدفعة العشرين. ولم يكن هذا الجو التقليدى والمحافظ غريبا على جيلنا، لأن عربات الترام أيضا والتى كانت تحمل آلاف الطلاب إلى الجامعة فى الخط الدائرى من العتبة الخضراء إلى الجامعة كانت تخصص جناحا فى العربة الأولى من الترام، وقد كتب عليه بحروف واضحة. «الحريم» وحتى فى جو الزمالة والشباب لم يكن أى زميل يجرؤ أن يبادل زميلته أكثر من التحية، بهز الرأس أو الابتسام، وبالكثير بضع كلمات متقطعة، ولا تزيد على: «صباح الخير».. و«مرسى».. أو «لا مؤاخذة»: وكنا نكتفى بنصف ماقاله شوقى: نظرة فابتسامة.. فموعد فلقاء. لأننا كنا لا نجرؤ على أن نعبر إلى نصف الجملة الآخر، وياسلام لو حظى الواحد منا بنظرة، لأنه يكتفى بالابتسام.

ولكننا كنا فى عنفوان الشباب، وكانت الرومانسية فى أعلى مراحلها، وكانت أشعار على محمود طه ومحمود حسن اسماعيل، وأغانى رامى وبيرم، وأم كلثوم وعبد الوهاب وأسمهان تشعل هذه الرومانسية، ولم نسمع عن قصة حب واحدة بين زميل وزميلته.. إلا فى الخيال، وهو حلال. وكانت النكتة المنتشرة فى جيلنا أن طالب الحقوق يتخيل أو يحلم فى السنة الأولى أن يصبح بعد التخرج وزيرا، وفى الثانية يتخيل انه سيصبح قاضيا، وفى الثالثة يقتنع بأن يصبح وكيل نيابة، وفى الرابعة يكتفى بمنصب معاون إدارة.. وبعد التخرج يبحث عن عمل. وفى سنوات الخيال والأحلام والأوهام الرومانسية، اكتشفت أن فتاة واحدة تحظى بإعجاب الدفعة كلها. وفى السنة الثالثة اكتشفت أن أحدا لا يجرؤ على أن يحبها وحده، وكأننا ألفنا «جمعية» لحب فتاة واحدة. فقد كانت مليحة وتجمع بين الحسن والجمال ولا تحتاج رموشها إلى كحل، ولا شفتاها إلى «روج» ولا شعرها إلى «الفازلين». وكان جمالها ربانيا وطبيعيا. فكانت أيضا سمراء ولا تصدق من لطف سمرتها أن سمارها لون، لأنه يتلألأ ويشف كأنه لون من خلفه ضوء. وكانت باختصار باهرة.. فبهرتنا. وأقصى من نجح معها هو «أول الدفعة». لأنه كان يستطيع أن يتبادل معها كشاكيل المحاضرات. واكتفى بقية أعضاء الجمعية، الذين يزيدون سرا لكن أحدا لا يجرؤ على الاعتراف إلا على الورق بينه وبين نفسه. ولهذا بدأ أكثرنا يكتب الشعر ومن لم يستطع على الشعر والقافية اكتفى بالشعر المنثور وهو أسهل. ولم يفضحنا سوى أكثرنا موهبة وأشدنا خجلا، وهو الشاعر الرقيق عبد الفتاح مصطفى. الذى ألف بعد ذلك لأم كلثوم بعض الأغانى الرقيقة، حين وضع الشاعر اسم زميلته فى إحدى أغانى كارم محمود فى برنامج غنائى للإذاعة، وغناها المطرب وذاعت، وأولها: «يا.. يابنت الخال» ولم يحس بالفضيحة سوى أعضاء الجمعية السرية، ولم تشعر به الفتاة، ولم تتصور أن كارم محمود يقصدها بترديد اسمها، ولم يتخيل أحد أن هذه الطريقة المثلى للاعتراف بالحب، بأن ينطق باسمها من الاسكندرية إلى الصعيد فى إحدى أغانى الإذاعة، ومع ذلك فقد ظل الشاعر أكثرنا خجلا، وكان لا يجرؤ حتى على التفكير فى الاقتراب منها بضعة أمتار. وكان يكتفى بالنظرات، لأنه لو اقترب أصابته رعشة. فكان يختفى ويذوب بين الزملاء. وكان حقا شاعرا يذوب من الرقة والعفة.

وكان كل شىء مشتعلا فى الجامعة، والشباب سريع الاشتعال، فى السياسة والوطنية والحماسة.. والحب من على بعد. ونشطت الأحزاب أيامها، بل انتشرت

الجمعيات السرية. وأيامها وصلت أنباء من الكلية المجاورة عن طالبة شديدة الجرأة. ولأول مرة نسمع عن لطيفة الزيات التى قبض عليها، واستطاعت أن تقفز من «البوكس» وتهرب. وحين حدثت أحداث الكلية ومظاهراتها اختفى هذا الحاجز القديم بين الفتى والفتاة. واشتهرت لطيفة الزيات لأنها اشتركت فى مظاهرات كوبرى عباس، بل إنها سهرت طوال الليل حتى الصباح والضحى، ولم تعد إلى البيت، حتى يتم الغواصون إخراج الجثث التى غرقت فى النيل. وأصبحت لطيفة الزيات اسما له معنى يستحيل أن يمحوه الزمن بعد تفرق الخريجين، وتوالى الدفعات عاما بعد عام. وكلما توغلنا فى الحياة سقطت أوراق ثم ظهرت أوراق. ولكن فتاة الأربعينات تزوجت، ثم سجن زوجها سبع سنوات ومات، ثم حصلت على الدكتوراة والطلاق من زوجها الثانى. ونجحت فى الدكتوراة ولم تحصل على الابتدائية فى الزواج كما كانوا يقولون. وعند طلاقها كان البعض يقولون انهم لا يريدون معرفة سبب طلاقها ولكن معرفة سر زواجها أصلاً من رجل يختلف عنها فى كل آرائها السياسية، وكيف التقى أقصى اليسار بأقصى اليمين فى عش الزوجية؟ ولكن الطلاق كان إعلانا بالافراج عنها لأنها أخرجت رواية «الباب المفتوح».

واستمرت لطيفة الزيات حتى أصبحت أستاذة الأدب الانجليزى فى كلية الآداب، وترجمت وألفت بالعربية والانجليزية نحو ٢٤ كتابا، ومنها ست روايات وقصص، وعشرة كتب بالانجليزية. ومن أستاذة للنقد إلى مديرة لأكاديمية الفنون، ومن سكرتيرة اللجنة الوطنية للطلبة والعمال عام ٤٦ فى الجامعة إلى رئيسة جمعية الدفاع عن الثقافة القومية عام ١٩٧٧. ومن بيت العائلة فى دمياط إلى بيت الزوجية فى سيدى بشر، إلى عدة بيوت مع زوجها الثانى، ومن السجن مرتين عام ١٩٤٦ أيام صدقى إلى ١٩٨١ أيام السادات، ومن الزواج إلى الطلاق. ومن ٤٦ وأحداث الطلبة إلى عدوان ١٩٥٦، وهزيمة ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣، و«كامب ديفيد» ١٩٧٧ امتدت تجربة الأديبة التى لم تحترف الأدب أسلوبا ولكنها بحثت عن الصدق فى الحياة، والتعبير عن المرأة «الجديدة».

وأقوى كتاباتها هى سيرتها التى كتبتها عدة مرات، وقدمت الجديد، لأنها عاشت عصرها وشهدت على جيلها. وقدمت لطيفة الزيات لونا من أدب المرأة لا يتحدث عن المرأة بالقطاعى (أو المفرق): شفاه، عيون، أكتاف، بل استطاعت أن تنقلك إلى المرأة كإنسان وكامرأة، وبعض أديباتنا يكتبن بأسلوب النساء المسترجلات، وبعضهن أيضا يكتبن بأسلوب «مسخسخ» ولكن حياة وتجربة

هـذه الأديبة أنضجت فيها المرأة فأصبحت أيضا تجمع بين الجمال والشراسة، كما يقول محمود العالم عنها. وبين اللطف والجرأة كما يحس قارئ سيرتها الروائية الأخيرة «حملة تفتيش - أوراق شخصية».

ولا يعرف «البيت» غير المرأة، ولم تصف امرأة فى الأدب الحديث «البيت» كما وصفته لطيفة الزيات، من بيت العائلة فى دمياط إلى بيوت الزوجية. ولا يعرف السجن غير ممارس السياسة، ولم يصف السجن مثل هذه الأديبة الحكيمة، لأنها ملأت سيرها بالشعر والحكمة، واحتفظت بشاعرية البنت واكتسبت حكمة التجربة، وكشفت أنها أجلت الحب فى عشرينيتها من أجل حب أكبر هو الوطن، ثم عادت إلى الحب كأنثى، لتنضجها التجربة الخاصة، وأحداث السياسة، فقدمت تجربة أدبية فريدة كتبت أن أعذب ما فى الشعر أصدقه، لا أكذبه وأقوى ما فى الأديب هو الصدق مع النفس.. والآخرين.

٥١

إمـرأة أخـرى

اسمها جميلة

كـانت تلك الليـالى تشبه بقيـة الليـالى: صـامتـة.. ولكن الصمت كان ينذر بالخطر. فقد كان التجول محظورا منذ الغروب. كل من يتحرك فى المدينة يطلق عليه الرصاص.

وخـارج قاعـة المحكمة العسكـرية، وسط مـدينة الجزائر مسـاء ١٢ يوليـو (تموز) ١٩٥٨، كانت الأنظـار تتجه إلى القاعـة حيث احتشد الضبـاط والجنود ورجـال المظلات. وفى ممـرات وقـاعة فنـاء المحكمـة كانـت جماهير عديـدة من المتوطنين المتطرفين يطالبون برأس المتهمة.

ولم ينقض سوى يومين على بدء المحاكمة. وقال رئيس المحكمة العسكرية إنه لابد من الانتهاء.. والحكم قبل حلول العيد.. وكـان يقصد عيد ١٤ يوليو (تموز). ولم يعرف أحد إذا كان رئيس المحكمة جادا أو هازلا، حين قال:

«علينـا أن ننتهى من الحكم قبل احتفـالات ١٤ يـوليو (تموز)، لأن علينـا أن نشارك فى الاستعراض العسكرى الذى يقام كل عام فى مدينة الجزائر».

ويوم ١٤ يوليو (تموز) هو عيد الثورة الفرنسية الكبرى. ولكنه كان يوما آخر فى الجزائر. لأن المتهمة الأولى (جميلة) كانت تعرف الحكم مقدما، وهو الإعدام.

وقالت جميلة بوحريد:

«إننى أحب بلادى حرة مستقلة، ولذلـك أعرف انكم ستحكمون على بالإعدام، وسوف تقتلـوننى كما قتلتم أشقائى بن مهيـديوبـو مندحل، وزيـدور. وسوف تقتلوننى بعد أن عـذبتمونى. ولكن لاتنسوا انكم تقتلـون الحرية أيضـا وتهددون مستقبلكم بالخطر. وتحكمون أيضـا على شرف بلادكم، ولن تمنعوا الجزائر من أن تكون مستقلة».

بعد ساعـات صدر الحكم بإعدام جميلـة بوحريد وجميلة بـوعزة، وانفضت المحكمـة قبل أعيـاد الثـورة الفـرنسيـة، وذهب رئيـس المحكمـة لـلاشتراك فى الاستعراض العسكرى احتفالا بسقوط الباستيل.

وقد اشتهرت إحـدى الجميلتين أكثر من الأخرى، لأن جميلة بـوعزة وقفت فى المحاكمة صـامتة ومذهولة. بينما كانت جميلـة بوحريد تتكلم باندفـاع عن بلدها وحقها فى الحريـة. وأصبحت جميلة بوحـريد رمزا لبنات الجزائر، لأن عمـرها لم يزد على ٢٢ عاما.

وكانت جميلـة بوحريد فصيحـة ومتحمسة. وحين قبض عليها وجـدوا معها بضعة خطابات من جبهة التحرير الجزائرية التى أعلنت الثورة على الاحتلال.

وتبين أنها حـاولت الفـرار من دوريـة فرنسيـة طـاردتها، ثم أطلقت عليهـا الرصـاص، فسقطت على الأرض برصـاصة فى كتفها.

وبينما كانت جميلة الجريحة ممـددة على سرير العمليات لإخراج الـرصـاصة التى أصـابت كتفهـا، وجهت إليها تهمة إلقـاء القنابل فى «حى الافرنج» فى مـدينة الجزائر. وكان ذلـك فى سبتمبر (أيلول) ١٩٥٧، وكانـت أول قنبلة تنفجـر فى هذا الحى المحصن، فأصابـت مقهى معروفا اسمــه « ميلك » ثم بعد دقـائق انفجرت كـافتيريـا أخـرى واسمهـا «كـوك اردى» أو مقهـى «الـديك المشـاغب». وكـان الفـرنسيـون فى الجزائر ينقلون أسماء المقـاهى الفـرنسيـة من بـاريس، لأنهم يعتبرون كل شيء فى الجزائر فرنسيا.

وكانـت جميلة بـوحريـد قد اعترفت بـانضمامها لجبهـة التحريـر، وأنكرت عـلاقـاتها بـالانفجـارات فى المقـاهى الثـلاثـة. ولكن التحقيق انتهى بسيل من الاتهامـات: حيـازة المفـرقعـات، والقتـل، والشروع فى القتل، وتخريب المبـانى، والاشـتراك فى تخريب المبانى العامة.

وكانت النيـابة قد اعتقلت شابـا جزائريا اسمه «طالـب عبد الرحمن» اعترف بأنه هو الذى صنع القنابل، وهو الذى تركها فى المقاهى الثلاثة.

وقال طالب:

«اننى اعترف على نفسـى، ولا يمكننى أن اعترف على جميلـة، لأننى لم أرها من قبل».

وكان يقول الحقيقة، ولكن المحققين أرادوا إشراك جميلـة فى التهمة لردع بنات الجزائر.

ولأن الاعتراف هو سيد الأدلـة، حاول المحققون الوصـول إلى اعتراف المتهمة بأى ثمن. وحكت جميلـة بجرأة مـا حدث لها قـائلة «منذ وصـولى إلى المستشفى استجوبت عـدة مرات أمـام عدة أشخاص، وكـان بينهم ثلاثـة برتبـة «كابتن»، وثلاثـة من المفتشين، وثلاثة مـن رجال المظلات يلبسـون «البيريه الأحمر»، ولم يترددوا عن ضربى باللكمات لإرغامى على الاعتراف.

وذات يوم، جـاء ملازم أشقـر الشعر، ضخم الجثـة، يلبس نظـارات بيضـاء، وخلع عنى مـلابسـى أمام مفتشى الشرطـة الثـلاثة، وهـددنى هـذا الرجل بأنــه سيستـدعى أحـد السنغـاليين لـلاعتـداء على كما اعتـدى من قبل على غيرى من

الجزائريات. وقد حاولت ان ادفعه بذراعى التى لم تصبها الرصاصة فضربنى الأشقر على ذراعى المصابة.

وفى الليلة مابين ١٧ و١٨ ابريل (نيسان)، حضر المفتشون الثلاثة حوالى التاسعة ومعهم جنديان من جنود المظلات، وعصبوا عينى، ونقلونى فى سيارة إلى مكان لا يبعد كثيرا عن المطار، لأننى كنت أسمع صوت محركات الطائرات القريبة.

وهناك ألقيت فى غرفة، واعتدوا على بالضرب، ثم خلعوا ملابسى وربطونى بخشب أريكة ممتدة، ووضعوا قماشا مبللا حول ذراعى وركبتى وبطنى.. و.. وسرت الكهرباء فى مفاصلى وجبهتى وصدرى، واستمر هذا التعذيب يوما كاملا.

ونقلونى بعد ذلك إلى مقر القيادة، حيث وجدت أخى الأصغر وعمره ١١ سنة، وكان معه آخرون من أقربائى المقبوض عليهم.

ولكن جميلة لم تعترف، فأحضروا لها اعترافا قيل إنها كتبته، وطلب محاموها عرض الاعتراف على خبير الخطوط، فرفضت المحكمة طلب الدفاع، وقال رئيس المحكمة فى هدوء:

- وهل يوجد فى الحرب وقت «للدفاع»؟

واكتفت المحكمة بتقرير الشرطة، وأصدرت حكمها. وكان رئيس المحكمة حاسما، لأن عليه ان ينتهى من المحاكمة لحضور احتفالات ١٤ يوليو (تموز)

وأصبحت جميلة بوحريد رمزا لفتيات الجزائر. وأيامها أعلن نهرو انه بكى حين سمع بقصة هذه البطلة. وأيامها أصدرنا كتابا بالعربية رسمه الفنان حسن فؤاد وعرضت فيه كتابا يلخص القضية والمحاكمة. وكتب عبد الرحمن الشرقاوى قصيدة رائعة.. وانتقلت أسطورة جميلة بوحريد، فأصبحت فيلما سينمائيا مثلته أيامها الفنانة ماجدة.. ودخلت جميلة الجزائرية تاريخ البطولات من أوسع الأبواب.

٥٢

.. ونظـــــرة واحــــدة

فى ذاكرتى بعض الـذكريات كأنها مـوج الأثير. بعضـها يعـود وبعضـهـا يـذهب، وبعضـهـا تماثيل من الـوهـم لم تكتمل، تمتثل أمامي ويمحو بعضها بعضا. ولكن بعضـها يلـوح كأنه منحـوت من الحقيقة. مع أن وهـم الخيــال والذكـريات ليس فيـه من الحقيقة شيء ولكن بعض ذكرياتى أقوى، لا يبارحنى أو أبارحه.

وقــد يكون السبب أن لى ذاكـرة بصريــة عجيبة أحــس بها أقوى من ذاكــرتى السمعيــة. ولهذا احفظ الصــورة أسهل أو أكثــر. واحتفظ بها أسرع من الكلمــة المسموعــة. وقد يكـون السبب أننى فضـولى العين، ملـول الأذن. وكثيرا ما أحملق ولا أنصت. وكثيرا ما تستمــر الصور التى أراهــا، وكثيرا ما تتسرب الكلمات التى أسمعها. وقــد أصبحت بهذه الذاكرة الخاصة لا أكــاد أنسى مكانا زرتــه أو وجـها رأيته. وقد يكون هذا سر شغفى بالسفر والرحلات ثم حبى للصحافة لأنها مهنة السفر والنظر الى المكان أو السفر على الورق.

وهكــذا أصبحت فضــولى العين، أسير الصورة، أحفظ فى ذاكــرتي البصريــة تفاصيل نظرات لا تذبل ولا تنمحى.

ومن هذه الصــور التى لا تمحوها السنــوات أول صورة لــ«كارت بــوستال» ملونــة، رأيتها فى أول الصبــا وأنا لم أتجاوز بعــد الثامنــة فى المدرسة الابتــدائية. وكانت هــذه الصورة الصغيرة أو الــ«كارت بــوستال» أول صورة أراهــا فى عالم الصور الفوتوجرافية الملونة.

وكنا فى مدرســة «القربية» الابتدائيــة فى حى عابدين أسرى الأبــواب الحديدية السميكة، لا نستطيع الخروج الى الشارع بعد بدء الـدراسة. وكان البواب النوبى الطيب ومازلت أذكر وجهه الأسمر المستــدير أحاطت به ذقن بيضــاء كأنها نصف هلال مستــدير فى بــدايته. وكــان شديــد الاعتزاز كل يوم.. أنــه يستطيع أن يغلق الباب الحديدى الخارجي الضـخم ويستطيع أن يـدافع عنه. فلا تستطيع حشود الطلاب من المدارس الثــانويــة أن تقتحم بوابتــه ليخرجــوا معهم طلاب المدارس الابتدائية الصغار للانضمام الى الكبار فى المظاهرات الصاخبة.

وكــان البــواب الطيب يخشى على الصغــــار من أن يخرجــوا الى مظــاهـرات

صـاخبـة عنيفة فتدوسـهم أقـدام المتظاهرين كأنها سنـابك خيـول هائجـة. وكان طلاب المدارس أيامها وقود المظاهرات الـوطنية العنيفة التى شملت القاهرة طوال عام ١٩٣٦، وكان عـاما عنيفا شديـد الاضطراب، هزه حادثـان عنيفان هما ثورة ٣٦ فى فلسطين. والمطالبة الشعبية بعـودة الدستور فى مصر ولم تكن سنى تدرك تماما وأنا فى الثانية مـا هو الدستور ؟ ولا أين تقع فلسطين. لكن زميلا صغيرا لم يكن مصريا، وأظنه كـان سعوديا أو فلسطينيا أحببته لنظافتـه وجديته، ولم أكن أدرى سر ارتبـاطى به. وقـد يكـون السر غـربته، لكنـه تميـز عندى بين صبيـة المدرســة، فآثـرتـه على الكثيرين. وميزتـه ببعض الـود البرىء. وفى أحد الأيـام، المشهودة أغلق البـواب بوابة المدرسة الحديديـة وحرمنا جميعا مـن المشاركة أو حتى رؤيـة تلك الحشود الصـاخبـة فى الخارج، والتي كـانت تهز باب المدرسـة العاصى العنيد. وبعـد صمود الباب والبواب تفـرقنا فى الحوش الواسع. وانتحي بى الصـديق جانبـا، وكأنه أراد أن يعزينـي، فأعطانى صـورة ملونـة لـ«كارت بوستال». ولا أذكـر حديثه الآن، ولكنى أذكر الصورة تمامـا، فقد بهرتنى ألوانها المذهبة الحمـراء والخضراء واستولت على نقـوشها وألـوانها. فلم استطع الفكاك حتى الآن من صـورة القباب المذهبـة، والأعمـدة الرشيقـة، والنقـوش الدقيقـة. والأشجار الهائلة من ورائها.

ومازالـت صورة عجيبة محفـورة فى ذهنى. ثـابتة فى ذاكرتـى. ولا تحتاج الى جدار أعلقها عليه. وكأنها معلقة علي موجة من موجات الأثير المغنى، تلازمنى كما يلازمنى جلدى واسمى. أحملها معى أينما ذهبت.

فقد كانت أول صورة بالألوان رأيتها فى حياتى هى «كارت بوستال» للمسجد الأقصى. أعطاهـا لى زميل الدراسة الـذي أذكر وجهه ولا أتذكـر اسمه الآن. ولم أكن بعد قد تفتح وعيي، أو قرأت ما قرأت عن المسجد الأقصى أو فلسطين.

ولم أكن أدرك يـومها معنى القـدس عنـد المؤمنين، ولا موقع بيت المقـدس فى الهلال الخصيب، ولا مغزي القدس عند المؤمنين.

ولكننى بعـد طـول السنين، وشتى التجـارب والمحن، وكثير مـن الأسفـار والقـرارات، ولا أستطيع محو هـذه الصورة الثـابتـة للقبـاب المذهبة والأعمـدة المرمرية. وبعد السنين اتضحت لى فكـرة القبلة الأولى عند المسلمين، ولم أكن بعد قد قرأت ما قرأت. وما رواه ابن عباس:

«ان البيت المقـدس بنته الأنبيـاء، وسكنته الأنبياء، ومـا فيه مـوضع شبر الا وصلى فيه نبى. أو قام فيه ملك».

واتضحت لى فكرة القبلة عند المسلمين، وهى أن تجتمع ملايين العيون، مهما تغير المكان أو المقام على نظرة واحدة.

والعجيب أننى ظللت كل هذه الأعوام. كلما قرأت أو كتبت عن فلسطين. وما أكثر ما كتبت، مازلت أذكر هذه الصورة الصغيرة التى أعطاها لى زميل الدراسة الصغير. وشاءت الأقدار أن أتحول من القراءة الى الكتابة وانخرط فى معارك سياسية عديدة. وأعاصر حروبا كثيرة، وكنت أستعين دائما بالصور التى تلخص الأحداث. وجاءت أحداث الانتفاضة.. فكنت أتابعها بالصورة قبل الكلمة، حتى تكتمل الحقيقة. وجمعت كل الأفلام التى صورت أحداث الانتفاضة، وتحققت من دور المرأة الفلسطينية الكبير فيها، ودور الأم فى العائلة، وتسمرت فى ذاكرتى صور ذائعة لنساء لا أعرفهن، وأطفال لم أقابلهم. أطلقت عليهم وكالات الأنباء «أطفال الحجارة». وقد يكون سر عنادى الشديد ودفاعى عن فلسطين والقدس أن قصتى بدأت مبكرا، ومازلت فى ريعان الصبا. حين شعشعت فى عينى تلك القباب الذهبية التى مازالت تتلألأ فى ذاكرتى البصرية التي مازالت قوية.

٥٣ لــن أبــكى

لم يمتزج تـاريخ حياة امرأة بتـاريخ وطن كما امتزج عند الشاعرة فدوى طوقان. وقد حصلت الشاعرة الكبيرة منـذ شهـور على جائزة «كفافيس» أكبر شعراء اليونانية المعاصرين. وكان الشاعر موظفا عاديا فى بلدية الاسكندرية حتى الثلث الأول من القرن . ولكنه كان فذا وعبقريا. وكان يقول:

ـ الاسكندرية ليست مدينة ولكن حضـارة.

وتخصص فى منـاجـاة أبطـال الحضـارات القـديمـة. وعشق مثل شكسبير شخصية أنطونيو وقصـة حبه لكليوباترا، بما فيها من رعـونة وطيش وهزيمة.. وحنـان. وكان كفـافيس ينعى على أهلـه اليونـانيين أنهم يتحمسـون بسهولـة، وينطفئون بسرعة. وملأ أشعـاره بالحديث عن الحضارات التي مالت الى المغيب، فتحدث عن بيزنطة والرومان والبطـالسة وكأنه معاصر لها. وكان لا يتحدث عن مجد بلاده الضائع أو فردوسه المفقود. بل يتحدث كشاعر ومفكر يذهله ازدهار الحضارات ثم انحـدارها وأفولها. وكـان كفافيس أروع شاعـر تحدث عن أبطال الماضى بلغـة العصر فى حيرة حزينـة لا تـدرك سر انهيار الممالك. هل هى العـزة بالاثم، أم الغرور بالقوة أم زهو السلطان.. أم مجرد الاغراق فى اللذائذ الصغيرة؟ وكان يقول كما تقول الالياذة:

ــ ليس فـألا طيبـا علي أى حال أن يكثـر عـدد القيـاصرة! وحين يزداد عـدد القياصرة تبدأ الشمس فى المغيب!

وقد كنت فى اللجنة التى سعدت بإعطاء الجائزة للشـاعرة فدوى طوقان. وقد نالت الجائزة بـالاجماع. وكانت الشـاعرة المرشحة الـوحيدة التى لم يحدث على اختيارها أى اقتراع. ولكنى أعترف أننى بعد التصويت، عدت الى دواوينها السبعة أقـرأها من جـديد. كما عـدت الى كتابيهـا: «رحلة جبليـة صعبة». سيرة ذاتيـة. وكتابها الثانى: «الرحلة الأصعب». فقد عـرفت شعراء من فلسطين عديدين كانوا كلهم رجالا حين صادقت معين بسيسو، وهو لا يـزال طالبا فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة فى الخمسينات. وكـان معين من غزة، ويسكن فوق مقهى ايزفتش على بعد أمتار مـن الجامعة فى ميدان الخديوى اسماعيل أو الاسماعيلية ثـم التحرير.

وكان هـذا المقهى ينافـس مقهى ريش الذى عـرف المثال محمود مختـار ويحيي حقى، ثم نجيب محفـوظ ثم أقفـل تمامـا. وكـان مقهى ايـزافتش ملتقى الأدبـاء والمتأدبين الشبـان فى الخمسينـات، لأنهَ يطل علي الميـدان الـذى يشهـد أحيانـا المظاهرات أيضا. لأنه أول مصب للمظاهرات الجامعية القادمة من الجيزة. وكان هذا المقهى يفوز على منافسـه مقهى «ريش» لأنه يجاور مطعـم الفول الشـهير، وكانت السوائل فى المقهى تطفى نيران النـواشف فى المطعم. ولذلك فضل الشبان مقهى ايزافتش الذى عاش الشاعـر معين بسيسو سنوات فوقه في بنسيو ن يطل علي الميدان. وقد نشرت لمعين بسيسو قصـائده العديدة فى «الهلال». قبل أن أنشر أو ل ديـوان كامل لمحمـود درويش قبل أن يترك الأرض المحتلـة ويأتى للقاهـرة. وكان شعراء فلسطين الذين عرفتهم رجالا وشبابا. وأقربهم الى قلبى كان الشاعر كمال ناصر الـذى عاش سنـوات عديـدة فى القاهرة قبـل بيروت. وكان يعيش فى بنسيو ن أيضـا. فى الزمالك. ولكنـه كان يقيم أو يكاد فى فندق سميراميس. حين بدأ الفندق فكـرة السهر حتي الصباح، وفتـح «داى آند نايت» أو «صبـاح.. مساء»، ونافس مقهى الفيشاوى فى حى الحسين. وفضله الشـاعر كامل الشناوى أشهر سهران فى القاهرة، وكان يرفض العـودة لبيته فى جاردن سيتى قبل بزوغ الفجر وكان يظن أنه لـو نام مات. ولهذا يظل ساهرا حتى يغلبه النعـاس جالسا فى نهاية السهـرة. وأحببت شريكي في السهر كمال نـاصر الـذى كان يحب أن يـرى معى الفجـر على صفحة النيل كل يـوم. وحين انتقل لبيروت حرصت على لقـائه. وذات لقاء فى مطعم فيصل أمـام الجامعة الأمريكية فى بيروت، أدهشنى أنـه قادم وحده بلا حراسة. ولم أخف على الصديق ملاحظتى. فقال لى ضاحكا كعادته:

ـ خير حراسة ألا تكون عليك حراسة.

لأن الحراسة تلفت الأنظار!

وكان هـذا اللقاء قبل اغتيـاله فى جـريمة شـارع فردان فى بيروت التى هـزتنا جميعا.

ولم أكن أعلم قبل قراءة دواوين فدوى طوقـان كاملة أن لها قصيدة مهداة الى الشـاعر كمال نـاصر. وهى قصيدة رائعـة الحنـان. وفيها، أيضـا عزم المقـاتل. عنوانها: «الى المغرد السجين». تقول فيها بأنفاس متهدجة:

ـ يا طائري السجين فاصدح لنا

من خلف جدران الدجي والعذاب

ولا أظن أن صوتـا نسائيا فى الأدب العـربى الحديث بلغ صدقه وقـوته مثل

صوت فدوى طوقان. ولا أظن أن كاتبا بالعربية بلغ فى السيرة الذاتية مثل هذا الذى بلغته فدوى طوقان فى كتابيها «رحلة صعبة» وهى تذكرنا براعة «الأيام» لطه حسين . ثم «زهرة عمر» لتوفيق الحكيم. مع الفرق أن هذا الصوت النسائي الجديد لم يخف عنا شيئا من دموعه وآلامه. وما أكثر دموعها. فقد روت أنها كانت ابنة بين عشرة أبناء. وحاولت أمها الاجهاض، وهى تحملها، لأنها أرهقت من الحمل والولادة والرضاع. وقد ولدت عليلة منهكة بحمى الملاريا. وكان شحوبها سببا للنداء عليها وهى صغيرة:

ـ تعالى يا صفراء. روحى يا خضراء!

وكان هذا هو السبب أن تدعو فى ليلة القدر. والدعاء فيها مستجاب، عند ركن الدار المكشوفة، وتحت شجرة من أشجار النارنج، ضارعة: أن يصبح خدها مشربا بالحمرةوتروى أنها وهى صبية، وقفت أمام محل للكنافة فى نابلس. ولم تكن الكنافة النابلسية هى التى أوقفتها، ولكن مناظر النحل الكثير الذى يحوم حولها يقترب ويبتعد، ولكن أخاها الكبير داهمها فى وقفتها أمام محل الكنافة. وقال لها:

ــ لا يليق أن تقفى هكذا أمام محل الكنافة.

ماذا يقول عنا الجيران؟

وطأطأت الصغيرة رأسها لأن شقيقها ظن فيها الشراهة بينما كانت تتأمل النحل. وهو مشهد لا يلفت غير عيون الشعراء.

وقد عاشت فدوى طوقان عليلة نحيلة، واستعانت على الحزن بالقراءة. وتقول فى مذكراتها:

«أنا أقرأ فأنا موجودة»

ظللت قارئة كتب شرهة. وقد نمي هذه الشراهة حرمانى من الدراسة الأكاديمية. ولم تكن قراءتى منهجية. كنت أقرأ أى كتاب يقع في يدى مرورا بالموضوعات الأدبية والتاريخية والاجتماعية والفلسفية الى كتب العلوم المبسطة. وكان سلامة موسي والعقاد والمازني من الكتاب الذين فتحوا ذهنى وعلمونى مالم أعلم.

ومنذ الأربعينات أصبحت شديدة الالتصاق بعلم النفس من جهة والرواية من جهة أخرى، وجدت فى الرواية حصيلة المعرفة الانسانية. ،ظل يجذبنى فى الرواية الفكر الفلسفى بشكل خاص. وكان الفكر الاسلامى قد جذبنى منذ وقت مبكر الى القضايا الفلسفية. وكان أول من حرك ذهنى فى هذا الاتجاه كتاب زكي

مبارك عن الغـزالى. ثم رحت أجد متعة ذهنيـة فى قراءة «المعتزلة» وجـدلهم حول الـجدية والحرية والعدل والثواب والعقاب».

وكلما تـوغلت فى قراءة دواوينهـا، ثم مذكـراتها واعترافها اقتربت منهـا لأنها تحكى حكايـات صغيرة مليئة بالمعانى. وقد تـوقفت عند حكايتها عـن صديقتها الحميمة ياسمين. وهناك عـرفت صديقها الشاعر الشهيـد كمال ناصر. أيام كان نائبـا فلسطينيا فى البرلمان الأردنى. وكـان كمال باستمرار «قلقـا ثائرا ضـاحكا ضائعـا» و«كانت أحاديثنا تـدور حول الأوضاع العامـة والشعر والحب والموت والنضال والانتحار».

وكان كمال يـوقع «أبـوفراس». وحين أهـدته قصيـدة الى «المغرد السـجين»، جاءتها خلال أسبوع قصيدة مقابلة من شاعرنا الصديق.

وتـروي كيف وجدتـه فى مخبئـه يعـانى من أضراسه مـن ألم شديـد وكيف غامرت بالذهاب الى القدس لتحضر قريبا طبيبا فى الخفاء.

ومع أن أبـاها كـان قد ابعـد الى مصر عـام ٤٨، وأخاهـا الأصغر كـان يعمل بـالسياسـة. ولكنها ظلت بعيـدة عن الأحـزاب، «تتمزق بين الفـردية وعـواطفى الشعبية». وتقول ولم أعرف الـوجدان العام الا بعد حرب يونيـو (حزيران). وما أظن أن شاعـرة عربيـة عاشت أحزان يـونيو كما عـاشت هذه الشـاعرة. بل لم يمتـزج تاريخ حيـاة امرأة بتـاريخ حياة وطن كما امتـزج عند الشـاعرة فـدوى طوقان.

٥٤

أكثر من الدموع

كان هناك يوم بقيت صورته حية فى ذاكرتها منذ عام ٣٦ «فقد استيقظت وأختى على طرقات أحذية الجنود الثقيلة. وقفوا وسط الغرفة فى غبش الهزيع الأخير من الليل.

هبت الأسرة. وطلبوا إليها المغادرة فورا. لم يسمح حتى بتغيير الملابس. خطفن المعاطف بسرعة ووضعن أغطية الرؤوس كما اتفق. وخرجن إلى السوق مع بقية النساء والرجال والأطفال فى حى الياسمينة بنابلس.

وحسب أوامر الجيش المداهم سار الرجال فى طريق وسارت النساء والأطفال فى طريق آخر».

وتضيف الشاعرة فدوى طوقان من ذكريات هذا اليوم من عام ١٩٣٦، خلال الثورة ضد الانتداب البريطانى، أن عمتها العجوز كانت مريضة. «وحملها جارنا الدحدوح بائع الخضار والفاكهة على ظهره ومشى فى موكب النسوة».

وانتهت بنا المسيرة إلى منطقة «رأس العين» فى سفوح «جرزيم». وانتشرنا هناك فى العراء. وقد بدأ الصبح يتنفس. أطل فجأة من الجانب الآخر صف مزدوج طويل من رجال سكان الأحياء المطوقة. ورأيت أبى بينهم مشتملا بعباءته فأحسست بالحزن فى قلبى والحنو يغمر نفسى. ان منظر الشيوخ والطاعين فى السن فى مثل هذه المواقف يثير فى النفس من المشاعر المرة الحزينة مالا يثيره الفتية والشبان. عدنا إلى بيوتنا فى الأصيل لنشاهد آثار اسوأ عمليات التفتيش والنهب.

....

«جاءت العباية»!.. «جاءت العباية»!

كانت هذه كلمة السر فى شوارع نابلس وازقتها. فحين تقع المدينة فى مأزق أو خطر يأتيها من الخارج، يقوم هناك حب «جماعى» بين النابلسيين يربط الناس بعضهم بالبعض الآخر. وهذا نزوع طبيعى لدى الجماعة الواحدة فى كل زمان ومكان. فالخوف والمخاطر التى يحسها الناس من العدوان الخارجى تثير فى نفوس الأفراد مشاعر مشتركة نحو العدو المشترك.

«جاءت العبـاية».. جـاءت العبايــة»! وتردد كلمــة السر فى الأسواق والأزقـة. ويعـرف الناس معهـا أن قوة عسكـريــة مداهمة فى الطـريق إليهم.. فيختفى من يختفى. ويحتاط من يحتاط .

أصبح اصطلاح «جاءت العبايـة» فيما بعد من ضمن تراث الثورة الشعبى فى نابلس.

وكانت نابلس، كالخليل، من معاقل المقاومــة الصعبة. ولقد جاء يوم اضطرت فيه السلطـات إلى نفض يدهــا من الحكم داخل هاتين المدينتين. لقـد بلغ من عنف المقاومـة أن ألغت المحاكم فى نابلس، ونقلت ملفـاتها إلى الثكنة العسكريــة خارج المدينة .

والحكايات البطـولية وأخبار العنف والموت والاعتقالات والنفــى والخيانات.. كل هــذه كـانت تخترق جدران الــدار، وتصل إلى مسمعى عن طـريق الآخــرين : اخوتى، الجرائد. النسـوة الزائرات. صبى اللحام والبقال.. وحين كـانت أصوات المتظاهرين تأتينا من بعيد ثم تقترب شيئا فشيئا، كنت أهبط الدرج ملتفعة الرأس بغطاء كبير يغطى وجهى والقسم الأكبر من جسمى. واركض إلى الصفة الحجرية فى الـديوان. فـاطل من أحـد شبـابيكها على الســو ق. وتكـو ن الصفة قـد غصت بـالنسـوة من القاطنين بجـوارنــا أو المستأجـرين. وحين أرى الجماهير الغفيرة الهائجة. تغـرق عيناى أو يسيل الـدمع على خدى، وقـد ظللت فيما تلا مــن أيام حياتى أبكى وأحس بالتأثر العميق إزاء مشهـد الجماهير المتراصة. ولعل الدمعة التى كـانت تسيل من عينى فى مثـل هـذه المواقف إنما كـانت بسبب عجـزى عن الاندماج فى الآخرين، والمشاركة الفعلية فى الالتحام بهم .

وتصف الشاعرة يوما من حياتها وهى صغيرة لا ينمحى من الذاكرة :

ــــ ايقظتنا فى منتصف الليل طرقـات الجنود البريطانيين بأعقاب بنادقهم على باب دارنا، وحين قـام أبى إليهم كانت قلوبنا تضطرب وأنفـاسنا معلقة على حبل التونغ المتأرجح فى الهواء : مـاذا بعد ؟ كنا فى أعماقنا نعرف مـاذا يأتى بعد، فحين كانت الأبواب تطرق فى مثل تلك الساعة من الليل كان يفهم أن هناك عملية اعتقال ولم يرجع أبى .

فى الصباح كان فى طريقه إلى سـجن «عكا» .

«وظلت علاقتى الشعورية بأبى تتأرجح بين الحياديــة أيام السلام والعافية، والحنو الغامر أيام السجن أو المرض» .

ومرت أيــام، أسابيع، شـهـور، والأحداث فى عنفوانها المتقـد جاءتنــا أنباء عن

مـرض أبي في السـجن. وكان رقيق البنية بطبيعته استيقظت في سكون الليل. كان فراشا دافئا. وبرد الشتـاء حادا في الخارج «يقطع المسمار» كما يقولون في نابلس وقراها. مرت صورة أبي في خاطري مطروحا، مريضا، مؤرقا بين جدران السجن الجليدية، واكتسحتني موجة من الحنو العميق.

كانت قطرات الماء في الخارج تتساقط من أوراق الشجر بإيقاع منتظم كدقات الساعـة. وكانت لحظة غريبـة. في ذلك السكون الشامل. رأيت فيهـا بعين الخيال قصيدتي التي لم أكن كتبتها بعـد، منشورة في إحدى صفحات مجلة «الـرسالة» ورأيت، بعين الخيال، عنوانها بالخط الأسود: «إلى أبي»!

... كـانت تجربتي الشعريـة في قصيـدتي «إلى أبي» حصيلة كل مـا تجمع في نفسي وتراكم من انفعـالات منذ اشتعال الثورة عـام١٩٣٦.. واشتد مرض الأب السجين. ثم خـرج من السجن منفيـا إلى مصر دون السماح لـه بزيـارة أهلـه في نابلس قبل الرحيل.

واستمرت الثورة ثلاث سنوات. وكـانت تستهدف قوات الانتداب البريطاني. ولكن غياب أبيهـا في المستشفى عوضـه حنان أخيهـا إبراهيم الشـاعر والأديب. وكان يعمل بالاذاعـة الفلسطينية. وعمل اليهود على إزاحته من مـوقعه فانتقل إلى العراق. ولم تحتمل صحته. ومرض قليلا ثم مات بسرعة وفقدت الشابة الصغيرة الاخ بعد الأب. «وظلت عقدة السجن كامنـة في أعماقي» وتحكي الشاعرة صراعها الداخلي المتأجج. فقـد كان أبوهـا يلح عليها أن تكتب شعرا سيـاسيا، ويتمني أن تحتل مكانـة أخيها إبراهيم طـوقان الفقيد شاعـر الوطنية. بينما كـانت تعاني في أعماقهـا من بغض السياسـة. و«في هذه المرحلـة بـالذات عـانيت صراعا نفسيـا وفكريا حـادا. وكنت أحاول الاستجابة إلى رغبـة أبي لكي أرضيه وأكسب محبته. ولكن أعماقي كـانت تحتج وتـرفض وتتمـرد». وكنت أعي ذاتي، وكنت على وعي بأن الـذات لاتتكامل إلا في الجماعـة. وكـانت الجماعة هنـاك. وراء الجدران التي تحاصرني. وبينها وبيني مسافة قرون طويلة من عالم «الحريم»..!

وظللت أحس بأنني وحيدة تماما.

وفي ضجة السقوط مات والدها عام١٩٤٨.

وآلاف من اللاجئين كما تقول ينزحون إلى نابلس فتكتظ بهم الدور والمساجد والمدارس والكهوف في جبلي عيبال وجرزيم.

«وانفكت في الأخير عقدة لساني.

ورحت أكتب الشعـر الوطني الذي طـالما تمنى أبي لو يـراني أتفرغ له، فأملأ مكان إبراهيم.

لقد كتبت ذلك الشعر بصورة تلقائية وبدون أى إلزام من الخارج .

ولكن القدر لم يمهلها بعد المصابين الفادحين فى أخيها إبراهيم وأبيها أيضا. لأن شقيقها «نمر» الذى كان مولعا بالشعر والموسيقى كان طبيبا وأستاذا فى الجامعة الأمريكية ببيروت، تسقط به الطائرة الخاصة باميل البستانى. بعد سنوات من موت الأب وفقدان الشقيق وظل الخوف علي نمر من الموت مسيطرا على وجدانى منذ وفاة إبراهيم. فقد كان هو البديل الوحيد. كان هناك احساس خفى يفعل فى لاوعيى ولا يرحمنى. لماذا ؟ ألنى بطبيعتى دائمة الشعور بالخوف على أحبتى من أحداث الحياة ؟ ألأنى بطبيعتى دائمة التفكير بمأساة الوجود الإنسانى، مفرطة فى احساسى بمشكلة الوجود والموت ؟

والغريب أن ترى الشاعرة حلما لشقيقها نمر، قبل وقوع الفجيعة بأيام قليلة. فقد رأته فى المنام يخرج من بيته فى بيروت متجها نحو سيارة يجلس خلف شقيقها إبراهيم. «وكانت أطراف سترته تخفق إلى الوراء بفعل الرياح الشديدة» .

وجلس نمر بجانب شقيقه، وانطلقت بهما السيارة دون أن ينطق بحرف. وصرخت في حلمها بلوعة حارقة .

ــ مات نمر !

«ولعل عقلى الباطن كان يختزن تلك المعلومة المألوفة فى تفسير الأحلام وهى التنبؤ بموت الإنسان الحى إذا رأيناه فى الحلم يذهب مع أحد الأموات واستيقظت على أنة عميقة مشبعة بحزن عميق .

وبقيت على خوف وتوجس طيلة الأيام القليلة التي سبقت الفاجعة. ثم جاء الخبر. وتهاوى جانبى الأيمن. نفس الحالة التي عرتنى ساعة تلقيت نعى إبراهيم. من أين تأتى كل الدموع ؟ ثلاثة أيام متواصلة وفى بكاء متواصل. شىء لا يصدق .

ولكن حياة هذه الشاعرة وشعرها كان فيه ماهو أكثر من الدموع .

الهمس والهتاف

كانت أم كلثوم تبدأ الغناء يوم الخميس الأول من كل شهر. وتستمر حفلاتها الغنائية الشهرية فى الشتاء. وتبدأ فى أكتوبر مع دخول المدارس. وتتوقف فى الصيف مع الراحة والاصطياف. وكان الشاعر الرقيق كامل الشناوى يقول: ان أم كلثوم تبدأ السنة الغنائية بحفلتها فى الخميس الأول من أكتوبر.

وقد انتظمت حفلاتها الرائعة، عدة أجيال. ويمكن قياسا على وصف كامل الشناوى أن نقول أن السنة الكلامية أيضا فى مصر تبدأ فى أكتوبر من كل عام. وقد تبدأ متقدمة فى سبتمبر بعد العطلة. وفى شهر سبتمبر بالذات تتزاحم اللقاءات والندوات والمؤتمرات. وكنت فى ما مضى أقبل عليها، ولكننى شبعت من أكثرها، وخاصة أن الوجوه عرفتها حتى حفظت أصواتها. وفى بعض الأعوام زاد النشاط فى ندوات القاهرة حتى أطلق عليها «مدينة الألف ندوة». لأنك كنت تخرج من ندوة لتدخل أخرى. وقد تجد الوجوه نفسها مع تغير الموضوع أو المكان. وقد اكتسبت خبرة من كثرة الحضور وشدة المشاركة. وتدربت على الحديث كثيرا والاستماع احيانا. فأصبحت حين أدخل أى ندوة أختار احد المكانين: المنصة أو آخر الصفوف. ومثل هذين المكانين وحدهما يكشفان لك القاعة بأكملها، فتشرف من القمة أو تدرك من المؤخرة أى حركة. وتدرك من القمة أو المؤخرة أى حديث أو مقاطعة، أو مؤامرة على الحديث أو المقاطعة. وتستطيع بأحد هذين المكانين المتازين أن تشارك أن رغبت أو تراقب إذا تعبت.

وفى أيام اقبالى على الندوات مستمعا أو مشاركا، تحمست للذهاب إلى المغرب، وكانت جماعة نشيطة من الأدباء والمثقفين قد دعت أكبر عدد من مثقفى وأدباء المشرق والمغرب. وكانت فرصة رائعة للقاء والحديث والجدل.

ولكننى تطيرت من كثرة عدد المدعوين للحديث. وتشاءمت أكثر لأن اقبال المستمعين فاق ما كنت اتصور. فقد ازدحمت قاعة واسعة بما يزيد على الالف مستمع، بين جالس ومشارك على المقعد نفسه وواقف. وخشيت أن ينطلق المشارقة فلا نسمع المغاربة. وان تحرض حشود المهستمعين على شهوة الكلام. وشاركنى المفكر اللبنانى الصديق العزيز منح الصلح بعض مخاوفى. وهو اديب ذواقة ذكى وأيضا من معتادى الندوات العربية. واتفقنا على أن نتآمر معا على

ضبط إيقـاع الحديث. حتى لا يغتـال المتحــدثـون الـوقت، أو حتى نكبح جماح المتحـدثين. واتفقنـا على أن ننشر بين الحاضرين كل صبـاح شعـارا نـزوره على الجاحظ وندعي أنه كـان من مأثوراته المجهولة. وابتكرنـا أول جاحظية، وادعينا انه ألفها، وكانت أولى هذه الجاحظيات:

— من حفر خطبة لأخيه وقع فيها.

ولكن احداً لم يهتم بما نقول. فألفنا جاحظية ثانية، وهى.

«كلمة فلكمة» ولكنها لم تجد شيئا. فأردفنا بجاحظية ثالثة:

— لو اطال أمل.. و إذا أو جز أخل.

ولم تنفع تلك الجاحظيات الثلاث، فأضفنا إليها جاحظية رابعة:

— متى استكلمتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا.

وانطلقت النـدوة. لا يعبأ أحد بأحـد حتى عدت لأكتب عنهـا، وعن خطبائهـا. فقلت ان الخطباء أنواع ثلاثة: خطيب اديب، وخطيب اريب وخطيب فاسق.

أمـا الاديب فهو من اتفق فكـره العميق مع ادبه الـرشيق. أما الاريب هـو من يتـلاعب بعواطف سـامعيه، ويعلـو ويهبط حتى يقبض على زمـام سامعيـه، ثم يشـدهم إليه كما يشـاء. ولكننى اكتشفت فى تلك الندوة الحافلـة نوعـا ثالثـا من الخطبـاء، هو الخطيب الفـاسق، وهـو يعلـو ويهبط، ويجوس ويدوس، ويـدخل ليخـرج، ويخرج ليدخل، ويستمـر فى الحديث الدائرى لا يعبأ بما قـد ينزلـه على مستمعيه من ملل أو تعب. وتستبد به شهـوة الحديث كالنيران العارمة، فلا يهدأ حتى يضيع الموضوع من سـامعيه. وقد طال صبرهم. وبـدأ عليه طيش السعادة بأنه فاز فى النهاية بالميكرفون.

وقد كنت أظن أن ظـاهرة الخطيب الفـاسق مقصورة على خطباء العـربية لأن لغتنا الجميلـة مغرمـة بالبـديع والبيان، ولكننى بعـد أعوام اكتشفـت أن خطباء الاسبانية أيضـا، لأنها أيضـا لغة موسيقية جميلـة. مخضبة بالشاعرية والصور. وبعد حضـورى كثيرا من المؤتمرات فى أمريكا اللاتينيـة اكتشفت أن اقصر خطبة فى ساعة. وانهم يكـرهون البرقيات أو يحتقرونها. واكتشفت أن عنـدهم لازمة فى كل خطبـة. حين يقول الخطيب بعـد سـاعة كلمـة: «افينـالتى». ومعناهـا.. وفى «النهايـة» وسوف تخدعك تلك الكلمـة لو كنت تسمع خطيبا بـالاسبانيـة يقولها لأول مرة. لأن الخطيب عنـدهم حين يقول «وفى النهـاية» لايعنى شيئا سـوى انه سوف يستأنف الحديث.

وقد حصفتنـى خبرة الندوات والمؤتمرات فى مواسـم الكلام وتـوالى السنوات الكـلامية. حتى اكتشفت أن للمثقفين عـالمهم ولابناء البلـد من ابناء الشعب لغـة

ثانية. وبينما يفضل المثقفون الهتاف، يفضل أبناء البلد الهمس والاختصار. وهدتني دراسة ذكية للدكتور سيد عويس إلى ما سماه «هتاف الصامتين». فقد توافر على تحليل تلك الجمل القصيرة التى يلجأ إليها ابناء البلد الشعبيون إلى المساجد والدعاء وطلب الشفاعة. واكتشف الباحث لونا مجهولا من «الثقافة الشعبية» تكشف عن عالم غزير من الاحاسيس والمشاعر. وكان فضل الدكتور سيد عويس انه لم يكتف فى دراسة الثقافة بكتب المثقفين، لأنه بحث عن مغزى تلك العبارات الكاشفة عن المشاعر والاحاسيس. وأكثرها شديد الاختزان عميق المعنى. وهجر الباحث الكتب والمكتبات. والصحف والمجلات. ليسمع ما يقال فى الحارة. أو القرية. والمقهى، بل المسارح، والمحاكم والسجون.

وكان اكتشافه لظاهرة تفشت فى القاهرة داخل التكسيات. لأنه لاحظ أن كثيرين يكتبون عبارات عليها. أو يعلقونها داخلها، وجمع الباحث أكثرها لكثرة انتشارها. والغريب انه وجد أغانى أم كلثوم قد فازت بنصيب الأسد. وعلى التاكسيات القاهرية نقشت بعض الجمل أو الكلمات ومنها «الحب كده» و«الهوى هوايا» و «أنت الحب» و «أهل الهوى مساكين» و «زى الهواى يا حبيبى واه من الهوى» و «جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح» و «أمل حياتى» و«سهران لوحدى» و «ما أطال النوم عمرا» و «من فرحتى لابنام ولا باصحى» ثم «كايدة العزال أنا من يومى» أو «كايدة العزال ياسكينة» ولم يكشف صاحب السيارة عن حقيقة سكينة المذكورة.

وقد يترنم هتاف الصامتين أو هيمس المساكين بالحب أو المرأة، وقد يترنم بالشكوى والعتاب. لأن بعض الجمل المنقوشة كان فيها:

— «أروح لمين».

— ثم.. «بلاش اسيه ارحم عينية».

و«قبلته. نسيت انى خاصمته».

و«هجرتك. يمكن انسى هواك».

و «ياهاجرنى»

و «تفيد بايه ياندم وتعمل ايه يا عتاب».

وبعض الكلمات المنقوشة فيها طرائف تكشف عن الخوف التقليدى من الحسد، مثل: «يا ناس ياشر كفاية قر» أو «بلاش تبص لى بعين ردية، وشوف اللى اندفع فيه». ولكن الاغلبية العظمى والكاسحة من أغانى أم كلثوم سيدة الغناء عن المرأة والحب والهيام والخصام وأجملها بالطبع:

— «أنت عمرى».

٥٦

امرأة واحدة تــكـفى ..

.. وبــاريس من جــديــد وابــل المطــر. قلت لنفسى وأنــا اهرول الخطى :

– هكذا مضت اربعون عاما على زيارتى الاولى لعاصمة النور.

وتوقفت مضطـرا لأنقل كاميرا الفيديـو الثقيلة لانها طـراز قديم من كتف إلى كتف.

– شىء واحــد لا يستطيع الانســان ان يـوقفه هــو الــزمن. وأخيرا عــدت إلى باريس كأننى لم أغادرها.

انها الألفة القديمة.

وهى أقوى من الحب وأكثر ، لأن الحب قد ينتهى ويطـويه الزمن، والألفة هـى التي تستمر ولعلنى اصبحت الآن أحمل جـزءا من باريس معى أينما ذهبت، فعلى كثرة اسفارى وعشقى للسفــر بين العواصم العديدة لم تنطبع مــدينة فى ذاكرتى وذكرياتى مثلما انطبعت باريس.

وقد يكون السبب أيضــا اننى عرفتها وأحببتها فى صدر الشبــاب. وقد يكون السبب أيضـــا اننى اتمسح فى أيام الشبــاب طبعا كما يتمسح القط بصــاحبه ، أو اننى اتحايل على حبى القديم . وقد يكون هــذا السر هو أننى أتجنب أحياء باريس السياحية ، وأفضل أوكارها الثقافية ، ومعارضـها ومتاحفها، ومكتباتها .

ومازلت اذكر أيام فانسان اوريـول أول رئيس جمهورية لفرنسا بعد الحرب حين التقى بأول وفد صـحفى مصرى ، فقال له :

– باريس ايها السـادة ليست هى «الفولى بورجيه» وليست كلها ملاهى .

ومن أيـــامهـــا أصبحت أفضل الحى الـــلاتينــى ، حيث شـــارع المدارس والسوربون والكوليج دى فرانس ومكتبة سانت جنفيفيث ، ثم حى سان جرمان دى بـريه على أيـام سيمون دى بــوفــوار وجان بــول سارتــر. وأصبحت أفضل الشاطىء الايسر على الشاطىء الايمن من نهر السين .

وقد يكــون هذا هو السبب الذى ابتكـرت فيه لنفسى . منذ سنــوات ، مشروعا يختلف عن مشـــاريع وخطط السيــاح والعــابـرين . وصرت احمل معى الكــاميرا الثقيلة أصـــور الأماكن التى عشت فيهــا سنوات اراهــا وأرى اننى فيها . ولكننى

بعد جولات أصبحت أركز على الشوارع التى سكنت فيها . ولم يعد يكفينى ميدان السوربون ، حيث لايزال تمثال اوجست كونت الذى سقط فى أحداث الطلاب عام ٦٨ ثم أعيد فى نفس الميدان فى موقع آخر . ولم أعد أصور شارع لافيانتين بين سان جاك وجى لوساك حيث كتب فيكتور هوجو قصيدة رائعة عن طفولته تحمل نفس هذا الاسم. وكنت ابقى هناك ايضا فى فندق لى كابوسيد ، وهو صغير جدا ، فى غرفة أصغر تطل نافذتها الداخلية والوحيدة على معهد لتعليم الموسيقى . ولم تكن الشمس تدخل الغرفة ، ولكننى أذكر اننى كنت اكتفى بصوت الموسيقى الذى يتصاعد إلى غرفتى من التدريب على ألحان شوبان، وكانت اشعة الموسيقى تدفئنى ، وما كنت فى أيام الشباب احتاج إلى دفء أكثر .

وأيامها أيضا محوت أمية عينى ، وتعرفت إلى متعة الرسم وروعة اللون ، فكنت أمضى يوما كاملا فى متحف اللوفر . وكان الوقت يمضى فلا أحس بحاجة الى طعام ، لاننى كنت أخرج من اللوفر ممتلئا . واكتشفت شيئا فى الحياة اسمه «الغذاء» الروحى . امتع وأروع .

ومنذ سنوات تغيرت خططى فى باريس وتطورت فكرتى ، فقررت ان اصور الاماكن التى أقام فيها المصريون من قبلى . وصعدت إلى عام ١٨٢٦ ، تاريخ أول بعثة مدرسية قادها شيخنا المجدد رفاعة الطهطاوى ، وكان محمد على حريصا ان يكون للبعثة شيخ . وهكذا صورت شارع كلونى ، حيث كان أول بيت خصصه محمد على لمبيت مبعوثيه .

ولم أعد أحس ان زيارتى لباريس تكتمل دون أن أمر على شارع ديكارت ـ فى الحى اللاتينى ـ ما بين شارع المدارس وميدان البانتيون حيث مدرسة البولتكنيك أو الهندسة العسكرية . حيث درس فى نفس البعثة المهندس محمد مظهر ، بانى منارة الاسكندرية والقناطر الخيرية ووزير الرى والاشغال فى عهد الخديوى توفيق . وكان مظهر تلميذا نجيبا للفيلسوف اوجست كونت . وكان معيدا فى البولتكنيك. ولم تعد زيارتى تكتمل حتى أقف أمام شارع مسيولى برانسى ، بين شارعى سان ميشيل وسان جرمان ، حيث لايزال متحف اوجست كونت قائما حتى الآن . وكان فى الأصل بيته، ثم مدرسته الاهلية الخاصة ، التى لا يزالون يحفظون فيها غرف ومقاعد الدراسة. وهناك تردد مظهر على كونت مع طلاب آخرين من تركيا والمكسيك. واكتشفت ان هذا الفيلسوف الكبير مؤسس مذهب الوضعية له كتاب مغمور ، وليس معروفا لأنه لم يترجم ، وعنوانه «الاسلام» ، وفيه عقل وانصاف . وقد يكون للوصال بين التلميذ والاستاذ أكثر

من ربع قرن صلة بهذا الكتاب المنصف عن الاسلام من فيلسوف ملأ الغرب بصيته ونفوذه .

ولاتكتمل زيارتى لباريس مرة أو مرتين كل عام إلا بالوقوف عند مكتبة سانت جنفيفيث . وهى أحب مكتبات باريس إلى قلبى ، وأفضلها على المكتبة الوطنية فى شارع رشيليو ، أو مكتبة السوربون العامرة . وقد يكون السبب انها كانت تسهر ليلا حتى العاشرة مساء. وقد يكون السبب أنهم وضعوا على واجهتها العريضة لوحات رخامية باسماء ائمة الفكر فى العالم، ومنهم ارسطو وافلاطون وديكارت وارستوفان وسوتوكليس . ووضعوا بنفس التقدير والاحترام لوحات باسماء ابن سينا وابن الهيثم والرازى وابن خلدون والادريسى . ولا أكاد أصعد سلالمها الرخامية القديمة النظيفة حتى تهب على رائحة عطر قديم ، تكاد تفوح من وراء الجدران . لأنها قصة حب دام بين طه حسين وزوجته سوزان ، حين كان يطلب العلم قبلى بخمسين عاما. وحين انتبهت إدارة المكتبة ان الفتاة تقرأ لزميلها بصوت مسموع ، خصصوا لهما غرفة هادئة . وفى هذه الغرفة كان صوت سوزان ينساب إلى عقل طه حسين ثم قلبه . وبدأت أول قصة بين الأديب وزوجته فى مكتبة ، وملكت عليه كل شىء ، فتزوجها وعاد بها إلى مصر . وأصبح طه حسين من الأدباء القلائل الذين يؤمنون ان امرأة واحدة تكفى حين يجتمع للحب العقل والعاطفة ويتصل الحب بالعشرة والمودة والحب الذى يدوم .

وفى ختام جولتى توقفت طويلا أمام شارع لافيانتين رقم ١٤ حيث سكنت . ولم أجرؤ على اقتحام باب البيت لأصل إلى غرفتى القديمة الصغيرة فى الحى اللاتينى . ولاشك أن شخصا آخر لا أعرفه يسكنها ، والمؤكد أنه يستعين بصوت الموسيقى على قلة الشمس . وقد اطمأننت عليه ، لأن معهد تعليم الموسيقى لا يزال باقيا فى مكانه القديم

٥٧

سيدة القصر الأولى

هوايتى الغريبة التعرف إلى تاريخ البيوت والقصور والشوارع والحدائق والفنادق، حتى أصبحت لا أطيق العبور فى أى شارع من دون «البطاقة» فى المبانى. وقد لاحقتنى هوايتى الغريبة فى باريس عندما أقمت فيها عدة سنوات. فواصلت قراءاتى عن تاريخ باريس وشوارعها ومتاحفها وقصورها القديمة.

وكنت كلما مررت على فندق «لويتسيا»، وهذا هو اسم باريس القديم أتذكر أنه كان مقرا للقيادة الألمانية حين احتلت قوات هتلر باريس. ولم أدخل فندق لويتسيا فى شارع راسباى الكبير إلا مرة واحدة، عندما أقاموا حفلا من حفلات ليالى الأحد من حفلات الرقص للطلاب أيام الشباب. ومرت أعوام عديدة حتى العام الماضى لأجلس فى غرفتى فى فندق لويتسيا. وهى المرأة الوحيدة التى أسعد فيها بالبقاء فى أى فندق. لأن متعة باريس الكبرى فى شوارعها الجميلة، خصوصا أيام الربيع.

ولكن السبب كان وجيها فى مايو (آيار) الماضى لأننى كنت أشهد فى التليفزيون حفل تسليم الرئاسة للرئيس الجديد جاك شيراك. وتوديع الرئيس السابق فرانسوا ميتران.. فى قصر الاليزيه.

وكان البرنامج مدهشا وممتعا ومثيرا، لأنهم جاؤوا بعشرات المعلقين والمؤرخين، وانتشرت عشرات الكاميرات حتى ينقلوا للمشاهد كل شىء من قوس النصر إلى قصر الاليزيه.

ولم يتركوا ركنا واحدا فى قصر الأليزيه. بالكاميرات الذكية والتعليقات الأذكى ليعرضوا تاريخ قصر الرئاسة.

وكانت المفاجأة الكبرى، حين عرضوا أيضا بعض الأسرار العسكرية، لأن الدور الأرضى يمثل أخطر مكان فى فرنسا، ففى الدور الأرضى مقر قيادة الأسلحة الذرية الفرنسية. ويملك الرئيس وحده مفتاح الدور الأرضى. وكان الرئيس ميتران لا يحب ـ كما قالوا ـ تعليق هذا المفتاح فى رقبته. وحدث ذات مرة أن نسى المفتاح وكانت مشكلة ومنذ أيام الرئيس ديجول. حين بدأ إنتاج فرنسا للأسلحة الذرية أصبح المفتاح «الخطير» يتنقل من رقبة رئيس إلى رقبة رئيس آخر.

ولكن مراسم الاحتفال جذبت الجمهـور إلى المشهد الذى لا يتكرر إلا كل سبع سنوات . وجلست إلى مقعـدى ومعى القلم أو بعض مـا أراه أو أسمعه. وأتنقل بين فناء القصر أو قـاعاته ومكـاتبه ، وبعض ذكرياتـه . فقد شـهد قصر الاليـزيه ٢١ رئيسـا للجمهوريـة ، وخمس جمهوريـات ، كما شـهد من قبل مشـاهير فرنسـا وأوروبـا من القصر الـروسى ألكسنـدر إلى مترينخ داهية أوروبـا النمسـاوى ، وشـهد الماريشال مكماهـون ، كما شـهد الجنرال ديجول ، بل شـهد كـذلك إبراهيم باشا أثنـاء زيارته لباريس عام ١٨٤٠ ، وبعدهـا الخديوى إسماعيل عام ١٨٩٧ قبل عامين من افتتـاح قناة السـويس ، وكان الخديوى يقـوم بجولتـه الأوروبية ليدعو ملوك ورؤساء أوروبا . وكانت الدعوة موجهة للامبراطور نابليون الثالث ، فاكتفى بإرسال زوجته أوبينى الامبراطورة التى جاءت مصر ـ كما هو معروف ـ فى افتتاح القناة .

ولم يكن قصر الاليـزيـه فى الأصل مـن قصـور الملكيـة ، لأن الملـوك كـانـوا يفضلون ضـاحية فـرساى ، ففيهـا القصر الجميل والحديقة الـواسعة والغـابة الشاسعة . فالقصر للاقامة . والحديقة للنزهة ، والغابة للصيد . ومنذ بدأت إقامة الاليزيه فوق أحراش وبرك مائية عـام ١٧١٨ ، حيث أقامه الدوق دوفريه ، وكان والده من الاثرياء ومن بطانة الملك لـويس الرابع عشر . وأقرض دوفريه ابنه الذى وصفه الأديب المعاصر سان سيمون بأنه كان رجلا عاديا أو حتى دون المستوى ، ولكنه كـان متفوقـا فى النفاق . وبلغ من ثـروته أن دفع دوطـة أو مهرا لـزواجه مليونا ومائة وخمسين ألفا من الجنيهات.

ولكن زواجـه كان زواج عقل ، لا زواج عـاطفة ، وعكفت زوجتـه على السلوى بالفنـــــــون والآداب ، « بينمـــا تركت لزوجهـا اللذائذ الدنيا مـع غـيرها من المتسامحات !».

وأنعم الملك على صديقـه بالأراضى الشـاسعة التى أقـام عليها قصره المنيف وحديقته الواسعة . ويقول سان سيمون . ويبدو أنه كان شامتا ، ان هذا المليونير القزم كـان لا يتمتع بشىء لأن معدته كـانت ضعيفة ، وكـان لا يأكل غير المسلوق والمخلى . ويضيف المؤرخ فى شراسة :

«وكانت أى شائعـة عن سيدة شـهيرة تتهمها بعلاقة عاطفيـة مع هذا المليونير القزم شهادة مؤكدة بحسن سيرها وسلوكها» !

ولكن القصر انتقل إلى سيـدة من أجمل سيـدات باريس، وهى الماركيـزة دى بومبادور التى اشترته من عائلة الـدوق. وكانت مدام دى بومبادور الشهيرة هى «المحظيـة الرسميـة للملك لـويس الخامس عشر» وكان لابـد للقصر الجميل من

سيدة جميلة. وكانت شديدة الجمال وليس هذا وحده خطيرا ، لأن ذكاءها كان أخطر . ويقول المؤرخ جاك ليفرون إنها كانت مدبرة فى أموالها الخاصة ومبذرة فى أموال الدولة . وفى لحظة صفاء أنعم عليها الملك لويس الخامس عشر بقطعة أرض أخرى لتوسيع الحديقة . وشاع أن الملك أهدى محظيته أرضا من أملاك الدولة . وغضب الكثيرون. وكتب بعضهم الشتائم المقذعة ، ولكنهم راعوا اللياقة لأنها فى النهاية سيدة ، فكتبوا شتائمهم على بوابة الأليزيه باللغة اللاتينية .

وكانت الماركيزة تمتص بذكائها الشديد سحب الغضب ولم تجرؤ الماركيزة على حضور حفل إقامة تمثال لويس فى ٢٣ فبراير (شباط) ١٧٦٣. ولكن الصدفة تشاء أن ينتقل التمثال الضخم أمام قصر دوفريه أو قصر دى بومبادور . فيقرر العمال الاستراحة حتى الصباح لاستئناف نقل التمثال الثقيل . ولم يكد الباريسيون يعلمون بقصة ركن التمثال فى الطريق أمام قصر الاليزيه حيث تقيم الماركيزة حتى انتشرت الشائعات كالحريق :

– إلحقوا .. الملك عند الماركيزة .

ولم تكن دى بومبادور تكتفى بجمالها ، لأنها كانت أول مديرة للثقافة فى فرنسا كما يقولون ، لأنها عقدت صلات وثيقة مع فولتير ومونتيسسيكو وديدرو ، وكانت السبب فى دخول فولتير إلى الأكاديمية . وأدركت بذكائها جو الغضب الشعبى ، فأوصت بقصر الاليزيه إلى الملك . وعندما خوت الخزينة الملكية بسبب الحروب والبذخ باع قصر الاليزيه إلى وزير ماليته . وخشى الوزير أن يعرف الشعب أنه يملك الملايين ، فاشترى القصر من الملك حتى لايغضبه ، وباع القصر فور الشراء إلى أحد الأثرياء من أصحاب البنوك ، حتى لا يغضب الشعب .

وانتقل الاليزيه من الماركيزة دى بومبادور إلى الملك ، إلى الوزير ثم إلى نيقولا بوجون من أصحاب البنوك .

وكان بوجون صاحب مزاج . فأقام بحيرة فى الحديقة . ونقلها من الطراز الفرنسى إلى موضة الفترة وهى الحديقة الانجليزية. ولكن مؤرخا آخر ، حاقدا أيضا ، كتب يقول إن صاحب القصر كان ضعيف البصر وكان لايتمتع كثيرا أو قليلا بروائع الفنون فى لوحات روبنز وتيتان وفان لو .. أشهر رسامى هذا القصر .

وكان لابد للقصر من سيدة. وحين مات المليونير بوجون انتقل القصر إلى دوقة دورليان ابنة عم الملك ، وأطلقت على القصر «إليزيه بوربون»، نسبة إلى آل بوربون . وأنفقت عليه الآلاف، واهتمت بالحديقة الواسعة . ولكن لعنة الاليزيه داهمتها ، فمات زوجها غرقا .

وانقلبت دوقة دورليان إلى هواية شاعت بين الأرستقراطية النسائية، وهى تحضير الأرواح. واجتمعت اللجنة الملكية لبحث ظاهرة انتشار التنويم المغناطيسى بين النساء. وقررت اللجنة تحريم التنويم. ونجحت الدوقة فى البحث عن طريقة لتمضية وقتها فى ذلك القصر المنيف.

وعندما هبت الثورة الكبرى العنيفة وأعدم الملك، أصدرت الثورة قرارا بإعدامها أيضا ومصادرة أملاكها. وأسرعت الدوقة بخطاب تطلب اعتبارها مواطنة عادية، ووهبت الإليزيه وبقية ممتلكاتها للشعب. ورفضت لجان «الانقاذ» خطاب الدوقة. ولكنها نجت من المقصلة. واستولت الثورة على القصر ليصبح مقرا لمطبعتها.

وحين عادت الدوقة التى أصبحت مواطنة، بعد أن هدأت الثورة لم تستطع تحمل نفقات القصر، وباعته ليتحول إلى أغرب مصير لم يتوقعه أحد.

فقد تحول قصر الاليزيه إلى ملهى ليلى شاعت فيه رقصة الفالس. وعاد الأغنياء القدامى والجدد يرقصون ويشتمون الثورة. بينما دخل فى اللغة الفرنسية هذا التعبير الجديد: «الناس.. بتوع زمان».

٥٨

ليالى الأنس في فيينا

كانت أول سفينة تفتتح قناة السويس رسميا ولأول مرة تحمل امرأة . هى الامبراطورة أوجينى ، زوجة الامبراطور نابليون الثالث . وفى الثامنة من صباح ١٧ نوفمبر ١٨٧٩ تحقق ما طلبته الامبراطورة أوجينى من الخديوى إسماعيل فقد استجاب بشهامة لرجائها الرقيق بأن تتقدم سفينتها «النسر» موكب السفن الست والأربعين التى شقت لأول مرة قناة السويس فى الافتتاح التاريخى . ودخلت «النسر» من بورسعيد على البحر الأبيض فى اتجاه السويس فى الجنوب على البحر الأحمر .

وبعد سفينة أوجينى بألف متر تقدمت السفينة الثانية «جوزيف» ، وكانت تحمل امبراطور النمسا فرانسوا جوزيف . وتلاه طبقا لمراسم التشريف ولى عهد بروسيا ثم شقيق ملك هولنده ثم سفير روسيا ثم سفير إنجلترا . وكانت آخر سفينة من السفن التى تحمل ألف مدعو ، فيهم علماء وفنانون ورسامون وموسيقيون ، تحمل فرناندس ديلسبس وأعضاء مجلس إدارة شركة قناة السويس .

ولولا طلب أوجينى كان يمكن لامبراطور النمسا أن يتقدم الجميع . وكان تشريف فرانسوا جوزيف صديق الخديوى له وقع كبير فى نفسه . ولكن الامبراطور لم تدفعه الصداقة وحدها لتلبية دعوة الخديوى . وحين ذهب الخديوى إسماعيل فى جولته الأوربية لدعوة ملوك وأباطرة أوروبا قبل عامين اتجه تفكير الامبراطور فرانسوا جوزيف إلى الاكتفاء بارسال ولى عهده . وكانت الدول الأوروبية لها حسابات أخرى ، لأنها كانت لاتريد إغضاب الباب العالى الذى تشكك فى أن إسماعيل يريد أن يحول الاحتفال العالمى بافتتاح القناة إلى مايشبه المظاهرة الدولية لتأييده فى الاستقلال بمصر عن الباب العالى . وقد اكتفت بعض الدول الحذرة ولحسابات سياسية بعيدة مثل روسيا وبريطانيا بارسال سفيريها فى القسطنطينية إلى حفل الافتتاح . وقرر ملك هولنده إرسال شقيقه . وقرر نابليون الثالث ارسال أوجينى زوجته لأنه يرسلها إلى مثل هذه الاحتفالات الرسمية ، وكانت مندوبته من قبل فى إيطاليا واسبانيا . ولكن الامبراطور فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا كانت له أسبابه الأخرى فى قبول الدعوة .

فقد خشى بلاط الامبراطور النمساوى لو اكتفى بارسال ولى عهده ، فسوف يتقدمه ولى عهد بروسيا فى البروتوكول . وكان بين النمسا وبروسيا ماصنع

الحداد . وبين الدولتين منافسة شديدة على وسط أوروبا، لأن بروسيا قوية صاعدة وتأكد ذلك بفوزها فى حرب ١٨٧٠ على فرنسا، والنمسا والمجر امبراطورية عجوز تعيش على سالف المجد القديم. وحينئذ قرر الامبراطور فرانسوا جوزيف أن يلبى دعوة صديقه الخديوى إسماعيل لعصفورين معا. وفى حفل الافتتاح تقدمت سفينة النمسا سفينة بروسيا اللتان لم يفصلهما غير ألف متر أثناء موكب الاحتفال .

وفى حفل العشاء الأسطورى الذى أقامه الخديوى اسماعيل فى الاسماعيلية ، جلست الامبراطورة فرانسوا جوزيف إلى يساره .

فى أيامها كانت الامبراطورية العجوز (النمساوية الهنجارية) تعيش على أمجادها القديمة ، فأصبحت فيينا عاصمة ثقافية ، وأعاد الموسيقار شتراوس رقصة الفالس وألحان الدانوب ، وكان الجميع يرقصون الفالس . وبينما كان إسماعيل يحب باريس كان يعشق فيينا. ولم يكن غريبا أن يستعين إسماعيل بالمهندسين النمساويين لبناء أكثر قصوره، بينما كان يستعين بالفرنسيين لإعادة تنظيم القاهرة وبناء الحدائق ، مثل الأزبكية والأورمان .

وكان فرانسوا جوزيف يشترك مع صديقه الخديوى إسماعيل فى الشغف الشديد بإقامة المبانى وتشييد القصور . ففى عهده غير وجه فيينا تماما كما غير إسماعيل وجه القاهرة . وكما بنى الامبراطور أشهر أوبرا فى فيينا ، أقام الخديوى دار الأوبرا فى القاهرة . ولكن إسماعيل ضرب الرقم القياسى فى سرعة بناء القصور والأوبرا والمسرح الكوميدى . ولم يكن عجيبا أن تبنى الأوبرا المصرية فى ستة شهور ، وهو رقم قياسى بكل المقاييس . وقد نبه الخديوى بعد ذلك لجنة تنظيم الاحتفال أنه لم يستطع بناء أكثر من ثمانية قصور لاستقبال الملوك والأمراء، ولولا ذلك لزاد عدد المدعوين عن ألف مدعو.

وبينما كانت فيينا ترقص الفالس . كانت المرأة الارستقراطية تتبارى فى الأناقة والعطور . وليس غريبا أن يكتب أحد الأدباء المعاصرين لفرانسوا جوزيف: ليس الجديد هو تجديد فيينا بشوارعها العريضة التى تطل عليها القصور والحدائق ، بل الجديد أن شوارعها «أصبحت معطرة». وكان يمكن ألا أصدق هذا الوصف الغريب للشوارع ، لولا اننى شممت بنفسى هذا الوصف. وكنت أجوس وأتجول كعادتى فى شوارع باريس التى أعرفها ، وكان أندريه مالرو وزير الثقافة قد أمر بتبييض كل بيوتها. وكانت المفاجأة اننى شممت عطر باريس، لكثرة السيدات والفتيات المتنزهات فى الشانزلزيه. وكان العطر يفوح من كثرة المتنزهات ، وعطورهن الفواحة الزاعقة . وقد أدرك صانعو العطور بذكاء نفوذ العطر النسائى حين يكون العطر قويا هجوميا أو استعراضيا لايرحم أنف الفضولى المتسكع . ولكن رقصة الفالس وحفلات الموسيقى وظهور الأوبريت

الخفيفة المليئة بالرقصات والفكاهة بدلا من تراجيديا الأوبرا الثقيلة، جعلت فيينا العاصمة الامبراطورية عاصمة ثقافية، وعاصمة الانس أيضا. وتبارت المرأة في الأناقة، بشد الكورسيه على الخصر، وفتح الديكولتيه على الصدر. أو استعراض المجوهرات الموروثة، واستخدام العطور النفاذة، ما جعل المرأة الموضوع المحبب عند مشاهير الرسامين. وأشهرهم كليمنت. ومازالت لوحاته حتى الآن من أروع لوحات تصوير المرأة في تاريخ الرسم. ولكن كل ذلك الترف أو التلف كان يخفي الوجه الآخر للامبراطورية قبل انهيارها. وكانت عائلة الامبراطور نفسه تغرق في مباهجها أحزانها «الحقيقية». فلم يكن ولى العهد على وفاق مع والده. وكان يقول إن «جدارا سميكا من الزجاج يفصل بيني وبين أبي». وكان ولى العهد أكثر عطفا على مطالب المجر، الدولة الثانية في الامبراطورية مع النمسا. وكان المجريون يطالبون أن يكون لهم جيش مستقل. وكان الامبراطور يرفض. وانتهت المأساة بانتحار ولى العهد مع حبيبته في إحدى الغابات مثل أبطال التراجيديات القديمة. وتعرضت الامبراطورية بعد ذلك للاغتيال على يد فوضوى حين انتشر المذهب الفوضوى من روسيا إلى ربوع أوروبا.

وفي هذا الجو الامبراطوري الذى كانت تتفكك فيه الامبراطورية النمساوية الهنجارية ظهرت أنواع جديدة من النساء، وأهمها المرأة الهستيرية التي تعاني من الفراغ رغم الترف والبذخ. وفي هذا الجو ظهر أول مؤسس لطب التحليل النفسي: سيجموند فرويد. وكان طبيبا ثم محللا نفسيا. واهتدى من مرضاه وأغلبهن من النساء أن الرجال يعملون والنساء يتحدثن، وأن الثرثرة «واللت والعجن» وتبادل الشكوى وحتى النميمة ليست مجرد هواية فارغة، كما يشيع خصوم المرأة. فقد لاحظ فرويد أن الكلام عند المرأة لون من الفضفضة حين تفيض بالمشاكل. ولاحظ أيضا أن الصداقة بين المرأة والمرأة لاتتوثق إلا بالحديث. وأوحت المرأة المتأزمة والهستيرية لفرويد طريقة علاج الأمراض النفسية بالسماح لمرضاه بالاسترسال في الاعترافات. وبعد أن كان التنويم المغناطيسي مجرد فقرة في استعراضات السيرك، استعان فرويد بالتنويم. والغرض أن يكتشف الطبيب المكبوت والمخفي والمختفي. واستعان بتحليل الأحلام، ففيها تنطلق النفس بعيدا عن المعقول والعقل. واكتشف أيضا أن زلات اللسان لها معنى لأنها تكشف عن الرغبات المكبوتة.

وقد بالغ فرويد في دور الجنس، وانشق عليه بعض تلاميذه. ولكن مدرسة التحليل النفسي ظلت ستين عاما رائجة في أوروبا، ويطلقون عليها مدرسة فيينا، لأن عاصمة النمسا كانت في حكم فرانسوا جوزيف عاصمة الفالس، وعاصمة التحليل النفسي، ومازالت عاصمة مهمة في الرسم والموسيقى.

٥٩

دمــوع

الكونتيسة

قد لايذكر أحد الآن اسم رينيه كوتي أحد رؤساء فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية . فقد كان اسم ديجول يملأ فرنسا . وكان رينيه كوتي رئيسا فرنسيا عاديا . لايملك ولا يحكم . وكان يبدو عام ١٩٥٠ بنظارته الطبية الفضية و وجهه المستدير وهدوئه ودماثته ، كانه ناظر مدرسة . وكان الفرنسيون لا يهتمون بأخبار رئيس الجمهورية ، لأن رؤساء الأحزاب أهم وأقوى . وكانوا أحيانا يذكرونه بالتشنيع على زوجته . وكانت مثله سيدة مهذبة وفاضلة ، معتدلة الجمال .. ولكنها كانت سمينة جدا وكانت باريس عاصمة الموضة فى العالم تشعر بالخجل أحيانا ، لأن حرم السيد الرئيس مفرطة جدا فى السمنة . وكانوا يشنعون عليها أحيانا ، وبوقاحة ، ويقولون : «السيدة الأولى لاتجد فى باريس «كورسيها ، مقاسها». وكان عاديا فى هذه الفترة أن تتردد أخبار الرئيس أو حرم الرئيس فى الصحف ؛ لأن الرؤساء بعد الحرب لم يملكوا تلك السلطة الكبيرة ، التى أصبحت لهم بعد عام ١٩٥٨ ، حين عاد ديجول للحكم ، وعدل الدستور ، وجعل انتخاب الرئيس مباشرة من الشعب ، بدلا من البرلمان . وحين قابل الرئيس الفرنسى رينيه كوتي أول وفد صحافى مصرى يزور باريس عام ١٩٥٠ ، انطلق معهم ضاحكا . «إن باريس أيها السادة ليست الفولى برجيه» .

و«الفولى برجيه» كانت فرقة استعراضية راقصة من أشهر الفرق الاستعراضية فى العالم ، وكانت مقررة على كل سائح يزور باريس . ومازالت . لأن حى مونمارتر امتلأ بعد الحرب بالفرق الراقصة وبالملاهى الصاخبة ، وبالمقاهى حتى قيل «إن بين كل مقهى ومقهى فى مونمارتر يوجد مقهى ثالث .

ولكنى تعلمت من لفتة رينيه كوتى بعد أن قرأت تصريحه للصحافيين ألا أكتفى فى باريس بالأحياء المزدحمة بالملاهى أو المقاهى . واكتشفت أن هناك أحياء باريسية أخرى تكتظ بالمتاحف . وأغلب القصور الكبيرة التى تبقت من عصر الملوك والنبلاء ، مازالت باقية وتحولت إلى متاحف . وبينما كان حى الملاهى ، مونمارتر فى الضواحى البعيدة ، كانت القصور التى تحولت إلى متاحف فى قلب باريس القديمة ، وعلى الضفة اليمنى من نهر السين . وفى الحى الثانى القديم والعريق . وحكمة ذلك أن النبلاء كانوا يشيدون قصورهم قريبا من قصر الملك . وكان كثير من الملوك ، يقيمون فى «اللوفر» الذى أصبح أشهر متحف فى باريس ، ومن أشهر متاحف العالم . وقد أقام فيه شارل العاشر ، ثم هنرى الثانى والرابع ، ولويس الثالث عشر ، والرابع عشر ، ثم نابليون الأول ونابليون الثالث .

وأثناء الثورة الكبرى ، ومنذ الثورة تحول «اللوفر» متحفا ، بعد أن كان قصرا . وفى الأصل والبداية كان «قلعة» بناها الملك فيليب أوجست فى القرن الثالث عشر .

وعلى امتداد هذا الحى الثانى العريق ، وعلى الضفة الشرقية لنهر السين قامت قصــور النبــلاء وأصحــاب الألقاب . وكــان طبيعيــا هــذا القــرب بين قصر الملك وقصور النبلاء . وقــد أصبحت تلك القصور القديمة متاحف عــامرة ، ومنها ذلك القصر الذى تحول إلى «مكتبة باريس» التاريخيــة ، لتمتلىء بكل الصور والرسوم والخرائط والكتب ، ولتروى تاريخ باريس عبر العصور . ويمكن أن تطلق على هذا الحى القديم ، من اللوفــر إلى بلدية باريس ، حى الذاكرة الفــرنسية . لأن فيه أيضا متحفا شــهيرا وقديما اسمه : «كارنفــاليه» . وكان فى الأصل قصرا منيفا للماركيزة دى سفينييه احدى أشهر أديبات القرن السابع عشر . وقد جمعوا فيه ماتبقى من آثار عصر النبلاء والنبيلات ، والدوقات ، والكونتيسات .

وهم فى باريس ، لا يتــوقفون عن الاحتفــال بأى ذكرى مئويــة . على الميلاد أو الوفاة . وبــالذكرى المئة أو المئتين أو المئــوية الثالثة . وخــلال شــهور مع الموسم الثقافى فى أكتوبر (تشرين الأول) القادم سوف يحتفلون بمرور ثلاثمائة عام على ساكنة القصر ـ المتحف : الماركيزة دى سفينييه .

وقد عاشت الماركيــزة دى سفينييه فى عهد لويس الســادس عشر ، وماتت عام ١٦٩٦ . وسجل رســامو عصرهــا جمالها الفتان فى لــوحات شــهيرة . وانتشرت فى عصرها «مــوضة» الصالــونات الأدبية والفنية والفكــرية ، التى تقودهــا أديبة أو متأدبة . فنانة أو محبة للفنون . واستمر تقليــد الصالونات الأدبية ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكان أعرق النبلاء ، هم نبلاء السيف ، وهم الفرسان الذين يحاربون مع الملك . ونبــلاء «نص نص» ، وبعضــهم كان يشــترى اللقب من باب الوجــاهة والفخفخة . ويسجل تاريخ الأدب الفــرنســى فى القرن السابع عشر أسماء سبع سيدات ، كان لهن صــالونات أدبية . وأشــهرهن مــدام دى رامبوييه . وكانت أمها إيطــالية ، وكان قصرها بجــوار اللوفر أيضا . وكــانت تقيم صــالونها الأدبى فى «الغرفة الــزرقاء» التى اشتهرت فى روايات المعاصرين . وكــان صــالون مدام دى لمبير أو الماركيــزة آن تيريز شــهيرا أيضــا . ومن أشــهر زبــائنه والمترددين عليه مونتسكيــو . ولها كتاب عن المرأة . وكان جديدا فى عصرها . وأيضــا صــالون مدام دى لافييت ، على ناصيــة شــارع فوجيرار . وكانوا يقــولون إن نصف أعضــاء الأكاديمية الفرنسية ، أعلى محفل ثقافى فى فرنسا ، من المترددين على صــالون مدام دى لافييت . وكــان الصــالــون الأدبى لأيــة سيدة محبــة لــلأدب والفنون يتميــز بالبذخ فى الضيــافة ، واللطف فى المجاملة ، وكــان مجرد بطاقة دعوة مــن صــالون ثالث ، هو صــالون مدام دى لمبير يعتبر شــهادة بأن المدعو أصبح مشــهورا . وأغلب الصــالــونات كان ينعقد يــومين فى الأسبوع . مرة للعشــاء مع الأدبــاء والمفكرين ، ومرة للسهرات الاجتماعية . وقــد منعت مدام دى لمبير لعب القمار فى قصرها . ولم

يشتهر صالون أدبى واحد بالمجون والخلاعة . لأن صاحبات الصالونات الأدبية كن يحاولن الكتابة أيضا . وكان الحديث المفضل فى فلسفة ديكارت وأدب بوالو . ولايهم العمق ولكن تكفى الأناقة فى الحديث والزينة معا . وكان الاهتمام بالأسلوب والموسيقى واللغة أكثر . وكان هذا العصر هو عصر الزخارف والبديع والتأنق . ولكن موليير الساخر كان يزور هذه الصالونات ليصطاد شخصياتها النادرة . ليكتشف البخيل حتى يصور هارباجون أشهر البخلاء . وانتهى إلى حملة مسرحية على المتحذلقات ، فى روايته الساخرة «النساء العالمات». وقد سبقه شابيرو فى روايته «أكاديمية النساء». وقد كتب موليير مسرحية بعنوان «المتحذلقات». ولكنه تأسف ؛ لأنه تسرع فى كتابتها . فعاد بمسرحية «النساء العالمات» ؛ ليصور حياة هذا النوع الجديد من نساء الصالونات ، بين الحذلقة والتكلف ، وادعاء البلاغة . وكاد يجهز بلسانه الطويل وفنه الرائع على هذا المجتمع ، الذى يجمع بين البخل والنفاق . وقد دوت مسرحية «النساء العالمات» كالقنبلة فى باريس . وعرضت فى عهد لويس الرابع عشر ٢٥٠ مرة. واستمرت فى ريبرتوار المسرح الكلاسيكى ، لأنها عرضت بعد لويس الرابع عشر ١٤٥٤ مرة .

ولكن موليير الساخر كان هجاء عنيفا وساخرا من كل شىء . فقد كانت دى سفينييه أديبة ، وماركيزة ورثت الثورة الطائلة واللقب الكبير من زواجها. وكان زوجها رجلا باهتا . ومثل كثير من النبلاء كان لاهيا وعابثا. ولو أن مؤلفا من هوليوود أراد أن يكتب فيلما عن مدام سفينييه لكفته الأحداث التى مرت بحياتها ؛ لأنها فقدت أباها ، قبل أن تحبو . ومات أبوها كما يموت كثير من نبلاء هذا العهد ، فى مبارزة . وفقدت أمها وهى فى السابعة وكفلها عمها الذى ورثت عنه أيضا ثروة طائلة وفقدت مدام سفينييه زوجها ؛ لأنه خانها . ومات زوجها كما مات أبوها أيضا فى مبارزة . وبدأت الأرملة الطروب الغنية فى الاهتمام بابنتها . ونذرت أن تحبها ، فأحبتها كما لم تحب امرأة ابنة لها . لأنها كانت ترسل إليها خطاباتها الأدبية المليئة بالطرائف والملاحظات الذكية ، لتعلق على كل ما يحدث فى باريس . وبلغت من بلاغة هذه الخطابات أن بقية الصالونات الأدبية كانت تحصل عليها لتقرأها فى حفلات القراءة . وظهر فى الأدب الفرنسى ما سموه «أدب الخطابات» . وقد أرسلت الأم إلى ابنتها نحو ٩٠٠ خطاب . واكتشف أحد المؤرخين عند بائعة أثاث قديم فى ديجون بقية خطاباتها الأخرى إلى كثير من الساسة ورجال الدين . وظلت الأم تتجنب الرجال على الرغم من جمالها الشديد وثروتها الكبيرة ، وحاولت أن تعوض فى حب ابنتها كل العواطف الأخرى ، وكانت تعتبر لقاءها بابنتها هو الجنة «لأن ساعة لقاء خير من خمسين خطابا» . وقررت ألا تبكى أمام أى رجل . لأنها احتفظت بدموعها فى خطاباتها إلى ابنتها الوحيدة . وتركت ثروة هائلة من الدموع والآهات .. والتنهدات أو «العبرات» كما قال كاتبنا .. المنفلوطى .

٦٠

اعترافات أديبة مسترجلة

من كان يصدق ان الربع الأول من القرن التاسع عشر سوف يشهد سيدة فاتنة الجمال تلبس ملابس الرجال، وتلبس البنطلون الأسود الضيق ،وتضع القبعة السوداء العالية فوق شعرها الأسود الفاحم المعقوف، بل تقلد الرجال فى العصا التى كانت تصحب القبعة الطويلة لزوم الاناقة، ومن كان يصدق ان امرأة شابة سوف تجرؤ على التدخين فى شوارع باريس، وتمشى فى صحبة الرجال بالليل ولا تكتفى بتدخين السجائر القصيرة الرفيعة بل تصمم على تدخين السيجار لفتا للانظار.

كانت هذه المرأة المسترجلة هى الاديبة الشهيرة جورج صاند أشهر أديبات القرن التاسع عشر، وقد سبقت كوليت أديبة العشر ينيات فى القرن العشرين، كما سبقت بأكثر من مئة عام سيمون دى بوفوار وفرانسواز ساجان.

وتركت جورج صاند أكثر من ستين رواية وأقصوصة، وأكثر من أربعين مسرحية. كما تركت سيرتها الذاتية واعترافاتها الأدبية، المهذبة أحيانا أو الفاضحة أيضا. وكانت حياتها العاطفية أكثر إثارة من أدبها العاطفى. وقد تعلق بها كثير من مشاهير الرجال، وعلى رأسهم أكبر شاعر رومانسى فى عصره وهو الفريد دى موسيه، كما أحبها الموسيقار الفلتة: شوبان واشتهرت جورج صاند أيضا بمشاهيرها الذين تعلقوا بها. وكانت حياتها العاطفية عاصفة هوجاء، مثل فرنسا نفسها. لأن فرنسا شهدت بعد سقوط نابليون ثورتين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨، وأيامها خرج كل شىء إلى الشارع، وترك الأدب الصالونات. ولم تعد الأديبة تكتفى بأدب المراسلات أو حديث الصالونات بل اشتركت جورج صاند فى المظاهرات. وشهد عصرها أزهى عصور الرواية الأدبية بصعود فيكتور هوجو واميل زولا وستندال وفلوبير. وكتبت جورج صاند الرواية والمسرحية، وكانت شديدة الغزارة ولكن حظها انها ظهرت فى جيل العمالقة.

وأصبحت جورج صاند على الأقل أقوى وأشهر شخصية نسائية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ورثاها فيكتور هوجو الشاعر الروائى الكبير قائلا:

– إننى ابكيها ميتة، وأخلدها ككاتبة.

وقال عنها رائد الرواية الفرنسية فلوبير: كانت جورج صاند هى

سبارتاكوس الحركة النسائية . وسبارتاكوس هو بطل تحرير العبيد أيام الإغريق .

وحتى أوسكار وايلد ، الكاتب الانجليزى الكبير الذى عاصرها ، قال عنها :

– كانت جورج صاند ارستقراطية فى الفكر وديمقراطية فى العذاب .

وقد تكون ملاحظة أوسكار وايلد العميقة على حياة جورج صاند هى أصدق مايفسر حياتها العاطفية ويفسر كيف أصبحت أديبة شهيرة من طول عذاب .

لأن جورج صاند كانت تنزل من أصول ارستقراطية فعلا ، وكانت جدتها لأبيها ابنة المارشال دى ساكنل ، وكانت حفيدة ملك بولندا أوجست الثانى . وكان أبوها موريس دوبان ضابطا كبيرا ، ولكنه تزوج من صوفى ديلبورت ، من بنات الشعب . ومات والد جورج صاند وهى فى الرابعة ، ، وهجرتها أمها وهى صغيرة ، فكفلتها جدتها لأبيها حتى بلغت السادسة عشرة . وكان الزواج هو الحل الأسهل لفتاة جميلة تريد جدتها الحفاظ لها با لمستوى الاجتماعى اللائق . وفى السابعة عشرة تزوجت اورور دوبان ، وكان هذا هو اسمها الأصلى ، من بارون عجوز يملك الضياع والخيول . وكان فارق السن وفوارق الميول والعواطف سببا فى أن تلجأ الزوجة الشابة إلى مكتبة القصر العامرة بآلاف المؤلفات فى الأدب والفن والمسرح . ووجدت جورج صاند عزاءها فى القراءة . ولكنها كانت تفكر دائما فى باريس الصاخبة بالاحداث السياسية والفنون والآداب .

وهجرت الزوج والثروة والضياع لتذهب إلى باريس فى صحبة أديب شاب اسمه «جول صاندو» وتعاونا معا على تأليف أول رواية مشتركة .

وبلغ من امتنانها لهذا الشريك الجديد ان غيرت اسمها . واتخذت اسمها المستعار الذى اشتهرت به بعد ذلك . والاسم لرجل هو «جورج» واللقب مستعار من لقبه «صاندو» . واكتفت فى النهاية باسم جورج صاند ، ونسيت اسمها العائلى وماضيها الارستقراطى . وزوجها البارون العجوز . وهربت إلى باريس والأدب . ولم تكن باريس سهلة . حتى بعد أن أنجبت أول رواية مشتركة مع جول صاندو . فقد كانت الحركة الأدبية تموج بالرومانسية وحركة أدبية عنيفة يقودها فى الشعر دى موسيه ، وفى الرواية هوجو وبلزان وزولا وجويتيه . وكانت الرواية فى عصرها الذهبى . ولم تعد الرواية تاريخية للابطال والمغامرات المميزة . لأن بطلا جديدا ظهر فى الأسواق الأدبية هو أبناء الشعب . وانتقلت الرواية من الرومانسية إلى الواقعية . ودخلت جورج صاند الميدان بكثير من الشاعرية ، وكان أبطالها هم المعذبون فى الأرض . أو على الأصح المعذبات من الامهات والزوجات والتقت جورج صاند بالفريد دى موسيه ، وكان يصغرها بعشر سنوات . وبقدر مافشل دى موسيه فى المسرح تألق فى الشعر . وكانت إيطاليا

أيامها هي موضة باريس . فذهبا معا إلى البندقية . وكانت اسبانيا أيضا مصدر الالهام لأدباء باريس وخاصة فى الرواية . ولكن العلاقة بين جورج صاند والفريد دى موسيه كانت كارثة عاطفية أثار فشلها فى الشاعر والروائية روايتان . واحدة كتبتها جورج صاند عن الفريد دى موسيه . والثانية كتبها دى موسيه عنها . وفى «اعترافات فتى العصر» الشهيرة لموسيه لمحات من شخصية جورج صاند ، وكان موسيه أرق شعراء الفرنسية ، ولكنه كان سهل المرض ، وعلى الطريقة الرومانسية ، وأمضت جورج صاند أغلب رحلتها فى تمريض شاعرها الرقيق المعذب . واشتهر دى موسيه بقصيدة «البحيرة» ، ولكنه اشتهر أيضا بالليالى ليالى مايو ، وليالى ديسمبر ، وليالى أغسطس ، وليالى أكتوبر .

ولكن جورج صاند تأثرت أشد التأثر بالروائى لامينه وهو فى الأصل قسيس . كان بعد ثورة ١٨٣٠ ، يتمنى التوفيق بين الكنيسة ومبادىء العدالة الشعبية . ودوى كتابه «كلمات موقن» عام ١٨٣٤ . ولكن البابا لم يرض عن الكتاب أو الكاتب ، وقد تأثر كثير من الشعراء وعلى رأسهم لامارتين كما تأثرت جورج صاند بكتابات لامينه المليئة بالعواطف الجياشة .

ولم تسجل كاتبة عواطفها الرومانسية مثلما فعلت جورج صاند فى رواياتها الأولى ، انديانا وليليا وموبان . وتميزت بوصف الحنان والعذاب بشاعرية جياشة . وفى كتابها الروائى : «هو وهى» لمحات عميقة عن علاقتها مع شاعرها المدلل الفريد دى موسيه . وكان موسيه قد أصبح أمير الشعراء وان كانت بعض مسرحياته النثرية قد نجحت مثل مسرحيته الشهيرة «لا هزل فى الحب» أو «مفيش هزار فى الغرام» ومازالت تعرض الآن فى الكوميدى فرانسيز إلى جانب روائع موليير وراسين .

وخرجت جورج صاند من تجربتها مع الفريد دى موسيه بخيبة أمل فى الرجال ، لأنها كتبت فى اعترافاتها :

«عرفت منهم الكثير ولكنهم يريدون أن تصبح المرأة لعبة الرجل» . ومع انها أبدت لموسيه مودة واخلاصا . حتى انها ذات يوم جزت خصلات شعرها الفاحم وارسلته إليه هدية ـ كما فعل الرسام فان جوخ فى نوبة من نوبات جنونه ، حين قطع أذنه ليهديها إلى حبيبته ـ ولكن موسيه كان يلعب معها دور «الجميل الذى لا يكترث» . ولم تشف جورج صاند من هذه التجربة الفاشلة إلا حين عرفت بعد ذلك الموسيقار الرقيق شوبان ، فقد كان رقيقا مثل موسيقاه . ووجدت جورج صاند عزاءها فى الكتابة . وهجرت باريس إلى الريف والطبيعة . وكانت تصور المرأة ، الأم والزوجة بمشاعر باكية فى عالم المرأة .. أو عالم مجهول لا يعرفه كثير من الرجال .. تمتزج فيه العذوبة بالعذاب .

٦١

٣ نســـاء .. وثــــورة

لا يكاد يمـر يوم فى بـاريس حتى يحتفل الفـرنسيون بالعيـد الماسى أو الذهبى أو الفضى أو حتـى البرونزى على مرور أى شىء. وقد احتفلوا منذ سبعة أعوام بمرور مائتى عام على الثورة الكبرى. وهم يحتفلـون دائما بمرور مائة عام أو خمسين عاما على ميـلاد أو وفاة أى أديب موهـوب أو موسيقار نابغـة أو فنان فلتة. وفى العائلات يحتفلون دائما بأعيـاد الميلاد وتاريخ الزواج وأحيانا بـذكرى الوفاة. وقد تحول التاريخ عندهم من علم إلى هواية. وأكثر العواصم ازدحاما بالمجلات التاريخية الشعبيـة التى تنشر تاريخ ما أهمله التـاريخ هى باريس. وحين تقيم بينهم يلح عليك تاريخهم الحاحا شديدا بكثرة المتاحف ودور الوثائق والمكتبات العامة والتجارية. وهم يهتمون بتخليد وتسجيل الأماكن القديمة التى أقام فيها أحـد مشـاهير العلماء والفنانين والأدبـاء والـرسـامين والممثلين والموسيقيين، ويحرصون على وضع لافتـة رخاميـة عليها بضعة سطـور تشير إلى شخصية مهمة أو حدث فى التاريخ.

وكثيرا ما كنت أمـر فى طريقى المعتـاد على سور حـديقة اللـوكسمبورج رئة الحى اللاتينى. وقد حـافظوا على القصر والحديقة. فألمح لوحـة رخامية فى ركن الحديقة. كتبوا عليها: «هنا سقط فلان وفلان.. فى معركة تحرير باريس».

ومازلت أذكر خروجى من البوابة الـرئيسية لمكتبة باريس الوطنية فى شارع ريشيليو. وهى عامرة بنوادر المخطوطـات العربية، وفوجئت أمامى ببيت قديم، علقوا على جدرانه لوحة رخامية كتبوا عليها:

«فى هذا المكان كان يوجد بيت قديم، وكان يعيش فيه الروائى ستندال، وألف أيامها روايته «الأحمر والأسود»..

وحين عشت فى باريس أعـواما، أقمت منها أكثر من عـام من شبابى الأول فى شـارع ليفيانتين، وهو شـارع هـادىء وفرعى فى الحى اللاتينى ينشق من شـارع سـان جـاك أطول شـارع فى باريس منـذ كان طريق الحجاج القـديم بين كنيسة نوتردام فى قلب باريس وكنيسة القديس سان جاك فى اسبانيا. وكان أمام فندقى الصغير (لى كـابوسين» بيت ينشط فى الصبـاح ويهدأ بعـد الظهر لأنـه مدرسـة للصغار. ولمحت على حائطه لوحة رخامية سجلوا عليها:

«هنـا كان فى هـذا المكان بيت قـديم ـ حلت محلـة المدرسة ـــ وكان يقيم فيـه الشاعر فيكتور هوجو».

وخـلال اقـامتى. عثرت بـالصـدفـة على ديـوان فيكتـور هوجـو، صـاحب «البـؤساء». واكتشفت ان لـه قصيدة جميلـة عنوانها «ليفيـانتين»، يروى فيهـا بعض ساعات سعيدة من صباه.

والغريب اننى اكتشفت جوار لوحة فيكتور هـوجو لوحة أخرى سجلوا عليها أيضـا:

«فى هذا المكان كان البيت القديم الذى أقام فيه العالم باستور».

ورغم اختـلاف الزمـان بين الشاعـر والعـالم. لكنهم حفظوا لهما ذكـراهما. فأصبحت كلما مررت على المدرسة الصاخبة فى الصباح والهادئة فى المساء، أحس بشىء من الهيبة الممزوجـة بالوقار. لأن شـاعرا مبدعا وعـالما كبيرا كانا يقيمان فيما مضـى فى البيت المواجه لفندقى.

وحتى لا تضيع ذاكرة المكان تأكد لى بعد سنوات أن التاريخ فى باريس أصبح علما وهوايـة. وكان توفيق الحكيم يقول: إن الفن فى بـاريس «على قفا من يشيل»، لأن الفن فى كل مكـان.. فى الشارع أو العمارة أو المتحف أو المسرح. وكان لـه حق. ولكنى أصبحت أقول: «والتاريخ أيضـا».

وحين زرت المكتبـة التـاريخية لمدينـة بـاريس، وهى متخصصـة فى تـاريخ المدينـة، وتجمع الصور والخرائط والـوثـائق وكل مـا كتب عنها، تـأكد لى وأنـا أتعقب، على سبيل الهوايـة، تـاريخ من زاروا بـاريس من المصريين من رفـاعـة. الطهطاوى إلى محمـد عبده ثم شوقى وطه حسين وزكى مبـارك وتوفيق الحكيم، انهم قدموا لى مجلدات تشبـه القواميس وتضم أسماء مشاهير هم فى الفن والأدب والفكر، وتحدد تلك القواميس أسماء الشوارع وعناوين هؤلاء الأعلام والسنوات التى أمضوها فى هذا الحى أو ذلك البيت مع تعقبه بيتا بعد بيت وعاما بعد عام.

وحتى حين دخلت مكتبة «الارسينـال» أو الترسانة وراء كـاتدرائية نـوتردام أبحث فى أوراق السان سيمـونيين الذين جـاءوا مصر أيام محمـد على، فوجئت فى مدخـل المكتبة التى يطل عليهـا الآن معهد العالم العـربى، بتمثال نصفـى للينان باشـا المهندس الذى عـاش ومات فى مصر. والتمثال للمهندس لينان بطربـوشه القصير على طراز القـرن التاسع عشر. ولكن المفاجـاة انهم جمعوا كل الخطـابات المتبـادلـة بين هؤلاء المهنـدسين وطبعـا كل المؤلفـات التى كتبت عنهم. وفى أحـد الملفات وجـدت إيصالا منذ أكثـر من ١٤٠ سنة بايجار غرفة مكتـوبا بالعـربية دليلا على العناية بحفظ تفاصيل التفاصيل.

وقد أتاحت لهم كثرة أسماء الشوارع وكثرة أسماء محطات المترو فرصة للتذكير والاعلام والأحداث والمعارك حتى تجد بعض شوارع باريس شوارع القاهرة، والأهرام، وأبو قير، والاسكندرية. كما تجد أسماء معارك الحروب الكثيرة، وهى حيلة ذكية للتذكير بأحداث التاريخ القريب أو البعيد ولا ينجو منها مقيم أو عابر طريق. وكثيرا ما حرضتنى أسماء شوارع باريس بالبحث فى الكتب، أو العكس أسعفتنى الكتب بمعرفة أصحاب الشوارع. وتحولت جولاتى الباريسية إلى قراءة التاريخ فى الهواء الطلق، فأصبحت لا أحس تعبا من التسكع، ولا مللا من القراءة.

وأدهشنى، على الرغم من كثرة التماثيل فى الميادين من جان دارك إلى بلزاك، ان الوحيد الذى يملك تمثالا من زعماء الثورة الفرنسية هو دانتون. ويقف التمثال ما بين حى سان جرمان دى بريه والحى اللاتينى، وما بين حى الثقافة والتعليم والسوربون، وحى الفن والأدب وأغلب سكانهما من الشباب الذين يتجددون فى كل جيل. وقد يكون السبب أنه كان من غلاة الثوار أو ما كانوا يسمون الجبليين المتطرفين. ولكنه فى أواخر أيامه عارض الارهاب المروع الذى شهدته الثورة عام ١٧٩٣ ودفع الثمن غاليا، لأنه أعدم بالمقصلة عام ١٧٩٤. واشتهر بعد موته هذا المثل الشعبى الذى يقول: «ان الثورة كالقطة تأكل أولادها».

فقد شهدت هذه الثورة أحداثا عنيفة شديدة العنف وخاصة عام ١٧٩٣، وكانت أعنف ثورة عرفتها أوروبا منذ أكثر من مائتى عام. وكانت فرنسا تواجه فى الخارج تحالف بقية الدول الأوروبية ضدها من انجلترا المحافظة إلى بروسيا المنافسة إلى النمسا الامبراطورية وحتى تركيا العثمانية وروسيا القيصرية. وبين الحروب الخارجية والأحداث العنيفة الداخلية طارت رقاب ثلاث نساء. واختلفت الأسباب، ولكن المقصلة كانت النهاية.

وأشهر الثلاث مارى انطوانيت الملكة. وقد سيقت إلى المقصلة وهى فى الثامنة والثلاثين، وكانت إحدى بنات امبراطورة النمسا، وكانت جنسيتها الأجنبية سببا فى سخط الشعب وفرصة للكيد والاتهام، خاصة ان النمسا انضمت إلى أعداء الثورة. وولدت مارى انطوانيت مع ١٥ ولدا وبنتا أنجبتهم امبراطورة النمسا. ويبدو أن كثرة الاولاد شغلت الأم الامبراطورة عن العناية باعداد هذه الابنة الجميلة للعرش. وعهدت بالمهمة إلى قسيس علمها بسرعة كل شىء أو لا شىء.

وحين انتقلت إلى فرساى انشغلت بالأبهة والحفلات، وفى القلب وجيعة وغم لأن كل البلاط كان يكره هذه الدخيلة الأجنبية. وكانت الملكة تطيع أمها امبراطورة

النمسـا، أكثـر من زوجهـا. واضطــر لـويس السـادس عشر أن يبنى لها قصر تـريانـون. فاستعـانت باللهـو مع الصديقـات، ثم اكتشفت تسلية أخـرى هى حضور مجلس الوزراء. ولم يرحمها أعداؤها فقالوا إن الرجل الوحيد الذى يحيط بالملك هو زوجته.

ولكنهـا كانت شـابـة وخفيفة ومستخفـة، واشتهـرت فضيحة شراء العقـد اللـؤلؤى، ثم شـاعت جملتهـا المشهورة حين سألت عن أسبـاب غضب الشعب، وقيل لها إنه جائع، ولا يجد الخبز، فأجابت: ليأكلوا الجاتود.

والغريب أن الثورة عرفت ثلاثة دسـاتير، وكان أول دستور بعد عام دستورا اصلاحيا، ولكن لـويس السادس عشر تثاقل فى الاصلاح وأجله، فـانطبق ما يقال إن كل أزمة إما أن تنفجر أو تنفرج، والثورة هى الاصلاح إذا تأجل.

وقد شهد عام ١٧٩٣ سقوط ثلاثـة رؤوس، منها الملكة، وسقوط مدام رولان صاحبة هذه الجملة الشهيرة: أيتها الحريـة كم يرتكب باسمك من جرائم. وكانت أيضا أقوى من زوجهـا أحد وزراء الثورة، وكانت الثالثة شـارلوت كورداى التى طعنت مارا أحد قادة الارهاب الدموى بالسكين وهو فى الحمام عاريا.

وقصة هـذا المثلث النسائى فى الثورة الكبرى من أعجب الصفحـات فى تاريخ المرأة ونكمل الحديث عن المرأة فى الثورة وعن ثورة المرأة فى أعنف ثورات التاريخ الحديث.

٦٢

الجميلات والمقصلة

أراد الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران تخليد اسم الباستيل بعد مائتي عام من سقوط هذا السجن الشهير أيام الثورة الكبرى، فأقام دارا جديدة للأوبرا - على أحدث طراز - سماها «أوبرا الباستيل». لأن كل من يزور باريس يندر أن يتجه إلى أحيائها القديمة الفقيرة، حتى لو كانت تحمل أسماء لها تاريخ. وأغلب الأمر كان يفضل الزائر العابر أحياء باريس الجديدة والراقية أو المليئة بالملاهي والمسارح والمتاحف والحدائق. وقد زحفت باريس طوال مائتي عام في اتجاه الغرب أو الجنوب ثم الشمال، وظل حي الباستيل العريق القديم منزويا سنين طويلة ناحية الشرق.

وقد يكون هذا هو السبب في اختيار ميدان الباستيل موقعا للأوبرا الجديدة، ردا على الأوبرا الجميلة والعريقة في قلب باريس الفخمة. وقد يكون السبب أيضا هو هذا التقليد السياسي الذي استمر طوال الجمهوريات الخمس ما بين اليمين واليسار. فقد تعودت الحكومات اليسارية إذا عادت إلى الحكم بعد الانتخابات على الاحتفال بالعودة بدءا بمسيرة شعبية من ميدان الباستيل. كما تعود اليمين على العكس أن يحتفل بعودته بالمسيرة من قوس النصر شمال باريس بالشانزلزيه، وفيه أجمل وأعرض شوارع باريس، ويصب في ميدان الكونكورد أو المسلة، لأن المسلة الفرعونية الشهيرة تتوسطه منذ أيام نابليون الثالث.

ولم يكن هذا التقسيم التقليدي بين اليمين واليسار على أيام الثورة معروفا منذ أكثر من مائتي عام، لأن ميدان الكونكورد كان أيامها يحمل اسم «ميدان الثورة» وشهد أحداثا عنيفة ومضطربة ومليئة بالانفعال الشعبي حين رفع روبسبير شعارا. «لا حرية لأعداء الحرية». ولأن هذا الميدان كانت تتوسطه المقصلة التي تم عليها اعدام خصوم الثورة، ثم شهدت أيضا نفس المقصلة رؤوسا أخرى من أنصار الثورة نفسها.

وعلى كثرة المحكوم عليهم في الثورة الكبرى كانت أشهر النساء ثلاث، بينهن الملكة ماري انطوانيت، ثم مدام رولان زوجة رئيس الوزراء، وثالثة من عامة الشعب هي شارلوت كورداي التي قتلت مارا أحد زعماء الثورة، وكانت نهايتها إلى المقصلة أيضا.

وقد اختلفت الأسباب واتفقت النهاية، ولكل رأس من تلك الرؤوس الجميلة الثلاثة قصة أو حكاية ونهاية لأسباب الحكم بالاعدام. فالملكة مارى انطوانيت تزوجت لويس السادس عشر وهي فتاة فى الخامسة عشرة، وكانت ابنة امبراطور وامبراطورة النمسا، وتزوجت ملك فرنسا لويس السادس عشر لأن فرنسا تولى حكمها ١٦ لويسا، بدأوا بلويس التقى، ابن شارلمان، وكان لويس الثانى يطلقون عليه أغرب الأوصاف وهو لويس «التنبل أو الكسول». وبعض الأوصاف فيها تكريم وتفخيم وبعضها ساخر شامت، فهناك لويس المحبوب وهو لويس الخامس عشر، ولويس الأسد، ولويس العظيم. وكان آخرهم لويس السادس عشر زوج مارى انطوانيت. وكانت الارشيدوقة النمساوية واحدة من ١٦ ولدا وبنتا من أولاد امبراطور النمسا. وقد تزوجت مارى انطوانيت على طريقة مصاهرة العائلات الملكية الحاكمة فى أوربا. وكانت الأسباب سياسية بحتة، لأن مصاهرة النمسا مع فرنسا سيساعدها على مواجهة أعدائها بروسيا وروسيا. ويقول المؤرخون أن الملكة الصغيرة التى تزوجت لويس الأكبر منها ربيت تربية فاضلة، ولكنها تعلمت تعليما ناقصا ومتسرعا. فقد عهدت أمها الامبراطورة بالصغيرة لتتعلم كيف تتأهل لحياة القصور، فتعلمت الموسيقى على يد الموسيقار الكبير جلوك، ثم تعلمت الرقص مع الفنان الشهير وقتها نوفير. ولكن الأب دى فرمون كان دائم الشكوى من خطها الردىء وأخطائها النحوية حين حاول معها دروس الأدب واللغة.

ويقول مؤرخ جرىء ان الارشيدوقة الشابة مارى انطوانيت أمضت ستة أعوام كاملة فى قصر فرساى الفاخر قبل أن يقربها الملك، لأن لويس السادس عشر كان يعانى من مرضين هما: النقرس والملل. وكان مشغولا عن زوجته بخليلاته الكثيرات، ومنهن مدام دى بومبادور التى حظيت بلقب الخليلة الرسمية فى خطاب رسمى. وكانت أخطر المنافسات الكونتيسة دى بارى، وكانت فاتنة وفتاكة وشديدة الدهاء. فأصبحت مارى انطوانيت سجينة فرنساى، تواجه خيانة الملك الملول وكراهية النبيلات الفرنسيات، «لأنها لا تعدو أن تكون أجنبية فرضت سياسة الدولة زواجها على الملك».

وقابلت مارى انطوانيت الملل بكثرة الأسفار، وحفلات الرقص والتظاهر بالاستغناء عن زوجها. ووقعت فريسة الحاشية والصديقات، فانفجرت فضيحة شراء عقد من المجوهرات كان ثمنه يومها ١٦٠ ألف جنيه من الذهب. وكان أشهر بيوت المجوهرات «بويمر وباسانج» قد صاغ هذا العقد الفريد على أمل أن يشتريه الملك. وظهرت محتلية من القصر أفاقة ومغامرة واسمها مدام دى

لاموت وكانت تعرف خفايا الملك والملكة، وتعرف أيضا ان الكاردينال دى روهان مشغوف بالملكة. فاتفقت المحظية مع احدى الممثلات المحترفات، وكانت شبيهة بالملكة على تمثل دورها، وأن تقابل الكاردينال. ووعد دى روهان بشراء العقد، ولكنه عجز عن دفع الثمن، أو تراجع عن المغامرة. فانفجرت الفضيحة، وتلقفتها حاشية الملك وخصوم الملكة. وقبض الملك على الكاردينال وقدمت للمحاكمة. وشاعت الفضيحة. فأمر الملك بنفى أخلص مستشاريه روهان لأنه أشار عليه بالمحاكمة ولم يتوقع له الفضيحة. وعز على الملكة أن الملك لم يدافع عنها، بل تضاعفت وساوسه.

وظلت مارى انطوانيت ملكة على فرنسا ولكن قلبها وعقلها مع النمسا. وأخذت الثورة عليها انها تتدخل فى اجتماعات الوزراء. وكانت تأخذ تعليماتها من أمها فى النمسا، وتنفذ نصائحها بدقة حتى فى الحفاظ على قدر من السمنة لإغراء لويس الملوك.

وتوالت المصائب على مارى انطوانيت. حيث فقدت أمها ثم فقدت شقيقها امبراطور النمسا، ولم يعد لها سند فى الخارج أو الداخل. والعجيب أن زعماء الثورة فى بدايتها وهو خطيب الثورة ميرابو كان يتعاطف معها. وقد حاول ميرابو ان ينظم فرارها من سجنها بعد الثورة على ان تكون فدية أو صفقة حتى تعلن نابولى حيادها، ولكنها رفضت اتمام هذه الصفقة. وكانت محاكمتها. وحاولت أن تؤكد انها كانت مجرد زوجة للملك ولم تكن تتدخل فى شئون الحكم. ولكن محكمة الثورة حكمت عليها بتهمة الخيانة والاتصال «بعدة دول أجنبية». وكان الحكم فى الرابعة صباحا. وبعد يومين استقبلت مارى انطوانيت الموت فى امتثال فى تمام الثانية عشرة ظهرا. ولم ينصفها غير مدام دى سيفينى التى عاصرتها وكتبت عن حياتها بعد مماتها، وبعد قرن ونصف القرن أنصفها الروائى الألمانى ستيفان زفايج.

وكان اعدام لويس السادس عشر فى بداية العام ١٧٩٣ بداية صراع شديد بين الجبليين وعلى رأسهم روبسبير وسان جوست وكارنو. وبين الخيرونديين نسبة إلى مقاطعة الجيروند، ويسمون أيضا السفحيون أى سكان السفح فى مواجهة سكان الجبل من الجبليين المتطرفين.

وخلال ستة شهور بعد اعدام الملك شهدت باريس مقتل مارا. الصحافى صاحب جريدة «صديق الشعب»، وكان أكثر المحرضين على تصفية أعداء الثورة. وكانت شارلوت من أنصار الثورة. وهى حفيدة أخت الشاعر الكبير تورنى. وكانت شغوفة بالقراءة والثقافة الجديدة، وتعشق كتابات روسو

وبلوتـارك. ولكنها غضبت مـن انحراف الثورة إلى العنـف الدموى، فقـررت قتل مارا فى بيته. ويبدو ان مارا كان ملتهب الأعصاب دائما. وكان لا يطفىء التهابه إلا بالبقـاء فى حوض مـن الماء. وتوجهت شـارلوت كرداى مـن فندقهـا فى ميدان لى فكتورا، واشترت سكينـة مطبخ من سوق البـاليه روايـال، واتجهت إلى شارع لى كوروييـه حيث يسكن مارا. واعتـذرت الخادمة. فعادت إليـه فى السابعـة مساء، وسمع مارا صـوتها فأمر بدخـولها، وانقضت عليه شـارلوت كورداى لتـذبحه. واعترفت فى المحكمة بالقتل. وقالت ان أحدا لم يحرضهـا. وحاول محاميها الدفاع عنهـا لأنها مختلـة عقليا. ولكـن ثباتها أمـام المحكمـة جعل المحكمـة تقبض على محاميهـا أيضـا. وبـدت شارلـوت كورداى لا تبـدو عليهـا أى سانحـة غريبـة. والشىء الغريب الوحيد الذى بدر منها، انها طلبت قبل تنفيذ حكم الاعدام فيها أن تأمر المحكمـة أحد الرسامين الفنـانين ليرسم لها صـورة زيتية. وأمـرت المحكمة بإعدامها على المقصلة فى ميدان الثورة. كما أمـرت الفنان الرسام هيور بأن يرسم شارلـوت كورداى. وتوجد لـوحته الآن معلقة فى قصر فرسـاى. وقد أوحى مقتل مارا لعدد من الرسامين بلوحات عديدة، ومن أشهرهم الرسام لارنى.

وقد تركت شـارلوت كورداى وراءها صـورتها المعلقـة الآن فى قصر فرساى، ولكن الفريسـة الثـالثة مدام رولان دى لامبلتير تركت وراءها أشهر جملـة قالتها امرأة أثنـاء الثورة، وهى تلك الجملة المعروفـة: «أيتها الحرية كم يـرتكب باسمك من جـرائم». وقد نطقت مـدام رولان بهذه الجملـة قبل دقـائق من اعدامهـا على المقصلة فى ميـدان الثورة. لأن تمثـال الحرية الشـهير قبل أن ينتقل إلى نيـويورك كان مقامـا فى الميدان. وحين رفعت مدام رولان نظرهـا إلى التمثال، نطقت عبارتها الشـهيرة. وكانت مثقفـة، أديبة، من صـاحبات الصالـونات الأدبيـة. وكان يتردد عليها كميل دى مولان وكوندورسيه وروبسبير.

وكان زوجهـا رولان وزيرا للـداخلية أثنـاء الثورة. وكـانت قويـة التأثير على زوجهـا. وكانـوا يشنعون على رولان بأن الـوزيـر الحقيقى هو زوجتـه. ومع ان زوجها كان يكبرها بعشرين عاما، لكن زواجهـا كان سعيدا. وبعد اعدام الملك قدم زوجهـا استقالتـه، وذهبت بنفسها للـدفاع عن زوجهـا أمام الجمعيـة الوطنيـة. واعترفت انها أوحت لزوجهـا بكتابـة خطاب إلى الملك ينصحه بـالاصلاح وتبصر العواقب حتى لا يدفع المعتدلين إلى التطرف.

وحين قررت الثـورة تصفية المعتـدلين أو الجيروندو، كـانت مدام رولان بين ٣٦ متهما حكم عليهم بالاعـدام. وكان زوجها قـد هرب إلى نورمانـدى بالشمال ونجـا بنفسـه. ولم يسمع جملتهـا الشهيرة حين رأت المقصلـة إلى جـوار تمثـال الحرية. وطعن الزوج نفسه بالسيف طعنات قاتلة ولم ينطق بكلمة واحدة.

٦٢

الملاك القاتل

سقط سجن الباستيل الشهير فى ١٤ يوليو (تموز) منذ مائتى عام وسبعة. ومنذ ذلك اليوم أصبح العيد الرسمى فى فرنسا. وكان يوما شديد الحرارة فى عز صيف ١٧٨٩. وزحف نصف باريس فى اتجاه الباستيل، ولم تكن باريس نفسها تزيد على نصف المليون. ولم يكن بين مهاجمى الباستيل، وعددهم ٦٦٢ ثائرا وغاضبا يحملون العصى والفؤوس والبنادق، سوى امرأة واحدة. قد تأكد المؤرخون الثقاة من اسمها وعملها، لأنها الوحيدة التى حصلت على معاش وتعويض لاصابتها بجراح أثناء الهجوم. وكان اسمها مارى شارينتيه، من حى سان مارسيل المجاور للباستيل. وكانت تعمل غسالة من عامة الشعب. وقيل بعد ذلك، نقلا عن الرواة، ان امرأة أخرى شاركت، ولم يعرف أحد اسمها، بل ولم يكتشفوا انها امرأة، لانها كانت فتاة شابة تصحب خطيبها، وكانت تلبس أيامها ملابس الرجال على عادة بعض النساء عندما اشتركن فى أحداث الثورة.

وهكذا ظل دور المرأة فى بداية الثورة قاصرا على تعهد الأطفال والبقاء فى البيت، أو مجرد مشاهدة لمسيرات الرجال، والتحريض بالغناء أو التشجيع بالتصفيق، أو نقل الأطعمة والأدوية أو اخفاء المطاردين أو حضور محاكمات الثورة.

وظلت السنة الأولى من الثورة سنة رجالية فى أغلبها. فالرجال فى المقدمة لأنهم أكثر غضبا، والنساء فى الصفوف الخلفية لأنهن أقل غيظا. وظلت الشهور الستة الأولى صاخبة رجاليا وهادئة نسائيا حتى حدثت أول مظاهرة نسائية كانت جميعها من النساء. وكانت هذه المظاهرات النسائية الأولى أجرأ مظاهرة لأن نساء باريس، وأغلبهن من الأرياف أو من سوق الخضار «أو العمال»، قررن الزحف من باريس إلى ضاحية فرساى، حيث لويس السادس عشر ومارى انطوانيت. وكان الغضب قد بلغ أقصاه، لأن الملك يحكم من الضاحية بعيدا عن الشعب. وظن الغاضبون أن احضار الملك إلى باريس سينقذه من الحاشية والنبلاء الذين يعملون على ابعاده عن الشعب. وقد سارت هذه المظاهرة النسائية «السلمية» ست ساعات، وكانت أغرب وأطول مظاهرة شهدتها الثورة.

وانتقل الملك من فرساي إلى باريس. ولكن أحداث الثورة توالت من طلب الاصلاح إلى تأجيل الاصلاح. ومن تعديل الدستور إلى محاولة الملك الفرار ثم محاكمته. وزادت الثورة اشتعالا حين قررت الدول الاوربية التدخل. وبين الحرب والثورة لعبت المرأة دورا أكبر.. واشتهرت بعض النساء فى الفترة الدموية من الثورة. وكان عام ١٧٩٣ هو عام الارهاب العنيف. وأكلت الثورة ــ كالقطة ــ بعض أبنائها، لأن زعماء الثورة انقسموا بين الاعتدال والتطرف، وبين الجيروند واليعاقبة. وظهرت كاتبة صحافية اسمها أوليمب جوج أوليفبيه بلان. وفى هذا العام الرهيب لم يقتصر دور المرأة على الفرجة على المحاكمات أو مشاهدة الاعدامات.

وقد كتبت أوليمب ٢٩ رواية و ٤١ مسرحية و ٦٣ كتيبا، وكانت من انصار الثورة «البيضاء»، وكانت امرأة قوية الارادة، وتبرعت بمصاغها للثورة، وكانت تحضر الجمعية الوطنية والجمعيات العلمية. وكتبت رواية «الأمير الفيلسوف» تدافع عن العودة عن الطبيعة، وكسبت خصوما أكثر من الأنصار، لأنها كانت وطنية فكرتها الارستقراطية. وكانت ملكية الميول، فكان الثوار يكرهونها، وكانت نصيرة تحرير المرأة، فكان الرجال يهزأون بآرائها. وكتبت تحذر من الحرب الأهلية حتى لا تصبح الثورة «كومة من الجثث».. وكتبت خطابا مفتوحا إلى «الجنس الضعيف» قائلة:

ــ أيتها المرأة.. انك لم تكسبى شيئا حتى الآن. وانتقدت زعماء الثورة المتعطشين للدماء. وكانت مقالاتها نارية. وقالت ان روبسبير أكثر الثوار عطشا للدماء له لازمة لا تتوقف «لان رموشه تهتز بلا توقف. وهذا دليل على اضطراب نفسيته من الداخل». وكتبت ساخرة فى إحد مقالاتها النارية تقول:

ــ أنا على استعداد لالقاء نفسى فى نهر السين بشرط واحد: أن يكون روبسبير معى. واتهمتها جريدة «صديق الشعب» التى يصدرها «مارا»، بأنها ابنة لقيطة، وابنة حرام للملك لويس الخامس عشر. وقالت عنها ساخرة:

ــ ان هذه الكاتبة المسرحية لا تفرق بين المسرحيات التى تكتبها والمسرحيات التى تعيشها.

ولكن أوليمب كانت شديدة الجرأة. وعارضت اعدام مدام رولان، إحدى زعميات الجيروندا المعتدلين. وكتبت بصدق وطيش:

ــ إذ كانت النمور المتعطشة للدماء تبحث عن الدماء، فانني أقدم نفسى فريسة.

وكتبت فى مقالها وصيتها الغريبة قائلة:

ـــــ «وصيتى بعد اعدامى أن يأخذ الوطن قلبى. وأوصى بعفتى ونقائى للرجال. وبعبقريتى للمؤلفين الدراميين.. ومـا تبقى منى إلى ابنى لو عاش من بعدى».

ولم يبق من الرجال حول أوليمب سوى ابنها الذى كان يعمل مهندسا مرموقا ـ بالصدفة ـ لدى الدوق وورليان.

وكتبت أوليمب اقتراحا باجراء استفتاء شعبى يختار فيه الشعب بين ثلاثة اختيارات، إقامة حكومة جمهورية، أو حكومة فيدرالية، أو بقاء الحكومة ملكية دستورية.

وقبض عليها بتهمة التآمر على الجمهورية. وتنقلت أوليمب بين ثلاثة سجون. وكان الأخير يعنى تحويلها إلى محكمة الثورة التى لا تحكم إلا بالاعدام.

وفى محكمة الثورة كان أغلب المتفرجين من النساء. ويروى خصومها انها حين سئلت عن عمرها، وكانت فى الخامسة والأربعين، قالت ٣٨ سنة.

ويقال أيضا أن المحكمة قرأت خطابا ـ قيل بعد ذلك أنه مزور ـ وكان من ابنها، لأنه أعلن انه لا يوافق على آراء أمه، بل كان «يشكو من فصله من العمل بسبب أفكارها ومقالاتها».

وبدت اوليمب شديدة النحول والامتقاع أثناء المحاكمة. ولم تستطع انكار أفكارها لانها كانت مطبوعة فى الصحف. وفجاة لمعت فى ذهنها حيلة لتأجيل الحكم عليها، فقالت: انها حامل.

وأثار ذلك الدفاع الضحك، لانها كانت شديدة النحول. ولايظهر عليها أثار الحمل حتى فى شهر واحد.

وتشبثت اوليمب بهذه الحجة لأنها تعلمتها من سجينة أخرى كانت زميلتها فى زنزانتها. وكانت المحكمة قد قررت تأجيل إصدار الحكم عليها.

وانبرى المدعى العام قائلا:

– انها تدعى انها حامل فى ثلاثة شهور. وهى سجينة منذ أربعة شهور.

وسيقت اوليمب إلى المقصلة فى يوم مطير.

وكعادة الذين يساقون إلى المقصلة، استجابوا إلى آخر طلب لها قبل الإعدام. وكانت المفاجأة أنها طلبت بعض زهور الفيوليت الزرقاء لتضعها فوق ثوبها الأبيض. ثم طلبت أيضا مرآة. واستجابوا لها.

وقال بعض خصومها انها نظرت إلى المرآة النظرة الاخيرة قبل أن تودع الدنيا، فقالت: «ضيعت نفسى. وما أضاعنى هو السعى وراء الشهرة».

وكما أكلت الثورة اوليمب جوج وهى فى الخامسة والاربعين، اعدمت مدام

رولان وهى فى التاسعة والثلاثين . ولكن أصغر فريسة كانت شارلوت كورداى لأنها سيقت إلى المقصلة وهى فى الثالثة والعشرين . والثلاث كن من أنصار الثورة فى البداية ، وأصبحن من ضحاياها . وكان العام الدامى من ١٣ يوليو (تموز) ١٧٩٣ إلى ٢٧ يوليو (تموز) ١٧٩٤ هو الذى شهد أكثر اعدامات النساء فى تاريخ الثورة . وكانت شارلوت كورداى قاتلة مارا أصغر وأجمل . وظنت انها لو قتلت أحد زعماء التطرف الدموى سوف توقف المذابح . فقررت شارلوت اغتياله . ولم تكن تعيش فى باريس التى تغلى بالاحداث الدامية . وقررت انقاذ الوطن ، وسماها الشاعر لامارتين : الملاك القاتل . وهى فى الأصل ريفية من مدينة كايين ، واسمها الكامل : مارى ان شارلوت دى كورداى دارمون . وهى ابنة حفيدة الشاعر الدرامى الكبير كورنى زيل ومنافس راسين . ولكنها عاشت فقيرة بعد موت امها . وفى الثامنة عشرة قبل الثورة بثلاثة أعوام لم تكن تملك «الدوطة» المالية التى تؤهلها للزواج ، لان المرأة هى التى تدفع المهر . وعاشت فى دير من الاديرة الفقيرة فى نورماندى بالشمال . وبعد الثورة زادت الهجرة إلى الخارج ، فهاجر شقيقاها خوفا من الحرب ، وبقيت وحيدة . واتخذت قرارها وحدها باغتيال مارا فى بيته . وتحايلت على دخول البيت بأنها تحمل أخبارا عن المؤامرات ضد الثورة . وكان مارا لا يقضى معظم وقته فى بيته بل فى الحمام ليطفىء التهاب البثور فوق جسمه .

وفى السجن طلبت رساما يرسمها . وقبل إعدامها قصت شعرها الطويل لتهدى الرسام جزءا منه ،وأهدت البقية إلى زوجة السجان . وفى المحاكمة قالت : قتلت رجلا لانقاذ مئة ألف رجل .

ولكن المقصلة كانت دائما هى المقصلة .

٦٤

أول ديكولتيه في القاهرة

أكبر وأشهر موسم سياحى شهدته مصر كان فى حفل افتتاح قناة السويس فى شتاء ١٨٦٩ . وكان الموسم اسطوريا أو قطعة من ألف ليلة وليلة . وتكلفت الاحتفالات وحدها عشرة ملايين جنيه من الذهب ، لأن المدعوين وصل عددهم إلى الالف وكانوا جميعا على نفقة الخديوى فى الاسماعيلية .

وكان اسماعيل يختلف كثيراً فى الفكر والمزاج عن جده محمد على الكبير ، الذى أرسل أول بعثة علمية إلى روما ولندن قبل أن يستقر فى النهاية على باريس وحدها . وكان هككيان أول مبعوثيه إلى لندن . وعاد مبعوثه أثناء اجازته إلى القاهرة ، وهو يلبس الملابس الافرنجية فاعتقله لبضعة شهور فى القلعة ثم أفرج عنه وقال له :

– ما ارسلناك لتعود إلينا بملابسهم ولكننا أرسلناك لتعرف لنا أفكارهم .

وكان محمد على الكبير عاقلا وحصيفا أكثر من حفيده اسماعيل الذى بعثه لباريس فى بعثة الانجال ، وهى البعثة العلمية الرابعة التى اشتهر منها على مبارك . وبلغت حصافته وحذره أيضا أن بعثة السان سيمونيين جاءت مصر من باريس ، وعرضت عليه عام ١٨٣٥ فكرة شق قناة السويس .

وكانوا يحلمون بتقريب القارات ، وأغلبهم من المهندسين . ورفض محمد على الكبير شق القناة ، قائلا لهم :

– لو حفرنا القناة ، سرعان ماتتكالب عليها الدول العظمى ، وتصبح القناة بوسفورا آخر ، حيث تتكالب الآن عليه الدول الأوروبية الكبرى ، فتصبح مصر فى خطر .

وقال لهم : «ولو كنتم مخلصين حقا ، فعليكم أن تعكفوا معى فى الداخل على بناء القناطر الخيرية» .

وأقام السان سيمونيون ثلاثة أعوام ، وسافر أكثرهم بعدها إلى الجزائر ، أو عادوا إلى باريس ، ولكن بعض كبار مهندسيهم عكفوا على مشروع بناء القناطر الخيرية ، وعلى رأسهم لينان دى بلغون الذى أقام فى مصر ومات فيها ولايزال له شارع صغير باسمه فى حى السكاكينى ، والمهندسان موجيل ولامبير .

ولكن الحفيد الشاب لم يكن مثل جده الكبير العاقل . وحين ذهب اسماعيل إلى باريس فى البعثـة الرابعة ، ١٨٤٤ ، خلبـه جمال العاصمة ، وأذهلتـه المسارح ثم الملاهى ، مع ان التقـارير الشهـريـة كانت تصل إلى جـده عن سلـوك أنجالـه فى باريس . وكان الانجال يقيمون مع بقية الطلبـة من أبناء البكوات ، وأبناء الأفندية فى شـارع كليشى إقامـة داخلية ، ولايسمح لهم بـالفسحة إلا يـوم الأحد . وعـاد إسماعيل من بعثته الباريسية وقد خلبه جمال باريس .

وقرر أن يجعل القـاهرة باريس الصغيرة . وحين تولى الحكم دعـا هوسمان : المهندس الـذى أعاد تنظيم بـاريس ، وابتكر فكرة الميـادين الواسعـة والشوارع العريضة . وهوسمان له شارع عريض جـوار قوس النصر . والشانزلزيه تخليدا لافكـاره . ولكن هـوسمان أرسل مسـاعده إلى القـاهـرة ، وعـرض اسماعيل على مهنـــدس آخر تجميل حديقة الازبكية . لكن مشروعه كان يهدف إلى أن تصبح العتبة الخضراء قلب عاصمتـه الجديدة ، وتتفرع منها شوارع عريضـة جديدة ، ومنهـا شارع محمـد على حتى القلعة ، وتكـررت فيه فكـرة البواكى مثل شـارع ريفولى فى باريس ، ومنها أيضا شارع عبدالعزيز ـ على اسم السلطان ـ ليصل إلى قصر عابـدين . ولم يتحقق مثل هذا العـدد من القصـور فى مثل هذه السرعـة ، لأنه أمـر ببنـاء الاوبـرا فى ستة شهـور . وكـان إلى جـوارهـا مسرح آخر للمسرحيات الفرنسية الخفيفة وأمـامها ساحة للفروسية ، حيث اقيـم فيها أول سيرك عرفته القاهرة . وحول الحديقة كانـت شعارات الدول الكبرى . وكان أيضا فندق شبرد الـذى استقبل كبار الـزوار من مشاهير المدعـوين فى حفل افتتـاح القناة . ولكنـه خصص قصرا رائعا على الطراز الاندلسى لإقامة الامبراطورة اوجينى سماه قصر الجزيرة الـوسطى على النيل فى الزمالك . وهـو الآن فندق ماريـوت الشهير . وقد تكون اللمسـات الاندلسية فى العمارة التى بنـاها على عجل المهنـدس النمساوى فنرانـز بك شوقا إلى الانـدلس ، أو تأكيدا لمعرفتـه القديمة بـالامبراطورة اوجينى زوجة الامبراطور نابليـون الثالث . لأن امبراطورة فرنسـا ولدت فى غـرناطة ، وهى فى الأصل اسبانية ، وكانت ابنة الكونت دون كابريانو قزمان . وقد حارب أبوها فى صفوف الفرنسيين . وظهرت اوجينى فى احدى حفلات قصر التويلرى حيث يقيم الامبراطور نابليـون الثالث حفلات الاستقبال . وجـذبه جمالها المتألق . ومازال لها تمثال نصفى يمجد ملامحها الفاتنة . فقد بدت ناعمة النظرات العميقة وكأنها تـدبر دائما أمـرا . ويقـول معاصروهـا إن يـديها كـانتا صغيرتين «من الايـدى الاندلسية الرقيقة» ، وكان شعرهـا يميل إلى الحمرة القانية . ولذلك كانت تعمد إلى

الكحل على الطريقة الشرقية ، وابتكرت الرمادى الأزرق فوق جفنيها ، لانها كما كانت تقول إنها كانت تبدو فى طفولتها حمراء كالجزرة . وكانت تعتقد أن اللون الاشقر يبدو باهتا ولا يؤكد الجمال بفصاحة .

ولكن اوجينى قررت أن تعيد مجد جوزفين زوجة بونابرت وعم الامبراطور . وكان نابليون الثالث شديد الذكاء والعناد شديد الاعتداد ، بارد الاعصاب . وأصابه النزف بالتلف حتي التفاهة ، وكانت جوزفين تتولي إدارة الحكم فى غياب زوجها فى حملته العسكرية على إيطاليا ، أو أثناء رحلته للجزائر . وأنابها الامبراطور عنه فى حفلات افتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٦٩ . ويبدو أن الكونتيسه الايطالية دى فارسيس كانت أكثر شبابا بل وأشد جرأة في استخدام سلاح الديكولتيه ، وهى الموضة الجديدة فسقط الامبراطور في غرامها . وجاءت جوزفين إلى مصر وهى فى جمالها الاربعينى بكبريائها . وكان الوفد الفرنسى أكبر الوفود الأوروبية . واختار الخديوى اسماعيل بنفسه مئة من الوزراء وأعضاء الاكاديمية الفرنسية والأدباء والرسامين والمصورين والموسيقيين . وكانت حاشية اوجينى وحدها تضم عشرين كونتا أو دوقا غير زوجاتهم أو بناتهم . وجاء امبراطور النمسا فرانسوا جوزيف وزوجته ، وأرسلت سويسرا عالمها الأثري نافيل ، واسبانيا أديبها الدرامى بلاسكو ، كما أرسلت المانيا عالمين للمصريات، والنرويج مؤلفها الشهير ابسن . واكتفت روسيا وانجلترا بالسفراء . وكان عدد المدعوين ألفا ، توجه منهم تسعمئة مدعو إلي رحلة في النيل إلي الصعيد لمشاهدة الأقصر ووادى الملوك أو الملكات واستغرقت الدعوة اربعين يوما . ولم يذهب الروائى تيوفيل جوتييه إلي الصعيد لأنه أصيب بكسر في كتفه ، ولم يمنعه ذلك من الكتابة وتسجيل ملاحظاته الادبية فى فندق شبرد . وكان حول حديقة الازبكية إلي جوار السفارات فندق لوريان (أى الشرق) وفندق أوروبا ، وتوزع المدعوون طبقا للمراتب والبروتوكول . فكان قصر الجزائر للأباطرة والملوك وفندق شبرد لاعضاء الاكاديمية والأدباء ، وأعضاء «الجوكى كلوب» من الارستقراطية الفرنسية القديمة . وقد أحصيت عدد أصحاب الالقاب ، ومنهم ١٤ دوقا وفيكونت ، وكان ماريبت عالم الآثار الفرنسى يلازم الامبراطورة ليشرح لها تاريخ الحضارة مما كان سببا فى نقد الأدباء والصحافيين بعد ذلك . وقد ألف ماريبت خصيصا لمناسبة افتتاح الأوبرا قصة أوبرا عايدة ، واستوحاها من عصر الأسرة الثامنة عشرة أيام عز الفراعنة . ولكن الموسيقار الايطالى الشهير فردى لم يستطع تلحينها بنفس السرعة التى كان اسماعيل يستطيع فيها بناء

القصـور والاسـتراحات والمبـانى . وتقـرر ان تعرض أوبـرا قـديمة لفـردى هى الـ«ريجوليتو» وعرضت «عـايدة» بعـد ذلك بعامين . وقـد بدأت أوجينى مبكـرا الاستعداد لرحلتهـا ، وجاء إلى قصر التويلري عـالم الآثار ماسبيرو يلخص لها فى ثمانى جلسات تاريخ الفى عام .

وزارت اوجينى متحف الآثـار القـديم ، وكان فى بـولاق . كما ذهبت إلى خـان الخليلى ، والموسكى ، والقلعـة ، كما زارت مسجد السلطـان حسن ، وكانت نهايـة الرحلة في حفل افتتاح القناة .

ودامت الاحتفـالات اربعين يومـا بقى منها قصـور عديـدة وعلى رأسها قصر عابـدين ، لأن الاوبرا احترقت ، والازبكية ضـاعت معا لمهـا . وكنت كلما مررت في ميدان الأوبـرا ، اتطلع إلى العمارة الجميلة وقـد اعطت ظهرها للقـاهرة القـديمة ، وفتحت أبوابها للقـاهرة الروميـة الجديدة . وعلى يمينهـا كانت حديقـة الازبكية ومغانى ومـلاهى قاهرة اسماعيل ، ولكن كـان على يسارها قصر قـديم لم أعرف سره إلا أخيرا بعد أن تبدل مالكه ، وكان الملك القديم هو «صندوق الدين» . وقصة الديون معروفة منذ عهد اسماعيل الـذى وصفه أحفاده أحيانا انه سر «اسماعيل المفترى عليه» .

٦٥

نســـــاء

الفيلســوف

عاش الفيلسوف فـولتير غاضبا مغضـوبـا عليه ، وكان جريئـا شديد الجرأة فى الكتابـة ، وجريئا علي الكتـابة إلى حد الوقاحة . وكانت سخريته لاذعة، ولدغاته مسمومة . فأصبح فولتير فى عهده أطول لســان فى أوروبا ، وعاش يتنقل بين بلاط الملوك فى باريس ولندن وبرلين ، كما تنقل بين صالـونات النساء المتأدبات والمتحذلقات . وبين بلاط الملوك وصالونات النساء عاش فولتير حياة مليئة بالمغامرات العنيفة والمليئة بالجرأة الشديدة والخوف الشديد أيضا .

وقد تكون جرأته الشديدة إلى حد الوقاحة تخفي عقدته من جبن أكيد ولد به . وقد يسفـر ذلك الشطط فى ابداء الـرأى ، والمقاوحة ، حبـه للسخريـة والتطاول والنيل من أى شيء . وكـان فولتير قصيرا شـديـد القصر وتكاد تخفيـه الأكمام الواسعة والثياب المزركشة بالنقوش المذهبـة والمفضضـة ، موضة القرن الثامن عشر . وكان إذا تكلم تألق ، ثم تدفق بالحديث الطيب الذكى حتى لينسى سامعه قامته القصيرة ويحس أنـه فى حضرة عملاقى يمتلك عليه ناصيـة الحديث . وقد كان فولتير فى عصره كل شيء ، شاعرا وكاتب مسرحيات ومؤرخا ونديما ، وزير نساء وعاشقا مخدوعا .

وكانت حياته شديدة الاضطراب ، غنيـة بالمغامرات . وقد أصبح فولتير الآن «علامـة وطنية» لفرنسا مثل نشيـد «المارسييز» نشيد الثورة الكـوبرى ، ومثل «اللوفـر» أعرق متـاحف باريس . ويحمل شـاطىء نهر السين الذى يطـل عليه المتحف الكبير اسم شط فـولتير . ولايمكن أن يـدخل الآن أى فـرنسى عـالم الجامعات ، ويلتحق بـالتعليم العالى من دون أن يمتحن فى مؤلفـات فولتير ، لأن مسرحياته وأشعاره وكتبه وسخرياته مقـررة على امتحان الثانوية العامة . ومع أنه مات مغضوبا عليه مطرودا من بـلاط الملك ، وكاد يطويه النسيان إلا أنه منذ مئتى عـام قررت الثورة الكبرى البحـث عن رفاتـه ثم نقله إلى البـانتيون مقبرة العظماء إلى جوار موليير وجان جاك روسو . ومنذ عامين فقط ، وعلى طريقتهم فى باريس فى ابتداع المئويـات الاولى والثانية والثالثة ، احتفلوا بمـرور ثلاثمئة عام على ميلاد فولتير «أطول لسان عرفته أوروبا» .

وقد ولـد فولتير ، واسمه الحقيقى فـرانسوا مارى أرويـيـه من أب كان يعمل

موثقا قانونيا . ولكن الفتى فضل الأدب على القانون ، وأحس بموهبته الشعرية ، خصوصا لذته الكبرى فى قصائد الهجاء . وفى إحدى القصائد تطاول ، وهو لا يزال فى العشرين ، على الوصى على العرش ، وكان نصيبه السجن والشهرة. وكان يمكن أن يظل شاعرا مهزارا ومسليا بعد الافراج عنه ، ولكنه ألف مسرحية «أوديب» ، ونجحت نجاحا ساحقا ، وجرته الحماقة إلى خناقة مع الفارس روهان شايو الذى سخر من اسمه . فقد كان العصر عصر اقطاع وضياع وفرسان وفخر بالانساب والألقاب . وكانت المبارزة الكلامية تنتهي دائما إلى مبارزة بالسيف. وانتهى فولتير إلى خمسة شهور فى الباستيل ، حتى قرر أن ينفى نفسه إلى إنجلترا .

وفى هذا العهد كانت فرنسا وبروسيا ، قبل توحيد ألمانيا ، وانجلترا تتنافس فى العلوم والصناعة والمكانة . وكانت إنجلترا تسبق فرنسا وبروسيا. لأنها بدأت الاصلاح السياسى مبكرا. وعرفت الملكة الدستورية منذ أيام كرومويل . وكانت اقامة فولتير فى إنجلترا لجوءا فكريا قبل أن تظهر فكرة اللجوء السياسى . وأفادته الاقامة فى إنجلترا ، لان شكسبير كان مقرضا . فاستلهم فولتير منه مسرحية ، وكتب مسرحية «بروتس». ثم «زائير» خلال عامين . وعكف علي كتابة تاريخ شارل الثانى عشر . ثم بدأ رسائله الفلسفية الشهيرة ويسخر فيها من الحياة الفرنسية . وتسمى تلك الرسائل بالرسائل الانجليزية أيضا ، وقرر برلمان باريس منعها من التداول لما فيها من نقد عنيف وسخرية لاذعة.

وظل فولتير مغضوبا عليه ، محروما من حظوة البلاط الملكى فى فرساى، حتى نال حظوة نسائية عوضته ، حين دعته الماركيزة دى شاتليه للاقامة فى قصرها . والقصر المنيف على أية حال بعيد عن الوشاة والعزال والحاسدين. وكانت الماركيزة مثل كثير من النساء حاملات الألقاب ، وزوجها جنرال ، وأبوه بارون . وكانت «اميلى» مع حفظ الألقاب شابة يافعة تعلمت اللاتينية والايطالية والانجليزية . وترجمت وهى فى الخامسة عشرة أشعار فيرجيل . وحللت فلسفة ليبتز ، واهتمت باكتشافات نيوتن ، وحين تطالع الآن صورتها الزيتية التي بقيت تكتشف ملامح رومانسية على جسد بض وأبيض ومشرب بالحمرة اللطيفة ولا يتوافر إلا لسلالة تتوارث فيه المرأة نعومة النعمة ، جيلا بعد جيل .

كانت «إميلى» الجميلة كما يسميها فولتير شديدة الفتنة شغوفة بالعلوم والفنون . وحين تطالع صورتها الزيتية لن تصدق ما كتبته عنها «ضرتها الأديبة» مدام دى جرافينى في كتابها عن «الحياة الخاصة لفولتير ومدام دى شاتليه» . فقد عاشت تلك الأديبة أيضا فى قصر شاتليه فى مدينة سيرى على

الحدود الفرنسية الألمانية . ولن تصدق ما قالته الأديبة فى الماركيزة ، حين بالغت فى وصف قبحها الدميم ، وقامتها القصيرة ، وأسنانها المعوجة .. إلى آخر مبالغات النساء عادة حين يكتبن عن نساء أخريات . ومهما يكن جمال الماركيزة ، فى ما تنطق به صورة الفنان أو ما كتبته الأديبة . فقد كانت العلاقة بين «إميلى» الجميلة وفولتير سببا في تحول فولتير من شاعر ساخر مهزار إلى فيلسوف أصاب شهرة هائلة . وكتب فولتير عن اميلى : «إن عقلها يحب الفلسفة وقلبها يحب الأطفال». وحاولت اميلى ارضاء غرور الفيلسوف ومزاجه الفنى ، فكانت تعرض مسرحياته فى قصرها . وهام بها الفيلسوف حتى بعد أن خانته مع ضابط شاب . وبمنطق الفيلسوف العجوز ، استمرت علاقته بإميلى الجميلة ، لأن هناك ماهو أجمل من الحب وهو الصداقة . واستمرت أشهر صداقات الفيلسوف ، ولولا فولتير لما ذكر أحد اسم مدام شاتليه الآن .

وأراد فولتير اغاظة الملك لويس الخامس عشر . فاستجاب لدعوة الملك فريدريك الثانى ملك بروسيا المنافس الثانى لفرنسا بعد إنجلترا وكان فريدريك الثانى يطلقون عليه الملك الفيلسوف لهواياته الثقافية والفنية والفكرية . وحبه للأدباء والمفكرين . وبعد عشر سنوات عن دعوات متلاحقة استجاب فولتير ، والتقى الملك الفيلسوف بالفيلسوف الملك . وكان فريدريك يحاول الشعر هاويا وفولتير يعيد صياغته كشاعر محترف . ولكن الود لم يدم، لأن الفيلسوف طويل اللسان كان لا يمسك قذائفه الساخرة عن كل شيء. وكانت آفته أنه يتجرأ على كل المعتقدات ، فأغضب الكاثوليك ثم البروتستانت، لأنه كان أقرب إلى ديكارت صاحب المنهج أو الشك المنهجى للوصول إلى اليقين ، بينما كانت شكوك فولتير ساخطة ساخرة ، وأغضب ذلك الملك، فتعرض الفيلسوف لحملة تفتيش واذلال وبهدلة . وكانت الدعوى هى اختفاء ديوان للشعر ألفه الملك ، وأعطاه للفيلسوف :

وتعب فولتير من الانتقال من بلاط إلى بلاط ، ومن إنجلترا إلى بروسيا ، وكان قد أصاب شهرة ومالا . فأقام بلاطه الأدبى فى جنيف ، وظل الساخر الساخط ، والغاضب المغضوب عليه . ولم يكتشف فى بروسيا هداية الشاعر جوته إلى الحكمة بدلا من العقل ، وكان جوته أروع من أنصف الدين ، وتعلم الفارسية ، وحاول العربية ، وأحب المعلقات . وقرأ ترجمة القرآن . واختلف الألمان عن الفرنسيين فى ذلك العهد فى انصاف الشرق وروحه وحكمته . واختلف جوته عن فولتير ، وإن بقيت سيرة الفيلسوف الذى بدأ شاعرا مهزارا وانتهى مفكرا مقاتلا ، حين أصبح ذلك القزم القبيح عملاقا .

٦٦

بين عدو المرأة وعدوة الرجال

حين أحس توفيق الحكيم أن الأدب الرفيع وحده ليس الطريقة المضمونة إلى الشهرة سعى ليحمل لقب «عدو المرأة». وكان الحكيم سعيدا بحمل هذا اللقب الغريب، مع انه كان رقيقا وشاعرا وجياشا ومن أكثر كتابنا حديثا عن الحب والمرأة فى رواياته ومسرحياته وجلساته. ولم يكن الحكيم عدوا للمرأة بحق وحقيقة.

وكما سعى الحكيم إلى لقب عدو المرأة. أرادت سيمون دى بوفوار، الكاتبة الفرنسية. أن تحمل لقب «عدوة الرجل والرجال» وتحولت الكاتبة التى أصابت شهرة عالمية فى الخمسينات والستينات إلى وكيلة نيابة. وكانت تتهم الرجال بتهمة الانانية. لأن الرجل هو كل شىء فى المجتمع. والرجال يمتلكون كل شىء فى السلطة. والرجل هو القاضى ورجل البوليس، وهو المشرع والنائب والحاكم. وهو الذى يمنح أو يمنع كما يشاء.

وكما ظل صديق عمرها ورائدها الروحى «جان بول سارتر» يقول إن مهمة المثقف الأولى هى «ازعاج السلطات» أرادت تلميذته النجيبة أن تجعل مهمتها فى الحياة هى «ازعاج الرجل» بقائمة طويلة لا تنتهى من الاتهامات.

وقد سعيت إلى لقاء سيمون دى بوفوار فى باريس قبل مجيئها إلى القاهرة عام ١٩٦٧ مع جان بول سارتر. اكتشفت أيامها أن مشاهير الادباء فى فرنسا لهم بلاط مثل الملوك والأمراء. وكان سارتر من أشهر الأدباء والمفكرين فى ذلك الوقت. كانت حاشية الاتباع والمريدين تحيط به. وكانت سيمون دى بوفوار تقود هذا البلاط الأدبى الذى تصدر معه كل شهر مجلة «الأزمنة الحديثة» كلود لانزمان وميرلو بونتى الذى عرفته فى مطلع الخمسينات حين كان يلقى محاضراته فى السوربون.

ولكن جلسة عابرة لم تكن تكفى لاكتشاف أسرار سيمون دى بوفوار. ولست أذكر منها سوى عينين ملونتين تتلألأن بالذكاء تحت جبهة عريضة وغطاء رأس ملون مزموم بشدة على جبهتها، وشفتين رفيعتين لا تكتمل معهما ابتسامة. ولذلك كانت تبتسم أيضا بعينيها الثاقبتين بالذكاء والثقة والتحدى.

وأذكر أن ماكياجها كان قليلا خفيفا. وكان همسا عاجلا بالألوان، وتحس أنها لم تجدده منذ أيام، أو لا تهتم به كل صباح أو تضعه دائما على عجل. لكنها

تعوضه دائماً باختيار ألوان قانية عميقة صريحة فى قميصها الحريرى اللامع.

وكدت أظنها امرأة مسترجلة لولا أننى قرأت كتابها عن حياتها «يوميات فتاة متزنة»، وهى تصف حياتها فى صباها. وكانت فتاة مرفهة ناعمة، لكن أباها فقد ثروته حين بلغت السادسة عشرة، وكان يملك مصنعاً للأحذية أضاعه فى المضاربة، واضطر إلى العمل فى الحكومة موظفاً، فانتقلت العائلة إلى بيت ضيق واضطرت الفتاة إلى القراءة والكتابة. وكانت لها أخت أكثر جمالاً وأنوثة وطاعة لأبويها، وكان أبوهما يقول لهما:

ـ أخشى ألا تستطيعا الزواج، لأنه يحتاج إلى الكثير، وليس أمامكما سوى العمل.

وكان أبوها لا يخفى إعجابه بروايات وقصص كوليت أولرى، وبطلاتها يشتغلن دائماً فى مهن حرة كالمحاماة أو الطب أو الهندسة.

وتنتهى القصة بنهاية سعيدة، حين تهجر البطلة مهنتها الفرعية لتعود إلى مهنتها الأصلية.. وهى الزواج.

وكان أبوها لا يخفى قلقه، كما تقول، من قراءاتها التى تنوعت وتفرعت. وبدأت تحس بنموها، وكانت ثيابها «المبهدلة» تخفى هذا التحول الكبير فى جسدها وروحها. فقد أقسمت بينها وبين نفسها ألا تضيع وقتها فى الأحاديث التافهة، وألا تقضى ساعات طويلة أمام المرآة، ولا حتى أن تقص أظافرها.

وكانت أمها حين تدعوها إلى الصالون حين تدعو صديقاتها لا تجدها، وإذا حضرت جلست صامتة، فتضطر أمها إلى إعفائها من جلسات الصديقات خوفاً من الفضيحة، لأنها سوف تبدو وحشاً كاسراً، وتضيع فرصتها فى الزواج.

وبدأت سيمون دى بوفوار الكتابة، وألفت قصة ساذجة عن فتاة تقدم لها عريس عن طريق العائلة، ثم هربت ليلة الزفاف. وكان اسم الرواية «ايليان»، وهو اسم البطلة، ولم تطبعها بالطبع، لأنها كانت محاولة أدبية مضحكة كما تقول.

وبدأت سيمون دى بوفوار تفضل أن تأكل السندويتشات فى حديقة عامة على أن تحضر الأكل فى ساعة محددة على مائدة العائلة، وكان أبوها يقول:

ـ سيمون لها عقل رجل.. إنها رجل.

وكانت تستعين بالصمت والقراءة على كل شىء. وكانت تحنى رأسها وتوافق على أشياء لم تقتنع بها. وكانت تسمع أباها الذى تحترمه وتحبه وهو يقول: إن فرنسا يحكمها الأغبياء، فقد ضللتها المثالية، وأغوتها مبادىء وودرو ويلسون، وليس لها مستقبل بين «البوش» أو الألمان أو البلشفيك السوفييت.

وكان «أبى وهو يأكل رأسماله، أو ما تبقى منه، يعتقـد أن الإنسـانية كلها ضـائعة. فهناك الخطر الأحمر من روسيا، والأصفر مـن الصـين، وقد يظهر الخطر الأسـود القادم من أفريقيا».

وكانت أمهـا تقوم بـدور البطانة التـى تؤمن على كل آراء زوجها. وحين قرأت روايات شارلز ديكنز الذى يصور بؤس عمال المنـاجم فى بريطانيا، قال لها أبوها «إن الزمـان قد تغير. والـذين يقاسون حقـا هم الأغنياء منذ إنشـاء ما يسمـونه بنقابات العمال». وقرأ لها أبوها فصلا مـن كتاب جوبينو «عدم تساوى الأجناس البشرية». ولكن الفتاة لم تقتنع بهذا التشاؤم ولم تكن تؤمن أن الثروة هى الشىء الوحيد الذى له قيمة فى المجتمع. وكانت تثور على ابنة عمها «مادلين» التى لم تكن تبـدأ بائعـة الخبز بـالتحية، وهى تقـول: «عليها أن تبـدأ بتحيتى»، علامـة على الفوارق الطبقية.

ووجدت ضـالتها فى مكتبـة جدهـا فى سبعة أجـزاء من كتاب «تـاريخ الثورة الفرنسيـة»، لتخرج منها بمبـادىء الحرية والاخاء والمسـاواة. ولم يكتمل فهمها للمساواة إلا حين تعـرفت بعـد سنوات إلى أستاذهـا وصديقهـا وأبيها الـروحى سارتر. لأنـه اصبح بعد الحرب العالمية الثـانية بكلمة واحدة هى: «أنـا.. فالعالم يدور حولى أنا. وفى فلكى أنا. ولمصلحتى أنا».

ومن هنـا قالت سيمـون دى بوفوار :أين أنـا من الرجـل؟ وأين أنا ــ فى عالم يملكه ويحكمه الرجال ؟

وتحولت سيمون دى بوفـوار فى كل كتبها إلى وكيلة نيابة تتهم الـرجل بقائمة طويلة من الاتهامات. وأخطرها تهمة تسميها المرأة : الأنانية .

٦٧

كونى جميلة
أو مدهشة

فى أحد شوارع باريس، كان أحد المارة يلبس على رأسه قبعة عالية، وثيابا داكنة، وياقة بيضاء مرتفعة، وفى يده شمسية مقفلة. وكان يضرب بخطواته المنظمة فى ثقة. فيسمع صوتها على أسفلت ذلك الشارع المهجور فى تلك الساعة.

ويبدو أن الرجل كان فى طريقه إلى إحدى السهرات الليلية، فقد كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء. ولم يكد الأنيق يقترب من نهاية الشارع حتى خرج عليه رجل يشهر مسدسا فى وجهه. فتوقف المتأنق والخوف والمفاجأة يعقدان لسانه، وأعقبت الدهشة فترة من الخوف والتوجس. ولكن انتظاره لم يطل. لأن الرجل الذى فاجأه باشهار مسدسه، رفع قبعته بيده اليسرى، وفاجأه بهذا السؤال:

– الساعة كم من فضلك ؟

واطاعه الأنيق، فنظر إلى ساعته، وأخبره بالساعة واعاد الرجل مسدسه إلى جيبه الأيمن، ورفع ذراعه اليسرى ليضبط ساعته ثم اختفى بخطوات كالجرى مهرولا وهو يتمتم بكلمات الشكر للانيق الذى لم يستطع التحرك خطوة واحدة من شدة الذهول.

ولم يكن هذا الرجل الذى ظهر بسرعة واختفى بسرعة شاهرا مسدسه ليسأل عن الساعة سوى الكاتب المعروف فى ذلك الوقت: «جاك فاشيه».

وانتشرت قصته فى المقاهى الباريسية والندوات الأدبية. وأذاع جاك فاشية انه أراد بهذه «الفضيحة» ان يثير الدهشة. وكان يقول: «ان مهمة الفنان أو الأديب هى تدمير الواقع الذى تعود عليه الناس، ليثير بكافة الأساليب أو حتى الحيل دهشة الجمهور».

ومن الدهشة يبدأ تدمير الواقع الرتيب المعتاد، ويبدأ الاكتشاف. وكان جاك فاشيه من «ملاحيس» مذهب «السوريالية» أو «ما وراء الواقع»، الذى ظهر فى باريس فى العشرينات، وتفشى حتى الخمسينات بين الأدباء والشعراء والرسامين. وأصبحت السوريالية بعد ذلك مذهبا لها رواد ومريدون وتقاليع غريبة. ولكن لاأحد يذكر الآن انصاف الأدباء مثل «جاك فاشيه»، بينما يذكرون الموهوبين حقا فى الشعر مثل «اندريه بريتون» و«جاك بريفير» و«اندريه

ماسون»، والموهوبين فى الرسم مثل ««سلفادور دالى» و«ماجريت» و«شريكو».
وكان اقدرهم فى البداية الشاعر اندريه بريتون، لأنه قال ان التقسيم التقليدى بين الحقيقة والخيال ليس صحيحا، لأن الخيال قد يصبح حقيقة. فإذا كنت تجلس لشاهدة إحدى المسرحيات، ورأيت على المسرح جريمة قتل، فلن تتحرك وستبقى فى مكانك وترضى ـ عن طريق المجاز ـ بأحداث المسرحية.

وكان بريتون يحكى قصة جندى التقاه أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد خرج مجنونا من شدة الأهوال، وكان الجندى يحاول أن يقنعه ان كل تلك الحرب لم تكن حقيقة. فقد تصور ان الحرب كانت كلها خدعة، وان اصابات الجرحى الممددين على الأسرة، والملفوفين فى الضمادات لم تكن سوى ماكياج متقن، وحتى الدم الذى كان يسيل لم يكن سوى صبغة يود حمراء.

واكتشف بريتون فى هذا المجنون، وفى النفس البشرية، قوة هائلة تعاونها على الهروب من الألم، والهروب من الحقيقة.. بالخيال والأوهام. ثم روى قصة الكاتب الشهير «فلوبير» والزرنيخ. وهى معروفة فى تاريخ هذا الأديب. فقد ماتت زوجته «ايما» من سم الزرنيخ، وجلس فلوبير يكتب فى إحدى قصصه مشهدا تموت فيه سيدة بسم الزرنيخ. واستغرقت الكتابة ثلاثة أيام. واحس فلوبير بعدها بمذاق الزرنيخ لايفارق فمه أياما عديدة. وقصة الفيلسوف «مالبرانش» عن خادمته معروفة أيضا. فقد أصيب مالبرانش فى قدمه حتى أدمت، واعتكف الفيلسوف فى سريره ولازمته خادمته إلى جواره. فإذا بها تحس احساسا أليما بأن قدمها تدمى فى نفس الموضع الذى أصيب فيه سيدها الفيلسوف.

وهكذا اكتشف بريتون من تجربة الحرب، وحياة الأدباء السابقين أن الحدود بين الحقيقة والخيال ليست فاصلة. فقد يصبح الخيال هو الحقيقة. ووجد بريتون ضالته فى اكتشافات عالم النفس سجموند فرويد، حين قال ان وراء الوعى عالم اللاوعى. وتكشف الأحلام التى نراها فى المنام عن رغبات مكبوتة. وكما أن العقل والمنطق لهما عالم. فهناك الغرائز والشهوات التى تختفى فى اللاوعى، وتظهر بعضها فى الأحلام. والحلم هو رغباتنا المصورة.

وهكذا انطلق السورياليون بعيدا عن الواقع المرئى المنطقى إلى عالم الأحلام والخيال، حتى وصلوا إلى شاطىء الجنون. وانطلق شعراؤهم لجمع الصور التى لايمكن ان تكون فى المنطق متقاربة أو متتابعة. فهم يكتبون عن «الزنجية الشقراء»، أو يرسمون ساعة معدنية استرخى ميناؤها، ولان معدنها، فأصبح رخوا كالعجين. ووضعوا فى معارضهم مكواة لها قاعدة حديدية، ثبت عليها عدد كبير من المسامير الغليظة. وشعارهم: ان ما يرفضه المنطق يقبله الخيال.

وشاعت فى مقاهيهم لعبة للتسلية والتلاعب بـالصدفة. وكان عدد من الكتاب والشعراء يكتبون على أوراق صغيرة عدة أسئلة، ثم يكتبون الاجابات «المنطقية» على أوراق أخرى. ويخلطـون الأسئلة بالاجـابات. فتأتى النتيجة مـدهشة وغير متـوقعة. فمثـلا يكـون السؤال، ومـاهـو الفجـر؟ والجواب المنطقى هو بـزوغ الصباح. والمرآة، اجابتها المنطقيـة هو مانرى فيه أنفسنا، والسخـان الكهربائى: أنبوبة مليئة بالماء الساخن، والحلم: وهم النائمين.

وبعد خلط الأوراق، ثم جمعها بالصدفة، جاءت النتيجة المذهلة كما يلى:

– الفجر : هو مانرى فيه أنفسنا.

– المرآة : هو بزوغ الصباح .

– جندى البوليس : أنبوبة مليئة بالماء الساخن .

– المصباح الغازى : وهم النائمين .

وقال السورياليون : « ان هذه اللعبة من الأسئلة والاجابات تصبح بالصدفة مدهشة، وإن بدت بعيدة عن الواقع. فما الغريب فى قولنا: ان الفجر هو مانرى فيه أنفسنا».

وانطلق شعراء السـوريالية فى جمع الصور التى لايجمعهـا المنطق ويرضى بها الخيال.

وكـانت أروع روايـات السوريـاليـة، وماكتبـه انـدريـه بريتـون مـؤسس السوريـالية فى قصته «الحب المجنـون». وقد روى قصته الحقيقيـة مع زوجته التى لازمته فى حيـاته، لأنه روى انـه رآها فى المنام قبل ان يقـابلها، نفس الملامح والصفات واللفتـات. وقد تبـدو هذه القصة غـريبة منطقيـا، ولكن بريتـون كان يؤمن ان الخيال قـد يصبح حقيقة، وما المانع فى النهايـة ان يتحقق الحلم فى إمرأة نلتقيها بنفس الصفات.

وقصة حب بـريتون وزوجته من أشهر غـراميات السـورياليـة، ولاتقل عنها قصـة غرام الـرسـام سلفادور دالى مـع زوجته «جـالا». وبين مئـات اللوحـات المدهشة التى رسمهـا سلفادور دالى تجد صورة «جالا» فى مئـات» الأوضاع. فقد شـغف بها حتى أصبح يرها فى كل إمرأة. ولم يعـد يرسم إمرأة دون ان تظهر له فى الخيال، لنيقلهـا إلى لوحـاته، فأصبحت زوجته من معـالم لوحـاته الشهيرة. بين عشرات الرسـامين والشعراء كـانت المرأة الجميلة الملهمة والـزوجة والصـديقة. وبينما كـان بودلير يقـول: كونى جميلـة، وكـونى غبية. اصبح السـورياليـون يقولون للمرأة: كـونى جميلة، أو على الأقل مدهشة. وبالـدهشة يثور أجمل مافى الشعر، وهو الخيال.

٦٨

ملهمات فقط

أصبح الرسام الأسباني سلفادور دالى أشهر رسام سوريالى فى العالم، وأصبحت لوحاته الآن بالملايين، واللوحة وحدها ثروة. وأصبح دالى بين رسامى السوريالية الأشهر لأنه كان الأغرب فى لوحاته وفى شخصيته. فقد كان دالى يعشق التقاليع ويحب الاستعراض ولفت الأنظار. وحين وصل دالى إلى باريس كان قد سبقه بابلو بيكاسو وخوان ميرو. وهما اسبانيان أيضا.

وسأل الرسام دالى صديقه الرسام ميرو :

.. ما الذى يجعلنى أهجر برشلونة وهى قطعة سكر تذوب فى طبق من العسل.. إلى باريس هذه العاصمة المتوحشة؟

وقال له ميرو :

– باريس عاصمة الفنون فى العالم. ولكى تشق طريقك هنا عليك ان تكون عنيدا وعنيفا.

وقد استعان دالى فى باريس بكثير من الموهبة والعناد، واستعان على باريس بحب الظهور ولفت الأنظار، لأنه كان فى الأصل شخصية مذهلة غريبة الأطوار.

ويتذكر سلفادور دالى صباه، منذ كان فى الخامسة. فقد كان يحس فجأة بدافع قوى فى داخله لايستطيع عليه شيئا، ليأتى شيئا مفاجئا يذهل الجميع، ويثير الدهشة والاضطراب.

فقد كان ذات يوم يلعب مع صديقه ابن الجيران، وكانا يركبان معا دراجة صغيرة. وحين وصلا إلى أحد «الكبارى»، توقفا يتأملان الماء، وإذا به يحس فجأة بدافع قوى داخله ليدفع ابن الجيران.. ثم يجرى. ويتذكر دالى أنه كان فى السادسة، واصابه المرض، وحضر إليه طبيب العائلة، وإذا به يحس بنفس الاندفاع من داخله فينهض من سريره وهو لايقوى، ليصفع الطبيب صفعة مفاجئة تثير دهشة العائلة وخجلها، وتجعل الطبيب المسكين يبكى.

وقد ظل دالى فى صباه يأتى «حركات» غريبة وطائشة تدل على الجموح والشطط لأنه وهو فى السادسة عشرة، كما يتذكر، كان يحس فجأة بالرغبة القوية ليقفز من الدور الثانى فى المدرسة إلى الفناء، ليبقى شهورا ملفوف السيقان.

وعندمـا يلتحق سلفادور بمـدرسة الفنون الجميلـة فى برشلـونة يكتشف فى داخله قـوة أخرى هى قوة التـوهم وعنف الخيال. وحين جلس فى حصـة الرسم، كان عليه ان ينقل إلى لوحته صـورة سلم مطبوعة. وانهمك دالى فى الرسم حتى مر عليه أستـاذه، ففوجىء ان تلميذه يـرسم صورة مختلفة تمامـا عن صورة السلم التى أمامه.

وقال الأستاذ مندهشا :

– ماذا تفعل ؟ انك ترسم صورة العذراء .

– ولكنها السلم .

وبعد مجادلات، اضطـر التلميذ أن يعتـذر للأستـاذ بأنه كلما نظـر إلى شىء توهم فى الخيـال شيئا آخر يراه كأنـه الحقيقة، وهو لايستطيع مقاومـة الوهم أو الخيـال. واكتشف الأستـاذ أن تلميـذه مصاب بمـرض نفسى يسمـونـه فى علم النفس «البرانويـا» أو جنون الاضطهـاد، حيث يختلط الخيال بـالواقع، ويتخيل المريض من فرط احساسه بالاضطهاد، ان أوهامه حقيقة.

واستطـاع الرسـام دالى فى باريـس ان يكتشف أنه «نصف مجنـون ونصف فنان». ورحب به السـورياليـون ووجد فى الحركـة السوريـالية حقـلا فسيحا لطباعه الجامحة، لأنه وجدهم يصورون احـلامهم ويسجلونها بالشعر والرسم تأثـرا باكتشـافات عالم النفـس سيجمونـد فرويد فى عـالم اللاوعـى والأحلام. وتزعم دالى حركة تصوير الخيال والأحلام والهلوسة وغير المعقول، واستخدم فى لوحاته موهبته فى الرسم والـدقة الفوتوغرافية وخداع البصر. واستطاع ان يخرج بالمرئى إلى اللامـرئى، وبالمنظور الذى تعـود عليه الناس إلى عالم جـديد يختلف تماما، رائع ومدهش. ورسم فى رسومه زرافة تشتعل رقبتها الطويلة بالنيران، أو فتاة فى صدرها أدراج، أو ساعة حديدية لانت ومالت مثل العجينة.

ولم تخل حياة دالى بعد أن نجح، من بهلوانيـة وتصنـع. فكان يدخل المعارض السوريـالية فى حفل الافتتاح من النـافذة لامن البـاب. وكان أحيانـا يهشم الباب الـزجاجى بعصـاه وسط المدعـوين المشـدوهين. وحضر إحدى المحـاضرات لم يستطع الخروج من ثياب الفـرسان والدروع الحديدية، حتـى احضروا له رجال المطافىء وهو يكاد يختنق.

وانطلقت صيحة سلفـادور دالى المشهورة: «لكى تستطيع ان تـرسم يجب ان تكون مجنونا».

وسمع الأمريكيون بهذه الأعجوبة الأسبانية، فدعوه إلى نيويورك طبعا. حيث قفزت لوحاته إلى آلاف الدولارات، قبل ان تصل الآن إلى الملايين.

ولكن السـوريـاليين اعتبروه خائنـا لقضيتهم، يسعى وراء المال والشهـرة. وغضبوا عليه خاصـة لأنه خطف من أكبر شعراء السورياليـة بول آيلوار زوجته الجميلـة «جـالا»، التى كـانت فائقـة الحسن رائعـة الجمال، واستطـاعت إلهام الشاعر والرسام معا، حيث تزوجهـا دالى بعد طلاقها من ايلوار. ويندر ان تختلط حياة المرأة بـرجل مثلما اختلطت حياة جـالا بحياة الـرسام سلفـادور دالى. وقد رسمها دالى فى أكثر مـن مائة لوحة، بل كان دالى يـوقع على لوحاته التـى يرسمها بريشته باسمه واسمها معا.

ولايقل غريمه بول ايلوار الشاعر، أهمية عن سلفادور دالى الرسـام فى الحركة السوريالية. وكان اسمه فى الأصل اوجين جـرانديل. وقد تفتح شباب ايلوار حين كان الشعر الفرنسى على أبـواب أزمة فى الشكل والمضمون. وتيقظ ضمير ايلوار على مأساة الحرب العـالمية الأولى، حين جند ممرضـا، ثم انتقـل إلى سـلاح المشاة، وكتب أولى قصائده وفيها رائحة الحرب والموت. ومن قصائده الأولى: «ليس اشق من الحرب فى أيام الشتاء».. يقول:

– فى كل أرض انسان معذب
ودماؤك تمزق الأرض
وقد تركوك على حافة احدى الحفر»

ويكتشف ايلوار أيضـا عالم الأحلام. وتـدوى بين السورياليين اكتشـافات فرويد، ويكتـب ايلوار عام ١٩٢٤ قصيدته الشهيرة: «الموت خـوفا من الموت» ثم ديوان «عاصمة الألم».

وفيها يخاطب زوجته «جالا» التى أصبحت بعد ذلك زوجة دالى وملهمته:

– عيناك عادتا من بلدة متحكمة
لايعرفون النظرة فيها
لايعرفون معنى الجمال
اغمضت عينى
فأصبحنا ملكك
وكما يبدو ان روح النهار هى البراءة
فروح الكون أجمع
عيناك الصافيتان

ويقول أيلوار عن «جالا»:

– أنت يا من تمحين النسيان والجهل، وتمحين الغباء
احبك. حتى يخلقنى الحب، ويكتب لى الخلاص

وقد لعبت جالا دور الملهمة للرسام والشاعر، ولكن حب دالى لها كان مجنونا. لأنه كان يراها فى كل إمرأة، ويرى فيها كل النساء. وقد تزوجها قبل أن يعرف الشهرة وترتفع أسعار لوحاته ويصبح من أصحاب الملايين. ويقول عنها انها كانت مساعدة وملهمة وتخفف عنه عبء الفاقة.

ويقول فى مذكراته انه كان يعود إلى البيت كل يوم فى الساعة الثانية حين يحين موعد الأكل. وكان لايجد طعاما، ثم يستريح، وينزل من البيت.

وهكذا «ظللت اذهب فى موعد الغداء، وأجلس على المائدة، وأنا أعرف انه لايوجد طعام. ومع ذلك فقد كانت هذه هى السعادة».

وهكذا بدأت السوريالية أو مافوق الواقع بالقول ان الخيال الجامح هو نقطة البداية. ويقول رائدهم الشاعر اندريه بريتون ان الخيال هو الشىء الذى سيصبح حقيقة. وكانت جان دارك ترى رؤى من الخيال وتخاطبها كأنها الحقيقة.

وقصة الروائى الفرنسى فلوبير والزرنيخ معروفة. فقد ماتت زوجته «ايما» من سم الزرنيخ. وجلس فلوبير يكتب فى إحدى قصصه مشهدا تموت فيه سيدة بسم الزرنيخ. واستغرقت كتابة المشهد ثلاثة أيام، أحس بعدها فلوبير بمذاق الزرنيخ لايفارق فمه أياما عديدة.

وقصة الفيلسوف مالبرانش عن خادمته معروفة أيضا. فقد أصيب مالبرانش فى قدمه حتى أدمت. واعتكف الفيلسوف فى بيته، ولازمته خادمته إلى جواره وإذا بها تحس احساسا أليما بأن قدمها تدمى فى نفس المكان الذى أصيب فيه سيدها.

ولم يقتصر السورياليون، رسامين وشعراء، على ركوب الخيال الجامح وترويضه لرسم مايتراءى لهم من صور شعرية فى الرسم والشعر والرواية وكان أغربهم سلفادور دالى، وكان نصف فنان ونصف مجنون، وكانوا يسمونه «مجنون جالا» لأنه كان يرسمها ويوقع لوحاته باسمها.

٦٩

نساء

بيكاسو

من المشاهد المعتادة فى باريس تلك الطوابير الطويلة أمام أبواب المتاحف والمعارض والأوبرا والكوميدى فرانسيز. ولابد أن تقف نحو ساعة فى طابور طويل أمام متحف اللوفر بروائعه النادرة من الفراعنة إلى الأغريق مرورا بلوحات الغيوم. وحتى ترى لوحة الموناليزا، أو تمثال فينوس أو لوحة قديمة من لوحات الغيوم ولابد أن تنتظر ساعة على الأقل. والوقوف فى الطوابير فرصة لتقرأ شيئا عما ستراه بعد الدخول أو فرصة لتتفرج على المتفرجين. ولكنهم ابتدعوا طريقة الاشتراك فى المتاحف الكبرى لتستطيع تجنب الطوابير والدخول مباشرة حتى تقف أمام روائع المعروضات بدلا من الانتظار.

ولو أنك حفظت روائع اللوفر عن ظهر قلب، وهذا مستحيل، فلا بد أن تتجه حتما بعد اللوفر إلى ثانى متاحف باريس فى الأهمية، وهو متحف «دورساى» على الضفة اليسرى من نهر السين، غير بعيد عن متحف اللوفر، وقريب من الكى دورساى حيث وزارة الخارجية. وهذا المتحف الرائع «دورساى»، يجمع أجمل وأشهر أعمال الرسامين التأثيريين من فان جوخ إلى مونيه ومانيه وتولوز تولريك وجوجان وصديقه إميل برنار الذى عاش فى مصر عشر سنوات، وبين طنطا والقاهرة رسم عشرات اللوحات القاهرية.

ومتحف «دورساى» يجمع عشرات القمم فى رسم القرن التاسع عشر والعشرين، وفكرته مبتكرة، لأن المتحف كان فى الأصل محطة سكة حديد أقيمت فى بداية القرن فى قلب باريس، وكانت ملتقى الخطوط القادمة من الشمال والشرق والجنوب، ولأن الطراز المعمارى كان شديد الفخامة، فلم يهدموا المحطة بعد امتداد باريس فى الاتجاهات الأربعة، وقرروا تحويل المحطة إلى متحف جديد يزوره كل عام أكثر من خمسة ملايين مشاهد.

وبعد متحف اللوفر ومتحف دورساى القريبين، لن تستطيع الاستغناء حتما عن زيارة «القصر الكبير» و«القصر الصغير»، أو الجوان باليه والبيتى باليه. وهما قصران كبيران متواجهان على ضفتى أجمل وأعرض شوارع باريس: الشانزليه أوشارع الأناقة وينبع الشانزليه من قوس النصر ليصب فى ميدان الكونكورد، حيث ترتفع المسلة الفرعونية القديمة فى ميدان الكونكورد، وخلفه حدائق التويلرى الغناء ومتحف اللوفر العريق. والقصران أيضا من عمارة بداية القرن، وتقام فيهما المعارض الموسمية التى تمتد عادة بضعة

شهور كل سنة ولاتقل عن أربعة، وقد شهد الباريسيون فى القصر الكبير معرض توت عنخ أمون الشهير، كما شهدوا فى العام الماضى معرضا عن حضارة قرطاج التونسية العريقة، كان حظى أن أراه. ويشهد القصر الكبير بعد أيام معرضا من روائع الصين وسيشهد بعد عامين معرضا عن الاسكندرية.

وكان من حظى أن أدخل قاعات القصر الكبير قبل أيام من افتتاح معرض الصين. وكانت التحف ملفوفة بالأوراق أو مختفية فى الصناديق. واكتشفت انهم غيروا الديكورات تماما استعدادا لمعرض الصين، الذى يختلف طبعا عن معرض قرطاج. وهذه المرة اختاروا الألوان الصينية الامبراطورية التى تناسب المعرض الجديد.. اللون الأحمر القطيفى القانى، واللون الذهبى، والاسود والرمادى، وهى سلم الألوان فى العصور الامبراطورية الصينية القديمة، لخلق جو أباطرة الصين القدامى. وهكذا يضيف فن العرض إلى قيمة التحف والمعروضات.

ومع أن معرضا شاملا لفن البورتريه عند بيكاسو كان قد بدأ فى القصر المواجه، لكننى لم أطق الصبر الطويل تحت وابل المطر الباريسى، حتى لو كان الرذاذ منعشا، ولم أضع فى خطتى الانتظار طويلا فى صف طويل أمام البيتى باليه. ولكننى هذه المرة كنت مدعوا من وزارتى الخارجية والثقافة، فوجدت نفسى داخل القصر الصغير أمام لوحات بيكاسو الرائع، وأغرانى اننى شهدت عام ١٩٦٥ فى القصر نفسه معرضا لبيكاسو أيضا. ولكن فكرة المعرض الجديد كانت جديدة. لأنهم جمعوا فكرة واحدة هى «البورتريه» عند بيكاسو فى مراحله المختلفة، من الكلاسيكية إلى الفترة الزرقاء إلى الفترة الوردية مرورا بمرحلتيه التكعيبية حتى أواخر مراحله. وكما قال مالرو وبحق أصبح بيكاسو أكبر رسام فى القرن العشرين، وهو فى قامة مايكل أنجلو.

وبيكاسو عدة رسامين فى رسام واحد، وقد أصبح الآن فى شهرة «جوته» الشاعر الألمانى، أو «فيكتور هوجو» الشاعر الفرنسى، ووصل إلى باريس وهو فى التاسعة عشرة عام ١٩٠٠، وقد امتد به الفن الجميل والعمر الطويل حتى بلغ الرابعة والتسعين. وورث الموهبة الاسبانية عن أبيه فى الرسم حتى انه استغرق يوما واحدا فى امتحان القبول الذى يستغرق شهرا. وفى العاشرة، تنبه والده وكان أستاذا للرسم فى جامعة برشلونة إلى موهبة ابنه المبكرة. واكتشف أن لوحات ابنه تتفوق عليه، فأهداه معدات الرسم، وقرر الأب التوقف عن الرسم، لأنه وجد فى موهبة ابنه العزاء والأمل، لأنه عبقرى أو مشروع عبقرى تحت الإنشاء.

وترك بيكاسو وهو فى التاسعة عشرة اسبانيا إلى باريس، ليختلط بالمجددين الثائرين على الفن الكلاسيكى، والتقى الشاعر ماكس جاكوب والرسام التكعيبى براك. وكانت واضحة فى أعماله قدرة أصيلة على الرسم الكلاسيكى وتمتد مرحلته الزرقاء لأنه كان يفضل الرسم بتنويعات مختلفة من لون واحد هو

الأزرق، بتنويعات الصعود إلى الصفاء أو الهبوط إلى الحزن والكمد. ثم جاءت مرحلته الوردية من الشفافية إلى العشق والوجد والبهجة، لتؤكد أن هذا الرسام فريد فى كل شىء، لأنه يرسم مايرى فقط، بل يصور مايحسه، فهو لاينقل الملامح كما تنقلها الصورة الفوتوغرافية، ولكن يعكس المشاعر التى تموج فى نفسه. وكانت تجديداته التى لفتت اليه النقاد فأصبح عدة رسامين فى رسام واحد.

ومعرض البورتريه الذى يعرضه الآن القصر الصغير يستمر من أكتوبر س(تشرين الأول) ١٩٩٦ حتى يناير (كانون الثانى) ١٩٩٧. ويعرض ١٥٠ لوحة شاهدت بعضها فى الكتب والمجلات ولم أشاهد أكثرها إلا هذه المرة. وأغلب موديلاته نسائية، وبعضها لابنه الأول باولو الذى أصبح «أشهر عيل» فى تاريخ الرسم. وقد تزوج بيكاسو أربع مرات، ومن زوجته الروسية الأولى أولجا فولكوفا انجب باولو الشهير، وكان عمر الرسام ٣٧ عاما. وقد تزوج جاكلين بروك وهو فى الثمانين عام ١٩٥٤، كما تزوج فرانسواز جيلو، أشهر زوجاته وأجملهن، وهو فى السادسة والستين، ومنها أنجب ابنه كلود وابنته بالوما، التى اشتهرت الآن لأنها ابتكرت عطرا باريسيا اسمه بالوما بيكاسو، الذى حافظت مبتكرته على نفاذه الاسبانى. ولأن فكرة المعرض هى الرسام والموديل، بين الأصدقاء والأقرباء والزوجات والأبناء، فينقلك المعرض بين مراحل بيكاسو وحياته العريضة العميقة، وتجاربه وتجديداته، وهو يملك التعبير على الرغم من التغيير فى أسلوب الرسم وفى انتقاء الألوان. وينقلك المعرض حتما إلى حياته العاطفية القوية لأن أغلب الموديلات نسائية، فهو تارة يرسم زوجته بأسلوب كلاسيكى أو تكعيبى، ولاتملك إلا الاعتراف أنه موهبة فذة ومجددة.

وتذكرت اننى بعد معرضه عام ١٩٦٥، كتبت فى كتابى «العالم من ثقب الباب» بابا بعنوان «دموع بيكاسو» تحدثت فيه عن فن المعارضة الذى عرفناه فى الشعر العربى القديم والحديث. وتحدثت عما وجدته فى غرفة توم أمير الشعراء فى كرمة ابن هانىء، حين تفحصت بعض ماتبقى من دواوين الشعر القديم. ووجدت بخط يد شوقى بالقلم الرصاص بداية سينيته فى الربيع على غلاف ديوان البحترى. وعلى غلاف ديوان البوصيرى صاحب البردة، أول سطور لشوقى فى مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وتحدثت وقتها عن فكرة المعارضة فى الشعر وفكرة المعارضة فى الرسم، وكيف أن العمالقة يطاولون العمالقة، لأن بيكاسو نفسه، فى كثير من لوحاته، يعارض عباقرة الرسم. وكما رسم دافيد حروب نابليون رسم بيكاسو لوحة الجرينيكا الشهيرة عن حرب اسبانيا الأهلية. وفى المعرض الأخير تأكد حدسى لأنه يعارض فيلاسكيز الأسبانى عبقرى الرسم فى القرن السادس عشر، ثم يعارض مانيه أجمل رسامى القرن التاسع عشر الفرنسيين. وهكذا يكون حوار الخالدين شعرا بشعر، ولوحة بلوحة.

٧٠

نساء

حرب ١٤

أول حرب عالمية استمرت أربع سنوات ونصف السنة. واندلعت أول شرارة عام ١٩١٤ فى قلب أوروبا من مدينة سراييفو، وشملت كل أوروبا، ودخلت فيها أمريكا واتسعت فى كل القارات والبحار والمحيطات. وكان الصراع هو نفس الصراع الأوروبى بين ألمانيا وحلفائها من دول الوسط النمسا والمجر وتركيا، وبين انجلترا وفرنسا وحلفائها حول المستعمرات ومن يملك العالم. وفى هذه الحرب انهزمت ألمانيا وتحطمت امبراطورية النمسا والمجر، وانتهت الامبراطورية العثمانية، واستقلت دول البلقان، واختفت عدة امبراطوريات، وظهرت دول جديدة، وحدثت تغيرات هائلة فى الحدود بين دول أوروبا. ومستعمراتها فى آسيا وأفريقيا.

ولكن أخطر ما حدث فى هذه الحرب هو ما حدث للمرأة الأوروبية، فقد ذهب الملايين من الرجال إلى الحرب، وبقيت المرأة فى الجبهة الداخلية. وحدث التغير العظيم، فبعد أن كانت فرنسا لا يزيد عدد العاملات فيها على مليونين قبل الحرب تضاعف هذا العدد أربعة أضعاف أثناء الحرب. واشتغلت المرأة أو تطوعت فى التمريض، ولكنها أيضا أصبحت سائقة للترام، وعاملة فى مصانع الذخيرة، وضابط مرور. وخلت المدن الكبيرة من الرجال، وزحفت المرأة إلى المجتمع لأول مرة، وبحكم ضرورات الحرب.

خلت المدن من الرجال، وتعاظم دور المرأة، حتى قال الجنرال الفرنسى جوفر: «لو توقفت المرأة فى مصانعنا عن العمل عشرين دقيقة فقط لخسرنا الحرب».

ولكن الإنسان كما قال هيمنجواى بعد ذلك في حرب اسبانيا «يتعود على كل شيء». «على الزلازل والطاعون والحرب». وقد احدثت الحرب فى المجتمع تغييرات هائلة، وأهمها تلك التغييرات فى علاقة المرأة بالرجل. فقد مات أكثر من مليون ونصف مليون فرنسى في هذه الحرب، وتركوا عددا موازيا من الارامل، وتغيرت العلاقات فى العائلة الفرنسية نفسها. ولاحظت الباحثة الفرنسية فرانسواز تيبو فى كتابها الأخير عن «المرأة فى حرب ١٤»، ان ثلث ضحايا الرجال كانوا من المشاة، وأغلبهم كانوا من الفلاحين. ولم تعد هناك قرية واحدة لم

تلبس فيها المرأة الملابس السوداء .

وكـانت المرأة الريفيـة تعكف على زراعة الارض سـاعات أكثـر ، وزاد صمت المرأة الـريفية الصـابـرة على العمل والأسرة ، وزادت مـدة الصلاة فى الكنـائس. وبقدر مـا زادت سـاعـات العمل الشاق والصـامت فى الأرض عوضـت المرأة هذا الصمت بطول مدة الصلاة. ولخصت مجلة «ايكو دى بارى» حالة المرأة بصورة كاريكاتورية لأم وابنتها تنحبان على قبر جندى ، وتقول الابنة اليتيمة لأمها الثكلى هذا السؤال البرىء والجارح :

– هل يعرف ابى اننا انتصرنا .

وهكذا احـدثت الحرب التغيير الكبير الذى لم يتـوقعه أحـد. وشهدت الحرب انخفـاض نسبة الطـلاق ، وشهدت بـا لمقابل زيـادة الخيانـة الزوجيـة فى المدن . والغريب ان امرأة أصبحت أشهر مصممـة للأزياء انتبهت دون وعي إلى أن اللون الأسـود هو الموضـة. وظهـرت مبتكرات شـانيل التى اشتهـرت بعد ذلك بعطـر «شانيـل رقم ٥ » الشهير . وكانت كـوكو شانيـل أول من تقدمت عـالم النسـاء في الموضة. واسمها الاصلى جابرييل شانيل ، ولكنها اختارت اسمها الأول من اغنية عابثـة انتشرت أثناء الحرب فى «كباريهات المولان روج»، وكـانت تبدأ بهذا الاسم العابث الغـريب : «كوكـو ريكو». واكتشفت كوكـو شانيل ان اللـون الأسود على المرأة البيضاء يمكن أن يتلألأ ، ولا يصبح لونـا مقبضا يدل على الحداد والوحدة . وانطلقت مبتكرات شانيل بين الارامل المتأنقات . لتثبت ان الإنسان يتعود على كل شىء حتى الحرب . والغريب ان مصممة أزياء كوكو شانيل لم تكن سيدة جميلة . ولكنها كـانت شديدة الـذكاء ، وكان وجههـا يمتلىء بأنف ضخم يكاد يبتلع كل ملامحها. وقد يكون هذا الأنف هو السبب فى مجدها واسمها ، لأنها ابتكرت عطر «شانيـل رقم ٥ » الشهير عام ١٩٢٠ ، بعـد عام واحـد من نهاية الحرب . وقـادها ذكاؤها إلى عالم العطور التى اشتهرت بها فرنسا . لأن العطر المتميز الفواح يمكن أن يصبح رسالة بغير كلام بين المرأة والعائدين من الخنادق وويلات الحرب .

وهكـذا شهـدت السنـة الأولى بعد نهايـة الحرب صعـودا فى أرقـام الـزواج. وصعدت الأرقـام فى السنة التاليـة ، وخرج الفرنسيـون من الحرب بهذا الدرس: «ان الحياة قصيرة، ولابد من التمتع بها». وانتشرت أثنـاء الحرب صالات الاغانى والمراقص والملاهى رغم نـدرة الـرجال . وكما لمع من الـرجـال الجنرالات فـوش وجوفر وبيتان ، لمعت الممثلة سارة برنـار والمغنية مستنجيت، وماتا هارى أشهر جاسوسة خلال الحرب .

وكانت سارة برنار أشهر ممثلة مسرح فى فرنسا والعالم . وكانت سارة برنار

قنبلة متفجرة ، لأنها كانت شحنة سريعة الاشتعال من العواطف وفى بدايتها فصلت من مسرح الاوديون لأنها صفعت زميلة لها على وجهها وهما على المسرح. وبدأت مبكرة بمسرحيات فيكتور هوجو، وخصوصا مسرحية «هيرناني». وقد شهدها الشاعر فى أيامه الأخيرة فأرسل لها :

- لقد بكيت.. وانى أضع هذه الدمعة تحت أقدامك.

واشتهرت سارة برنار بأنها أبكت أعظم شعراء فرنسا فى ذلك الوقت، ولكنها واصلت الصعود فى «غادة الكاميليا». وبقدر ما اشتهرت بأدوارها النسائية الخالدة مثل «فيدرا» و «اوفيليا» كانت الوحيدة التى تجيد الأدوار الرجالية، ومثلت أدوار «هاملت» و«النسر الصغير». وبدأت مبكرة، وظلت تمثل حتى بلغت السبعين. والغريب أنها لم تتوقف بعد اجراء عملية جراحية قطعت فيها أحد ساقيها. فلم تعد سارة برنار مجرد ممثلة بل أصبحت اسطورة فى قدرتها على التعبير والتأثير. ولم تشبع سارة برنار بالمجد فى باريس، وتنقلت أثناء الحرب من كندا إلى استراليا من أجل المجهود الحربى واشتهرت سارة برنار بجمالها الفتان والفتاك وأطلقوا عليها لقب «الوحش» لقوة تأثيرها، وهى تملك الجماهير. واستعانت بالتقاليع الغريبة، فكانت تربى فى بيتها الأسود والنمور الصغيرة، بعد أن كانت هواية المرأة قبلها تربية العصافير الملونة أو الببغاوات الذكية.

ومات فى الحرب مليون ونصف المليون بين زوج وابن. وكانت المشكلة هى البحث عن طريقة لابلاغ العائلة بما حدث فى جبهات الحرب. وقررت الحكومة ان يكون البلاغ فى الريف عن طريق العمدة واخفاء الحقيقة عن الزوجة التى ترملت إذا كانت حاملا. وأن يكون ابلاغ المتزوجات فى المدن عن طريق موظفات يلبسن الملابس السوداء المحتشمة. ولكن الموظفات كن يتبعن التعليمات الرسمية، ويلاحقن الموضة الجديدة التى انتشرت فى باريس أثناء الحرب بلبس الجوارب السوداء الشفافة. فقد غيرت الحرب كل شىء، وظهرت موضة الشعر القصير «ألاجارسون» مثل شعر الصبية، وبدأت موضة «الجوب» حتى الركبة، وظهرت لأول مرة مطالب المرأة فى المساواة مع الرجل، والمطالبة بحق الانتخاب والمساواة فى التعليم وتقلد الوظائف العامة.

ولم يستطع العائدون من الجبهة المقاومة لأنهم لايستطيعون مواصلة الحرب فى بيوتهم بعد اعلان الهدنة وبداية السلام.

٧١

المرأة التى حصلت على نوبل مرتين

أشهر عالمة فى التاريخ الحديث هى مارى كورى مكتشفة الراديوم. تفوقت على كل الرجال، وحصلت على جائزة نوبل وكانت الوحيدة بين الرجال والنساء معا لأنها حصلت على نوبل مرتين. وفى المرة الأولى حصلت مارى كورى على جائزة نوبل مع زوجها بيير كورى وأستاذها بيكيريل. وبعد ثمانية أعوام حصلت وحدها للمرة الثانية على جائزة نوبل. وقد فاقت الرجال والنساء، لأنها حصلت على نوبل فى علم الطبيعة فى المرة الأولى، وفى الثانية عام ١٩١١ على الجائزة فى علوم الكيمياء.

وأصبحت مارى كورى من الخالدين. وعند زيارتى الأخيرة لمدينة العلوم فى باريس، وهى مدينة كاملة لتاريخ العلوم واكتشافاته، وجدت لوحة جدارية هائلة تصور علماء فرنسا الافذاذ، وبينهم المرأة الوحيدة مارى كورى وقد كانت مارى كورى المرأة الوحيدة أيضا التى دخلت مقبرة العظماء أو البانيتون.

وأيام الرئيس ميتران تقرر اعادة دفن مارى كورى وزوجها بيير كورى فى البانيتون فى احتفال مهيب كالعادة، ودخلت مارى كورى مع زوجها إلى المثوى الأخير لعظماء فرنسا فى التاريخ الحديث. إلى جوار روبيسييز خطيب الثورة الكبرى، ومارا قائد الثورة الذى قتلته شارلوت كورداى. ومع شاعر فرنسا الكبير فيكتور هوجو، وإلى جوار الروائى الصحافى اميل زولا، ومع جان مولان قائد المقاومة الفرنسية فى الداخل، والذى هبط بالباراشوت قادما من لندن، ليبدأ المقاومة ضد الاحتلال النازى. وإلى جوار رينيه كامان واضع مشروع اعلان حقوق الإنسان الذى صدر من الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وأخيرا ومنذ اسبوع، كان احتفال اعادة دفن اندريه مالرو الروائى الأديب والناقد الفنى وأول وزير للثقافة فى فرنسا.

وحتى الآن، لم تفز إمرأة فى عالم العلوم والاكتشافات بمثل هذه الشهرة أو المجد. لكن اينشتاين مكتشف النسبية يقول عن مارى كورى أنها كانت المخلوقة الوحيدة التى لم يفسدها المجد، ولم تغير الشهرة شخصيتها، لأنها كانت إمرأة فريدة وقادرة بين كل النساء.

وقصة حياة مارى كورى تشهد انها كانت معجزة فى الذكاء، ونموذجا فذا للإرادة والدأب والعناد. لأن مارى كورى لم تكن فرنسية. فقد ولدت فى الأصل

فى وارسو عاصمة بولندا. وكان اسمها الأصلى «مانيا» المرادف بالبولندية لمارى بالفرنسية. وكان أبوها استاذها الأول، وكان مدرسا للطبيعة والجبر، وكانت العائلة فقيرة، وكان كل اخوتها من البنات، وكانت المفاجأة ان مانيا الصغيرة معجزة فى الذكاء. فقد انهت دراستها فى وارسو فى السادسة عشرة، وفى مثل هذه السن المبكرة اتقنت الروسية والألمانية والفرنسية. ولكن الصغيرة لم تستطع الالتحاق بالجامعة لقلة موارد العائلة. واضطرت مانيا أو مارى للعمل للانفاق على أختها الكبرى التى سبقتها للهجرة إلى باريس لتعلم الطب. واضطرت ماريا للعمل «دادة» عند عائلة غنية بولندية فى وارسو، وحين أحبها ابن العائلة الغنية، وعرض عليها الزواج، رفضت العائلة الثرية هذا الزواج، فكيف يتزوج ابن العائلات «دادة» تعمل فى البيت؟

ولكن شغف الفتاة بالعلوم والأدب والفلسفة واللغات كان مذهلا. وكانت تحصل على علوم الجامعة من الخارج. واصبحت طالبة من منازلهم. وبعد أن أنهت اختها الكبرى دراسة الطب فى باريس دعتها إلى الهجرة وكانت المعجزة الثانية فى باريس حين أنهت مارى دراستها الجامعية فى عامين بدلا من أربعة. وكانت مارى كورى جميلة. يزيد هدوؤها من جمالها. وتضفى جديتها على ذكائها نوعا من الذكاء الجميل. وتعرفت فى السوربون عل» الشاب بيير كورى. وانضمت إلى معمل استاذهما هنرى بيكيريل. وكان يبحث فى الاورانيوم والمواد المشعة. واحست مارى ان بين مادة الاورانيون والتوريوم مواد أكثر نشاطا من المواد الأخرى. وكان هدفها عزل تلك المواد الأكثر نشاطا. ومنذ مائة عام، كان اكتشافها الأول والمدوى، فقدمته إلى أكاديمية العلوم. واطلقت الأكاديمية على إحدى المواد التى اكتشفتها مارى كورى اسم البولونيوم تكريما لوطنها الأصلى بولندا. وقد شهدت فيلما عن حياة مارى كورى وزوجها، يصور حياتهما معا، فى معمل كان فى الأصل «جراجا» ويصور الفيلم الزوجين السعيدين الهادئين اللذين يعملان كل يوم ١٦ ساعة دون ملل. فقد كان اكتشاف المواد المشعة جديدا ويستحق التعب. وحين تقدمت مارى بالدكتوراه ونتائج ابحاثها، تنبهت جائزة نوبل إلى هذا العالم الجديد والصعب فى علوم الطبيعة. وحصلت مارى مع زوجها بيير وأستاذهما العالم بيكيريل على جائزة نوبل.

واستمر الزوجان فى البحث. وتحسنت أحوالهما، لأن بيير أصبح مدرسا فى السوربون بعد هذه الاكتشافات. والتحقت مارى بمعمل زوجها فى السوربون. وانجبت ابنتهما الثانية «ايفا» وكان استقرار الزوجية والأحلام المشتركة دافعا لمارى على العمل. ولكن السعادة داهمتها حادثة مفاجئة. فقد مات العالم بيير

كورى فجأة حين داهمته شاحنة ضخمة أثناء عبوره الشارع بالليل متعبا على مقربة من المعمل. وكما كتبت مارى كورى فى يومياتها:

- إننى لاأتخيل اننى استطيع الحياة دون بسمته الهادئة المطمئنة. ودفنت مارى همومها فى البحث العلمى، ولم تبارح معملها، وكانت تنام فيه، حتى استطاعت ان تعزل مادة الراديوم. وكان اكتشافها سببا لفوزها بجائزة نوبل من جديد، وللمرة الثانية. فاصبحت نوبل فى الطبيعة، ثم نوبل فى الكيمياء.

وحين عرضت الحكومة الفرنسية عليها التعويض والمعاش بسبب حادث زوجها، رفضت التعويض والمعاش. وطلبت ان تحل محل زوجها فى مقعد الاستاذية فى السوربون. وتألقت مارى كورى فى محاضراتها ولم تفقدها الشهرة أو المجد العلمى بعد نوبل مرتين، كما قال اينشتاين تماما، تواضع العلماء والقدرة على المثابرة والعناد فى البحث عن أسرار الطبيعة.

وافادت ابحاثها فى الراديوم على تقدم الطب. ولكن مادة الراديوم كانت تنقصها. وبلغت شهرتها العالمية شواطىء أمريكا، وقررت إحدى الجمعيات النسائية الأمريكية جمع التبرعات لشراء مادة الراديوم. وقرر الرئيس الأمريكى هاردنج عام ١٩٢١، ان يهديها بنفسه حصيلة التبرعات فى حفل كبير. وزارت مارى كورى بولندا موطنها الأصلى، الذى قررت فيه انشاء أول معمل لأبحاث الراديوم فى باريس، ونشرت كتابا ضخما عن مادة الراديوم والاشعاعات وأنشأت مارى كورى بكل ما كسبت من أموال معملا لأبحاث الراديوم ومستشفى لعلاج جرحى الحرب العالمية الأولى.. وأدخلت فى مستشفيات الجبهة المتنقلة أجهزة التصوير بالأشعة. وتنقلت بين بلجيكا وإيطاليا وهولندا وتشيكوسلوفاكيا والبرازيل. وفتحت معملها الباريسى لكل طلاب العلم من أنحاء العالم لأول مرة. ونقلت خبرتها لابنتها ايرين الباحثة فى الأشعة أيضا، وزوج ابنتها فريدرك جوليو، واكتشف الزوجان الشابان الاشعاع الصناعى. ففازا أيضا بجائزة نوبل.

وفى العام نفسه الذى حصلت فيه ابنتها على الجائزة ماتت الأم بمرض اللوكيميا، ويعرف العلماء طبعا ان أحد أسبابه هو التعرض الشديد لأشعة اكس. وكانت العالمة تعلم ذلك، خصوصا فى ظروف البحث العلمى الصعبة فى بداية القرن. ولكن شغفها بالعلم والبحث والاكتشافات جعلها تعيش بين البيت والمعمل والجامعة. وأصبحت أشهر عالمة فى تاريخ العلوم الحديثة. واشتهرت بأن شهرتها لم تصبها، كما قال عنها اينشتاين بحق، بالغرور. وظلت نموذجا للمرأة الجميلة الهادئة، الذكية، وكأنها كانت منذ شبابها فى وارسو على موعد مع الخلود.

٧٢

المجد والدموع

« لو استسلمت لدموع أمي لما تغيرت حياتي » .

هذا ما قالته المطربة داليدا التي هجرت مصر إلى باريس بحثا عن الأضواء والشهرة والمجد والمال. ولم تكن داليدا حين وصلت باريس في مطارها القديم «لوبورجيه» تملك شيئا سوى تذكرة ذهاب وعودة، وكان هذا هو شرط أمها حين رضخت لإلحاح ابنتها، وكانت تملك حقيبة ملابس متواضعة فيها فساتين صارخة الألوان من صناعة أمها مدام بابينو التي سهرت سنوات طويلة على تربية أبنائها وتعليمهم بنظارة طبية وماكينة خياطة في حي شبرا. وكانت داليدا قد وضعت وسط فساتينها شهادة بفوزها بلقب «مس إيجيبت» وهي تقليعة ظهرت قبل الثورة، واستمرت لبضع سنوات بعدها لإقامة مسابقات الجمال بين الفتيات كل عام. ولم تكن واحدة من المصريات تجرؤ على الاشتراك في مسابقات «مس إيجيبت»، لأن في شروط المسابقة خروجا على الذوق والحشمة لاشتراط الظهور بالمايوه. وقد تكون الفنانة التي أصبحت نجمة كبيرة، مريم فخر الدين، هي التي تجرأت على دخول إحدى هذه المسابقات، بجمالها نصف الأوروبي. وقد نقلت هذه المسابقة تلك الفنانة الكبيرة إلى أغلفة مجلة الاثنين الدنيا والمصورة، ثم بعدها.. إلى أضواء السينما والشهرة.. وكانت يولاند أورلاندو، فتاة شبرا الإيطالية، تحلم كثيرا بلقب «مس إيجيبت».

ولكن مجرد الفوز في مسابقة جمال لا يهتم بها سوى بعض المخرجين الباحثين عن الوجوه الجديدة كان لا يضمن أي شيء لا في القاهرة ولا باريس.. وقد تكون باريس أصعب. ولم يكن رصيد يولاند أورلاندو في التمثيل كبيرا، سوى بضعة أدوار كلاسيكية في مسرح المدرسة. وكانت تغني أحيانا بصوتها الجميل بالفرنسية أو بالإيطالية في مسرح المدرسة. ولكنها ورثت بالقطع الأذن الموسيقية من أبيها الذي كان يملأ البيت القديم في شبرا كل صباح بتدريباته اليومية على عزف الكمان. وكان يختفي كل مساء في الأوبرا القديمة، في تلك الحفرة الواسعة الغريبة التي تقع في مقدمة المسرح ويختفي فيها العازفون كل ليلة، ولا يظهر منها للجمهور إلا قائد الأوركسترا.

وكانت يولاند، منذ كانت طفلة حتى أصبحت شابة، تستمع مئات المرات إلى

نفس القصة التى تشبه الأساطير عن العمة الكبرى التى كانت تمثل أدوارا تراجيدية شهيرة فى باريس عام ١٨٩٧. والعائلة تلح كل مرة أن جمهورها كان من علية القوم الذين يعشقون عادة رؤية التراجيديات والمآسى المفجعة فى المسارح من باب التغيير أو الملل من البحبوحة والنعيم واللذائذ الصغيرة التى يغرقون فيها فى حياتهم اليومية.

ورفضت يولاند بعد فوزها بلقب «مس إيجيبت» عرض الفنان فريد الأطرش، لأن الدور المقترح فى فيلمه الاستعراضى الجديد كان أصغر من أحلامها. وقررت المغامرة لتصل باريس ليلة «الكريسماس» عام ١٩٥٤، لتسكن غرفة متواضعة فى الدور الثامن. وكان عليها أن تختار اسما فنيا جديدا بدلا من اسمها الإيطالى. واختار لها مؤلف أغان اسما من الأساطير القديمة هو «دليلة»، وهو اسم له رنين كبير فى عالم المسرح والأوبرا. وظل عنوانا ورمزا للمرأة الداهية التى تحايلت بجمالها على شمشون الجبار حتى وقع فى حبائلها، ثم اعترف لها بسر قوته الرهيبة فى شعره الطويل. واستطاعت دليلة أن تقص شعره وهو نائم. ثم اشتهر شمشون، حين عادت إليه صحته وقوته بصيحته عند هدم المعبد على نفسه وعلى أعدائه صارخا: «علىّ وعلى أعدائى».

وكان اسم دليلة مثل اسم جوديث وايستر، والثلاثة رموز قديمة لنساء لهن تاريخ فى التاريخ القديم، والمرأة التى تعتمد على دهائها وجمالها للوصول إلى هدفها، وهى قصص فى التاريخ لنساء بلا قلوب. وكانت أنجح مسرحية عن دليلة استمرت أكثر من عشرة أعوام فى مسرح هيبرتو الشهير للشاعر الكبير جان جيرودو، كما كانت أوبرا الموسيقار «سان سانس» أشهر الأوبرات قبل ذلك بمائة عام.

وكان اسم دليلة له رنين فى باريس، وتقرر أن يكون الاسم «داليدا» بدلا من دليلة لأنه أكثر موسيقية، وكان كباريه «فيلا دلستى» على بعد خطوات من بيتها. ومن البيت إلى الكباريه، ومن الكباريه إلى البيت. غنت داليدا بإصرار. ولكنها لم تلق نجاحا كبيرا. واكتشفت أن التصفيق فى الكباريهات يكون أكثر نداء للجارسونات، وليس تقديرا للمغنية التى تؤدى دورها. ولا ينتبه الجمهور إلا عند ظهور المغنية أو بداية الأغنية ثم لا يكترث عادة بنهايتها. وليس فى الكباريهات ستائر - على أية حال - ترفع عند البداية أو تسدل عند النهاية. وكانت داليدا تحلم بالمسرح والستائر والجمهور الذى يجىء مهيئا للاستماع، ولا ينشغل بالأكل والشرب أو الكلام والضحك.

وحانت الفرصة فى برنامج اذاعى تقدمه محطة إذاعة ناشئة. وكان اسم

البرنامج موحيا وهو «النجوم قادمون»، أو «الأوائل غدا» وعثرت داليدا على النغمة الصحيحة في باريس. وانطلقت في الغناء بصوتها العميق الشجي بلكنة إيطالية وبحة مصرية. وكانت المفاجأة أول اسطواناتها «بامبينو»، ولم يتصور أحد أنه يمكن أن تطبع سبعة ملايين اسطوانة من هذه الأغنية. وقفزت داليدا خلال ثلاثة أعوام فقط من الكباريهات المغمورة إلى صالة «أوليمبيا» أكبر مسارح الغناء في باريس، وهو مسرح الصفوة الذى غنت فيه أم كلثوم ثم فيروز. وأحرزت داليدا نجاحا عالميا مذهلا، لأنها كانت تحصل في الستينات على نصف مليون فرنك للسهرة الواحدة. وفي نفس الوقت الذى كانت تصعد فيه نجمة جديدة اسمها بريجيت باردو، كان نجم داليدا يصعد في عالم الغناء. وكانت السرعة صاروخية. فقد وجد الجمهور الجديد ما يبحث عنه في صوتها الشجي العميق وفي لكنتها الإيطالية وبحتها المصرية. ولكن داليدا لم تقنع بهذا النجاح، لأنها كانت تريد التمثيل في السينما أيضا. ونسيت داليدا رغم قوامها الجميل وشعرها الفاحم الطويل ذلك العيب في عينيها. فقد أجرت ثلاث عمليات جراحية وهى في الثانية عشرة والسادسة عشرة لعلاج الحول، وكانت تلبس نظارة طبية، وكانوا في شبرا يوثقون يديها من وراء ظهرها حتى لاترفع الضمادات عن عينيها.

وليس ضروريا أن تجيد المغنية الناجحة فن التمثيل. واعتمدت داليدا على اسمها المدوى في عالم الغناء. فقد اعترفت بها «أديث بياف» كبرى مغنيات فرنسا، وكانت تذهب مع «شارل أزنافور» و«إيف مونتان» لسماعها، بل حرص فرانسوا ميتران حين كان وزيرا للداخلية على تهنئتها في مقصورتها بمسرح الأوليمبيا. وظنت داليدا أن اسمها كمغنية يضمن نجاح أفلامها. وحتى فيلمها «اليوم السادس» الذى أخرجه لها يوسف شاهين عن رواية أندريه شديد، الشاعرة اللبنانية التى ولدت في القاهرة أيضا وهاجرت إلى باريس، لم يلق نجاحا كبيرا.

وزاد من لوعتها ثم وحدتها فشلها في الزواج، حين قال زوجها فجأة: «لا أستطيع البقاء بعد ذلك مع نجمة ذائعة الصيت». وزاد إحساسها بالوحدة والوحشة كلما كثرت الأضواء حولها. فقررت فجأة الانتحار.

فقد يصل الفنان إلى القمة ولا يستطيع البقاء، وقد يحقق الفنان المجد والمال والشهرة ولا يحصل مع كل ذلك على بوليصة تأمين.. على السعادة.

٧٣

كثير من الجمال

أعقل حكمة قالتها السيدة روز اليوسف عن سبب تركها أضواء المسرح ودخولها عالم الصحافة. حين قالت:

« يجب أن تختار الممثلة الوقت المناسب للاعتزال ».

وسألتها: ومتى؟

فأجابت:

- وهى فى قمة المجد.

ولولا أن روز اليوسف اعتزلت المسرح فعلا وهى أشهر ممثلة فى مصر لما صدقتها. ويبدو أن هذه الحكمة المعقولة هى التى جعلت أيضا المطربة صاحبة الصوت الجميل الذكى اللعوب ليلى مراد تعتزل وهى فى قمة المجد. فقد قررت الاعتزال بل والاختفاء فى بيتها الأنيق فى جاردن سيتى فى القاهرة، وظلت أعواما طويلة ترفض مجرد الظهور حتى لو كانت المناسبة لتكريمها. وظلت ليلى مراد تعيش معنا بصوتها الذى يتردد فى الإذاعة، أو بصورها الجميلة فى أفلامها مع أنور وجدى ويوسف وهبى. ولكن وزنها الرشيق الطروب كان قد تضاعف أكثر من ثلاث مرات من قعدة البيت. وفضلت أن يعيش جمهورها على صورتها الفاتنة وقوامها الرشيق وصوتها الجميل فى أغانيها القديمة أيام زمان.

ونفس القصة والحكمة تكررت مع أشهر ممثلة إغراء فى السينما العالمية، وكانت تسمى «أجمل امرأة فى العالم. وهى جريتا جاربو. وهى سويدية الأصل، خطفتها هوليوود وجعلتها أسطورة منذ فيلمها الأول الناطق «الجسد والشيطان». وكانت جريتا قد بدأت فى أواخر السينما الصامتة، ولكن جمالها كان ناطقا. فأوحى للمخرجين فكرة «الكلوز أب» أو اللقطة القريبة لإبراز مفاتنها. واشتهرت جريتا جاربو فى أدوار نساء خالدات مثل أنا كارنينا ومارجريت جوتييه والملكة كريستينا، وبلغت جريتا جاربو قمتها وهى فى الثلاثين. وبعد ستة أعوام فقط، و ٢٤ فيلما ناجحا، قررت النجمة جريتا جاربو الاعتزال. وكانت قد بلغت من الشهرة حتى أصبحت الموضة النسائية تسمى موضة جريتا جارب: فى قصة الشعر والملابس والعطور والمجوهرات. وكان جسمها متناسقا. وملامحها تقترب من الكمال. وكثرة الجمال والاكتمال توحى أحيانا بشىء من برود الكبرياء. وبكثير من الجمال وقليل من البرود الهبت

جريتـا جاربو مشـاعر المشاهـدين، ولكنها أحست فى فيلمهـا الأخير «امرأة ذات وجهين»، أن هـوليـوود تتـاجـر بجمالها، فقـررت العصيـان ثم الاعتـزال، لأن الـوصول إلى القمـة صعب والبقاء فـوقها أصعب. واعتـزلت جريتـا جاربـو، ثم هـجـرت هوليـوود وهـاجرت أو عـادت من الهجـرة إلى أوروبا ووطنهـا الأصلى السـويد، لتعيش هنـاك نحو أربعين عـاما أو يـزيد فى الخفـاء بعيدا عن أضـواء النجوم. وتثير قضيـة اعتزال النجمة فى المسرح والسينما قصـة عمر الجمال، لأن الجمال نعمـة ولكنهـا لا تـدوم. وبعـض الجمال فى بعض النسـاء سريع العطب، وبعضـهن جميلات جمال الفـاكهة، ولكن هنـاك جميلات ومعمـرات. ومن النوع الأخير جمال كاترين دينوف، الممثلة الفرنسيـة التى تربعت أكثر من أربعين عاما ومازالت على أدائها وضوئها. ولكن بـريجيت باردو تألقت فى أواخر الخمسينات وزحفت الغضون على عنقها وتحت عينيها، وبعد أن كـانت جميلة الجميلات خبا جمالها الذى أصبح أسطورة الستينات. وكانت ب.ب. أو بريجيت باردو النسخة الفرنسية المنافسـة لـ م.م أو مارلين مونرو. وقد يكـون سر استمرار الجمال هو السعادة الداخلية، فقد انتهت مارلين مـونرو رغم جمالها الفتان إلى الانتحار. وقد يكون السبب هو عائلة كنيدى، وقد يكـون السبب هو زوجها الروائى آرثر ميللر. فقد فككهـا الزوج، ولم يستطع إعـادة تركيبها من جـديد. وتحدث هـذه المأساة أحيانـا حين تكون الـزوجة جميلـة جدا والـزوج ذكيا جـدا ثم لا يتوافق الـذكاء العبقرى مع الجمال العبقرى أيضـا.

وقد نشرت الجرائد الفـرنسية أخيرا وصلـة ردح بين الممثلة كـاتريـن دينوف والممثلـة السابقـة بـريجيت بـاردو. والغيرة الشديـدة بين النجمتين الشهيرتين سببها غريب. وسرها أن الفرنسيين اختـاروا النجمتين كأجمل امرأتين فى فرنسا. والأسباب تـاريخية، وقـديمة، لأن الفرنسيين منـذ الثورة الكبرى اختـاروا رمزا لفـرنسا الثـورة، وأطلقـوا عليهـا اسم «مـاريان»، وهـو الاسم الـلاتينى لمريم، وأصبحت ماريان رمزا للجمهورية.

وتنتشر صور ماريان رمز الجمهوريـة فى اللوحات والتماثيل. وتضع ماريان فوق رأسها قلنسوة أو طـاقية تشبه الطاقية التى كانـت تلبسها النساء العبيد فى رومـا حين تحررن. والرمـز واضح، بأن الجمهوريـة هى الحريـة. وقد تنـافس الفنانون المعاصرون فى تجديـد ماريان فى العصر الحديث. وحين بلغت ب.ب. قمة النجوميـة نحت المثالون تمثال مـاريان الجديدة على شكل بـريجيت باردو التى أصبحت أسطـورة للجمال الفرنسى. ومن عـام ٥٦ إلى عام ٧٠ كانت بـريجيبت باردو على كل لسان، حتى فى الأغانـى. وبلغت المجد حين كتبت عنها سيمون دى بوفوار كتـابا مليئا بالصـور. وحاولت الكاتبة تحليـل سر ظاهرة ب.ب، وفسرت

الظاهرة بأنها اعجاب بالبراءة والشباب والبساطة. وحتى أساطين الموضة الباريسية بدأوا يتفلسفون، ليقولوا إن الموضة هى تأكيد الجمال الداخلى فى المرأة وتوضيح معالم الجمال وإظهاره، ليضىء الجمال من الداخل ويشع إلى الخارج، والجمال هو ما يتبع من داخل المرأة وليس ما يضاف إليها. وليست الموضة إذن هى الأصباغ أو الثياب أو المجوهرات، والمصمم الحاذق هو الذى يكتشف أسرار الجمال الداخلى فى كل امرأة ويظهره ويؤكده. وليست الموضة فى النهاية هى ما يضاف من الخارج وليست تلك الزينة اللافتة للعيون والداعية للبحلقة.

وقد ظلت ب.ب أو برجيت باردو على عرش الجمال والشهرة وبلغت القمة فى الثلاثين، وهى سن القمة عند النجوم، ومع أنها مثلت نحو أربعين فيلما، فإنها لم تتألق فنيا إلا مع زوجها الأول المخرج فاديم فى فيلمها الأول «خلق الله حواء». ثم فيلم «حياة خاصة» للمخرج لوى مال، وفيلم «الحقيقة» لكلوزو ثم فيلم «الاحتقار» لجان لوك جودار. والمخرجون الأربعة كانوا من الموجة الجديدة. وقد مثلت أول أفلامها وهى فى عز الشباب وهى فى الثانية والعشرين. وزحفت الغضون بسرعة تحت عينيها الجميلتين وأدركت ب.ب أن عمرها الافتراضى قد انتهى فى السينما، لأن السينما تفضح أكثر من المسرح، واللقطات القريبة لاترحم. واعتزلت ب.ب الحياة الفنية تماما، وانتهت إلى القطط وأنشأت جمعية للرفق بالحيوان. وظل اسمها يتردد بسبب القطط. وظلت منافستها القديمة كاترين دينوف تمثل بنضارة مذهلة وتقفز فى أفلامها الجديدة، وقد تعدت الخمسين قطعا وكأنها مازالت فى العشرين.

وكان يمكن أن تنزوى ب.ب تماما بعيدا عن الأضواء، لولا كتابها الأخير : ب.ب. ولولا فضيحة زواجها الأخير. لأن زوجها الذى يكبرها أيضا، عضو نشيط فى حزب لوبن اليمينى المتطرف، وهو حزب يتصاعد فى النفوذ على الرغم من مقاطعة بقية الأحزاب. ويتهمونه باليمينية الفاشية لأنه ينادى بطرد الأجانب ويرفع شعار فرنسا للفرنسيين. وعلى الرغم من المعارضة الشديدة للأحزاب، يتصاعد نفوذ لوبن، وينتشر حزبه فى مارسيليا وطولون والموانىء التى تزدحم بالمهاجرين واللاجئين.

وقد عادت ب.ب إلى الأضواء من جديد لأن كتابها ملىء بالاعترافات والفضائح. ولعلها تظن أن الفضائح تعيدها إلى الأذهان، مع أن هناك فرقا بين المجد والفضيحة. وهي لم تدرك أن الوقت المناسب لاعتزال النجم هو قمة المجد. ونسيت أنها كانت فى الستينات نموذجا للجمال، وملكة الجمال أو جميلة الجميلات التى نحتوا ملامحها فى تمثال الحرية.. أو تمثال ماريان رمز الجمهورية التى نادت بالحرية والمساواة.

٧٤

عـــودة بريجيت

لم أقرأ مذكرات سيدة بمثل هـذه الوقاحة أو الصراحة. وقـد نفدت الطبعـة الأولى من مذكـرات بريجيت بـاردو خـلال أيـام، وطبعت منهـا طبعتان خلال شهور. ورغم أنها مذكـرات طويلة تـزدحم بالتفاصيل، وفن العنـاية بالتفـاصيل فن نسائى قديم، فقد تظن لأول وهلـة أنها مجرد ثرثرة نسائية، لأن مذكـرات ب.ب طويلة، وتقع فى ٥٤٥ صفحة. ولكنهـا ليست مملة، لـو بدأتها لابـد أن تكملها. لأن ب.ب تعترف فيها بكل شىء وبالتفصيل عن حياتها الفنية وأسرارها الخاصة.

وقد حافظت بريجيت بـاردو على اسم عائلتها «باردو». ولم تختر اسما فنيا مثل بقية النجـوم. وغيرت ب.ب أزواجها، واحتفظت باسمها العـائلى. وتزوجت أربعة رجـال، ثلاثة من الوسط الفنى. الأول كـان غرامها الأول، ويبدو أنـه كان الأخير أيضا. وكان الأول من أصل روسى. وزوجهـا الثالث كان ألمانيا، والأخير تزوجته وهـى فى التاسعة والخمسين أى منذ عامين. واعتـزلت ب.ب الفن فى قمة المجد والشهـرة، وكانت فى الثـامنة والثلاثين. وبعـد ربع قرن نشرت مـذكراتها بأسرارهـا. وأرادت احتفـالا بنشر مـذكـرات ب.ب أن تثبت أنها لم تتغير. وأنها مـازالت على جمالها الأسطـورى، وأنها أيضا لم تضـف خلال سنـوات العمـر الطـويل سنتيمترا واحدا مـن السمنة. ولـذلك وضعتهـا مجلة «بـارى مـاتش» المصـورة على غلافهـا بمناسبـة ظهـور المذكرات. وكـانت «بـارى ماتش» قـد وضعتهـا على غـلافها المليـون عـام ١٩٥٢ وهى تتنبأ لها أنها ستصبح نجمـة الاغراء فى السينما الفرنسية. وحرصت المجلة على تصوير ب.ب فى نفس «البوز» القـديم الذى اشتهـرت به، وبنفس الملابس، لتثبت أنها خـلال أربعين عامـا لم تضف سنتيمترا واحدا من الترهل أو السمنة.

وأرادت ب.ب أن تثبت فى مـذكـراتها الصريحة أنها حـافظت على أسطـورة بـريجيت بـاردو، نجمـة نجـوم الإغـراء، والتى أرادت السينما الفـرنسيـة فى الخمسينات أن تقدم طبعتها الفرنسية لترد بها على م.م أو مارلين مونرو الطبعة الأمريكية. وترد بها أيضا على ك.ك. أو كلوديـا كاردينالى الطبعة الايطالية. ولكن مـذكـرات ب.ب مثيرة لأنها صريحة، وأحيـانـا وقحـة. وتعترف أنها أخلصت لنفسهـا، ولم تخلص للسينما كثيرا، مع أن أفلامهـا بلغت ٤٦ فيلما. ولم تخلص

للرجال كثيرا مع أنها تزوجت أربعة. وتعترف أنها أحبت زوجها الأول حبا عنيفا، وكرهت زوجها الثالث - الألماني - بجنون.

وقد أصبحت ب.ب نموذجا للجمال الفرنسي، فاختارها المثال أصلان نموذجا لمريان رمز فرنسا. وكانت تماثيلها تنتشر في الدور الحكومية والمحافظات والبلديات. ولكن الصحافة ساعدتها ثم انتقمت منها بعد وصولها إلى القمة. وأطلقوا عليها «آكلة لحوم أزواجها». وألهمها ذكاؤها الفطرى أن ساعة الاعتزال قد دقت. وهى في قمة المجد والشهرة.

وتعترف ب.ب أنها تمتعت بالمجد وتعذبت من الشهرة، وقد قررت الاعتزال بسبب الأضواء والحفلات والاشاعات. فقد كانت لا تستطيع التنزه مع كلابها في الشارع مثل أى سيدة. وكانت صحافة النجوم تطاردها وتقتحم حياتها، فقد اضطرت إلى هجر قصر جميل يطل على الريفيرا لأن الصحفيين والمصورين كانوا يحومون في دوريات من القوارب البخارية مجهزة بالكاميرات التى تشبه مواسيرها الطويلة فوهات المدافع.

وكان قرارها الأخير بالاعتزال حاسما. وكانت قد زارت إحدى صديقاتها الحميمات في إحدى المستشفيات، وخرجت بعض الصحف واسعة الانتشار تؤكد أنها أمضت ساعات في المستشفى لاجراء عملية تجميل لشد وجهها الجميل. وجنت ب.ب، ورفعت قضية قذف وسب لأن الخبر كاذب. واضطرت أمام المحكمة أن تقبل تحويلها إلى الخبراء ليفتشوا وراء أذنيها عن آثار عملية التجميل. واكتشفت المحكمة أن ب.ب مازالت جميلة كما كانت وليس على رقبتها أى أثر لأى عملية تجميل. وكسبت ب.ب القضية، وخسرتها السينما، لأنها قررت الاعتزال بعد حياة عاصفة اختلط فيها الخيال بالتمثيل، وامتزجت فيها الحقيقة مع الأسطورة.

ويستطيع أى دارس لعلم النفس أن يكتشف أعماق ب.ب من قراءة هذه المذكرات الصريحة، والمذهلة، والمليئة بالتفاصيل. فقد ولدت ب.ب في عائلة غنية. ولكنها قبل الحرب أيام الحرمان. وعاشت طفولتها وأبوها في الميدان، وأمها تحب أختها الصغرى أكثر.

وكانت أمها جميلة أيضا، ولكنها كانت تكره المطبخ. ولذلك أحبت ب.ب أن تعتمد على نفسها، واهتمت بأن تصنع بعض المأكولات بنفسها في الولائم الكبيرة التى كانت تقيمها حين أصبحت نجمة. وقد حرمت أمها عليها أن تمتلك قطة أو كلبة فأصبحت هوايتها حين اشتهرت تربية القطط ثم انتقلت إلى الكلاب والماعز والبط، وانتهت إلى جمعية للرفق بالحيوان.

وحين أصبحت ب.ب نجمة النجوم كانت تدخل أشهر الفنادق العالمية وهى تحتضن معزة. وتملكها الحنان على الحيوانات الأليفة، وكانت تنتقل بها إلى المكسيك وأمريكا و إيطاليا ولا تعبأ بشيء. وقد ساعدتها الشهرة والنجومية على أن تدخل مطعم مكسيم الشهير بملابس السهرة وهى حافية القدمين. ومكسيم ملتقى الوزراء والفنانين والأدباء.

وتحكى ب.ب مغامراتها التى لم تعتذر عنها، والمرة الوحيدة التى تعتذر فيها فى صفحات مذكراتها التى تتعدى الخمسمائة هو الاعتذار لغاليرى جيسكار ديستان، رئيس الجمهورية الأسبق. وتحكى ب.ب أن ديستان، حين كان وزيرا فى الستينات، وقبل أن يصبح رئيسا للجمهورية، اتصل بها تليفونيا، قائلا بأسلوبه الأنيق :

ـ ان صوتك الجميل فيه مغناطيسية تجذبنى.

ودعته ب.ب إلى بيتها بعد أن قررت أن تعد له مقلبا. فقد أفشت الزيارة إلى بقية شلتها، ورجت أحد أصدقائها المخرجين أن يتنكر فى ثياب امرأة، وطلبت من وصيفتها الاختفاء فى الموعد ليحل المخرج مكانها، ويستقبل ديستان ليقوده إلى الصالون. وعمدت إلى اطفاء الأنوار و إشعال الشموع. وحين وصل الوزير استقبله المخرج المتنكر. ولكن ديستان بعد دقائق ادعى أنه تذكر موعدا، وفاجأ المتربصين به بالانصراف بعد الاعتذار. وتقول ب.ب أنها وضعت كل ملابسها والبروكة تحت تصرف المخرج. لكنها لم تفطن إلى حجم قدميه لأنه كان يلبس مقاس ٤٥ وهى تلبس ٣٧.

ومذكرات ب.ب مليئة بمثل هذه النزوات الجامحة. وهى تحكيها بالتفاصيل. وتحكى أن غرامها الأول بدأ مع روجيه فاديم. وكان أبوه قنصلا قديما لروسيا. واعترضت العائلة على زواجها منه، لأنه بوهيمى، وليس له مستقبل. ومع ذلك صبرت العائلة حتى بلغت التاسعة عشرة، وتزوجته وأخرج لها فاديم أربعة أفلام. ونجح فيلمه الأول، «خلق الله حواء» وفى هذه المرحلة ظهرت الموجة الجديدة للسينما الفرنسية وظهر جودار وتروفر. وأصبحت ب.ب نجمة الإغراء، ولكنها كانت تخاف من جان ميرو، لأنها فنانة قديرة. ولم تكن فى جمال بريجيت باردو ولكنها كانت أكثر فنا. وتحكى ب.ب لقاءهما المخيف فى فيلم «فيفا ماريا» الذى صور فيه المكسيك.

وتحكى ب.ب يوم وصولها إلى نيويورك لافتتاح فيلم «فيفا ماريا». وكان الاستقبال ملكيا.. مئات العدسات، ومئات الصحفيين فى المطار. وفوجئت بمؤتمر

صحفى فى قاعة مزدحمة وخلفها اعلانات الفيلم الجديد طبعا. وتذكر أنها فوجئت بمدفعية من الأسئلة القصيرة.

ـ ما هى أجمل لحظات حياتك ؟ فأجابت :

ـ بالليل .

ـ ما هو أحسن أفلامك ؟

ـ القادم .

ما هى أفضل مجوهراتك ؟

ـ الجمال . لأنه الشيء الوحيد الذى لا أشتريه .

ـ ما هو العمل الذى تفضلينه ؟

ـ ألا أفعل شيئا .

وحرصت ب.ب يوما أن تملأ سيارتها الرولز رويس الضخمة بعشر قطط وكلاب، حتى أطلقت الصحافة على سيارتها نوح على وزن سفينة نوح.

وتنتهى ب.ب بأن السينما صناعة، والإغراء اصطناع وأصباغ وألوان، والنجمة السينمائية تصطنع صورة قد تصدقها، وتضيع منها الحقيقة، ولهذا قررت الاخلاص للحيوانات الأليفة فقط وقررت الاعتزال فى الوقت المناسب .

٧٥

ممنوع الهمس

هبط الليل .

وقرر صديقان أن نذهب معا لنسمع موسيقى الزنوج، الآن وعلى الفور وبأى ثمن. وذهبنا إلى صالة «الطاووس» فى مدينة أتلانتا بولاية جورجيا أثناء رحلتى الأولى لأمريكا. وصعدنا معا فى ممر ضيق، كأننا نتسلق جبلا والممر الضيق المرتفع لا يتسع إلا لشخص واحد بمفرده.

وأصحاب هذه الأماكن يتفننون عادة فى الاختيار. فالبعض يرسم لك ممرا وأحجارا للوصول إلى «كهف» وكأنه يريد إعادة «الزبون» إلى ما قبل التاريخ. والبعض ينتقى «بدورما» سحيقا فى قاع عمارة، ولابد أن تهبط إليه بعدة سلالم وكأنها دعوة إلى «الهبوط» الأخلاقى .

ولكن صالة «الطاووس»، أشهر صالات الغناء الزنجى، كانت عالية جدا. وفى نهاية الممر الطويل المرتفع تلقفتنا سيدة فى قفص لتقطع التذكرة «غالية الثمن». وبدت التذكرة أغلى بالنسبة إلى ما يوحى به ذلك الممر الغريب الطويل والذى بدا لنا كأنه عنق زجاجة كسر قصدا قبل الاشتباك فى مشاجرة.

وقريبا من شباك التذاكر، أطل علينا عدة زنوج أصحاء وأقوياء. كانوا أطول منا، ينظرون ولا يتكلمون.. كأنهم مصارعون على المعاش أو من الذين يجمعون حتما بين وظيفتين فى وقت واحد .

وفوجئنا بعد قطع التذكرة والممر بدهليز طويل آخر. ولم تتوقف المفاجأة إلا حين وصلنا إلى صالة الغناء، فإذا بها بهو كبير ليس فيه موطىء لقدم.

وهبت على أسماعنا الموسيقى العالية الصاخبة الساخنة وكأنها تهب من فرن دائم الاشتعال.

وقبل أن نجد مكانا للجلوس كانت المغنية تكمل أغنية تقطر شجنا :

ـ يا ناس نفسى

أمد جسمى على الأرض وأتمدد.

والأغانى الزنجية تعلو فى الصالة الزنجية من الجوقة الزنجية حتى أصبح الجميع مشدودين بإيقاع واحد : مستمعين ومطربين وموسيقيين.. وسقاة أيضا.

وصوت المغنيـة كاللؤلـؤة التى تقطع الزجاج. والسـامعون من شدة الـوجد أصبحوا جميعا من زجـاج سهل الانكسار. وبكائيات المغنية ــ أو أغانى البلوز ــ تتكلم عن الشـوق والهجر والحنـان. ولكنها لا تلعن القـدر، وتكتفى أن تعاتبـه، خشية أن تثير القدر.

وبكائيـات الزنـوج فيها ظـرف «الغلابـة» والتراشق بالكلمات، والتتـابع فى الإيقاع، والغناء يغطى على أى شىء وأى حـركة أخرى فى القاعـة. فلا يكترث أحد بزحزحة الكراسى، ولا بالواقف أو الجالس، ولا يسمع أحد اصطدام الأكواب على المائدة، ولا يعبأ أحد بالسقـاة، وضعوا أو رفعوا، مليئا أو فـارغا، أوحتى اختلسوا رشفات وسط الزحام.

ولابـد أن يسحبك الصوت واللحن والإيقـاع والنبض والنغم المعتم والمضىء معا. ولن تملك إلا أن تـزحزح قدما، ثم تحركهـا، وتحرك الأخرى. ويسرى الإيقاع بين قدميك ويديك، وتميل وتهتـز. ولابد أن تضرب بيدك على أى شىء.. المائدة أو صدرك أو جارك.

ويبدو أننـا وصلنا بعـد وقت طويل من بـداية العـرض. فقد بـدا الجالسون كأنهم لا يضعـون أقدامهم تماما على الأرض. وفجـأة تقف زنجية سمينة كـانت تجلس مع العائلـة، لأن الصالـة مليئة بالعـائلات من مختلف الأعمار. ولم تملك السمينة السيطـرة على إيقاعها وأثـارت المغنية أشجـانها، وماجت القاعـة أيضا بالحماسة فانتقلت المغنية إلى دور فيه دلال غير مكشوف:

ـ أشمعنى أنا أقول ممكن.. وأنت تقول مستحيل!

وزادت دهشتى للقـدرة على التجـاوب بين الفرقـة والقـاعـة، لأن الحاضرين جميعا يحفظون الألحان والأغـانى عن ظهر قلب. وانفلت الزمـام، فلا تعرف من يقـود من. ولكن فـرحتى لم تتم، وبعـد تلـك الأغنيـة «المنطقيـة» بين الممكن والمستحيل. ولعل المغنية أرادت تهدئة الموقف واستعـادة السيطرة على الصـالة. ولكن أصوات السكسفون العالية الشجية انتقلت فجأة من المزاح إلى النواح.

وغنت المغنية، وقد شـدت ثوبها الأبيض على جسدها بإحكـام شديد، وكأنها ولدت بثوبها:

ـ ساعات أحس انى يتيم وبعيد عن بيتنا
وساعات أحس أنى فى العلالى..؟ نسر عالى
رميت على الجنب غلبى.. وحدفت قلبى
فى العلالى
تدفنونى فى الغرب.. تدفنونى فى الشرق

هنا .. وهناك
صوت الطبل في وداني
عشان باحس
إني .. يتيم .. ووحداني .
وطار الصواب ، وعلت الموسيقى .

وصدق الذين قالوا لى ، قبل أن أصل أتلانتا :

ـ لو أخذت أى أربعة زنوج رجالا أو نساء من الذين يدخلون السينما أو الذين يخرجون من السجن.. أو الذين يلتقون عند نهاية الشارع، ستجد أنهم يصلحون معا لتكوين فرقة موسيقية. فالايقاع يجرى فى دمائهم .

وهم ينطقون الحروف الخفيفة ويأكلون الحروف الحادة. وتسلية الأطفال عندهم هى النفخ فى الأبواق، وتسلية الأمهات هى هدهدة الأبناء على أغان تردد الأساطير والملاحم والحكايات الشعبية التى ترجع إلى عصر العبيد ومزارع القطن، والذين ماتوا وهم يهربون. أو ماتوا لأنهم لم يستطيعوا الهرب.

وهكذا تحس أن الزنوج أمة زعماؤها مطربون، حتى أصبحت الأغانى الزرقاء أو البلوز والأغانى الروحية وموسيقى الجاز مبعث الفخر عند الزنوج.

وانسجمنا بما نسمع وفيما نرى .

وإذا بالساقية الزنجية، وقد لبست ثوبا لسيدة من علية القوم من ملابس السهرة أو السواريه. احتشم كسمها وتبذل صدرها، ومالت علينا تهمس كلاما لا نفهمه، فهى تأكل من الكلام أكلا. وفهمنا أن فتاة تطلب أن ننتقل إلى مائدتها.

ولم نفهم من هى .. ولماذا تطلب ذلك ؟

ولكن المسافة لم تكن بعيدة، ولا يفصل بيننا سوى متر واحد. وإذا الفتاة، وقد اقتربنا منها، تقدمنا إلى صديق وصديقة. والصديق شاب يبدو من أطمئنانه فى جلسته أنه يشرف «ماليا» على هذه الجلسة على الأقل.

وصديقته سمراء صبغت شعرها باللون الأصفر. فاشمأز نظرى أول الأمر من هذا التناقض الواضح.

لكن تبادل التحية، وكأننا أصدقاء، جعلنى لا أقف عند الزنجية الشقراء، فقد أشارت الفتاة الثانية من وراء نظارتها السوداء وكأنها تأمرنا وتتوقع الطاعة على الفور.

ـ اجلسوا .. فجلسنا .

والنظارات السوداء فى الليل كانت موضة أمريكية استبدت بالفتيات فى

هوليوود منذ ليز تيلور ومارلين مونرو وحتى ميرنا لوى. واحترت من أين أبدأ فى النظر إليها.

عيناها واسعتان. صممت على أن تزيدهما رتوشا ورموشا مع أنهما مكحولتان كحلا طبيعيا.

فجاء ماكياجها كمن يحسن خطه. وكان واضحا أن الفتاة مفرطة الجمال، وأنها تعرف ذلك. وأى كلام فى جمالها أو ثناء عليه كلام معاد. فسكتنا. ولم يتكلم أحد.

ويبدو أنها تعودت دهشة الناس من جمالها، وتعودت أن تنعقد ألسنتهم على الفور. فبدأت تتكلم.

وإذا بها آية فى الحديث، تلوك الكلمات وتنطقها على طريقة بنات الجنوب اللاتى يرسمهن تنيسى ولیامز فى مسرحياته أو ارسكين كالدويل فى رواياته، والتى تحاول مارلين مونرو أن تقلدهن، وأحيانا تصيب.

فالكلام لين ولا تعرفه إن كان صدقا أو خيالا. وماذا يهم؟ وسألت من أى بلد أتيتم؟ فأجبنا.

فقالت:

ـ وهل أعجبتكم الموسيقى؟

فقلت وأنا أنظر إليها:

ـ هائلة، ليس بعد هذا كلام.

وقالت: هل أعجبتكم موسيقى «هؤلاء»؟

فقلت، بدلا من الإعجاب فى صمت:

ـ ولكنها عالية جدا. وقالت: ألا تعرف السر؟

لقد ورثوا أغانى أفريقية، لأنهم كانوا أيام زمان يعملون فى مزارع القطن، وكانوا يعبرون المحيط فى السفن الشراعية القديمة، وكان الذين يحاولون الفرار تكفيه رصاصة.

وكان السادة يخشون الصمت أو الهمس، حتى لا يتآمروا على الهرب. ولذلك كانوا يدورون عليهم بالسياط حتى يرفعوا عقائرهم بالغناء الحزين العالى. وقد توارثوه جيلا بعد جيل.

وأحسست أنى أريد أن أسألها، ولكن لماذا تقولين «هؤلاء» بلهجة الاشارة إلى الزنوج؟

وكنت أقلب النظر فى شعرها الأسود، فإذا به ناعم نعومة «غير زنجية».

العيون إسبانية، والشعر هندى ناعم، واللون مكسيكى أو خليط بين الشمال والجنوب.

وأدركت ما أريد، فقالت:

ـ أمى فرنسية وأبى مكسيكى .. وجدتى ..

قلت لها، وأنا أحاول جس النبض على المهنة التى تشتغلها:

ـ ولكن بهذا الجمال تستطيعين أن تذهبى إلى هوليوود، فقالت مشمئزة:

ـ ولكنى باردة.

فلم أفهم شيئا.

وفتحت حقيبتها وهى تدفع لى بطاقة، وقد كتبت عليها:

ـ بات .. بيكو. أى بات «الطاووس» وهو اسم المغنى الذى نجلس فيه. وتحتها بحروف أنيقة .. المهنة:

ـ مسافرة.

.. وأوحت لى تلك الفتاة الغريبة بعنوان كتابى «ممنوع الهمس» عن رحلتى إلى أمريكا و إقامتى بين الزنوج.

٧٦

مــارلـين

إلى الأبـد

بعض الشعراء الذين عرفتهم لهم ساعات إرسال شعرية.. في اليوم ساعة أو بعض ساعة، وبعدها يتوقفون تماما، ويعودون إلى حياتهم العادية اليومية، ويتوقف الإرسال، فيعود الشاعر موظفا أو مديرا كما كان.

ولكن هذا الشاعر كان مفاجأة، فقد أحسست أنه يتنفس الشعر ويعيشه.. حين يضحك أو يفرح أو يحزن، وحتى لو رأى أمامه أي شيء، كان يعلق عليه بصورة شاعرية جديدة ومبتكرة. وكانت ساعات الإرسال عند هذا الشاعر لا تتوقف ٢٤ ساعة في اليوم.

ولهذا أخذني ايفتوشنكو عندما زار القاهرة. وكان مقررا أن يلقي بعض أشعاره في دار الأوبرا القديمة.. قبل أعوام قليلة من حريقها. وكانت التجربة مذهلة، فقد جاء يحمل معه تقاليد وتراث الشعراء الروس القدامى، وهم يعقدون منذ أيام أمير شعرائهم بوشكين، ومنذ أيام مايا كوفسكي الذي انتحر، الحفلات الشعرية في الميادين العامة الفسيحة، حيث يكتظ عشرات الآلاف من المستمعين المعجبين. وقد سبقت ايفتوشنكو سمعته إلى القاهرة : إنه شاعر غاضب، ومغضوب عليه، وكانت أشعاره الجريئة لا ترضي اللجنة الثقافية في الحزب الشيوعي السوفييتي، وكلما أنكرته اللجنة المركزية زادت شعبيته بين المعجبين. ووصلت سمعته المدوية إلينا قبل أن أقابله. وفي أول لقاء بالقاهرة، ظننته أول الأمر مزيجا من ايفان الرهيب وهاملت الحائر. فقد كان نحيلا طويلا وتبدو قامته شمعية. وبدا كأنه يسير متهدجا، كأنه يرتج في داخله كما ترتج المياه في الإناء. وكان يموج وينفعل، ولم أحس أن قامته على جسد.. بل على روح شفافة. وكان يبدو مثل طائر متعدد الألوان.. حمراء زرقاء.. باهتة البياض، وأحيانا شديدة الامتقاع.

وكانت في صوته ملوحة الملح الخشن.

وكان يقول إن الشعر يلقي ولا يقرأ، ولا يسمع إلا في الهواء الطلق، وفي الغابات والحدائق والميادين. وقال لي إنه بدأ في صباه يسجل الأغاني الشعبية في القرى، لأن اللغة مثل الجليد تلوثه الذرات السوداء المتطايرة من مداخن المصانع في المدن، والشعر في القرية يبقى نقيا وصافيا مثل هواء الصباح. وقال

لى إنه يحفظ ٥٠ ألف بيت من الشعر الروسى القديم، وليس عنده قديم أو جديد لأنه يبحث عن الصدق، فالشعر امرأة سريعة الثأر ولا تغفر الكذب. وقال إنه يحفظ بوشكين عن ظهر قلب، ويعتبر باسترناك أستاذه. واعترف لى أنه يحفظ أيضا بعض الأشعار الممنوعة التى تغفلها الدواوين الرسمية، لهزلها أو فجورها. وقال إنه يعشق الرسم، وينام فى مراسم الفنانين، لأن الألوان تفتح القلوب الصدئة. وقال إن ما يفسد العلاقات بين الناس، بل وبين الشعوب، هو الأدب الردىء، وأردأ ألوان الأدب هو الأدب المحلى بالسكر. لأنه يشبه أفلام التليفزيون التى تضع المساحيق على وجه الحياة. وكان لا يكف عن التعبيرات المبتكرة واشتقاق الألفاظ واللعب بالكلمات. فإذا جلسنا قال عن طفاية السجائر إنها «مقبرة الأفكار». وإذا زرنا الأهرامات عاد ليقول: إن دمعة المرأة أثقل من حجر الهرم.

واعترف لى أن أكبر مقلب فى حياته شربه فى البيت الأبيض، فقد كان أول شاعر سوفييتى يدعوه جون كنيدى. كان كنيدى وزوجته جاكلين، التى غيرت ديكورات البيت الأبيض وأضافت الذوق الأوروبى الرفيع يدعوان الأدباء والفنانين والرسامين لأول مرة. وظهر نجوم السينما والمسرح والأدب فى سهرات آل كنيدى. وفى حفلة عائلية ـ على شرف الضيف ـ دعاه الرئيس كنيدى وزوجته الجميلة جاكلين إلى سهرة شعرية، ولم يحضر سوى آل كنيدى وعلى رأسهم روبرت صديق مارلين مونرو. وطالت السهرة، وأفرط ايفتوشنكو فى الشراب على العادة الروسية. وبعد عدة قصائد بدأ يلقى أشعاره كأنه يحدث جاكلين كنيدى وحدها. وهاجت حماسته، واشتد غليانه، فأراد تحية جاكلين على الطريقة الروسية التقليدية، بأن يلقى كأسه بعد أن يفرغه فى جوفه مرة واحدة، ثم يقذفه ليتحطم تأكيدا للشطط والنشوة.

وحدثت المفاجأة..

لأن الشاعر قذف كأسه وتبعه الآخرون. ووصل الشاعر للمفاجأة لأن الكؤوس لم تنكسر. وكان آل كنيدى قد توقعوا من الشاعر أن حماسته سوف تشتعل، وأنه سوف يلقى كأسه على الطريقة الروسية، فأعدوا الكؤوس كلها من البلاستيك المتقن الذى يشبه الكريستال تماما. وانخدع الشاعر وضحك الحاضرون.

وافشى لى ايفتوشنكو جو البيت الأبيض، وقال إنه التقى الأديب المفضل عند آل كنيدى فى الستينات، وهو آرثر ميلر الذى أصبح ضيف الشرف الدائم فى سهرات البيت الأبيض، وسحب مع زوجته مارلين مونرو ملكة الإغراء ومعبودة

الجماهير. وكان زواج ميلر ومونرو حديث المجتمع ورمزا للقاء الجمال مع الذكاء. وكانت مارلين مونرو قد صعدت لتحتل مكان مارلين ديتريش. وبعد أفلامها الناجحة «كيف تتزوجين مليونيرا»، و«البعض يفضلونها ساخنة»، وصلت إلى القمة ومثل أمامها كلارك جيبل وايف مونتان ولورانس أوليفيه. وأعطتها شركة فوكس للقرن العشرين الحق فى قبول أو رفض السيناريو، وحق اختيار المخرج، وهو شرط لا تتنازل عنه الشركة إلا لنجوم القمة.

وقد تزوج الذكاء من الجمال بعد قصة حب. وكان الروائى والمسرحى آرثر ميلر أشهر الأدباء ومارلين مونرو أجمل الجميلات. وتم الزواج بعد فشل مارلين فى زواج سابق وهى فى السادسة عشرة، وبعد فشل آرثر ميلر فشلا مماثلا فى زواج سابق. وتصور الجميع أن السعادة الزوجية ستتحقق كثمرة للمال والشهرة والنجومية. وتصورت مارلين مونرو أنها وصلت أخيرا لأبواب السعادة. وفى عش الزوجية بذل آرثر ميلر الساعات الطويلة ليملأ رأس زوجته الجميلة بالثقافة والأدب. وتكررت قصة اللقاء بين الذكاء والجمال، أو قصة بجماليون. لكن الجميلة ظلت جميلة، وبقيت تعيسة، وكان زواجها من آرثر ميلر تعيسا رغم الأضواء والشهرة والمال وسهرات البيت الأبيض. وكان فشل الزوج الأديب الكبير مروعا، لأن الزوج الذكى قد يستطيع أن يفك زوجته الجميلة إلى أجزاء، ولا يستطيع بعدها إعادة تركيبها. وحينئذ يصبح الزوج كالطفل الذى يفك لعبته، ثم يتركها أجزاء مبعثرة.

وقد تبعثرت مارلين مونرو بعد زواجها، وظلت سنوات فى غيبوبة الشهرة لا تعرف الفرق بين أدوارها فى أفلام الإغراء ودورها فى الحياة كامرأة تتمنى الخلفة والأولاد والسعادة. واستمرت هوليوود فى تلميع صورة النجمة لتصبح نموذج الأنثى الخالدة. وعاشت الممثلة الفرق الهائل بين الصورة الحقيقية. وجاءت النهاية قبل الخاتمة حين انتحرت مارلين وهى فى قمة المجد والشهرة وفى الرابعة والثلاثين وعز الشباب.

وتكررت قصة الجميلة جدا التى أرادت أن تكون ذكية أيضا ليجتمع الجمال والكمال، وهو حلم صعب ونادر أو.. مستحيل.

٧٧

أغـرب رحلة في حيــاتى

لم أكتشف أننى قمت بمغامرة إلا بعد أن وصلت.

واكتشفت أننـى أوقعـت نفسـى فى كمين حين قبلـت الـدعـوة لحضـور مـؤتمر عـالمى للصحفيين حضره ٥٠٠ كاتب وصحفـى فى كولومبيـا فى أمريكـا الوسطى، وكـان المؤتمر ينعقد فى ميناء قرطاجة.

وبدأت شكـوكى من اليوم الأول، لأنهم يـدعوننا بإلحاح وتشـدد إلى ركوب السيارات للانتقال من الفندق إلى مقر المؤتمر، مـع أن المسافة بينهما قريبة جدا ولا تستغرق بالسيارة بضع دقائق، ونستطيع الوصول سيرا على الأقدام فى أقل من خمس دقائق.

ولأن عـادة الصحفيين المفضلة هى تبـادل الحديث، فقد أثـار صمت بعض الصحفيين بيننا ريبتى وشكوكى، واكتشفت بعدهـا أن الذين تمسكوا بالصمت ليسوا صحفيين، ولكنهم من رجال البوليس السرى.

ثم تعقبت الصامتين فى هـدوء فوجـدتهم كثيرين جدا. واكتشفت أننـا جميعا تحت حراسـة مكثفة ثقيلة فى كل مكـان وأى مكان، من قاعـات المؤتمر، إلى مكان الحفلات، حتى غرف النوم.

وأخيرا عـرفت أن الحكومـة تخشى أن تهجم عصـابـات المافيا على أعضـاء المؤتمر لخطف بعض المدعوين واتخاذهم رهائن. وتذكرت على الفور أن السفير المصرى الوحيـد فى السلك الدبلـوماسـى المصرى الذى تعرض لحادثـة خطف وأخذ رهينة، كان فى كولومبيا. وقـد هجمت إحدى العصابات المسلحة على حفلة دبلوماسية هجوما خاطفـا وجمعت أكبر عدد من سفراء الدول الأجنبية، وكانت أزمة.

ورغم هذا الخوف الـذى تؤكده صحبة الشرطـة الدائمة، حـاولت التجوال فى المدينة خلسة لأن جو قرطاجة كان مثيرا، ولأنها مدينة رائعة الجمال ولها تاريخ مغر حافـل بالأحداث.. فهذا ميدان لقـديس، وآخر لقسيس. فى مدينـة فيها قلاع قديمة وقصـور عتيقة وسجون شهيرة وتماثيل كثيرة جدا. وقـد درس جارسيا مـاركيز الأديب الكـولومبى الـوحيـد الحائز على جائزة نـوبل تاريخ الطغـاة فى أمريكـا اللاتينيـة، وكان يقول: «مـاحاجتى للخيال.. فـالواقع أشـد مأساة؟».

فالدكتور دوفالييه ديكتاتور هاييتى السابق أمر بقتل كل الكلاب السوداء بدعوى أن أحد أعدائه الذين أمر بإعدامهم قد تحول إلى كلب أسود، والدكتور فرانشيا ديكتاتور باراجواى أصدر أمرا بالزواج الإجبارى لكل من بلغ العشرين، وماكسميليانو مارتينيز ديكتاتور سلفادور السابق أمر بتغطية جميع أضواء المدينة باللون الأحمر، وذلك بدعوى مكافحة انتشار الأوبئة.

وقد امتزج الخيال الأفريقى بالفن الهندى والجموح الاسبانى فى هذه البلاد، وهم يرددون ــ كما قالوا لى ـ أن ميدان سان دومينجو ظهرت فيه فى منتصف الليل عربة مطهمة تجرها خيول متوحشة ينطلق من عيونها الشرر. وانحدرت العربة مسرعة إلى شارع جانبى هو شارع المصنع. ويروون حكايات غريبة متوارثة عن شوارع مسكونة بالجن، أو أديرة مهجورة، وحرائق التهمت المدينة، وعصابات مسعورة تتحدى الحكومة.

ولن تصدق ما أقول، ولكن عليك على الأقل أن تقرأ بعض صفحات «مئة عام من العزلة» حين يقول الأديب جارسيا ماركيز : «الأرض رخوة ورطبة، وكأنها طبقة من رماد البراكين». وقد أمضيت فى قرطاجة أسبوعا مطيرا، ولم أشهد أمطارا بهذه الغزارة كان يصحبها رعد قاصف وبرق مدو. وكانت المؤثرات الصوتية والضوئية تجعلنى أحس أننى لست فى مدينة ولكننى فى مسرح عنيف لشاعر تراجيدى قديم تختلط فيه الأحياء بالأشباح.

... ومنذ أسبوع، شغلنى مهرجان المسرح التجريبى فى القاهرة عن كل شىء، فقد اشتركت فيه دول عديدة عربية وأجنبية لتقدم أكثر من خمسين مسرحية تجريبية، وتشترك فيها حضارات عديدة من اليابان وقازاقستان إلى السويد والمجر وبولندا وألمانيا وسويسرا حتى الكاميرون وزامبيا. ومن أمريكا اللاتينية شاركت فنزويلا، وأعادتنى مسرحيتها إلى جو قرطاجة السحرى.. نفس البرق المدوى والمطر الغزير والنيران المتأججة. واختارت الفرقة مسرحية «عطيل» الخالدة لشكسبير، كونها أخلد مسرحية عن الحب والغيرة. وعطيل الأسود أشهر زوج غيور فى تاريخ الأدب، لأن مسرحية شكسبير ظهرت عام ١٦٠٤، وبعد أكثر من ثلاثمائة عام مازالت «عطيل» مسرحية مقررة على جميع مسارح العالم وبكل لغات العالم. ومسرحية فنزويلا عام ١٩٩٥ بالإسبانية. وهناك أوبرا روسينى الإيطالية الشهيرة، ثم أوبرا فردى مؤلف مسرحية «عايدة» الشهيرة. ومنذ أكثر من مائة عام مازالت مأساة الغيرة الهوجاء تعرضها المسارح بالشعر أو بالغناء والموسيقى. وقصة عطيل تكشف أن الغيرة فى قلب الزوج تصبح عاصفة هوجاء، لأن ديدمونا الزوجة طاهرة وبريئة، لكن هواجس الزوج الغيور مثل النيران التى

تأكل الحب أو تقتل الحب.. وهذه هى المأساة، وهى مأساة قديمة جديدة، ولهذا أصبحت تلهم أهل المسرح والموسيقى بالروائع.

ومسرحية فنزويلا التى قدمتها الفرقة فى المسرح العائم على ضفاف النيل، قدمت عطيل الفنزويلى فى هذا الجو العاصف الذى يمتزج فيها الرعد بموسيقى وطبول أمريكا اللاتينية، ويمتزج فيها البرق بالعاصفة الهوجاء فى قلب عطيل، الزوج الغيور.

وبعض الحب يسمو ويصبح كالنسيم وفيه الشفاء، وبعض الحب ما يصبح كالعاصفة الهوجاء، لأن من الحب أيضا.. بعض الشقاء، ولأن من الحب أيضا.. ما قتل.

٧٨

أســــرار

دون جوان

الحب ألوان.. فى الروايات والقصص الخالدة.

ولكنه يختلف بين مجنون ليلى وروميو.. ودون جوان؛ لأن المجنون كان مثال الحب العذرى العفيف الذى يؤدى حتما إلى هلاك المجنون. وروميو كان مثال الحب المستحيل والنبيل الذى ينتهى إلى المأساة، بالموت والفراق. بينما دون جوان كان مثال العاشق الفاسق الطائش الذى لايشبع من المغامرات. وكل من يعطش عادة يشرب، ولكن عطش هذا الخليع الهلوك كان من نوع غريب، لأنه كلما كان يشرب كان يعطش.

وكان دون جوان يزداد عطشا إلى مزيد من المغامرات ليتنقل من حب إلى حب، وعن قصة إلى أخرى.

وهكذا يختلف الحب العذرى العفيف عند مجنون ليلى، عن الحب النبيل عند روميو، عن العشق عند دون جوان من أجل العشق وحب الغزوات والمغامرات. وقد جذبت قصة دون جوان عشرات الشعراء والروائيين والموسيقيين بكل لغات العالم. ومع أن اسم «دون جوان» ظهر أول مرة فى الأدب الإسبانى فى القرن السابع عشر حين ألف «نينرسو دى مولينا» عام ١٦٣٠ روايته بهذا الإسم، فقد تكرر اسم دون جوان ثلاثة قرون ليصبح فى الأدب والموسيقى والمسرح دون جوان الأول، ودون جوان الثانى.. والثالث والرابع والخامس. وهكذا يتكرر اسمه عند بوشكين وألكسى تولستوى فى روسيا، وعند موليير وألفريد دى موسيه وتيوفيل جويتيه وادمون روستان فى فرنسا، ويظهر أيضا عند بايرون ثم برنارد شو بالانجليزية. وقد ظلت حكاية دون جوان تتكرر بنفس الاسم، وكأنها مقررة على كل الآداب بكل اللغات، حتى ألف الموسيقار موزارت أيضا «أوبريت دون جوان»، وعاد إليها الموسيقار هوفمان، وبعده الموسيقار ريتشارد شتراوس.

وقد شهدت فى باريس فى الخمسينات عملاق المسرح الفرنسى لوى جوفيه يمثل دور دون جوان على مسرح الأتينيه. ولم يكن غريبا أن «الكوميدى فانسيز» كان يعرض فى نفس الموسم مسرحية أخرى باسم دون جوان كذلك للشاعر ألفريد دى موسيه. وحتى السينما عالجت قصة دون جوان فى فيلم انجمار برجمان. وهكذا ظلت شخصية هذا العاشق الهلوك تجتذب لمدة ثلاثة

قرون كثيرا من الأدباء والقصاصين، وتظهر فى المسرح أو الموسيقى، حتى أصبح اسم دون جوان وصفـا لحالة أو لـونا من الحب الذى يتميـز بالطيش والمغـامرة والنزوات والغزوات وحب اللذائذ الصغيرة. وكـل نزوة لابد أن تنتهى إلى العقاب، ولـذلك اتفق الأدباء فى البـداية واختلفـوا على النهـاية، لأن كل أديب صـو ر وفسر شخصية دون جوان على طـريقته. واختلف الأدباء على نهاية الـرواية، حين ينزل العقاب بالبطل.

وتبدأ قصـة دون جوان الأصلى عند أول مؤلف لها فى روايـة الأديب الإسبانى دى مولينـا بأن البطل من نبلاء الأندلس لا يهدأ على حب واحـد. ويقول إن الحب كالطفل يقلقه المضجع اللين. وقد ساعـده سحر الحديث وجمال الطلعة ورشاقة الكسم. وتبـدأ قصته حين تلقيـه عاصفـة إلى الشـاطىء وتنقذه صيـادة فاتنـة الجمال، فيسمعها أعذب الأحاديث وأكـذبها، ويضع لها نجوم السماء فى مخدعها ثم يخدعها. ولا يلـوى على خداع منقذتـه من الموت ويمضى إلى أشبيلية، فيسمع أن فاتنة أخـرى مخطوبة لرجل لا تحبـه، ويتخفى فى ثوب ماركيز. ويفـزع أبوها لشرفه المهدد، فيستل سيفه ليقتله. وخادمه فى الانتظار دائما بعد كل نزوة وغزوة يعـد له الخيـول القويـة استعدادا للفكـاك. ويظل دون جوان سـادرا فى غزواتـه ونزواته، وكأن الحب حرب أو قتال. ولكـن الرواية تنتهى إلى أن يتحول تمثال الأب المقتـول إلى شبح يطارد دون جـوان. وهكذا تنتهى قصـة أمير الملذات إلى مـائدة وسط القبور مليئة بالأفاعى والأصوات الرهيبة تأتى إليه من الجحيم.

وكل دين له وفـاء، ولابد من نهاية، لأن دون جـوان يحترق أخيرا فوق المسرح ليلسعه القبر والنيران. ومغزى هذه الحكايـات جميعا أنه لابد أن ينتهى أى عشق أو فسق إلى العقـاب. لأن العاطفـة عـاصفة، وقـد تكـون نسيما. وبين العاصفـة والنسيم تهتز أنفاس الحياة.

ولا تهدأ عاصفـة الحب إلا بالمودة والحنان. والعجيب أن صورة هـذا الفارس الذى صوره الأديب الإسبـانى دى مولينا لأول مرة عام ١٦٣٠ والـذى استوحاه من مغامـرات الفرسـان وطيشـهم فى الأندلس، قـد سبقه الأديب الفقيـه ابن حزم حين تحدث عن ألـوان الحب والعشق فى كتابـه الجميل الأخاذ «طـوق الحمامة». وقد سبق ابن حـزم بالعـربية دى مولينـا بالإسبـانية. وقـد تحدث ابن حزم عن فارس فى عصره كـان فى الأندلس أيضا واسمـه ابن عامـر. ومحمد بن عامـر كان فارسا عذب الحديث جميل الطلعة متأججا.. لا تطفئه امرأة واحدة.

وقد وصف ابن حزم فارسه قائلا :

« .. وكان يرى الجارية فلا يصبر عليها، ويحيق به الغم والهم ما يكاد أن يأتى

عليها حتى يملكها. فإذا أيقن أنها له، عادت المحبة نفارا، ونزاعه نحوها نزاعا عنها، والقلق عليها قلقا منها.

هذا كان دأبه، حتى أتلف من عشرات الآلاف من الدنانير عددا عظيما. وكان مع هذا من أفضل الأدب والحذق والنبل والذكاء والحلاوة والتوقد، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض؛ وأما حسن وجهه وكمال صورته فشيء لا تقف الحدود عنده.

ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة، ويتعمدون الحضور على باب داره.. لا لشيء إلا للنظر إليه. ولقد ماتت من محبته جوار كن علقن أوهامهن به، فخانهن فصرن رهائن البلى، وقتلتهن الوحدة.

وأما اخوانه، فإنه تبدل لهم فى عمره ـ على قصره ـ مرارا. وكان لا يثبت على رأى.. فحينا يكون فى ملابس الملوك، وحينا يكون فى ملابس «الفتاك»..

وهكذا يفرق ابن حزم فى كتابه عن الحب «طوق الحمامة» بين الحب والشهوة، والعاطفة والنزوة، ويحذر من الحب من أول نظرة، لأن الحب عاطفة قد تكون عاصفة وقد تكون نسيما.. ولابد فى الحب من موهبة الحنان.

٧٩ الزوج وزير .. والزوجة نائبة

عاشت «جينى لى» طفولتها بين المدرسة والمدفأة. ففى البلاد الباردة مثل اسكتلندا يعيش الصغار جوار المدفأة داخل البيــوت. وكان «المستر لى» أبوها عاملا من عمال المناجم، وعضواً فى حزب العمال «المستقل». وكانت عينا الصغيرة تتفحصان كل زائر يدخل بيتهم الصغير. فقد كان أبوها نقابيا نشيطا ومتحمسا، وكان كثير الزوار.

وظلت «جينى لى» فى الغرفة التى ولدت فيها طوال صباها. وكانت غرفة تضاء بالغاز حتى فى عز النهار. وكان الجيران يرددون فيما بينهم أن بيت «المستر لى» سيصبح مقبرة لو شب فيه حريق، لأنه لا يوجد فيه منفذ للهروب. ولكن الطفلة الصغيرة تركت الهموم لأبويها، ولم تعبأ بالفئران الكبيرة العديدة التى تطمئن إلى قلة الضوء فى البيت، كما لم تعبأ بالروائح الكريهة التى تنبعث من جوار المناجم العديدة. فقد كانت الفتاة يافعة تستعين بالقراءة والخيال الجامح.

وكانت مدينة فايف الاسكتلندية مدينة صناعية كبيرة تجمعت حول مناجم الفحم الشهيرة. وكانت «جينى» الصغيرة تسمع ضربات المروحة الضخمة التى تجدد هواء المنجم القريب بدقات قوية منتظمة. ويختلط هذا الصوت المنتظم الرتيب بما يملأ خيال الأطفال فى عمرها عن الوحوش المختبئة. وكانت «جينى لى» تتخيل أن تلك الدقات القوية هى دقات قلب وحش مفترس، وأن ذلك المنجم القريب هو ذلك الوحش المخيف الذى يستدرج الأحياء ليحبسها فى جوفه المظلم تحت الأرض. ولكن الفقراء عادة يستعينون بالخيال على المصاعب، فقد كانت الصغيرة تتخيل دائما إن القصة لا تنتهى إلا بقدوم «الفرسان» أو الشجعان» لانقاذ أسرى المنجم. وتنتهى القصة من ظلام المنجم والسجن فى جوفه العميق.

وتروى «جينى لى» فى قصة حياتها «غدا يوم جديد» أنها كانت صبية أثناء الحرب العالمية الأولى، وكانت تلعب لعبة الممرضات، وكانت تجمع كل العرائس المكسورة لتلعب بها لعبة المستشفيات، وتستعين بأغطية المائدة. وعندما تنام أمها، تضع العرائس فوق رأسها كالممرضات.

وأدركت «جيني لى» أن أباها من الأقلية القليلة من حزب العمال الذين يعارضون الحرب. وكانت تسمع أناشيد العمال ضد الحرب، ومازالت تلك الأناشيد محفورة فى ذهنها. وعثرت على صورة بين أوراق أبيها فى جريدة أومنشور. وفى الصورة قرد فوق شجرة، ويتطلع إلى الأرض فى تهكم، قائلا : «أحمد الله أننى لست متمدنا».

وأدركت أن أباها يحارب الحرب، وأن حب الوطن لا يعنى كراهية الأوطان الاخرى. وتسربت إلى أذنيها فى اجتماعات أبيها مع زملائه كلمات غريبة عن الانجليزية مثل : نيتشه وهيجل وانجليز. وبدأت تتعلم الاشتراكية من الأناشيد. وكان أشهر تلك الأناشيد يرددها العمال فى المناجم، ويتفنن الأطفال فى القائها بأقصى ما يملكون من قدرة على رفع أصواتهم.

وكان النشيد العمالى فى اسكتلندا يقول :

« ارفعوا علم الشعب الذى يجرجر فى التراب
خلال عصور الظلم، احتملنا أثقل الأعباء
وحصد غيرنا ما زرعناه
وقد شققنا الأرض شقا وغذينا نيران المواقد
وقطعنا أخشاب الغابات
وبنينا الأساطيل العظيمة

وبعد عصور مريرة من الجوع واليأس، خلع العديد قيودهم، وحذروا أعداءهم.

فلن نكون بعد اليوم عبيدا
وسيعلم العالم أجمع
أن من يعش عليه أن يعمل
ومن يحصد عليه أن يزرع».

وكان خيال «جينى لى» يسبق ادراكها. واكتشفت أن عمالا كثيرين من عائلتها يعملون فى المناجم، وللعائلة أصدقاء عديدون يعملون فى بناء السفن، وأن ابناء عمومتها هاجروا إلى كندا لقطع أشجار الغابات.

وفى الرابعة عشرة بدأت تفكر فى كسب قوتها. وكانت أمها تشترى كل سبت ورقة يانصيب فى سباق الدربى. وكان أبوها يكره المقامرة. ولكن الام كانت تحلم أن تكسب مالا وفيرا يكفى لتعليم ابنتها، لأنها باهرة الذكاء، ولأن التعليم هو طوق النجاة.

وكان جدها العجوز يثير الضحك بين الصغار، لأنه كان فى سنه الكبيرة يتعلم

الهجاء على أيدى ابنائه، ويقول ان الجيل الجديد من العمال سيصل يوما إلى تعلم قانون ارشميدس.

واندفعت «جينى لى» الصغيرة فى الدراسة تلتهم كل ما تجده أمامها من أوراق وصحف وكتب. ولم تكتف بما يلقن لها فى المدرسة، بل انتظمت فى مدارس العمال، وخاصة «مدرسة الاحد» التى كان يديرها بائع كتب ضرير، وعامل منجم، وسيدة متطوعة شديدة الحنان.

وحين انتهت الحرب بدأت المشاكل.. فقد عاد العائدون من الحرب يطالبون بتقليل ساعات العمل، وتحسين الاجور، وتأمين المناجم الخطرة. وكان لويد جورج يرأس الوزارة الائتلافية، وبدأت الاحتفالات. ونجا والدها من السجن بالصدفة، لأنه احرق كل ما فى بيته من أوراق.

وكانت ومضة الأمل الوحيدة فى ذلك البيت المظلم، ان الفتاة انهت دراستها الثانوية بعد حصولها على الدرجة الأولى بامتياز، وتطلعت الفتاة إلى الالتحاق بجامعة اكسفورد أو كمبريدج ادنبرة لأن درجاتها المتفوقة تؤهلها. ولكنها التحقت بجامعة أدنبرة لأنها أرخص الجامعات.

وأحبت «جينى لى» مدينة لأن بيوتها متواضعة مثل تلك البيوت التى عاشت فيها طفولتها وصباها.

وكانت حياتها الجامعية صعبة، ولكنها حصلت على شهادتى القانون والأدب معا. وعادت إلى فايف الاسكتلندية لتجد عمالها يضربون. وكان اضراب ١٩٢٦ أشهر اضرابات انجلترا كلها. ورفع العمال شعار الاضراب أو الموت.

وبدأت «جينى لى» تجمع التبرعات لمساعدة المضربين. وكانت فترة حالكة، فأبوها عاطل ومضرب، وأخوها هاجر إلى كندا. واستمر الاضراب ستة أشهر، ولكن الحكومة رفضت مطالب العمال.

واختار حزب العمال المستقل «جينى لى» مرشحة فى إحدى الدوائر العمالية فى انتخابات فرعية بين حزب المحافظين والعمال. وفازت «جينى لى» لتصبح أصغر نائبة عمالية فى البرلمان. وانطلقت «جينى لى» إلى أفريقيا لتحاضر بين الزنوج من العمال وعادت تردد نشيدا زنجيا يقول:

ـ لن نتزحزح

كالشجرة المزروعة جانب النهر

وفى البرلمان كان لقاؤها بالزعيم العمالى انورين بيفان، وكان نائبا عماليا، وكان اللقاء مثاليا، وأكثر من لقاء رجل وامرأة، فقد كان العمال يفتخرون أن قدرة انورين بيفان على الخطابة البليغة المؤثرة تضارع بلاغة تشرشل أعظم خطباء

بـريطانيـا. وكـان بيفان فى الأصل عـامل منـاجم أيضـا، وكـان خطيبـا جياشـا وشخصية ساحرة. وربط بينهما ما هو أكثر من الحب.

وسـافرا إلى أسبـانيا قبل الحرب الأهليـة، وسافـرا إلى روسيا وأمـريكا معـا، وأصبحا من أشهـر الأزواج. وكتب انورين بيفـان، الذى أصبح وزيرا فى حكـومة اتلى بعد الحرب العـالمية الثانية، كتـابه الشهير «بدلا من الخوف». وقد تـرجمته كامـلا إلى العربية عـام٥٦. وكان الرئيس عبـدالناصر يتـابع فى قراءاته كتـابات العمال فى بريطـانيا، فـدعاه إلى الكتابـة فى جريـدة الجمهوريـة. وأصبح انورين بيفان محررا منتظما فيها.

وعارض حـزب العمال عام٥٦ العـدوان على مصر حتى أسقط انطونـى ايدن أحد زعماء العدوان الثلاثى. ومـازالت خطب ومقالات انورين بيفان و «جينى لى» فى الذاكرة. فلابد لكل عظيم من عظيمة إلى جـانبه، يقرران معا أنه لا معنى للحياة مع اليأس، ولابد من التعليم والنضـال. وهكذا كان عنـوان الكتاب الذى تـرجمته لانورين بيفان «بـدلا من الخوف» والكتاب الذى قرأته لـزوجته «جينى لى» : «غدا يوم جديد».

حضرة الممثلة

الوزيـــــرة

أول ممثلة فى العالم أصبحت وزيرة للثقافة هى الممثلة اليـونانيـة «ميلينا ميركـورى». وقـد ماتت فى مثل هـذه الأيـام، وجـاءت وفـاتها بالصدفة فى يوم المرأة العالمى.

ميركورى فى اليـونان معبودة الجماهير، فـأصبح اسمها على كل .. فقط».

ينا ممثلـة قديرة ونجمة شـهيرة تمتلك المشـاعر وتخطف الأبصار والسينما.. ثم السياسـة. والمسرح هو اللعبة الوطنيـة فى اليونان قدم أو البيسبـول هى اللعبة الوطنية عنـد كثير من الشعوب، لأن قى والمسرح من الفنـون اليونانيـة القديمة واليوميـة. والأصوات ية تستنشق الهواء النقى، ومن الأصـوات الجميلة القويـة فى عالم ان بلد البحر والجبل والفنـون الجميلة، وأصوات اليـونانيين مثل انيين من أهل الجبـل والبحـر، فيهـا من فيروز ووديع الصـافى. الأصوات أن تصل إلى الطبقـات العليا. واليونانيـون يتعلمون فن من المسرح الإغريقى القديم، وهم يعيشون فى القرن العشرين على الإغريقى المكشوف بين أطلال الاكروبوليس والبانتيون.

حت ماريا كالاس اليونانيـة أشهر مغنية أوبرا فى العالم. ولن تجد ن عامة المثقفين لا يحفظ أشعار أوربيدس اسخليوس، أو يذكر لك ى فن الشعـر. ونادرا مـا تجد قـريـة صغيرة بغير مسرح. ولا يتم ب فى أى مطعم صغير من دون الغناء والموسيقى.

ينـا ميركورى ممثلـة ومغنية، بل وكـانت موسيقيـة فى الخطوات طرات. ووصلت إلى العالمية بعد فيلمها الناجح «ليس فى يوم الأحد» ينات. ولكن ميلينا دخلت السيـاسة من باب المبادىء، وهو الباب يدخلـه أصحاب القضـايا والأفكـار. وكانت قضيتهـا الأولى هى ن الذى تعـرض للاحتلال النـازى والإيطالى أثناء الحرب العـالمية رف الدكتاتوريـة العسكرية أثناء حكم الجنـرالات منذ عام ١٩٦٧ نـوات. وكـانت ميلينـا تخطب فى الشـوارع والميـادين والمسـارح رر نفيها بعيدا عن اليونان. واستمرت فى مقاومة الحكم العسكرى

فى أنحاء أوروبا وأمريكا وسبقتها شهرتها، فتقدمت الصفوف الأولى فى مسيرات الاحتجاج التى كانت تبدأ بالخطب النارية وتنتهى بالأغانى الوطنية الشعبية. وهكذا لا يتخلى اليونانيون عن الموسيقى فى كل شىء.. حتى عند الغضب.

وحين ماتت أمها فى اليونان لم يسمح لها الجنرالات بالعودة من المنفى إلا ست ساعات لتشييع الجنازة وتقبل العزاء. وتقول ميلينا ميركورى إنها المرة الأولى التى أخفت فيها دموعها حتى لا يظهر ضعفها أما لابسى الخوذات.

وحين سقط العسكريون والحكم العسكرى عادت ميلينا من المنفى مع كثير من الفنانين والأدباء والمثقفين والساسة لتصبح نائبة فى البرلمان، ثم وزيرة للثقافة والعلوم فى وزارة الاشتراكيين الديمقراطيين عام ١٩٨١.

وأيامها شنت وزيرة الثقافة حملة عالمية تطالب بإرجاع أحد التماثيل اليونانية التى نهبها القنصل البريطانى «توماس مور» ليضعه فى المتحف البريطانى فى لندن. وأيامها طالبت بعودة كل من الآثار القديمة المصرية والسورية واللبنانية منذ أيام الفراعنة والبابليين والآشوريين والكلدانيين والفينيقيين. والتى نهبها الغرب من الشرق.

واشتهرت عبارتها التى ذاعت. «ليس فى المتحف البريطانى شىء بريطانى سوى الاسم فقط».

وقد مثلت ميلينا ميركورى عشرات المسرحيات والأفلام. وكان أشهرها فيلم «ليس فى يوم الأحد». ولكن أروع أفلامها فى رأيى كان فيلما وثائقيا لم تغن فيه أو ترقص أو تمثل، بل كانت تتحدث فيه كراوية. واسمه «أثينا». حيث قدمت فيه الآثار الخالدة والأسواق العامرة والشوارع الصاخبة.

وكانت تقول: «هنا كان يمشى أرسطو. وهنا غنى هوميروس». وكانت تتذكر الأماكن التى طواها التاريخ أو ما نسميه الآن «عبقرية المكان».. وفضل الجبل والبحر على الفنون والآداب. لأن الوطن أيضا له ذاكرة، ومن لا يدافع عن وطنه يفقد كل شىء حتى الذاكرة.

وهكذا لم تكن ميلينا ميركورى. ميلينا فقط، أو مجرد وزيرة وأول وزيرة للثقافة.. فى عالم المرأة والسياسة.

٨١

الشجاعة .. امرأة

أغواني الشاعر صلاح جاهين بسماع الشيخ سيد مكاوي. وكان الشاعر يسكن في نفس الحي الذي يسكن فيه صديقه الملحن الموسيقار، وهو حي السيدة زينب الشعبي. ولم يفترق الشاعر عن الملحن عشر سنوات، وكانا يسهران معا كل ليلة في غرفة صغيرة كان يسكنها الشيخ سيد في حارة ضيقة وطويلة في حي سنقر، تصل بين شارع الخليج والناصرية. وقد ألف صلاح جاهين في مرحلته «المكاوية» أوبريت «الليلة الكبيرة» الشهير، وهي من أجمل الصور الشعبية الضاحكة لأفراح مولد السيدة.

وحين استمعت في الغرفة الصغيرة ـ المزدحمة بالسميعة ـ تحت بئر السلم إلى ألحان الشيخ سيد، وتباشير «الليلة الكبيرة» أحسست أنها تقفز من شدة المرح والفرح. فقد كان الشيخ سيد تحفة، ويملك موهبة التنكيت ساعات، وكان لا يمل من فكاهة المشايخ، وكان فيه حنان وشجن وأحسست أول مرة بجمله الموسيقية القصيرة النشيطة يقفز مازحا، ويمد يديه إلى سامعه، ويتحسس قلبه دون أن يراه.

وقد تعرفت في حياتي إلى كثير من الموهوبين الذين عوضهم الله عن البصر بموهبة السمع والبصيرة. وكان طه حسين نموذجا في جيلنا، وكان أروع من وصف الأصوات الانسانية في أدبه الانساني، وفي عناوين كتبه بعض المغزى من موهبة السمع. ففي بعض كتبه عناوين لها دلالة، ومنها «دعاء الكروان» و«صوت باريس» و«من بعيد». بل كان طه حسين أروع من وصف صوتا نسائيا حين قال: «صوتها يشبه مس الحرير للحرير».

وحين عرفت طه حسين عن قرب، اكتشفت أنه تخلص تماما من عاهته في جلسته. فقد كان يجلس معتدل الكتفين، مشرئب العنق، تضيء وجهه النحيل جبهة عريضة بالذكاء والجلال. وقد اختفى عنه تماما ما قد تلاحظه في جلسة الكفيف ـ عادة ـ حين يسدل كتفيه، ويطوي جسده ويتحسس جسمه أو يتلمسه أو يفركه بأصابعه.

وكان طه حسين، خصوصا بعد رحلته الباريسية، ثم زواجه، قد قرر أن يتخلص تماما مما ينبيء عن عاهته. وعمد وهو يعد للدكتوراة الثانية من

السوريون بعد الدكتوراة الأولى من القاهرة أن يبدأ بامتحان الليسانس، وعمد قصدا أن يدرس الجغرافيا والخرائط وتعود أن تصحبه زوجته سوزان إلى المعارض والمتاحف. وكانت حياة العميد نموذجا فذا للإرادة والذكاء. فقد كان يمكن أن يقنع بركن بعيد من زاوية العميان في صحن الأزهر، فأصبح أول وزير «كفيف» يتولى الوزارة.

وقد كنا في باريس نطلق في الخمسينات على طالب بعثة يدرس الدكتوراة في السربون «طه حسين الجديد». وكان الدكتور صلاح مخيمر الذى أصبح أستاذا لعلم النفس في جامعة عين شمس، ضابطا في الجيش، وحارب في فلسطين عام٤٨. وانفجرت قنبلة بالقرب منه ففقد بصره وكنت أدرس معه علم النفس على لاجاش ومارى بنونابرت، ولكنه كان يحضر معى بعض محاضرات في علم الجمال على ايتين سوريو. ولم يكن عسيرا على صلاح مخيمر أن يدرك كل شيء، لأنه فقد بصره في شبابه، بعد أن أدرك كل شيء ورأى كل لون، وكان يحتاج إلى بعض ذاكرته البصرية ليتابع ما يسمعه.

وإذا كان طه حسين قد وصف الكفيف بأنه «مستطيع بغيره»، فقد احسست أن الذين عرفتهم استطاعوا أيضا بأنفسهم، لأن الإرادة تعوض عن العاهة بالموهبة، وما ينقطع بالبصر يمده الله بحاسة السمع. لكننى لم أصدق قصة تلك المعجزة «هيلين كيلر» حتى جاءت مصر وزارت طه حسين، وتجولت في المتحف المصرى الفرعونى. فقد ولدت هذه الفتاة كفيفة، صماء، خرساء، وأصيبت وكان عمرها عاما ونصف العام بمرض أفقدها الحواس الثلاث، ولم يبق لها سوى حاسة اللمس.

وكان يمكن أن تنتهى حياتها بميلادها، ولكن عائلتها بعد أن بلغت التاسعة لجأت إلى جراهام بيل، وكان له معهد في مدينة بوسطن في شمال أمريكا. لتعليم المعاقين. وعهد بيل إلى فتاة في الحادية والعشرين بتلك السجينة، وكان اسمها آن سوليفان. وكانت تعانى أيضا من ضعف البصر، ولكنها اكتشفت في الفتاة الصغيرة «هيلين» ذكاء مشبوبا ورغبة قوية في أن تفك أسرها الرهيب، وبدأت المعلمة آن سوليفان مع تلميذتها التى أحبتها بتدريبها على الهجاء باللمس. واكتشف المعهد في تلميذته معجزة، لأنها تريد أن تتعلم اللغات. وبعد الانجليزية انتقلت هيلين كيلر إلى الفرنسية ثم الألمانية. ولم تكن المعجزة في ذكاء التلميذة وحماسة المدرسة، ولكن المعجزة أيضا أنها علمتها هذه اللغات باللمس. وكان لقاء اليدين بين الصديقتين أروع لقاء في التلقين والتعليم. وأصبحت هيلين كيلر أول طالبة في كلية رادكليف. ودرست الفتاة الأدب الكلاسيكى ثم انتقلت بنهم لا

يرتوى إلى الفنون ثم العلوم. وفى الثانية والعشرين نشرت عام ١٩٠٢ تاريخ حياتها ومأساتها وجهادها.. وكيف تعلمت رغم كل الصعوبات. ثم نشرت بعد ذلك بحثا عن «التفاؤل» ثم كتاب «الحياة التى أحياها» وبعده كتاب «الحائط يغنى» ثم كتاب «بعيدا عن الظلام». وفى العناوين وحدها دلالة على تجربة المؤلفة. فقد حكت هيلين كيلر كثيرا عن دور معلمتها التى أخذت يدها آن سوليفان فى يومياتها - ١٩٣٨ - وفيها أروع مشاعر الوفاء، لأن الاستاذة ماتت عام ٣٦. بعد أن شقت التلميذة الذكية طريقها. وأصبحت هيلين كيلر أشهر معاقة فى العالم استطاعت أن تثبت أن العقل يمكن أن يغنى عن حواسها الأربع التى ولدت من دونها. واشتهرت هيلين فى دفاعها عن المعاقين فى أنحاء العالم. واشتغلت بالصحافة. فدافعت عن حقوق المرأة السياسية، بل كانت لها ميول اشتراكية فى قلب أمريكا الرأسمالية، وطالبت بالغاء عقوبة الاعدام، وتحريم تشغيل الأطفال. فأصبحت رمزا انسانيا للارادة النسائية، فأخرج عن قصة حياتها المخرج آرثر بين فيلما يروى قصة كفاحها، عام ١٩٦٢. وحين جاءت إلى القاهرة لم يصدق أحد أن هذه المرأة، وكانت تميل إلى الطول والامتلاء، حرمت منذ ميلادها من حواس السمع والبصر والنطق، ولم يصدق أحد أنها تعلمت عن طريق حاسة واحدة هى اللمس، إلا حين زارت المتحف المصرى الفرعونى، فصعدت تمثال رمسيس الثانى لتمر بأصابعها على وجهه ثم كتفيه. ونشرت الصحف صورتها وهى تمد يدها إلى وجه التمثال، وصورها مع طه حسين ولقاءات كثيرة أخرى.

وقد أثبتت هيلين ادامز كيلر التى ولدت فى ولاية ألاباما عام ١٨٨٠. أنها معجزة. وقد عمرت هيلين حتى عام١٩٦٨. وماتت بعد أسابيع من عامها الثامن والثمانين. ولولا كتبها وصورها وقصة حياتها لما صدق أحد أن الإرادة تصنع المعجزات. فالحرمان قد يعوضه الله بالذكاء، وما يقدح زناد الذكاء هو الإرادة والأمل. وقد يكون اختيارها لعنوان كتابها «الحائط يغنى» فيه دلالة حين اجتمع فى هذه المرأة ما يصنع المعجزات، حين اجتمع لها الذكاء والإرادة وحاسة واحدة هى اللمس. وقد تكفى حاسة واحدة مع الإرادة لصنع المعجزات.

سر ٨٢

أجاثا كريستى

كنت أدرك أن جمال عبدالناصر قارىء محترف. وتأكدت من ذلك حين قرأت عام ١٩٦٠ كتابا لصحفى سويسرى درس فى السوربون، وأقام فى مصر منذ عام ١٩٢٥، وعاصر مصر قبل الثورة وبعدها، واسمه جورج فوشيه. وقد نشر كتابه «جمال عبالناصر وصحبه» . وقال فى المقدمة إنه ذهب للصعيد، وزار قرية بنى مر، وقابل أهل عبدالناصر من الفلاحين وصغار الموظفين. ثم ذهب إلى الكلية الحربية التى درس فيها عبدالناصر. ثم أصبح فيها أستاذا للاستراتيجية، ليطلع على قائمة الاستعارات من المكتبة. وهناك وجد ضالته، لأنه خرج بقائمة الكتب العديدة التي استعارها عبدالناصر طالبا وأستاذا. ووجد فى هذه القائمة كتاب «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، ثم قائمة طويلة لأهم الكتب التى تناولت الشرق الأوسط ومصر وفلسطين، وهى كتب أو مصادر لا يستغنى عنها باحث، وبالانجليزية. وقد كتب عليها عبدالناصر بخط يده ترجمة بعض الكلمات الصعبة. وهذه القائمة الطويلة تشمل أهم المراجع العسكرية والتاريخية أو مانسميه عادة عيون الكتب.

المهم أننى اكتشفت وقتها الدائرة التى كان يهتم بها عبدالناصر طالبا وأستاذا، وأغلبها فى السياسة والحروب والتاريخ. ولكننى بعد ذلك وبعد عام ١٩٦٠، وكنت قد ترجمت كتاب «الدولة فى النظرية والتطبيق» للمفكر البريطانى هارولد لاسكى وقيل لى بعدها إن عبدالناصر يتابع كل كلمة يكتبها لاسكى أو تكتب عنه. وكان حظى أن ترجمت أيضا «بدلا من الخوف» لأنورين بيفان، وكان زعيما عماليا فى بريطانيا عارض بشدة العدوان الثلاثى، ودعاه عبدالناصر للكتابة فى جريدة الجمهورية ونشرت له بالفعل عدة مقالات. وحتى ذلك الوقت كنت أظن أن عبدالناصر يهتم بالسياسة والتاريخ والعسكرية، ولايترك كتابا مهما، وقد أتيحت لى فرصة نادرة بعد وفاة عبدالناصر ودعانى ابنه المهندس خالد عبدالناصر لزيارة منزله، وطلبت منه أن أطلع على ما تبقى من كتبه فى الدور الثانى من البيت. وفى غرفة مطلة على الحديقة الداخلية وجدت عددا من الكتب بالعربية، وبعضها قديم جدا، وتتناول الحركة الوطنية والأزهر والوفد، ومن الشيخ الظواهرى إلى محمود أبو الفتح إلى أحمد حسين، فأدركت أن

عبدالناصر كان يتابع مختلف الآراء وقد حرصت على هذه القائمة لأنها هى الكتب التى يحفظها عبدالناصر فى بيته. وما قرأته فى قائمة جورج فوشيه وما وجدته فى بيت عبدالناصر اكد لى دائرة الاهتمام التى تشغل عبدالناصر قارئا.

ولكن هذه القصة لا تكتمل إلا بذكر حادثة جعلتنى أغير رأيى، وأكدت لى أن عبدالناصر إلى جانب شغفه بالسياسة، واطلاعه على الأدب كان يقرأ الروايات البوليسية أيضا. ولو لم تحدث هذه الحادثة معى لما صدقت. فقد كنت فى دار الهلال منذ عام ١٩٦٤ حتى ١٩٦٩ أشرف على مجلة الهلال وكتاب الهلال ورواياته. وآثرت تجديد الهلال المجلة والكتاب ثم أرجأت الروايات لأنها كانت مستقرة التوزيع. وقد ورثت تركة ضخمة من الأسماء المضمونة فى التوزيع، بين روايات الأدب والروايات البوليسية. وكنت أحس أن دور الروايات يأتى بعد تطوير المجلة والكتاب. ولاحظت أن التراجم التى كنا ننشرها لم تكن وافية، ولكننى ارجأت إعادة النظر فيها. وبين ما ورثته من أسماء مرموقة مضمونة التوزيع كان اسم «اجاثا كريستى» فلم أتدخل فيها. لأن القارىء مضمون واسمها تؤكده الأفلام السينمائية. وذات يوم اتصل بى مدير مكتب عبدالناصر ليقول عبارة أذهلتنى لأنه يسأل:

- لماذا تنشر دار الهلال روايات أجاثا كريستى مختصرة؟

وهنا أدركت للمرة الأولى أن عبدالناصر يقرأ أيضا روايات أجاثا كريستى ويبدو أن هذه المرة قارن بين الفصل الانجليزى والترجمة المنشورة، فكانت ملاحظته.

الأغلب أن عبدالناصر كان قارئا محترفا للكتب الجادة، وهاويا للروايات البوليسية. خصوصا «أجاثا كريستى». وبقدر دهشتى لم يصبنى الذهول، لأننى أعرف أن عبدالناصر كان يحب لعب «الشطرنج»، ومثل هذه التسلية الرياضية بالكر والفر، و «الكش» والتقدم لعبة ذهنية تعادلها القراءة فى تلك الروايات البوليسية التى أجادها كتاب الغرب من «ارسين لوبين» إلى «أجاثا كريستى».

وقد فسر أحد علماء الاجتماع سر ذيوع وانشار الروايات البوليسية فى الغرب، بأنها لون من اللعب مع أبطال الرواية. لأن المطاردة واكتشاف الأسرار والعثور على الجانى نوع من الرياضة الذهنية المثيرة، وهذا هو سر فوز السينما بروايات أرسين لوبين وأجاثا كريستى، ثم عناية المسلسلات فى التليفزيون بقصص الرعب والخوف والمؤامرات والمكائد.

وقد استحقت أجاثا كريستى لقب ملكة الرعب وغلبت الرجال فى تأليف

الـروايات المثيرة، وابتكـرت أبطالا مشهـورين غطوا على شـارلوك هـولمز، ومن أبطالها «مس ماربل» وألفت أجاثا كريستى أكثـر من مئة رواية ناجحة، وعاشت ٨٦سنـة، وكتبت مذكـراتها التى تكشف فيها أنها بـدأت التعليم وهى فى الثامنـة بفضل أمها. وكـان أبوها أمـريكيا، ويقضى أغلب أوقاتـه فى النوادى الريـاضية. وتقول إن طفـولتها كانت سعيـدة والعائلة مستقـرة، ولكنها فى طفولتهـا تأثرت بحـواديت الخادمات. ثم مـات أبـوهـا وهى فى الرابعـة عشرة. وتـذكر أن لعبهـا المفضل فى بيتها الهادئ كان مع أختها «مادج»، وكانا يحكيان القصص ويمثلان أحـداثها. وأحست أجـاثا بمتعـة عجيبة، وأختهـا تقلد أصـوات العفاريت وكـان الضحك وبراءة الأطفال وهزار البنـات مع الخادمة يغرى بتكرار تمثيل القصص والحكايـات. وأصبح الخوف هـو لعبتها المفضلة وهـوايتها التـى استمرت حين بدأت الكتاب ونجحت من أول رواية نشرتـها.

وقد زارت أجاثا كريستى مصر عام ١٩١٢ وتزوجت «ليلة الكريسماس» قبل أن تشتعل حـرب ١٩١٤. وتركهـا زوجهـا «أرشى» إلى الحرب، فتطـوعت أجاثـا كممرضة. والغريب كما تقول إنها اهتمت أثنـاء التمريض بدراسة تأثير السموم القاتلة.

ولم تعش أجاثا كريستى حياة زوجيـة سعيدة، لأن زوجها بعد الحرب عوض سنوات الحرب بالحب، وخانها مع امرأة اسمهـا «نيل». وذات يوم وجدوا سيارة أجاثا كـريستى قرب بحيرة، وفيها معطفها الفرو وبعض أوراقهـا. وبعد أسبوع تصور البوليس أنها انتحـرت فى البحيرة ولم يتركوا من البحيرة شبرا دون بحث. وأخيرا عثروا على أجـاثـا كريستى فى أحـد الفنـادق الهادئة وقـد تخفت بـاسم منـافستها على زوجهـا. وتكشف هذه القصـة أيضا أن أجـاثا كـريستى لم تكن تؤلف الروايات البوليسية، ولكن كانت تعيشهـا ويختلط فى ذهنها الخيال الجامح بالحقيقة الواقعة. وقد انتهى زواجهـا بالطلاق فسافرت بقطار الشرق إلى بغداد، حيث كانت هنـاك بعثة آثـار بريطانيـة. وعثرت على زوج شـاب من علماء الآثار، كـان فى الرابعـة والعشرين، ولم يمنعها سن الأربعين من الـزواج منه، وقـالت فى مذكراتها : إنها تحب الآثار أكثر.

ولم تنجح كاتبـة فى الروايات البوليسيـة مثل أجاثا كريستى، فأطلقـوا عليها «ملكة الرعب»، والتى كشفت فى مـذكراتها أن سر براعتها فى الروايـات البوليسية أن أسنانها كانت تصطك حين تسمع أختها وهى تقلد أصوات العفاريت.

وأصبحت الفتاة المرعـوبة الخائفة أشهر كـاتبة مرعبة مخيفـة يتسلى قراؤها بلعبة اسمها الخوف.

٨٣

الجاسوسة

ترقص

فى الستينات كنت أحضر اجتماعات كثيرة يترأسها السيد الوزير. وكنت أبادله الاحترام والمودة. وكان قريبا بحكم منصبه من عبدالناصر. ولم يكن الوزير من الضباط الأحرار، لأنه كان شابا ومن الجيل الذى التحق بالثورة بعد سنوات. وكان «السيد الوزير» يبو جادا ومهذبا وبعيدا عن لغة «القشلاقات». وظل فى داخلى دائما شيء من التساؤل الحائر والصامت كلما قابلته عن سر وصوله إلى منصبه الرفيع: هل هى الكفاءة أم المصاهرة؟ فلابد أن شيئا ما فى تاريخه كان يؤهله لمثل هذا الموقع الكبير، ويختفى سرا وراء حديثه الذكى المهذب وشكله الأنيق الوسيم.

وحين حكى لى، من دون قصد، قصة التحاقه بالجيش فى بداية حياته أدركت السبب، أو ماتخيلته السبب، مع أنه روى قصته بطريقة عادية. فقد حكى أنه عند التحاقه بالكلية الحربية قرر الالتحاق بسلاح الفرسان، وصباح الامتحان فى الكلية الحربية لم يكد يمتطى حصانه مثل بقية المتسابقين، حتى هاج الحصان، وقفز عاصيا «حرنانا» ليطرحه على الأرض. ولكن الشاب تشبث باللجام، وكلما انطلق الحصان استمات الشاب بقبضته على اللجام. فظل الحصان يجره على الأرض حتى نهاية السباق. وأحس الشاب أن مستقبله ضاع بعد جفول الحصان ووقوع الفارس على مرأى من المتسابقين ولجنة الامتحان. ولكن المفاجأة أن لجنة الامتحان اختارته بين المقبولين فى سلاح الفرسان. وقال رئيس اللجنة الضابط العجوز.

ـ الفارس الحقيقى هو الذى لا يترك لجامه حتى لو أوقعه حصانه على الأرض.

لقد قررت اللجنة قبولك، وسوف تتعلم بعد ذلك فى الكلية كيف يروض الفارس حصانه الجموح. والمهم الآن هو التأكد من الإرادة المستميتة على امساك الزمام مهما حدث.

واتصل الود بين الوزير وبينى، لأنه كان لا يبارح مكتبه، فمن البيت للمكتب ومن المكتب إلى البيت. وكان كثير الاجتماعات، وكنت أحضر بعضها. وكانت تحضر معنا سيدة تتولى منصبا مهما فى وزارته. وكانت خلاصة للجمال الشرس

والمرأة الحديدية. كان جمالها شركسيا لا يحتاج إلى الكثير من المكياج. وكانت أنيقة فى كلماتها و«مودرن» فى ثيابها. مع شىء من الحياء الطبيعى من دون تصنع. مما يكسبها الوقار. ومما ينسيك بعد دقائق من بداية الاجتماع أنها امرأة.

لكنى اكتشفت بعد اجتماعات متوالية أنها تلتصق بعينيها بالوزير. لا تسقط عنه النظر. ولا تنتقل مع نظراته إلى الحاضرين. وكلما تفرست نظراتها اكتشفت أنها كلما نظرت إلى الوزير تلألأت عيناها بوميض مضىء. وكان واضحا أن الوزير جاد. وأن السيدة جادة. ولكن تلألؤ الضوء فى عينيها ظل يحيرنى. ولم أعد أنظر إلى الوزير ولكن إليها وإلى وميض عينيها. وبعد سنوات لم أكتشف سر الوميض إلا بعد أن قبض على الوزير. واستمرت السيدة فى منصبها. مع العهد الجديد. وأدركت أن سر الوميض لم يكن حبا ولا إخلاصا. ولكنه إعجاب شديد بمنصب الوزير لأنها استمرت بنفس الوميض مع وزير جديد وعهد جديد.

ولم أكن أعرف أن ما يجذب بعض النساء إلى بعض الرجال شىء آخر غير الحب او الإخلاص اوالصداقة. ولكنه شدة الإعجاب والاعتزاز بالقرب من رجال السلطة. ويبدو أن السلطة ومنها الوزارة تضيف رونقا على الرجال لا تدركه أو تحسه مثل المرأة.

ولم أكن أصدق ذلك حتى قابلت صديقا آخر كان وزيرا أيضا فى السودان. وكان انقلاب عسكرى قد وقع. فاستقال الوزير من حزبه المتطرف والمعارض والتحق بالثورة. وأصبح وزيرا. وعندما زرت الخرطوم عام ١٩٧٠. زرته فى بيته. وكان قصرا يطل على النيل. وكان فى الأصل مقر مفتش الرى الانجليزى. وكان الموقع ساحرا. فالخضرة تمتد فدادين. والقصر على النيل. ولا تكاد تدرك ضفة النهر الأخرى من اتساعه. وأمتع النظارات إلى أى نهر حين يتسع عرض النهر وتبتعد الضفتان. فلا ترى الضفة الأخرى. ويبدو النهر بحرا. وامتدت السهرة مع الوزير حتى نسينا أن الليل انتهى وعلينا أن نعود إلى الضفة الأخرى. وكلما انفض فوج من المدعوين ألح الوزير على بالبقاء إلى الدفعة التالية. وحين أوشك الفجر. وقفت آخر دفعة من المدعوين. ولكن الوزير ألح على بقائى. ولم أعرف السبب. واضطررت إلى البقاء حائرا. وعندما انفردنا قال لى الوزير :

ـ فى نفسك سؤال تريد أن تسأله ولكنك لم تفعل. ولم أعرف ماذا يقصد. ففى مثل هذه السهرات التى تمتد بالليل. وفيها مآدب الطعام والكلام. ولايترك الساهرون سؤالا ولا جوابا وينطلق الحديث والمتحدثون حتى ينفد كل شىء تقريبا من الطعام والكلام. ولكن الوزير ألح قائلا :

ـ عندك سؤال بالذات لا تريد أن تسأله .

فأجبته : إذا كنت تعرف السؤال فأرجوك أن تقوله بجوابه :

قال الوزير : تريد أن تسألنى لماذا تركت زملائى فى المعارضة، واستقلت من الحزب، وانضممت إلى الحكومة.

وتهللت للسؤال . فى انتظار الإجابة.

ـ فسألنى الوزير هل تعرف ما هو ألذ شىء فى الدنيا ؟

وتوجهت بالسؤال، وأردت المزاح لأتخلص.

وفاجأته قائلا :

ـ «النسوان» .

فقال الوزير جادا : لا أكثر من النسوان ؟

واستمررت فى المزاح :

ـ إذن «المانجة» .

وليس ألذ من ثمرة المانجو بعد النساء.

فقال الوزير :

ستظل طوال عمرك نقيبا مسكينا تتلقفك الكتب، ولا تعرف ألذ شىء فى الحياة.

وتربصت به منتظرا. فقال :

ـ ألذ ما فى الحياة هو السلطة.

وانطلق الوزير قائلا :

ـ منذ أصبحت وزيرا أصبحت أصحو كل صباح لأكتشف أننى، وياللعجب، متفائل، وكانت الماركسية قد أفسدتني لانها علمتنى أن أصحو كل صباح متشائما.. لأستعد للنقد والسخط. ولكننى بعد أن أصبحت وزيرا اكتشفت متعة أن يفسح لك الآخرون الطريق. وأحيانا يحرص بعض الناس على السلام على باليد. وأتوقع أن يكون لهم مطلب أو حاجة، ولكنى اكتشفت أنهم يريدون مجرد السلام.. لمجرد أننى شخص فى السلطة.

وصبرت على تفسير الوزير حتى يسمح لى بالانصراف، ولكن كلامه هدانى إلى تفسير قصة هذه السيدة الجميلة التى كانت عيناها تتلألآن بالاعجاب كلما تحدث إلينا الوزير، وهدانى أيضا عندما قرأت قصة «ماتا هارى» أشهر جاسوسة فى الحرب العالمية الاولى، وأصبحت أشهر راقصة في باريس، وانتهت قصتها بالاعدام رميا بالرصاص بتهمة الجاسوسية.

كان مفتاح شخصيتها منذ صباها أنها تحب الضباط، قبل أن تهاجر من هولندا إلى باريس، وقبل أن تتزوج ضابطا هولنديا وتسافر معه إلى اندونيسيا،

وقبل أن تنجب منه ثلاثة أبناء بينهم فتاة.

تفتحت عينـاها على حب الضبـاط، ولم يكن حب الوسـامة أو الشجـاعة هـو السبب، ولم يكن لأن الضابط كما يقـولون هـو الموظف الوحيد الـذى يعلق رتبة على كتفيه وفوق صدره بالنجوم والأوسمة. ولكن مـا اجتذب «ماتا هارى» كانت تلك الهالة التى تحيط بأى رجل فى السلطة. وحين وقع نظر الكابتن رودولف ماك لويد على صورتها عـرض عليها الزواج. وكان زوجها يكبرها فى العمـر، وكان زير نساء. وفى سـومطرة تعلمت مـارجريت الرقص الشرقـى. وانفصلت عن زوجها، وعادت إلى بـاريس، بعد فضيحة فى سهرة مـع أحد الأمراء. واختارت مـارجريت اسم «ماتـا هارى» وهو باللغـة الماليزية معنـاه: «عين شمس»، وأصبحت نجمة الملاهى البـاريسية التى أطلقت فيهـا الحرب عنـان الفجور. وأصبحت راقصـة بـاريس الأولى. انتقلت إلى بـرلين، وهنـاك جندتها المخـابـرات الألمانيـة لتصبح العميلة «هــ ٢١». ومن ألمانيا إلى أسبـانيا إلى هولنـدا إلى سويسرا، أصبحت مـاتا هارى راقصـة أوروبا الأولى، ترقص شبه عـارية، وتقلد الكوبـرا التى تتلوى مع الموسيقى.

ولم تنقـذهـا صـلاتها العديـدة مع الضبـاط الفـرنسيين، وفشلت محاولـة تهريبهـا، وليلة إعـدامهـا طلبت السماح لها بـالرقصـة الأخيرة وحـدها. وبعـد محاكمة عسكريـة أطلق عليها الرصاص وماتت أشهر راقصـات أوروبا، وأشهر جواسيس الحرب العـالمية الأولى ونسيها الناس بعد سنـوات حتى جاءت الحرب العالمية الثانيـة وكانت ابنتها «باندا» التى تركتها فى أندونيسيـا بعد مغامرتها مع أحد الأمراء قد أصبحت أيضـا جاسوسة، عملت عميلة مزدوجة لليـابان وأمريكا، وحكم أيضـا عليها بالاعـدام فى اليابان. ولا يذكر أحد فى عـالم الجاسوسات سوى ماتـا هارى، ولا يـذكرون ابنتهـا باندا. لأنها كـانت مجرد جاسـوسة مـزدوجة ومدربة.. ولم تكن ترقص مثل أمها رقصة الثعبان.

٨٤

جاسوسة حسناء

اسمها «القطة»

المئات من قصص الجاسوسات الحسناوات فى الحرب العالمية الثانية تحولت إلى روايات وأفلام سينمائية. والحقيقة فيها أغرب من الخيال. ومن أغرب هذه القصص حكاية تلك الجاسوسة التى كانوا يسمونها : «القطة».

فقد بدأت بالاشتراك فى مقاومة الاحتلال، وانتهت إلى الخيانة، وحكمت عليها المحكمة بالاعدام. ولم تشفع لها أثناء المحاكمة بطولاتها فى المقاومة. وقيل أمام محكمة باريس أنها خانت وطنها. لأنها أحبت رجلا ثم أغواها. وهكذا.. فقدت الجاسوسة الحسناء رأسها قبل وبعد المقصلة.

وهكذا بدأت.. بطلة، وانتهت خائنة.

وكانت الجاسوسة الحسناء، واسمها ميشلين كاريه، أثناء الحرب تعمل مدرسة. وكان زوجها ضابطا يعمل بعيدا عنها فى الجزائر حين اجتاحت الجيوش الألمانية خط ماجينو. وسقطت باريس بسهولة، وأعلنت «مدينة مفتوحة».

ويصف سارتر ذلك السلام الذى تقبله الماريشال بيتان، بطل حرب ١٩١٤، انه كان سلاما يشبه الموت، وكان سلاما بلا مجد. ويصف مهزومى ١٩٤٠ على لسان بطله «ساتير» فى قصته «دروب الحرية» قائلا :

«شاخت الشمس وهى تقول إننا فى الأغلال بسببهم. كان المهزومون متهمين ومحكوما عليهم، وسجناء فى عز النهار، وسط الهواء الذى يرتجف. كان المهزومون عام ١٩٤٠ فى عيون أبنائهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم مهزومين إلى الأبد».

وظلت باريس التى دخلتها قوات الاحتلال «المدينة المفتوحة». ولم تتوقف المسارح أثناء الحرب على الرغم من إطفاء الأنوار أثناء الغارات والبرد الشديد وحظر التجول. وشهدت باريس مسرحية «الملكة ماتت» لمونترلان. و«أحذية الشيطان» لبول كلوديل، وكتب جان مسرحية «انتيجون» وفيها يقول العجوز كريون.

«لابد أن يأتى من يستطيع إنقاذ السفينة. فالماء يتسرب إليها من كل الجوانب، وقد امتلأت عن آخرها بالأكاذيب والجرائم».

ويهمس كريون إلى انتيجون البطلة :

« هل تظنين أن الزمان سوف يمنحنا الفرصة؟ ».

فترد عليه انتيجون :

« لا اريد أن أفهم شيئا.. وهذا فى مصلحتك، فأنا هنا لا أقول لك .. لا . أقول لا، وبعدها الموت ».

وأثناء احتلال باريس قال أغلب المثقفين : لا للنازية. ولم يقبل التعاون مع الألمان غير دريو لاروشيل الذى كان يؤمن بالفاشية قبل الاحتلال، وموريس بارديش الذى كتب تاريخ السينما، وانتحر قبل نهاية الحرب بخمسة شهور. ولكن الروائى البير كامو، رئيس تحرير «كومبا» أو «النضال» السرية، ابتكر هذا الشعار الذى اشتهر :

« إننى أرفض اليأس حتى لو ضاع الأمل ».

وبينما قرر الشاعر أندريه بريتون الهجرة إلى المكسيك، انضم صديقه الحميم الشاعر درنوس إلى المقاومة، ومات فى المعتقل. وكتب بنجامان بيريه «عار الشعراء»، ورد عليه الشعراء كوكتو وايلوار وأراجون بعدد خاص عنوانه : «شرف الكلمة».

وظهرت دار للنشر تحت الاحتلال، واسمها «دار منتصف الليل». وخرجت مجلة اسمها «الشعراء لابسو الخوذات». وكتب سارتر مسرحية «الذباب»، واندريه مالرو «القتال مع الملائكة»، وفرانسوا مورياك «الكراسة السوداء».

ولم يكن أحد يعرف بعد مصير الجنرال ديجول الذى رفض الهزيمة، وطار إلى لندن، وقال شعاره : «خسرت فرنسا معركة ولم تخسر الحرب».

ولم يكن ديجول قد بدأت إذاعته السرية الموجهة بعد. وظل المثقفون يقولون لا للاحتلال بالرمز أحيانا، أو الصمت دائما. وكانت الفتاة الجميلة ميشلين ترفض الهزيمة، ولا تعرف الطريق إلى المقاومة، ولكنها تتقاسم الهزيمة والوجيعة مع الآلاف كما يتقاسم الفقراء ما تبقى من رغيف.

وكتبت ميشلين فى مذكراتها التى عرضها محاموها بعد ذلك أثناء المحاكمة :

«باريس التى كانت قطعة من الجنة أصبحت هى الجحيم، ولا أتصور أن تقع باريس ونهر السين وقبة الأنفاليد تحت وطأة الاحتلال ».

وقررت ميشيلين أن تترك مهنة التدريس وأن تصبح ممرضة وأن تذهب إلى الجنوب فى تولوز للتطوع فى خدمة الجرحى. وفى المستشفى التقت شابا كان متطوعا مثلها، ولفت نظرها أنه يقبل على العمل فى صمت وكان دائما أول القادمين وآخر المنصرفين. واكتشفت بعد يوم مرهق أنه ليس فرنسيا مع أنه يجيد

الفرنسية، وأنه كان فى الأصل ضابطا بولنديا، ثم أسيرا من أسرى الحرب، واستطاع الفرار ثم التسلل إلى باريس ومنها إلى تولوز.

ويكشف لها «أرمان»، ولم يكن هذا اسمه الحقيقى، بعد وقت أنه يعمل ضابط اتصال مع المقاومة، وينظم شبكة للجاسوسية داخل الأرض المحتلة، وينسق بين نشاط المقاومة فى بولندا وفرنسا، وبين أوروبا ولندن حيث اتخذ ديجول مقره الرئيسى.

وقال لها أرمان إنه يحتاج إلى الضباط الفرنسيين الذين هجروا الخدمة وأنه لا يستطيع التجول مثلها ولا أن يظهر فى وضح النهار، ولابد له من العمل والمبيت فى المستشفى خوفا من الجستابو.

وكانت ميشلين تظن فى بداية الاحتلال أن المقاومة مجرد أشباح لا تستطيع اللقاء معهم، فإذا بها تلتقى مع أحد أشباحها، بل ضابطا محترفا وضع الخطط التى وافقت على تنفيذها بكل دقة. وكان عليها أن تتوغل فى الجنوب بالقرب من حدود فرنسا وإسبانيا، أو إلى ساحل الكوت دازور الشهير بملاهيه ونجومه ومستهتريه.

وكان أرمان يبحث عن خبر مهم :

هل قرر هتلر إكمال احتلال النصف الثانى من فرنسا واختراق أسبانيا للوصول إلى جبل طارق ؟

وكان السؤال خطيرا، لأن إغلاق البوغاز يعنى السيطرة تماما على البحر الأبيض المتوسط والتأثير فى المعارك فى شمال أفريقيا وليبيا.. وقناة السويس.

وتسللت «القطة» إلى بوردو ومنها إلى بيارتز.

وأصبح التقاط الأخبار سهلا لفتاة شابة تعلم أنها رائعة الجمال، ولها ذاكرة قوية كانت تساعدها فى مهنة التدريس، وتستطيع الآن أن تخزن تحركات مئات السيارات أو سقطات اللسان إذا دخلت المقاهى والملاهى والبارات التى يغشاها ضباط الاحتلال.

واتسعت الشبكة، ونشطت «القطة» حتى قبض الجستابو عليها بالقرب من محطة الشمال فى باريس. ونقلت من السجن، ومرت فى شوارع باريس السجينة إلى فيللا الممثل المعروف هارى بور التى حولتها سلطات الاحتلال إلى مقر لمنظمة مكافحة الجاسوسية التابعة للقيادة الألمانية العامة، وكان طبيعيا أن تنتظر الموت.

ولو كانت قصة ميشلين كاريه مجرد قصة عادية لانتهت هذه النهاية كما انتهت كل قصص الأسماء المعروفة وغير المعروفة فى المقاومة. ولكن التحول

المذهل فى نهاية قصتها أنها نجت من الإعدام. ولم تتكشف أثناء الحرب نهاية تلك القصة الغريبة، وهى كالعادة أغرب من الخيال. وانكشفت نهاية القصة الأليمة حين قدمتها المقاومة بعد الحرب بتهمة الخيانة العظمى.

فقد انقلبت ميشلين كاريه من البطولة إلى الخيانة، وقبلت خوفا من الإعدام التعاون مع الجستابو .

وحين انعقدت المحاكمة فى باريس بعد الحرب، حشد لها المحامون كل ما قدمته للمقاومة من خدمات، وأهمها الوصول إلى قرار هتلر بعدم الوصول إلى جبل طارق. وحشدت لها النيابة الإدارية كل خدماتها للجستابو بخيانة زملائها.

وكان الجميع يتكلمون : القضاة والمحلفون والنيابة والمحامون، عدا المتهمة .

ولم تستطع أن تفسر للمحلفين سر انقلابها، حتى لو كان الخوف من الموت، وهو خوف عظيم. ولم تستطع أن تقول لهم إنها لم تحضر رواية انتيجون فى باريس، حين قالت انتيجون : «لا وبعدها الموت».

ولم يشفع لها ما قالته : «إن حزنى إلى الأبد».

وحكمت المحكمة على ميشلين كاريه بالاعدام، وقال المحلفون : «فقدت رأسها قبل الاعدام، وسقط رأسها بعده».

ولكن رئيس الجمهورية أصدر حكما بتخفيف العقوبة، وحول الإعدام إلى السجن المؤبد مدى الحياة تقديرا لبطولتها السابقة.

وكان الحكم أيضا : «عقوبة السجن مدى الحياة والحزن المؤبد».

٨٥

عـــــودة الغـــريب

أصبح ألبير كامــو أشـهر أدباء فرنسـا فى الخمسينات، ونال جائزة نوبل، وأصبح أديبـا عالميا. وحتى قبل فوزه بـــــالجائزة الكبرى انتقلت أغلب قصصه إلى العربية، وكانت أشـهرها قصة «الغريب»، وروايـة «الطاعون». وانتقلت كذلك مسرحياته إلى العربية، وأشهرها «العادلون» و «كاليجولا».

وأصبح اسم ألبير كامو يزاحم اسم جان بول سارتر. ورغم اجتماع الشهرة والمجد والمال ظل كامو الكاتب الوحيـد الذى لم يفكر لحظة فى تغيير محل اقامته، حيث ظل يعيش فى غـرفة بسيطة بفنـدق صغير، فى حى سان جيرمـان، بها عدة كتب، وعدد من اللوحات، وبعض الزهور. وكان كـامو الكاتب الوحيد الوفى الذى يكتب رواياتـه ومسرحياتـه واقفا. فقـد ابتكر مكتبـا مرتفعـا يصل إلى مستوى صــدرد واقفا على طـريقـة البنـوك التى تكتب عليها إذا دخلت إلى مكتــب بريـد لارسال برقية » .

وكان كـامو يرى أن أحسن طـريقة صحية للكتابـة هى الكتابة واقفـا. وقد يكون السبب أنه كان فى شبابه بالجزائر رياضيا يحب لعبة كرة القدم، ويلعب فى موقع حـارس المرمى. وكان يعتقد أن الـوقوف للكتـابة أفضل طريقـة صحية. وكان يعتقد أن الالهام لا يأتيه أيضا إلا وهو واقف.. ليكتب ساعات طويلة.

وظل البير كـامو يحتفـظ بأخلاق الـريـاضيين المثاليـة. وكـان لا يبحث فى باريس عن اللذائذ. رغم أن باريس عـاصمة الترف والتلف! فالمطبخ الفرنسى له تفانين وطقـوس، والموضـة البـاريسية لها مـواسم وحفلات وشطحـات، وأثاث البيـوت والقصور لها ابتكـارات وعصـور، وللحـدائق الفرنسيـة تاريخ طـويل بهيج. وفى باريس كل فنون الذوق والمذاق.

ومع ذلك، ظل البير كـامو لا يعبأ بكل هذه الملـذات الحسية، وكـان يسميها «اللذائذ الصغيرة».

وكان يقول :

ــ لم أتصـور فى يوم من الأيـام أننى سأصبح مـالكـا لأى شىء. ومـازلت أتمسك بـالتفاؤل البسيط الـذى يـؤمن به الفقـراء والبسطـاء وصغار النـاس ويساعدهم على مواصلة الحياة .

وكان يقول .

ـــ ان أهم شيء في الدنيا هو الهواء والبحر.. والشمس. والجميع مجانا. ولا اتصور الحياة إلا في غرفة فندق، لأن هذه الغرفة لن تكون ملكي.

نعم. أريد أن اعيش في غرفة ليست ملكي، بل وأن أموت بها .

ولم أعرف أديبا آخر عاش حياته في غرفة صغيرة بأحد الفنادق غير الأديب المصرى الذي يكتب بالفرنسية، وقد تخطى الآن الثمانين. ويعيش أيضا ومنذ اربعين عاما في احد فنادق سان جيرمان. والكاتب اسمه «البير قصيري». وكان أول من كتب قصصا واقعية عن الأحياء والشخصيات الشعبية في القاهرة قبل نجيب محفوظ بسنوات. وكتب رواية «منزل الموت المؤكد» التي كانت سببا في احترافه الكتابة، وكان قصيرى يقيم في القلعة، ثم هاجر إلى باريس في الخمسينات. ولم ينتقل من غرفته الأولى في فندقه الاول منذ وصوله حي سان جيرمان.

والغريب أن صاحب قصة «الغريب» ألبير كامو عاش رياضيا مثاليا ومترفعا عن ملكية أى شيء ثمين سوى الكتب. والغريب أنه مات في عز الشباب وفي حادثة سيارة سريعة، حيث عاش بسيطا ومات سريعا. وتوقفت إذاعات العالم لإذاعة خبر الوفاة المفاجئة للاديب الحائز على جائزة نوبل. وعرف العالم نبأ الحادث عدا أقرب الناس إليه.. وهو أمه! فقد أذيع الخبر ولم تسمعه، ولم تستطع، لأن أذنيها ضعيفتان إلى حد الصمم.

ولم يجرؤ أحد على أن ينقل إليها الخبر المفجع. حتى خابرها شقيقها لوسيان، الذي كان يعيش معها بالجزائر، رغم أن الأديب الكبير ذهب إلى باريس ليبدأ حياته الأدبية والصحفية، وهو لا يفضل الحياة إلا في الفنادق. وكانت الأم تجلس في المساء وحيدة في بيتها الصغير الذي يتكون من دور أرضي وطابق واحد، وله شرفات صغيرة ومدخل متوسط الارتفاع، ويطل على شارع جانبي في مدينة «مندوفي» بالجزائر.

وكانت الأم بسبب أذنيها لا تحس بقدوم أحد من ضيوفها أو وصول شقيقها إلا حين تضيء لمبة صغيرة في الردهة الداخلية التي لا تغادرها إلا نادرا.

وبدلا من أن يرن جرس الباب الخارجي كانت تضاء لمبة حمراء صغيرة في الصالة لتنهض العجوز بجسمها النحيل، وتفتح الباب بنفسها.

وكان شقيقها لوسيان الذي يعيش معها، لا يتكلم. لأنه هو الآخر كان أصم وأبكم، ولا يتكلم على الرغم من قوة بدنه وذكاء عقله وقلبه !

وهذه المرة لم تكد الأم النور مضاء، ولم تكد تهم من جلستها المعتادة حتى

كان شقيقها واقفا وسط الصالة.. فقد عرف الخبر من الجيران بالكتابة .
وخطف منظره قلبها، وكانت قدماه لا تحملانه .
وانفجر لوسيان العريض الضخم في البكاء كالطفل. وبكت شقيقته من الحيرة، وطبعا على حزن شقيقها، قبل أن تعرف منه الحقيقة، وقبل أن تكتشف أن المصاب مصابها، والذى مات هو ابنها.
وحين رآها الجيران ــ بعد ستة شهور ــ تخرج من عزلتها، وتجلس فى البلكونة، وتتفرج على المارة، قالوا :
ـ بدأت المسكينة تفيق من الصدمة »
ولكنها كانت تجلس فى البكلونة. وتسند رأسها على حديدها، ولا تسمع شيئا، ولم تعد تأكل، أو تحس بطعم شىء.. سوى حديد السور فى البلكونة. الذى كان صلبا ومالحا، وهى تضع عليه أسنانها .. من شدة الجزع.
فهى تفكر فى ابنها حين كان رضيعا، ومات أبوه وهو لا يزال فى أحضانها فقد مات فى حرب ١٤، جنديا بسيطا.
وكانت تفكر فيه، وهو صغير.. يتفوق، ويفوز بالمجانية. ويصل للثانوية ويلعب الرياضة. ثم يشترك فى فرق التمثيل ويفوز فى المباريات المدرسية.
والأغرب أنه كان يحب الرياضة، ويحب اللعب مع الآخرين وكان يلعب كرة القدم ولكنه كان يختار دائما مركز «حارس المرمى». فحارس المرمى هو اللاعب الذى يلعب مع الآخرين، ولكنه يقف دائما وحيدا .
وكان البير كامو يسير وحيدا، ويدرس وحيدا، ويقف حتى وهو يلعب «وحيدا».
ويصف الجو الذى تربى فيه، فيقول :
ـ فى هذا البيت، كانوا يعيشون خمسة : الجدة، وابنها، وابنتها، وطفلان.
الابن وهو خاله كان لا يسمع ولا يتكلم .
والبنت وهى أمه، كانت لا تسمع .
والعاملة الوحيدة المستحكمة فى البيت كله كانت جدته لأمه .
ويتذكر البير بعض اللحظات الأليمة فى صباه، حين كانت تأتى إلى البيت زائرات من النساء، وتسأله الجدة هذا السؤال المحرج :
ـ ألبير من الذى تحبه أكثر : جدتك أم أمك ؟
وكان يرد : جدتى !
ولكنه كان يحس بحب غامض يتجه اتجاها آخر نحو أمه .
واستطاع الصبى أن يبتعد عن دائرة عائلته الغريبة، وأحب دراسته وتعلق

بأول مدرس علمــه حروف الهجاء إلى الحد الـذى جعله يهدى إليه الخطـاب الذى ألقاه ـــ بعد أربعين عـامـا ـــ فى احتفال جـائزة نوبل. ولم يستطع كـامو أن يكمل دراسة الأجرجاسيـو ن التى تؤهله للتدريس.. وعرضوا عليـه أن يعمل مدرسا فى مدرسة سيدى أبو العباس بالقرب من مدينة قسطنطينة. ولكن التدريس مرهق. فبـدأ يكتب لنفسـه. ثم التحق بإحــدى الصحف اليـوميـة التى كـانت تصـدر بالفـرنسية، واسمهـا «الجمهوريـة». وأخذ ينشر تحقيقـات صحفية أدبيـة عن الفقراء والقبائل جنـوبى الجزائر، حتى تنبهت إليه السلطات ووضعتـه فى قائمة المشبوهين.

وسافـر إلى باريس ليعمل مع أندريـه مالرو الـروائى والكاتب. ولكن الحرب اشتعلت، واحتل الألمان باريس، وبدأت المقاومة فى صفوف المثقفين. وترأس كامو تحرير «كـومبا» أى الكفاح التى تصـدر سرية لمقاومـة النازية والاحتـلال. وبدأ قصته الأولى «الغريب» وبحثه عن «أسطورة سيزيف».

وفى قصة الغريب أول قصصه، يحكى قصـة شاب اسمه ميرسيلو.. متوسط فى العمر والقامة وفى كل شىء.. يودع أمه التى ماتت فى أحد المستشفيات، ويذهب مع صـديقته التى يحبهـا حبا عابـرا لمشاهـدة فيلم مضحك، ويذهـب إلى البحر للاستحمام، فيقابل صديقا له مغامرات، لايجيد كتابة الرسائل الغرامية، فيرجوه أن يكتب لـه خطـابا. ويفـاجأ ببعض أعـداء صـديقه يهددونـه بسكين. ويأخـذ ميرسيلو من صديقه المسدس الذى يحمله، حتى يجنبه التورط فى حادث سخيف غير مقصود.

ويفترق الصديقـان. ولكن البطل يلتقى من جـديد بأعـداء صديقـه. ويشهر أحدهم عليه سكينا. فيأخذه ذعر مفاجىء، لينطلق المسدس، وأى صدفة سخيفة تنتهى بالبطل إلى المحكمة والحكم بالإعدام.

ويلخص البير كامـو فكرته فى كتابـه الثانى عن أسطورة سيـزيف الأسطورة الإغريقيـة. لأنه يحمل صخـرة كبيرة إلى أعلى قمة الجبل، فإذا أدرك القمـة غلبته الصخرة وخارت قواه لتعود إلى السطح ويبدأ سيزيف من جديد.

ويقول ان لذة الحياة هى فى رفع الصخرة. فليست للحيـاة غاية مؤكدة واحدة سـوى الموت. ولـذة الحيـاة أن يجد الانسـان ويجتهـد ويحيـا مع أنـه يعلم أن الصخرة ستغلبه آخر الأمر... وبكل تأكيد.

والناس جميعا يعلمـون أنهم سيموتون يوما. ومع ذلك يتمسكـون بالحياة، وكأنهم يعيشون أبدا.

٨٦

صوت الخالدين

ما الذى يجعلنى أزور مقبرة، وأنا شاب، وفى باريس؟ وحتى لو كان اسم تلك المقبرة العظماء. فقد كنت أيامها فى الثانية والعشرين أطلب العلم والبهجة فى عز الشباب. وظللت ثلاث سنوات أمر على مبنى البانتيون الضخم، وأعبر ميدانه ولا أفكر مرة واحدة فى دخوله. مع أن المبنى الهائل فى طريقى اليومى من البيت إلى السوربون أو العكس. وظللت أعوام باريس أسكن قريبا من الجامعة فى الضفة الغربية أو اليسرى من نهر السين. وشاع عن اليسرى انها «ضفة الأدباء» لانتشار جامعة السوربون وجوارها الكوليج دى فرانس، ثم مدرسة البولتكنيك ومدرسة الحقوق. ويتوسطها شارع المدارس ثم شارع ديكارت الفيلسوف وزميله مالبرانش ثم ميدان الفيلسوف أوجست كونت. وكنت أيامها أسرع إلى السوربون أو أتسكع حوله . وقد انتشرت مقاهى الشباب، ومازالت فى هذا الحى اللاتينى. ولم تكن قد اصابتنى بعد هواية قراءة المبانى، والتعرف إلى اعمارها وتاريخ حياتها. وكنت شابا وما أمامى أكثر مما ورائى. ولكن العمر كما يبدو يعلم التأنى ومراجعة القديم مع الجديد.

وهكذا اكتشفت أن توزيع الثروة هو الذى فرض على الضفة اليمنى أن تكون ضفة النبلاء. وأن تكون الضفة اليسرى الأدباء أو الحكماء أو العقلاء. وكان هذا التطور طبيعيا لم يفرضه أحد. لأن الضفة اليمنى من نهر السين احتلتها قصور النبلاء حول القصر الملكى الذى أصبح الآن متحف اللوفر. وعلى هذه الضفة بنى النبلاء قصورهم الضخمة بحدائقها الواسعة فى رحاب قصر الملك. وكان من حظ الضفة اليسرى قيام الحى الدينى، لأن أغلب الكنائس قامت عليه، ولأن جامعة السوربون وقد بدأت دينية. قد يفسر لى ذلك سر انتشار اسماء القديسين الكثيرين فى الضفة اليسرى، من حى سان جيرمان دى بريه، قبل أن يصبح جان بول سارتر سبب شهرته، وحى سانت اندرية ديزار، ثم شارع سان جاله الشريان الرئيسى فى الحى اللاتينى الذى يصب فيه شارع المدارس. ويشق سان جاله بالعرض باريس. وكان من قبل طريق الحجاج من كنيسة نوتردام القمة إلى حدود باريس الجنوبية الغربية، لأن الحج كان يتجه فى القرون الوسطى إلى القديس جاله فى اسبانيا. وهكذا كانت الضفة اليسرى دينية.

والضفـة اليمنى دنيويـة. وبين النبلاء والحكماء تـوزع العمران فى بـاريس على ضفتى النهر. فإذا جـاءت التجارة والمال اتجهت بباريس ناحيـة الشمال امتدادا للمنطقة التى احتلتها قصور النبلاء.

وقد ظللت أمر علي «البانتيون» ولا أفكر فى اختراق صمته المطبق. ولا يجذبنى إليه شيء. لأن مبنى آخر على بعد خطوات، ولا يقل روعة كان يجذبنى إليه بشدة. وكان يطل على نفس الميـدان. وجمهوره أكثـر، والحياة فيه أدفأ. لأن مكتبـة سان جنفيين قائمـة بواجهتها القـديمة. وكـان يجذبنى إليها ميزة رائعـة لأنها المكتبة الوحيـدة التى لا تقفل أبوابها إلا فى العـاشرة مساء، وميزة ثـانية كـانت تشعرنى بالأنس فى داخلهـا لأن الواجهـة العريضة معلـق عليها لوحـات رخاميـة باسماء مشاهير الفكـر فى تاريخ الانسانية، ومـع أرسطو وافلاطون وديكـارت كان اسم ابن خلدون والـرازى وابن سينا. فإذا صـعـدت سلالمه الـرخاميـة احسست بعد الأنس بالبهجـة لأن المكتبة زاخـرة بالكتب القـديمة والنـادرة. وزادت الألفة من كثـرة الجلـوس إلى مقـاعد الصـالـة الكبرى. ولكن الألفـة أصبحت قـربى، حين اكتشفت بعد عامين أن طه حسين كان يأتيهـا كل يوم مع زوجته سوزان، وكانت تقرأ عليه وحين اكتشفـوا طالب العلم وزوجته، خصصوالهما غرفـة هـادئة جوار القاعـة الرئيسيـة الشاسعـة، حتى لا تحرص الزوجـة على الهمس عنـد القراءة، خـوفا من ازعاج بقية القراء الذين لايحتاجون إلى عون كما يحتاج الزوج العظيم. وكنت أهنأ أحيانـا حين يقع فى يدى كتاب لكـازانوفـا أو دوزى أو بيرين من الذين ذكرهم طه حسين فى قراءاته الواسعـة، ويبدو أن هذه الألفة المتعددة الأسباب مع المكتبة جعلتنى لا أفكر يوما فى دخول مقبرة العظماء. فكنت أُحيد بخطاى كل يوم عن سـور المقبرة لاتجه عن شوق إلى بـاب المكتبة. فإذا أقبل الشتـاء وكان بـرده منعشا. ومطـره لذيـذا ومغريـا باللهـو حتى لو كـان وابلا، ولكن ليـل الشتاء فى باريس قارص. فإذا اشتقت لشمس القاهرة توجهت إلى حديقة لكسمبورج، وهى مـدينة وسط المدينـة، ونقلـة من حى إلى حى، لأن أحد أبـوابها فى حى المدارس أو الحى اللاتينى، وأحـد أبوابها الغربية ينقلـك إلى مونبارناس، الحى الـذى اشتهر بالفنانين والرسامين، من موديليـانى وسوتين والمثال رودان إلى أوتريللو. وكان حى الفنانين هـو الحى المفضل لتوفيق الحكيـم الذى عشق المسارح والمتـاحف والمعـارض بينما جاور الأزهـرى القديم طـه حسين السـوربون والكـوليج دى فرانس ومكتبة سـان جنيفيين. وبين الحكيم وطه حسين كـانت قسمة عادلة وكان الاختيار له معنى.

وهكذا دخلت وأقمت وعرفت أسرار المبـانى التى تنتشر فى الـحى اللاتينى. ظل

البـانتيو ن مغلقـا على ساكنيـه من الخالدين فى تـاريخ فرنســا. وبقدر زيـارتى الدو ريـة لباريس لم أفكر فى دخولـه إلا هذه المرة. لأن باريس طوال شهـر نوفمبر (تشرين الثـانى) كانت تتحـدث عن البـانتيون وأديب فـرنســا أندريـة مالـرو. والمناسبة انه تقـرر نقل رفاته إلى مقبرة العظماء بعد عشرين عاما مـن وفاته. وقد يكـون من أسباب الضجـة أن الـرئيس جاك شـيراك شـديـد الاخلاص لمبـادىء ديجو ل. وقد كان مـالرو هو الصديق الـوفى للجنرال، وكان وزير إعلامه ثم وزير الثقافـة فى عهده. وكـان أول من أنشأ وزارة للثقافـة بعد أن كـانت السينما تتبع وزارة الصناعة، والمتـاحف تتبع وزارة التعليم. ولم تشهد فرنسا وزيـرا للثقافة مثله حتى استحق لقب وزير ثقافـة فرنسا، لأنه كان روائيا وناقـدا فنيا وله نظرة جديدة للثقافة. انسـانية لا تقتصر على ثقافة أوروبا فقط. ومنذ بداية شبابه عاش فى الصـين وكمبوديا، وتعـرف بدراسته للغات الشرقية على الحضـارات الآسيوية القديمة. وكـان هذا الروائى المجهول جـديدا، لأنه عاش فى الصين عـام ٢٧ أثناء معركة شنغهاى. وكان يحب أن يشهد التـاريخ ساخنا وهو يصنع. ومن هنا كان انضمامه لثـوار الصين فى حربهم ضد الاستعمار. وكان دائم البحث عن مغـامرة حتى يكتبها، ويخلـط فى روايته الواقع بشىء مـن الخيال. ومن الحرب فى الصين، انتقل إلى الحرب فى اسبـانيــا حيث نشبت الحرب الأهليـة. وانضم مــالـرو إلى الجمهـوريين. وبعد أن كـان يبحث عن الحرب، ويتطـوع فيها، لأنــه كان طيــارا جاءته الحرب العالمية الثانية وهجوم ألمانيا على فرنسا ودخول هتلر إلى باريس .. وانضـم مالرو إلى المقـاومة فى مقاطعة الألزاس. وبدأت عـلاقته بالجنرال ديجو ل قبل أن يعرفـه. ولكن علاقته بجان مولان زعيـم المقاومة الفرنسية داخـل فرنسـا كانت قد بدأت منذ حرب اسبانيا. وجـان مولان أحد أبطال المقاومة قتله النازيو ن بعد تعذيب فظيع، ولم يعترف باسراره، وحفظ اسرار وحياة معاونيه .. وقد اسقط جان مولان الذى كان قد انضـم إلى ديجول فى لندن بالباراشوت إلى شمال فرنسا. وأصبح جان مولان بطلا قوميا.

وحين جـاء ديجول إلى الحكم قرر اعـادة دفن جان مـولان فى مقبرة العظماء. وتشاء المصــادفة أن يكـو ن مالرو وزيـر الثقافـة أيام ديجول وأثنـاء الاحتفال باعـادة دفن مولان فى البانتيـون. وان يكون مـالرو هو الخطيب الـوحيد فى حفل اعادة دفن صديقه مولان. وقد كررت شـاشات التليفزيون فى باريس اعادة إذاعة خطاب مالرو، وهو أشهر خطاب ألقاه أديب، حيث لم يجتمع لأديب آخر مثل هذه البلاغـة فى الخطابـة. وصوت مالـرو تراجيدى عـريض يفصح عن شاعـر فنان وجياش ومفعم بالمشـاعر. وقد امتلأت روايـاته بالمشاعـر، لأنه يكتب ما يعيش،

ويعيش ما يكتب. ولا تجد تفسيرا لحياة مالرو العريضة والعميقة فى المخاطر والمغامرة سوى انه مصاب بعقدة الجزع من الموت. وقد يفسر ذلك مغامراته العديدة من صور شبابه يبحث فى الحروب عن قدر الإنسان حين يواجه الموت. ويفسر ذلك أن الموت يلعب فى حياته دورا هائلا يندر لأديب غيره أن يتعرض له. وقد يفسر ذلك تلك القوة الطاغية فى داخله أن يواجه الموت دائما. وأن يظن أن الفنون فى الحضارات الإنسانية القديمة كان دافعها دائما هو وهم الخلود. ومن هنا كان لبه وشغفه الباحث الفاحص لمقارنة الآثار القديمة التى خلفتها حضارة الصين والهند ومصر الفرعونية. ومن هنا كان حرصه على الفوز بعرض آثار توت عنخ امون فى متحف اللوفر، وحماسه حين كان وزيرا، لانقاذ آثار النوبة. ومن يقرأ «مذكراته» التى سماها «اللامذكرات» حين يتحدث عن الآثار المصرية لايجد عالم آثار. ولكن يعثر على عاشق آثار. يمزج ما يراه بما لا يراه ويخلط الواقع بالخيال.

لقد انتحر جده. ثم انتحر أبوه، وأعدم النازيون أخاه، وماتت زوجته الأولى فى حادث، ومات ابنه فى حادث آخر، واستعان مالرو على الموت بالفن. لأن فى الفن «وهم الخلود» واخيرا وصل اندريه مالرو الروائى الطيار والسياسى وناقد الفن إلى مقبرة الخالدين، وأعيد دفنه إلى جوار صديقه جان مولان. وبين الصديقين القديمين.. صمت الخالدين.

٨٧

شمس الشتاء

فى باريس دافئة

قبل رحلتى الأخيرة لباريس أعددت كل شىء بدقة، وحددت أغلب مواعيدى قبل السفر. وكان البرنامج مشحونا بثلاثة لقاءات على الأقل فى اليوم الواحد. وكان على أن أقابل أولا بيير مسمير، رئيس وزراء فرنسا الأسبق وعضو الجمعية الوطنية وقتذاك، لأنه يترأس معهد ومتحف الجنرال ديجول فى باريس. وكانت غايتى ان أعثر على نص الخطاب الذى شكر فيه الجنرال ديجول شعب مصر ورئيس حكومتها حسين باشا سرى عام ١٩٤٢، لأن الحكومة المصرية أيامها سحبت اعترافها بحكومة فيشى التى تعاونت مع قوات هتلر. وكان يترأسها، ويا للعجب، الماريشال بيتان الذى هزم ألمانيا فى حرب ١٤، ولكنه تعاون معها بعد حرب ٣٩ تحت شعار «انقاذ ما يمكن انقاذه». وأيامها، طردت حكومة مصر سفير فيشى وبيتان فى القاهرة. واعترفت مصر بديجول الذى استطاع تكوين ثانى لجنة لفرنسا الحرة فى القاهرة، بعد اللجنة الأولى فى لندن. وبفضل إقامة ديجول فى القاهرة، فى عام ٤١، استطاع إعادة تكوين فيلق فرنسى عاد به للحرب فى صفوف الحلفاء وحارب فى معركة بير حكيم على شواطىء ليبيا.

وهنا المرحلة كانت حاسمة فى تاريخ فرنسا وحياة ديجول. ويصف الجنرال فى مذكراته هذه المرحلة بأنها مرحلة عبور الصحراء. ويعترف أنه لم يبك فى حياته حتى حين هزمت بلاده، لأنه كان يؤمن دائما كما قال: «أن فرنسا خسرت معركة ولم تخسر الحرب»، وعليها أن تواصل المقاومة. ويقول ديجول: ان المرة الوحيدة التى بكى فيها بدموع الفرح كانت حين عادت فرنسا للحرب فى بير حكيم. وحينئذ استطاع ديجول أن يرد على حليفيه الكبيرين لأن الرئيس الأمريكى روزفلت كان يتجاهله بشدة، وتشرشل رئيس وزراء بريطانيا أثناء الحرب، كان يعامله بكبرياء بريطانى شديد البرود.

وكنت أحس دائما من قراءة مذكرات ديجول أن الود الحقيقى والدافىء والدائم بين ديجول ومصر يمتد إلى المصاعب القديمة.

وقد كتبت عام ١٩٧٠، فى «صباح الخير» سلسلة من المقالات عن الحرب العالمية الثانية، وخصصت مقالين عن «ديجول فى القاهرة»، وتحدثت عن محاضرته فى الجامعة الأمريكية بقاعة ايوارت بين أعضاء لجنة فرنسا الحرة

وافتتاحه مدرسة الليسيه الفرنسية فى مصر الجديدة حين تحولت إلى مستشفى لقوات فرنسا الحرة، وقصيدته الشعرية، وقد تكون الوحيدة، التى نشرها فى جريدة البورص، التى كانت تصدر بالفرنسية.

وكان بين أعضاء هذه اللجنة مفكرها جاستون فييت، الذى ترجم المقريزى للفرنسية، وألف كتابين جميلين ورائعين عن مساجد القاهرة، وكان مديرا للمتحف الاسلامى فى باب الخلق عشرين عاما، ويعرفه قراء الأربعينات فى مصر، لأنه ترأس أيضا تحرير مجلة «لاريفى ديكير» أومجلة القاهرة، وكانت تصدر بالفرنسية، ويكتب فيها طه حسين وتوفيق الحكيم ويحيى حقى. ولكن زيارتى هذه المرة لمتحف ديجول وأرشيفه كانت بحثا عن خطاب ديجول لحسين سرى وخطابه للرئيس جمال عبدالناصر بعد حرب ٦٧. وفى هذا الخطاب الذى نشرت منه بعض الفقرات لأول مرة، الدكتورة هدى عبدالناصر، عند اشتراكها فى الندوة الدولية التى أقامتها اليونسكو فى باريس عام ٨٩. يقول ديجول لعبد الناصر: «إن الهزائم العسكرية تحدث دائما. ولكن الأخطر هو فقدان الإرادة فى المقاومة». ولأهمية الخطابين، ودور ديجول، وعقيدته فى الحياة رغم الفارق من الزمان، ما بين عام ٤٢، وعام ٦٧. سعيت إلى شارع سولفرينو حيث متحف ديجول، ويقع فى مواجهة مقر الحزب الاشتراكى الذى شهد فى يوم تولى الرئيس شيراك وانتقال السلطة من ميتران مشهدا تاريخيا لخروج ميتران من قصر الاليزيه وتوديعه لشيراك، ثم ذهاب ميتران فى اليوم الأخير لحياته العامة إلى مقر الحزب الاشتراكى فى نفس الشارع: سولفرينو. ويقع هذا الشارع بالقرب من نهر السين، وخلف أشهر متحف بعد اللوفر وهو متحف دورساى، وفيه أروع لوحات الرسامين التأثيريين، من مانيه إلى ديجا وتولوز لوتريك، وفيه بعض لوحات اميل برنار الذى عاش فى مصر عشرة أعوام، وكان صديقا حميما لجوجان، وعاش بين طنطا والقاهرة، وبعض لوحاته فى أكبر متاحف باريس. والعجيب أنه كان أيضا شاعرا، وأسس مجلة بالفرنسية فى مصر اسمها «بارناس الشرق». ولما كنت مطمئنا إلى وجود لوحات اميل برنار فقد هرولت إلى متحف ديجول محافظا بالدقيقة والثانية على موعدى مع بيير مسمير، لأنه عدل الموعد من الثالثة والربع بعد الظهر، إلى الرابعة تماما. وكانت غايتى العثور على الخطابين ومقابلة مسمير. ونسيت آلام النقرس التى داهمتنى حتى قبل وصولى إلى باريس. فلا بديل إلى تعديل البرنامج أو حتى التقاط الأنفاس بين اللقاءات، وكنت قد سافرت لأول مرة إلى باريس هذه المرة ومعى عصا أتوكأ عليها، لأننى أعرف مقدما أن أغلب متاحف ومكتبات باريس فى بيوت أو قصور قديمة عريقة لم تعرف المصاعد الكهربائية.

واستعنت بالعزم أكثر من العصا لأصعد إلى بيير مسمير، وكان يبدو شابا فى الثمانين، اكسبته السن بعض السمنة. وبدا لى فى قامة سعد زغلول. وكعادة الساسة الفرنسيين القدماء كان حريصا على صياغة كلماته فى عبارات ادبية بليغة، كأنه يحدثنى ويحدث التاريخ.

ولم يكد يجلس إلى مكتبه، ويجلس سفير مصر فى باريس على ماهر السيد الذى أبدى شغفا بمتابعة قصة ديجول فى مصر وديجول مع مصر، ولم أكد أريح قدمى وأزيح العصا منتبها لما يقوله رئيس وزراء فرنسا الأسبق بيير مسمير حتى كانت المفاجأة.

قال مسمير فى لهجة مليئة بتأكيد التواضع .

ـ أنا الآن على المقعد الذى جلس عليه ديجول عدة سنوات، لأن هذه الغرفة كانت غرفته.

وقال : وقبلى كان اندريه مالرو .

ولم ينتظر السفير اليقظ لحظة ولم أستطع كذلك الانتظار، لأننا تجولنا بعيوننا فى الغرفة من السقف إلى الجدران، ومن المكتب الذى نجلس إليه، إلى النوافذ التى تطل على شارع سولفرينو. وفى لحظة التقطنا الألوان الخشبية البنية الغامقة التى تكشف عن شخصية ديجول .

لقد حافظ ديجول على ميزته الأولى، وهى التقشف العسكرى. وبعد جولة بالنظرات اكتشفنا انه لا توجد على الجدران أية لوحة فنية. مع أن باريس وأهلها شغوفون بالفن، ولا يكاد يخلو جدار فى بيت من لوحة فنان كبير.

ومددت البصر إلى مكتب الجنرال بيننا، فوجدتهم حافظوا عليه بحالته القديمة، وقد علته سحجات مكحوتة وخطوط غائرة، مما يدل على كثرة مرور الأوراق وعرضها ثم سحبها.

وقال مسمير فجأة :

ـ كل شىء كما كان، والشىء الوحيد الجديد هو آلة التليفون، واشار إلى جهاز التليفون العقيقى اللون، بما يتناسب مع الجدران المغطاة بالخشب البنى. وأدار رقمين، واستدعى مساعده الجنرال السابق فى الجيش، وهو عضو فى إدارة المتحف، وشابا من أصل تركى لأن اسمه بابا زوغلو. ثم وقف رئيس الوزراء الأسبق، وكأنه يخطب فينا، بلغة أدبية رفيعة وبليغة، لأن عليه أن يلحق بعد عشر دقائق بالجمعية الوطنية، وقال مسمير :

ـ وهى ليست بعيدة على أية حال .

وعيب هذه البيوت القديمة العريقة التى تحتل قلب باريس القديمة انها لم

تعرف المصعد، وسلالمها الرئيسيـة عالية، والفرعية كثيرة. وكان على أن أهبط إلى المكتبـة المفتوحـة للجمهور. ثم أصعـد الســلالم الخلفية إلى الأدوار العليـا حيث أرشيف الصور، وهنـاك كانت المفاجأة الثـانية، لأن الجنرال كورسيس المتقـاعد كان فى الجيش الـذى حارب فى بير حكيم، وعاش فى القـاهرة فى امبابة بـالقرب من ملهى الكيت كات. ومن ذكرياته انه انضم إلى فرنسا الحرة وهو لايعرف ديجول، وكـان يظن فى البـداية ان اسم ديجول هـو اسمــه الحركى السرى، وليس اسمــه الحقيقى.

وبين الصــور والخطـابـات نسيت الموعـد الـرسمى لإغـلاق متحف ديجول ونسيت النقرس والعصـا. وبعد ساعة من الســادسة موعد الاغـلاق، خرجت إلى الشارع، وكـان فى المفاجأة الأخيرة بعض العـزاء، لأن شمس باريس هـذا الشتاء كانت دافئة.

٨٨

صديقى العبقرى

كانت مفاجأة، حين قابلنى بيير مسمير رئيس وزراء فرنسا الأسبق، ورئيس معهد ومتحف ديجول فى باريس. فقد تعدل الموعد معه ثلاثة أرباع الساعة من الثالثة والربع إلى الرابعة بعد الظهر. ووجدت الفاكس الذى يحمل تعديل الموعد فى الفندق. وكان على الانتقال من حى باسى الهادىء البعيد إلى قلب باريس الصاخب حيث شارع سولفرينو خلف متحف دورساى الشهير بلوحاته الرائعة والقريب من الخارجية. وشارع سولفرينو مشهور بسبب ديجول، ومشهور أيضا لأن فيه مقر الحزب الاشتراكى، وقد آثر الرئيس السابق فرانسوا ميتران حين ودع رئاسته الثانية أن ينتقل من مقر الرئاسة إلى مقر الحزب حيث تجمع المخلصون ويقع متحف ومعهد ديجول فى مواجهة مقر الحزب الاشتراكى. وفى متحف ديجول كل ما كتبه الجنرال، وكل ما كتب عنه ويصدرون مجلة «الأمل» الشهرية، وفيه مكتبة حافلة، وصور نادرة، وإذاعات وخطب الجنرال .

ولكن المفاجأة زادت، حين صعدت إلى بيير مسمير فى الدور الأول فى غرفة عالية الجدران، تطل نوافذها على ضباب باريس. وزادت المفاجأة حين قال له بيير مسمير بشىء من زهو الشباب، مع أنه جاوز الثمانين، ويبدو فى الستين :

ـ هنا عاش الجنرال فى هذه الغرفة عدة سنوات .

وتلتها مفاجأة أخرى، حين اقتضب جملة قصيرة، مضيفا

.. وعاش فيها بعده أندريه مالرو أيضا.

والمفاجأة لم تكن فقط فى بساطة الغرفة الواسعة التى تنطق بملامح التقشف فى شخصية ديجول. ولكن المفاجأة الأكبر أن أعظم ذواقة للفن، وأول وزير ثقافة فى فرنسا، أندريه مالرو، لم يضف شيئا واحدا إلى غرفة ديجول. وكانت دهشتى أنه لا توجد لوحة فنية واحدة. وكان واضحا أنهم اتفقوا على الحفاظ على كل شىء أيام الجنرال.

وقد امتدت العلاقة الحميمة بين الجنرال والمثقف، أو بين ديجول ومالرو منذ أيام الحرب، وتحرير باريس، حتى أصبح مالرو وزير إعلام، ثم أنشأ أول وزارة للثقافة فى عهده. وكان ديجول يطلق على مالرو «صديقى العبقرى».

وقال لى جورج جورس، الوزير الفرنسى الأسبق، وقد تعدى الثمانين أيضا، وصحب ديجول فى القاهرة عامى ٤١ و١٩٤٢ ، وزوج شقيقة ادجار جلاد الذى

كان يترأس صحيفة «الجورنال ديجبت» أيام الحرب العالمية الثانية، أن أنصار فرنسا الحرة فى أنحاء العالم كانوا يظنون أن «ديجول» هو الاسم الحركى للجنرال. فلم يلتقوه. ولكنهم انضموا إلى فرنسا الحرة حين أعلن ديجول بعد الهزيمة وسقوط باريس: «إن فرنسا خسرت معركة، ولم تخسر الحرب».

وكذلك أندرية مالرو، الطيار، الذى تخرج من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس، والذى غامر فى بداية حياته الشابة بالذهاب إلى الشرق الأقصى، لم يلتق ديجول إلا بعد سنوات من انضمامه للمقاومة. وقبض عليه الألمان واستطاع الفرار مرتين ولم يشهد الأدب الفرنسى شخصية تبحث عن المغامرات مثل أندريه مالرو. وقد بدأ حياته بالتطوع فى الهند الصينية. ثم تطوع فى حرب أسبانيا مع اليسار ضد الفاشية. وشهدت هذه الحرب مغامرين آخرين هما همنجواى الأديب الأمريكى، و إيليا اهربنورج الأديب السوفيتى. وكان مالرو الشاب يؤمن بشعار نيتشه الفيلسوف الألمانى: «عش فى خطر» وأن الحياة لا تصبح لها قيمة ما لم تكن تحديا للموت. ويحاول بعض النقاد تفسير أسرار ولع مالرو بالتطوع فى المقاومة، أو قيادته لطائرة صغيرة فى حرب إسبانيا، أو طائرة أصغر للطيران فوق الربع الخالى فى الصحراء العربية، ليكشف آثار مملكة سبأ. إنه لم يكن يحس بالراحة ما لم يواجه الموت. وفى حياته تجارب تشبه الأساطير، ومنها أن الذين اعتقلوه من الألمان مثلوا عليه تمثيلية الحكم بالاعدام لادخال الرعب إلى قلبه. ولم يكن الحكم بإعدامه سوى تمثيلية. ويقول إنه خاض نفس التجربة التى مر بها الأديب الروسى دوستويفسكى حين حكم عليه بالاعدام فعلا، ثم صدر أمر مفاجىء بالعفو عنه. وكانت مواجهته للاعدام سببا فى عمق فهمه لمعنى الحياة.

ومن هذه التجارب العنيفة فى مواجهة الخطر، والالتقاء مع الموت، كتب أندريه مالرو أروع رواياته: «الغزاة» ـ ١٩٢٨، والطريق الملكى عام ١٩٣٠، وقدر الإنسان ١٩٣٣. وحازت على جائزة جونكور، ووقت الاحتقار ١٩٣٥، ثم رواية الأمل عام ١٩٣٧. وهكذا تأهل مالرو فى حروب الشروق الأقصى، ثم حرب إسبانيا للقائه مع ديجول الذى أعلن استمرار المقاومة حتى بعد سقوط باريس فى أيدى الألمان، وكان اللقاء حتميا بين الأديب والجنرال. ولكن مالرو لم يكن عقلية عسكرية، لأن دراساته السابقة للغات الشرقية، وتعرفه إلى الحضارات الأخرى غير الحضارة الأوروبية، جعلته أكبر ناقد ومؤرخ لفنون النحت والرسم، وكان يعتقد أن الانسان هو «الحيوان» الوحيد الذى يعرف أنه سيموت. ولذلك يلجأ الإنسان إلى العناد، لأنه الانتصار الوحيد الذى يستطيعه الإنسان مدعيا الخلود فى مواجهة الموت. ولا أحد حتى الآن يستطيع أن يفسر حب مالرو للمخاطرة بمواجهة الموت، وهل كان السبب الوحيد أو الدافع الأول أن أباه انتحر،

وكذلك جده. ولكن المؤكد أن حياة أندرية مالرو العريضة والعميقة حققت شعار «عش فى خطر» وتحققت بشغفه الشديد بكل حضارات العالم وفنونه من أقصى الشرق إلى الفراعنة، وتوسعه فى المقارنات بين فنون وتماثيل معابد الخمير، وعلاقته الوثيقة بفنون الفراعنة. لأنه شارك بعد ذلك بحماس شديد فى انقاذ آثار النوبة. وقد ساعدته هذه الحياة المغامرة على إجادة الكتابة وعمق التحليل، ودراساته المبكرة للغات الشرقية ليكشف أن الفنون الأدبية ليست كل شىء فى تاريخ الفن. فهناك حضارات أخرى تمتد آثارها الخالدة فى أنحاء العالم بعيدا عن أوروبا.

وتحتفل فرنسا الآن باسبوع أندرية مالرو، بعد أيام، وعلى طريقتها الخاصة تحتفل بنقل رفاق مالرو بعد عشرين عاما من وفاته إلى البانيتون أو مقبرة العظماء. والبانيتون مبنى هائل اقامته الثورة الكبرى عام ١٧٩١، ليجمع رفات العظماء من الأدباء والمفكرين. وفيه رفات مارا، وميرابو خطيب الثورة، والفيلسوف فولتير، والمفكر جان جاك روسو، وطبعا فيكتور هوجو. وبعد عودة ديجول للحكم أعاد مجد البانيتون بنقل رفات جان مولان رئيس المقاومة داخل فرنسا أيام الحرب. وقد اثر ديجول لنفسه أن يدفن فى قريته بعيدا عن مقبرة العظماء، وأوصى بدفنه فى كولومب ذات الكنيستين. وفى عام ١٩٦٤، حين أعيد دفن رفات جان مولان، كان الخطيب الأول فى الحفل المهيب، هو أندرية مالرو، وعلي طريقته الدرامية قال مالرو وكأنه يخاطب جان مولان:

ـ تقدم يامولان إلى مثوى الخالدين.

وقد انضم الرئيس ميتران الاشتراكى، وخصم ديجول القديم إلى نفس الفكرة، فأعاد نقل رفات رينية كاسان القاضى الذى وضع مشروع إعلان ميثاق حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة.. وبعده بسنوات، انضم رفات الزوجين بيير ومارى كورى مكتشفى الراديوم.

كما انتقل رفات مالرو إلى البانيتون. وقد تركت باريس وهم يحتفلون على طريقتهم بخريف مالرو بالإعلانات المنتشرة فى ٢٠٠ مدينة فرنسية وبالندوات التى يشترك فيها الذين كتبوا عن مالرو وقراءة نصوص من كتاباته فى محطة المترو «أوبير» وحتى داخل عربات المترو، وجدت جملا مطبوعة من مالرو، ثم ندوات دولية تشترك فيها جامعة السوربون مع اليونسكو.

وقبل دقائق من دخول الدائرة الجمركية فى مطار أورلى، عرجت على مكتبة لشراء صحيفة «الموند». ووجدت كتاب الصديق أمين معلوف «صخرة طانيوس»، وقد حاز على جائزة جونكور، فاشتريت الكتاب. وكانت المفاجأة أن البائعة الجميلة اعطتنى كتابا «فوق البيعة». وإذا به هدية مجانا من تأليف أندرية مالرو يوزعونه هدية مع أى كتاب تشتريه.

٨٩

القاهرة حبيبتى

لو بدأت حسابها بالفاطمية لحسبت من عمرها ماتجاوز الألف عام. ولو حسبتها من الفسطاط والفتوحات والعسكر والطولونية لزادت هذه الألف عدة مئات. ولو أوغلت فى الزمان دون ان تترك المكان لوجدت ان هذا الموضع بالذات ومن حوله ومن قربه، قامت أيضا عواصم مصر الأخري الموغلة فى القدم. فهناك كانت «منف» القديمة ناحية الغرب، وكانت عين شمس أو «أون» فى أقصى الشمال.

وخلاصة هذه الألف، ومن قبلها عدة آلاف ان التاريخ حط رحاله آخر الأمر عند هذا الموقع المتفرد الذى تقوم عليه القاهرة الآن.

وكأن الزمان هو الذى اقترح المكان قبل ان تضرب فيه أول خيمة أو يوضع عليه أول حجر للبناء.

ولم يكن هذا القرار صدفة. ولكن كان حكمة. فقد حدد لقاء الجبل بالنهر وعنق الدلتا «المجال المغناطيسى» الأقوى للموقع الأمثل. عند ملتقى الوادى بالفرعين وفى خاصرة النهر وعند لقاء الصحراوين من الشرق والغرب.

وهكذا سقطت الدعاوي العارضة والأسباب المؤقتة لقيام عاصمة مصر فى اقصى جنوب الوادى فى «طيبة» عند مولد الدولة أو ان تصبح العاصمة فى (الاسكندرية» عاصمة ثانية على البحر، اغريقية هيلينية رومانية قريبة من اثينا وروما. أو ان تكون فى «افاريس» الهكسوسية المتربعة على اقصى حافة شرقى الدلتا.

وبهذا الموقع النهائى عند ملتقى الوادى بفرعى النيل وعند لقاء الصحراوين استقر المكان لتبدأ فيه المكانة.

وترادف اسم (القاهرة) حبيبتى مع اسم (مصر) فى تاريخ الأولين ثم احاديث المعاصرين وحواديت أولاد البلد.

ولم تكن صدفة بل كانت حكمة فى لقاء النهر مع الدلتا مع «الجبل» أو التل. لأن القاهريين يحبون المبالغات ويطلقون «الجبل» على تل المقطم. ثم يطلقون على نهر النيل اسم «البحر» كما ينطلقون ويبالغون فى وصف «الذبابة» أو «الدبانة» بأنها «طيرة».

ولكن ترادف اسم (مصر) و(القـاهرة) لم يكن مبالغة أدب أو شطحـة خيال . لأن القاهـرة ظلت عـاصمة الفيـة للدولة المركـزية دائما بما يستلـزمه النهـر من تنظيم وادارة . واصبحت (القاهرة) هي (مصر) واصبـحت القـاهرة عبر الف عام عدة عواصم متلاحقة في الزمان . ثم متلاحقة في المكان .

وماجت تلك العـاصمة كما يموج النهـر نفسه. وصـاحبت حركة القـاهرة في المكان حـركة الزمان قبل تحول مجرى النهـر ذاته صوب الغـرب. وانتقل كذلك عنق الـدلتا نفسـه مـن شدة العنفـوان ومر السنين صوب الشمـال . ومـن يصدق الآن أن نـهر النيل كان يجري دافقـا ايام زمان في المكان الذي يقـع فيه الآن شارع عماد الدين وسـط القاهرة.

لم يهدأ هـذا الفـوران الـدوري إلا بضبط ايقـاع النهـر بين الفيض السنـوي الكريم الجـامع، والفيض غير المأمول في بعض السنين. وبين الفيض والفيض ظل الطمي هدية كل عام ليرسب على الأرض الواطئة على ضفة النيل الشرقية من مصر القديمة حتى ميدان الأزهار مما اتاح للقاهرة مساحة أوسع ومزيدا من العمران.

وقد واكبت حركة النهر نحو الغرب تحرك العمران في اتجاه الشمال دائما لأن الجبل في موقعه من النهر كان يميل نحو النهر في الجنوب حتى يكاد يلتقيه، وكان يميل صـوب الشمال ويتسع ممـا أوحـى لحركـة العمـران ان تهجـر الضيق الى الانفراج لينجذب العمران حتما من الجنوب نحو الشمـال .

وهكذا اصبحت القـاهرة في رحلتها الألفيـة من الجنوب الى الشمال واصبحت العاصمة عدة مدن متلاحقة ثم متـلاصقة لتصبح صـورة مصغرة لمروحة الدلتا نفسـها. وكـان حتما ان تتجه القـاهرة بعيـدا عن النهر قـريبا من الجبل، فقـامت «الطولونية» فوق جبل بني يشكر المرتفع، و«الفـاطمية» بعدها ابتعدت عن النهر وقامت اقـرب الى احضان الجبل، ثم جاءت «الأيـوبية» لتؤكد نفس القـاعدة بأن استقرت فوق الجبل نفسه بإنشاء «قلعة الجبل» .

ويكشف شيخنا المؤرخ المقـريزي منـذ القرن السـادس عشر عن علم البيئة المبكر في فن اختيـار المكان للسكن والعمـران، باشـارته الى الفن العربـي القديم بسلخ الخراف عن جلـودها، وتعريض لحمهـا للهواء لاختيـار صلاحيـة المكان للعمـران واختيـار المكان الأصلـح. فماذا فسد اللحم بسرعـة تأكـد أن المكـان لا يصلح. وقد كان النيل قبل ضبط ايقاعه نهرا فوارا في الصيف دائما يغمر فيضانه الجـامح الأراضي الواطئة حتى يصل الى بركـة الفيل في الحلمية في الشرق، وبركة الأزبكية في الشمال، وبركة الرطل في اقصى الشمال، وكانت الرطوبة تفسد الهواء قريبا من النهر، ولهذا كان الاتجاه صوب الشمال في حضن الجبل أو فوقه .

ويصف مؤرخنا المقريزى يوم السبت ٢٤ مارس (آذار) ١٠٠٥م ـ أى منذ ما يقرب من الف عـام ـ افتتـاح دار الحكمة فى القاهـرة ايام الحاكم بأمـر الله قائلا : «وحصل فى هذه الـدار من الكتب التى امر بحملها اليها من سـائر العلوم والآداب والخطوط المنسـوبة مـا لم ير مثله مجتمعـا لأحد قط من الملـوك. ويصف ايضا المكتبة التـى اقامها الخلفـاء فى القصر الكبير فى شارع بين القصريـن فى الجمالية: «وكـانت تلك المكتبة تتكـون من اربعين غرفـة، ويمكن اعتبارهـا احدى عجـائب الدنيا». ولا تكتمل الخريطـة الثقافية للقاهرة الفاطمية إلا بـالمرصد الفلكى الذي كان قائما على المقطم وقام فيه ابن يـونس امهر الفلكيين وأول من اكتشف نظرية فى حساب المثلثات الكروية. افادت الفلكيين قبل اكتشاف عالم اللوغاريتمات. وقد اقام ابن يونس فى مرصده وسجل نتائجه فى «الجداول الحاكمية».

ولكن اعجب ما حدث فى القـاهرة منذ ألف عام كاملـة أى فى عام ١٩٩٦ زيارة العـالم العـربى ابن الهيثم وهـومترجم اقليـدس ، ورائد البصريـات حين دعـاه الحاكم بأمر الله. ويخرج الخليفة للقاء العالم المهندس خارج سور القاهرة زيادة فى تكريم ضيفـه. وقد سمع الخليفـة ان العالم يقـول : «لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يحصل بـه النفع فى كل حالة من حـالاته، اى فى السيطرة على تصريف مياه الفيضان » .

وقد ذهب ابن الهيثم الى اسوان وحدد موقع السد الذى كان يرى ان بناءه حل لمشكلـة الارتفاع والانخفـاض بين فيضان وآخـر. ولكن المشروع لم يتحقق. وان كان فضل هـذا العالم فى سبق الفكـرة وتحديد المكـان لاقامـة السدود على النيل لضبط الارتفـاع والانخفـاض .وقـد سبق ابن الهيثم فى الفكـرة وتحديـد المكـان سكوت مونكريف ودايتوس بأكثر من تسعمائة عام .

ومن يقرأ الآن أى كتاب عن تـاريخ العلوم عند العرب من جـورج سارتون الى مصطفى نظيف الى عبـد الحميـد صبرة، يجد اسم ابـن الهيثم كأكبر عـالم فى البصريـات . ومن يقـرأ كتب التـاريخ عن عصر الحاكم بأمـر الله سـوف يـدهش للخلاف الشديد بين المؤرخين حول حياتـه واضطراب مواقفه .ويدهش اكثر من انجازاتـه العلمية من المكتبة الى المرصـد الى قبول فكـرة تنظيم النيل، بينما كانت المجـاعات تجتـاح مصر لنقص المياه والجفـاف، وسـوف يذهل ان امـرأة ملكت مصير الحاكم ثم تآمرت عليه، وقيل انها تآمرت على قتله . والمذهل انها كانت اخته وكان اسمها سيدة الملك وقيل انها ابعدتـه لتنقذ مصير الفاطميين. وهكذا شهدت القاهرة أول مؤامرة دامية بين الحاكم وست الملك.. وبين الأخ واخته .

٩٠

فن قراءة العمارة

أصبحت قارئا محترفا وكاتبا هاويا. لأن متعتى بالقراءة تفوق لذتى فى الكتابة. وقد يكون السبب أن لى ذاكرة بصرية قوية تفوق ذاكرتى السمعية. فقد تتسرب منى الكلمات التى أسمعها. ولكن ما أراه من الصور والكلمات يصبح نوعا من النحت المنقوش فى ذاكرتى حتى أصبحت لا أنسى وجها جميلا رأيته، أو مكانا زرته. وقد لا تضيع أدق التفاصيل على مر السنين.

وقد يكون ذلك لأننى هويت الرسم صبيا. وقد يكون السبب أيضا أن مدرس الرسم فى الابتدائية كان لطيفا وصديقا وكان أقل المدرسين كلاما، وأكثرهم انهماكا بالخطوط والألوان. وكانت أول جائزة مدرسية حصلت عليها فى الصبا فى مادة الرسم. وفاقت فى ذاكرتى الصغيرة حينذاك الاعتزاز والزهو الذى أصابنى وقتها، كثيرا من الأوسمة أو النياشين التى حصلت عليها بعد ذلك بسنوات عديدة طويلة.

وقد تعلقت بعد مدرس الرسم بمدرس الجغرافيا. وشاقنى أن مادة الجغرافيا فيها رسم الخرائط بالألوان. وتحديد الموضع والموقع، وحديث سحرى عن المكان، فى عالم البحار والجبال والصحراء والغابات. ومع أننى أعشق الشعر، لأن الشعر فى رأيى هو خلاصة الفن وفن الخلاصة. وفى الشعر متعة أخرى هى روعة الموسيقى وحركة اللفظ ووقع الجرس، لكننى اكتشفت أننى فى حفظ الشعر أضعف. وأدركت أن عينى أقوى من أذنى. وعزائى أننى أحسست أن الموسيقى لا تقتصر على الكلمات فقط. ففى الشعر لونان من الموسيقى: الأولى منطوقة ومسموعة والثانية مهموسة خفية.

وقد تكون الموسيقى الخفية هى سر السحر فى الشعر. لأن القرب أو البعد بين الكلمات لا يكون بالايقاع وحده ولا بالوزن فقط. وقد تكون الموسيقى خفية مهموسة بين الحروف، وبالوقع والجرس. وقادنى السمع إلى أن بعض الأصوات ذكية وبعض الأصوات قد تكون غبية. وقد يكون الصوت جميلا ولكنه صوت غبى لا يعبر.

وهدانى طه حسين إلى موسيقى الكلمات حتى فى النثر. وكان طه حسين أروع من فرز ألوان الأصوات. وأجمل الأصوات التى وصفها طه حسين بروعة

مذهلة، حين وصف صوتا نسائيا اتصل بسمعه فقال عنه :

«كان صوتها يشبه مس الحرير على الحرير» .

وقد توزعت قارئا بين السمع والبصر. ولكن أذنى كانت تخوننى كثيرا، وعينى كانت تفوز دائما. فما أن أقرأ كتابا حتى تتسمر عيناى على بعض الكلمات فى مكانها. وأتذكر حتى الصفحة: على اليمين أو الشمال، فوق أو تحت، فى المتن أو على الهامش. وقد استبدت بى بعد ذلك ذاكرتى البصرية حتى أصبحت أحس أحيانا أن عينى جائعة. تجوع للقراءة أو للرؤية ولامتلاء. وساعدتنى مهنة الصحافة ودفعتنى إلى السفر. وهو نوع آخر من القراءة. لأنك فى السفر تقرأ الوجوه والبشر وتقرأ العمارة والمبانى والشوارع والمقاهى والمتاحف. وكما أن القراءة نوع من السفر بين السطور، فالانتقال من مكان إلى مكان قراءة أخرى للناس والأحداث.

وهكذا كانت عينى دائما تسبق قدمى. وقد تعلمت منذ الصبا هواية أو فن التسكع بين الحوارى والشوارع ووسط المبانى والعمارات. وبدأت أول دروس هذا الفن بالمشى فى شوارع القاهرة لأننى قاهرى المولد والمزاج. وكان السفر أول درس فى قراءة المبانى، واكتشاف أخبارها وأسرارها ،وهويت دراسة العمارة وتاريخها وأنواعها واكتشفت أن ماتراه الآن، وراءه أحداث قد يطويها الزمان. ولكن الزمان حتى حين ينطوى يترك ظلاله على المكان. ولهذا عشقت قراءة العمارة. وشغفت بالمساجد والأسبلة والأسواق القديمة فى القاهرة الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية. وكرهت حتما غابات الأسمنت المسلح الذى تتشابه فيها العمارة. وأدركت أن القاهرة الإسلامية متحف فى الهواء الطلق. تنوعت فيه القباب والمآذن من كل طرز وفن. وقلما مررت الآن على مسجد دون أن يهجم على ذاكرتى ما قرأته عنه فى تاريخ قديم أو حديث .

وعزانى كثيرا أن اكتشف أن ماضاع من ذاكرتى السمعية تعوضه ذاكرتى البصرية، لأننى اكتشفت أن العمارة أيضا فيها ألحان الموسيقى، وقد برع المهندسون الأوائل فى تلحين الخطوط والمساحات والأحجام، لأن التكرار والانسجام والتوافق يوحى أيضا بالموسيقى. وقد تجنب الفنان الإسلامى فكرة التشخيص، أى تصوير الصورة، ولكنه استعان بالتجريد للتعبير. وتميز الرسم الإسلامى بفن التوريق والتوازى والتوازن بين المساحات الجميلة. وغاص الفنان فى عالم الألوان، وفى الألوان ألحان. لأن الموسيقى لها سلم موسيقى وكذلك الألوان لها سلم يعلو ويهبط كما تعلو وتهبط الأصوات. وبين الألف والياء يصعد اللون بين الأخضر والأحمر، وبين الأصفر والبنفسجى. واللون يلعب نفس الدور

الذى يلعبه الصوت. وقد كتب ابن سينا دراسة عميقة عن الألوان. وكذلك ابن عربى. كما كتب الرسام دافنشى عن اللون، وأعقبه الشاعر الألمانى جوته والعالم نيوتن. فاللون معنى ومغزى ورمز. وهو يشف وينطق. وهو يثير ويستثير. وفى الأساطير القديمة أن الزمرد يفقأ عين الأفعى لأنه أخضر. ويلعب الأخضر دورا خطيرا فى حياتنا القديمة والجديدة. ومن هنا كانت هجرة الشمال إلى موارد الأنهار من الصحراوات فى الجنوب. والمتنبى يقول:

«لبست ثوب العيش الأخضر» أى السعيد البهيج. وقد وصف يونس فاطمة الزهراء كريمة النبى عليه الصلاة والسلام، أنها تلبس بردة خضراء لتتشفع للمؤمنين. وعند البعض الثوب الأخضر من ثياب الجنة، لأن الأخضر لون الأتقياء. وحتى عند الاغريق أيضا تلبس أفروديت ملكة الجمال الأخضر المزهرة.

وقراءة العمارة الإسلامية فى القاهرة لا تكفى فيها قراءة التاريخ، ولا يكفى فيها الرؤية بالبصر والعين. فليس يكفى أن ترى الارتفاع والحجم والطول والعرض. ولكن رؤية العمارة الإسلامية تحتاج إلى أن ترى وأن تسمع. ولا يكفى أن تبصر بالعين، بل عليك أن تسمع بالعين أيضا تلك الموسيقى المهموسة فى التوازن والتماثل والتكرار. وليس أن أندريه مالرو كان أسبق نقاد الفن حين ابتكر هذه العبارة: «العين تسمع».

حين تدرك الرؤية الموسيقى الداخلية فى فن العمارة. لأن شاعرا فى عصر المماليك سبقه بقوله: «وقد أرى العمائر بأذنى».

وقد هدانى يحيى حقى إلى موسيقى العمارة. حين وقف أمام مسجد السلطان حسن الضخم فى القلعة، ليقول: «لا يمكن أن يكون مهندس هذه العمارة الهائلة قد استعان بالمسطرة والفرجار فقط. ولابد أن رافعة من الإيمان القوى من داخله جعلته يطوح بذراعه إلى أعلى، ليرتفع فوق ما يرسمه القلم وخطوط الهندسة».

وهكذا قادنى يحيى حقى إلى التمهل أمام المساجد والأسبلة والمآذن والقباب. أحاول أن أنظر حتى أبصر. ولم أعد أملك الانتقال عنها حتى تصل إلى أذنى تلك الألحان الهامسة فى موسيقى العمارة الجميلة فى تلك المساجد الجليلة. ومن هنا كانت دعوتى الملحة إلى ضرورة محو أمية العين واكتشاف المعانى فى المبانى. حتى يصبح التسكع فنا حين تنظر وترى وتبصر ثم تسمع..

٩١

قبــــاب ومــــآذن

آلاف السيـارات تتقـاطـع بسرعـة شديـدة فى شـوارع القاهرة خلال سـاعتين قبل مدفع الافطار. وقد اكتشفت أن أجمل طـريقــة لتسليـة الصيام هى اقتحام الزحام. لأننى فى الصبـاح أعيد القـراءة عن العمارة الإسلاميـة بالقـاهرة، ثم أقـوم قبل الغروب بجولتـى اليومية فى الأحياء القديمـة. حيث المساجد العـريقة والأسبلة القديمة. وقـد اكتفى بالمرور أو العبور. أبدأ من الشمال من بـاب الفتوح وسور القاهـرة الفاطميـة حتى أصل إلى بـاب زويلة فى الجنـوب. ولابد أن أعبر عشرات المساجـد والأسبلة والمدارس وأرى ألوانا عـديدة متنوعة من الأسـوار والقباب والمآذن والأبواب.

ولو مررت معى فى شـارع واحد هو شـارع المعز لدين الله الذى يشق القاهرة الفاطمية من بـاب الفتوح إلى باب زويلة لأحسسـت معى أن هـذا الشارع متحف كبير فى الهواء الطلق. لأن مـابقى من الآثار على ضفتيـه يعبر عن ألوان الفنـون الفاطمية والأيوبيـة والمملوكية والعثمانية معا .. وخلال سـاعة واحدة تستطيع أن تعبر عـدة قرون ، وهـو شارع مـذهل ، لأن المسـاجد على ضفتيـه تختلف فى الحجم والمعمار. وفى المآذن والقبـاب. وكل مـدرسـة فنيـة من تلك المدارس لها قبابها ومـآذنها التى تختلف وتتنوع، فالمعمار الفاطمى المغـربى لم يهتم أصلا بالقباب، ويعتمد أصلا على المئذنـة العريضة الضخمة المربعة التى تشبه البرج، بينما يعتمد المعمار العثمانى فى الطرف الآخر على القباب العريضة جدا، الواطئة جدا، والمآذن الرفيعة جدا.. والعالية جدا.

وبين المبالغـة فى انخفاض القبة وارتفـاع المئذنـة لحن معمارى جمالى يقوم على التناسب والتناسق بين الانخفاض والارتفاع. ولكن مدرسة معمارية أخرى استمرت لترصع القاهرة بآثارها الجميلـة العديدة خلال ٤٠٠ عام، هى المدرسة المملوكية. البرجية والبحرية. وهى تعتمد أصلا على الرشـاقة فى كل شىء. لا تهم ضخامة الحجم، ولكن الأهم هـو اللحن الايقاعى بين الحجم والارتفاع. ولم تبلغ قبة مثل تلك الرشـاقة الموحية كما بلغت القبة المملوكية، لأنها ممـدودة ممشوقة إلى أعلى، تتسق مع ارتفاع المئـذنة الـرشيقة أيضـا، وبين المئـذنة والقبـة تناسق وانسجام.

وطوال رمضان نسيت الزحام، وتابعت أحياء القاهرة القديمة. لأن القاهرة الفاطمية لها مذاق، والأيوبية عطر آخر، والطولونية طعم ثالث، ومصر القديمة هى البداية الأولى للقاهرة الإسلامية. ويتربع أول حرم أقام فيه المسلمون الأوائل صلاة الجمعة والجماعة. وكان مسجد عمرو بن العاص بمصر القديمة - ٦٤١م - يطل على النيل عند بنائه فى الفسطاط عاصمة مصر العربية الإسلامية الأولى. وكان مسجد عمرو هو أول مسجد فى القارة الافريقية. وبين المسجد الآن ونهر النيل أرض واسعة. لأن النيل كان فى فيضانه السنوى يجود بالطمى، فانتقل المجرى إلى الغرب، وأضاف الطمى مساحات كبيرة على الشاطىء الأيمن. ومن كان يظن أن نهر النيل فيما مضى كان يمر وسط القاهرة فى شارع عماد الدين الآن. ومن كان يظن أن طرح النهر سيصبح تلك الاراضى الشاسعة الواسعة التى تمتد من حى الاسماعيلية شمالا حتى مصر القديمة جنوبا.

ولكن المسجد القائم الآن فى قلب الفسطاط لم يكن فى حجمه عند إنشائه كما هو الآن. فقد أضاف إليه كثير من الولاة والخلفاء والسلاطين والملوك مساحات أخرى. ومنذ ألف عام، أى فى عام٩٩٧، أصلح الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله جامع عمرو، وأضاف الرواقين.

وفى عهد صلاح الدين الأيوبى تجددت واجهة الجامع والمحراب الكبير. وفى عهد قلاوون من بعده - ١٢٨٨م - أعيد البناء من جديد، ومنذ مائتى عام كانت آخر أعمال مراد بك آخر المماليك قبل الحملة الفرنسية بعام واحد اصلاح مسجد عمرو، وتعليق القناديل فى أبهائه وقد كان المسجد الجامع هو مركز المدينة وبؤرة تخطيط المدينة. وعلى جانبيه يكون مقر الولاة والحكام. وظلت هذه القاعدة الرئيسية بعد ذلك فى القاهرة الطولونية، حين أقيم مسجد بن طولون، على قمة تل بنى يشكر بالقرب من جبل المقطم. وهذا المسجد أيضا تحفة معمارية، ولا يقل ضخامة عن مسجد عمرو.

وقد قادتنى ظاهرة «الضخامة» إلى ملاحظة عجيبة. لأن من يقارن المساجد الضخمة فى القاهرة على اختلاف عهودها يجد أن المسجد كان يأخذ راحته، فى المساحة، ويطل على الجهات الأصلية الأربع، ونفس الضخامة نلاحظها بعد ذلك فى مسجد الحاكم بأمر الله بالقرب من باب الفتوح فى العصر الفاطمى. ونلاحظها فى الجامع الأزهر أيضا بعد ذلك بسنوات قليلة. وقد تكررت المساحة الشاسعة فى جامع السلطان الغورى فى عام١٥٠٣ الذى يمتلك النواصى الأربع. وتأكدت نفس القاعدة في مسجد السلطان حسن فى عصر المماليك. ولا تختلف تلك

الضخامة فى مسجد السلطان حسن عن الضخامة فى حجم مسجد محمد على بالقلعة .

وتفسير تلك الضخامة فى الحجم أن المسجد كان يعتبر قلب المدينة. ولكل عصر ولكل مدينة مسجدها الجامع، ومركز سلطانها .وقد أخذت تلك المساجد العريقة راحتها، ولا فرق بين عهد الفتح العربى والفسطاط أو عهد الطولونين أو عهد الفاطميين والأيوبيين والعثمانيين. ولكن القاهرة اكتظت على مر العهود بمساجدها الكبرى، ورصعت أطرافها من الجنوب والشمال والشرق حتى امتلأت. ولهذا نجد أغلب مساجد المماليك بعد ذلك أصغر حجما، لأن أغلبها قام وسط المدينة. ولذلك لم تتوافر لها المساحات الشاسعة لقيام صرح دينى كبير يقوم مقام القلب الذى تقوم فيه صلاة الجمعة والجماعة. وأغلب المساجد المملوكة قامت إلى جوار مبان أخرى، ولم تتوافر لها المساحة الكافية. ولذلك التصقت بغيرها من المبانى. ويندر أن تجد مسجدا مملوكيا ـ عدا مسجد السلطان حسن ـ يملك النواصى الأربع.

وقد عوض الفن المملوكى الضخامة بالأناقة. وحفلت مساجدهم بفنون الرخام والواجهات المرسومة بأناقة وعناية أذهلت كل من زار القاهرة فى العصر الوسيط. وسواء قرأت المقدسى أو ابن رضوان عن الفسطاط، ووصفه لسوق القناديل شمال مسجد عمرو بن العاص، واعجابه بنحت البلور، وأنياب الفيل المستوردة من زنجبار، أو صناعة الخزف اللطيف الشفاف. أو قرأت كتاب الرحالة الادريسى فى منتصف القرن الحادى عشر وهو يقول: أن تأسيس القاهرة الفاطمية لم يؤثر على ازدهار الفسطاط، لأن القاهرة «مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب والطيب والحسن، متقنة الصناعات، قائمة الأسواق، متصلة العمارات، ولا يشغل أهلها هم، ففى أهلها رفاهة، وظرف شامل وحلاوة» .

ولكن أروع وصف للقاهرة أيامها هو وصف ابن خلدون للقاهرة حين يقول :

« من لم ير القاهرة لا يعرف عز الإسلام. فهى حاضرة الدنيا، وبستان العالم.. وكرسى الملك. تلوح القصور والأواوين من وجوهه، وتزدهر الخوانك والمدارس بآفاقه و تضىء البدور والكواكب من علمائه. ومازلنا نحدث عن هذا البلد وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال » .

«ولقد اختلفت عبارات من لقينا من شيوخنا وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم بالحديث عنه، فقال أحدهم: «إن الذى يتخيله الإنسان، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس. إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها » .

وليس عجيبا بعد ذلك أن يقيم ابن خلدون بالقاهرة. وأن يعيش فى شارع الصليبة فى رحاب جامع ابن طولون. شأن بقية العلماء الذين أقاموا جوار المساجد الكبرى.

ولكن فنون العمارة كلها لا تكفى لاكتشاف سر الجلال والجمال فى مساجد القاهرة. وبعض أسرار وجد القاهريين أن القاهرة امتلأت إلى جانب هذ الحشد الكبير من مساجد الخلفاء والحكام والسلاطين بهذا العقد المتلألئ من مساجد «آل البيت» وأولها مسجد الحسين حفيد الرسول الكريم الذى نشأ فى بيت النبوة. وكان الحسين حاذقا فى الفقه واللغة. وفى حواره مع أبى ذر الغفارى حين لقيه. قال له الحسين:

ـــ أسأل الله الصبر والنصر.. وأستعيذ به من الجشع والجزع. فالجشع لا يقدم رزقا. والجزع لا يؤخر أجلا».

وفى القاهرة مساجد آل البيت. ومنها الحسين والسيدة زينب والسيدة رقية وزين العابدين الذى لقب بالسجاد لكثرة سجوده. والسيدة سكينة. ومسجد حسن الأنور والسيدة نفسية التى حجت ثلاثين مرة على قدميها. والتقت بالإمام مالك وأحمد بن حنبل والشافعى. ولعل هذا ما تضيفه مساجد آل البيت إلى بقية المساجد. لأنك لا تكتفى فيها بالبحث عن فنون الهندسة وبراعة العمارة وجمال الفنون. بل تبحث فيها عن عطر الأحباب أيضا.

٩٢

فى رحاب السيدة

عدة ميادين كبيرة بالقاهرة القديمة تحمل اسماء سيدات من آل البيت، واهمها ميدان السيدة زينب وميدان السيدة عائشة وميدان السيدة نفيسة. والجميع من آل البيت ولهن مكانة عالية فى قلوب القاهريين ووجدان المصريين. وقد كان حظى فى شبابى ان أدرس فى المدرسة الخديوية الثانوية بحى السيدة وكانت ومازالت تقع فى شارع الخليج المصرى الذى اصبح الآن شارع بورسعيد. وكنت مثل بقية الطلاب الذين يندفعون عادة بعد المدرسة من الباب العتيق العالى الضخم، وكان لابد ان اتوقف عن اندفاعى مضطرا حين اعبر درب الجماميز الى شارع الخليج وكان الموقف اجباريا، والحذر واجبا حتى في سن الاندفاع والشباب لأن عربات الترام القديم التى اختفت الآن كانت تمر فى اقدم خط للترام بالقاهرة وكان قد مد منذ مائة عام ليربط ميدان السيدة زينب بميدان السبتية، والذى اصبح الآن ميدان رمسيس أو محطة مصر.

وكان خط الترام رقم ٢٢ شهيرا على كل لسان، لأنه يحمل كل يوم آلاف القادمين من الريف الى القاهرة حيث ميدان السيدة زينب وفيه المزار الذى يتبرك به المصريون حيث مقام الست الطاهرة أو السيدة زينب ابنة الامام على كرم الله وجهه، وشقيقة الامام الحسين، وله ايضا ميدان آخر لا يقل شهرة داخل اسوار القاهرة الفاطمية أو قاهرة المعز لدين الله الفاطمى. وقد ظللت كل يوم لخمسة اعوام اقطع هذا الطريق فى الذهاب والعودة من المدرسة الخديوية بدرب الجماميز. وكانت عربات الترام لا تبتعد عن المبانى فى نقطة العبور غير مترين أو اقل. وكنت اتوقف عند لقاء الشارعين ودرب الجماميز والخليج المصرى، واخفف الوطأ ثم اتلكأ عند بيت على باشا مبارك. وكان هذا البيت قصرا قديما يعطى ظهرة للترام، وقد تهالكت عمارته، ولم يعد بابه الكبير يفتح أو يغلق لأن القصر اصبح حوشا يسكنه عامة الفقراء بعد ان كان قصرا عالى الأسوار وقد سكنه على مبارك حين كان وزيرا بعد عودته من باريس فى بعثة الأنجال عام ١٨٤٤.

وكانت البعثة تسمى بعثة الأنجال لأن الخديوى اسماعيل والخديوى توفيق كانا من اعضائها وضمت هذه البعثة العلمية ابناء محمد على، وابناء البكوات من

كبار الموظفين، وبينهم ابن سليمان باشا الفرنساوى وابناء الأفندية من عامة الشعب. ونبغ ابناء الأفندية وكان على رأسهم على مبارك الذى اصبح بعد ذلك وزيرا أو ناظرا للمعارف والأشغال والأوقاف. وكان على باشا مبارك مصلحا ذكيا نابغا استطاع ان يحقق احلامه العلمية فى حياته. وبسبب زمالته للخديوى اسماعيل والخديوى توفيق جمع بين الأقوال والأعمال والأموال. وبين نظارات المعارف والأشغال والأوقاف. توافرت بين يديه أموال الأوقاف الخيرية فانفق منها على نهضة التعليم بإنشاء المدارس وأول مكتبة خديوية وحرص على مبارك على ان يكمل نهضته بإنشاء «دار العلوم» لتخريج المدرسين، ثم مدرسة «القضاء الشرعى» لتعليم الأزهريين العلوم الحديثة، كما انشأ أول كتبخانة، وكانت تلقى فيها المحاضرات العامة بالعربية والفرنسية مع الترجمة الفورية. ولم يكن صدفة ان ينشىء بعد ذلك صحيفة جديدة هى «روضة المدارس» فاكتملت نظرته الاصلاحية بإصلاح التعليم والقضاء والصحافة.

وقد تحول شارع درب الجماميز والخليج المصرى الى ما يشبه الحى اللاتينى بباريس. وهو حى المدارس والسوربون و«الكوليج دى فرانس» ومنذ قرن وربع تجمع فى هذا المربع الذهبى ديوان المعارف والكتبخانة ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى على بعد امتار من مقام السيدة أو الست الطاهرة كما كنا نقول.

وكان على مبارك فى أول عهده بعد عودته يسكن بالقرب من القلعة — مقر الحكم — وحين انتقل الحكم الى الخديو اسماعيل والى قصر عابدين انتقل على مبارك من بيته القديم بشارع المظفر بالقلعة الى مكان قريب من منشآته العلمية.

ويروى على مبارك انه عمر بيته «حتى لحق به الدين». ومازلت اذكر هذا البيت القديم. وكان يطل على حارة ضيقة، وأمامه حنفية مياه «مجانية». وكانت الحارة تنتهى الى بيتين، احدهما لعالم اللغة العربية الشيخ حمزة فتح الله وكان معاونا لعلى مبارك فى اصلاح التعليم وجلجل صوته فى مؤتمر المستشرقين. وامامه بيت الشيخ ابى العزائم وفيه مقام صاحبه ومسجد صغير، ولايزال باقيا، لكن بيت على مبارك اختفى الآن بعد توسيع شارع الخليج ودرب الجماميز، ولم يبق من على مبارك سوى اسمه على الشارع الذى كان فيه قصره القديم.

وقد تواصل سكن العلماء والأدباء وطالبى العلم فى رحاب السيدة زينب. فانتشرت المدارس حوله وانتقلت من العباسية الى السيدة، والى جانب مدرسة المبتديان انشئت المدرسة السنية ثانى مدرسة للبنات، وسكن الشاعر محمود سامى البارودى بعد عودته من المنفى فى حى الحنفى قبل انتقاله الى الزمالك وسكن مصطفى لطفى المنفلوطى صاحب «العبرات» فى شارع زين العابدين.

وسكن عرابى باشا فى شارع الناصرية. وكان انشاء الوزارات فى عهد اسماعيل سببا فى سكنى كبار الموظفين فازدحمت المنطقة بالمثقفين والمتعلمين لوجود الدواوين والمدارس. وشهدت الشوارع الخلفية جنوبى مقام السيدة عددا من كبار الأدباء ومنهم توفيق الحكيم الذى سكن ١٩ شارع سلامة، وهو أمين باشا سلامة كبير مهندسي عهد اسماعيل . وقد كتب الحكيم رائعته «عودة الروح» عن حياته فى ثورة ١٩١٩ بتصوير الحى وأهله فى قصة حبه الأول أيام شبابه. وكان يحيى حقى يسكن الى جوارد بشارع الميضة خلف المسجد وكتب رائعته «قنديل أم هاشم» عن حياة طبيب درس فى انجلترا وعاش صراع الشرق والغرب ثم عاد الى الايمان وحكمة الشرق. واستوحى يحيى حقى الحى والأحياء فى رائعة لا تقل روعة عن «عودة الروح» وكان حقى من تلاميذ الخديوية القديمة. وسكن فى هذا المربع الذهبى خلف مقام السيدة فتحى رضوان الذى كتب كتابين عن حى السيدة وهما «الخليج العاشق» و«خط العتبة» . وقد حكى لى فتحى رضوان انه سأل اخته ذات يوم عن ذلك الشاب الأعزب الذى لا ينطفىء النور فى غرفته فوق السطوح طوال الليل.

وفى مثل هذه الاحياء الشعبية يحرص الجار على اخبار واخلاق جيرانه. وقد شك فتحى رضوان ان يكون جارهم الجديد من ساهرى الليل التالفين، فأخبرته اخته ان الوافد الجديد عبدالقادر المازنى. وحكى فتحى رضوان ان أول بيت سكنه الشاعر على الجارم كان ايضا خلف المسجد الزينبى قبل انتقاله الى شارع آخر فى السيدة ايضا. واسمه شارع وهبى وقبل ان يستقر فى ملكه بمنيل الروضة .

ولكن اخلص الأدباء لحى السيدة كان بيرم التونسى الذى لم يبارح الحى ومقاهيه.. عاش فيه ومات. فأصبح باسمه اكبر شوارع الحى الآن .

ولم تكن صدفة ان يلهم حى السيدة زينب عديدا من الأدباء لأن صاحبة المقام هى بنت الزهراء وحفيدة السيدة خديجة وابنة الامام على وشقيقه الحسن والحسين. وقد عاصرت اباها ٣٥ عاما، واخذت عنه الحكمة والبلاغة والشجاعة واصبح مقامها ملاذا للشفاعة وحيها حى الأدباء والشعراء وقادة الفكر والاصلاح .

٩٣

على رصيف

السلطان

تطل اضخم مساجد القاهرة القديمة على الجهات الأصلية الأربع، لأن المسجد فى الأصل هو قلب المدينة ولذلك اخذت مساجد الجمعة والجماعة براحها فى المكان والمكانة والضخامة مساحة وارتفاعا. ولايختلف فى القاهرة مسجد عمرو بن العاص عام ٦٤١م، عن مسجد احمد بن طولون، عن مسجد الحاكم بأمر الله فى باب الفتوح عام ٨٧٦م، عن جامع المؤيد عام ١٤١٠م ثم جامع السلطان الغورى عام ١٥٠٣. وقد استمرت تلك القاعدة المعمارية ما بين الفسطاط أيام الفتح العربي فى مصر القديمة الى القاهرة الطولونية، ولم تختلف فى القاهرة الفاطمية عن أيام المماليك.

وقد يكون اضخم تلك المساجد جميعا فى الارتفاع والمساحة هو مسجد السلطان حسن. وفي مساحة واسعة وارتفاع شاهق يتملك مسجد السلطان النواحى الاربع، ويطل من ناجيته الشرقية على ميدان فسيح. تغير اسمه بين العصور بين: الرميلة والقلعة وصلاح الدين ومحمد على، حتي عاد اليه الآن اسم صلاح الدين.

ولا تكفى أوصاف الرحالة أو تحقيقات المعماريين أو حتى غزل المؤرخين والأدباء من ابن حوقل الى جاستون فييت لتقرأ هذا الصرح المعماري الذى قال عنه الرحالة المغربى الورتلاني بعد انشائه: انه «مسجد لا ثانى له». وقال عنه شيخنا المؤرخ المقريزى: «لا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذا الجامع وقبته التى لم يبن فى ديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلهما». فو اطللت من سطحه العالى لرأيت القاهرة عامرة بالمآذن والقباب من كل جهة وطراز وفن.

وقد أقام هذا المسجد العملاق الملك الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد ابن قلاوون عام ١٣٦٤ فى عصر المماليك. وكانت مصر قد استقرت بالفوز على الصليبيين والمغول معا. وتقوى الدين بازدهار الفقه واللغة. وامتدت القاهرة حتى القلعة وفاضت المدينة فى شكل «نصف قمر» تحت اقدام القلعة والجبل. ليقوم عديد من المساجد والمدارس جنوبى القلعة حتى منطقة الامام الشافعى ومقام السيدة نفيسة فى اقصى الجنوب.

ولو ان عبقريا اختار موقعا للايحاء ان «سلطان الكلمة اقوى من كلمة السلطان» لما اختار موقع بناء مسجد السلطان حسن، منذ اختار موقع «المسجد والمدرسة» فى مواجهة قلعة صلاح الدين لتصبح القلعة فوق الجبل مركز الحكم من الأيوبيين والمماليك والعثمانيين . بل وعهد محمد علي حتى حفيده اسماعيل ولتشهد هذه المقابلة النادرة بين قلعة عملاقة ومسجد عملاق .

ولو توقفت برهة أمام بوابة مسجد السلطان البحرية، وارتفاعها ٣٧,٧٠ متر ، لما اكتفيت ببحث المؤرخين .

لو وقفت لتسمرت ولسوف تكتشف بالضرورة ان قراءة المساجد القاهرية الزاهرة «علم وفن» ولابد لك ان تستعين عليها بذاكرة المؤرخ وعلم المهندس ، وفن المعمارى بل واحساس الأديب .

ولابد لك ايضا بعد النظرة الأولى من التأمل .

فليست العمارة رصا للحجارة والحجم والشموخ والتكرار والتناسق والفنون واللون يكشف لك مداخل الجمال ومخارجه ، ويهديك الى اسرار العمارة الجميلة حين تكون جليلة ايضا .

وليس اجمل وابلغ بل واصدق من انطباع الأديب يحيى حقى صاحب «قنديل أم هاشم» حين افصح عن مشاعره من الوقوف أمام باب المسجد، وقد كتب يحيى حقى قائلا :

ــ «.. لم انس الى اليوم شهقة قلبى حين دخلت ابوابه أول الأمر ، إلى الوراء. تراجعت كل النمنمات والزخارف والصنعة لا شيء فى العمارة الاسلامية فى القاهرة يدانى هذا القوس الشاهق المحيط بالقبلة. لابد لك امامه من ان ترفع رأسك للسماء وان تحس بأنك ارتفعت عن الأرض ، وان صدرك الضيق قد أصبح فى مثل رحابة هذا القوس العظيم كأنه من عمل البرجل الذى قاس دائرة الأفلاك. ولكن أمسكت به هذه المرة يد انسان خاشع لربه ،ولكن الخشوع هنا أمام هذا القوس غير مقترن بإغماء أو ضعف أو تخاذل أو ترقرق دمعة سهلة. بل مقترن بتفجر قوى النفس كلها بالنشوة والفر..ح انبهار لا يصيبك بشلل بل يلهب كل طاقاتك الروحية» .

ويقول يحيى حقى : « لو رسم هذا القوس على الورق لكان خارقه أو اعجوبة ومعجزة فما بالك به، وهو من حجر .

انه آخر شدة فى القوس لو زادت بمقدار شعرة لا نقطع .

هذا الثبات عند الذروة : بين السلام والخطر بين المزيد من الكمال ودوام شبهة النقص، بين اقصى الطموح وغاية الجهد ،بين شوق الروح وحساب

العقل، وبين الـرؤى وبين الـرويـة .والبصيرة والبصر، وبين الممكـن المجهـول والمتاح المألوف بين الوعد والوعيد هو سر روعته ».

وكثيرا ما تـوقفت طويـلا عند هـذا الوصف المرصف والمرتجف والـذي كتبه اديبنـا يحيـى حقى عن جـامع السلطـان حسن . وقـد ازاح الأديب عـن عينيـه الزخـارف وشقت روحه الحجر، وتسربت روحه من روح ذلك الفنـان الذي رسم القوس الشاهق المحيط بقبلة المسجد الشامخ .

وقد ظل اسم السلطان محفورا فى كتب التـاريخ، وبقى اسم المهندس مغمورا غير معروف حتى كشفـه الأثرى المعمارى حسن عبدالـوهاب منذ خمسين عـاما فقط. وقـد آثر تواضع المهندس ان يسجل اسمه متواريا فوق حائط جانبى ولم يعرفه احد قرونا عديدة .

ولا يمكن ان يكون ذلك المهنـدس المؤمن القديـر قد اكتفى بالهنـدسة والقلم والرسـم والمسطرة والفرجـار. ولابد كما قـال يحيى حقى وبحق ان قـوة روحية هائلة ورافعـة قوية من الايمان جعلت هذا المعمارى يرفع ذراعه ليطـوح خطوطه حتى ترتفع خطوط الرسم الى ذرى الايمان .

ولـو وصلت مع هـذا الصرح المعمارى مـن القـرن الخامس عشر الى حـالـة «الرؤية» التى تـوقظ السمع لتفتح العين وترهف الأذن فلسوف تكتشف معى ان المعمارى الاسلامى لا تكشفـه مالم تسمعـه كما تراه .ويهديك جـامع السلطان حسن موقعـا وصرحا وقامـة، الى ما قالـه قبل عدة قرون «الاسحـاقى» صاحب «لطائف اخبـار الأول فيمن تصرف فى مصر من اربـاب الدول». ولصاحبنـا بيت شعرى عجيب سبق بعدة قرون اندرية مالرو فى عبارته الموحية الرائعة :

ــ «العين تسمع» .

اذ يقول الاسحاقى شاعر القرن السادس عشر هذا البيت الموحى :

ــ انني ارى الديار بعينى

فلعلى ارى الديار بسمعى

وقد يغريك هذا «الكشف» على رصيف السلطان، فيدفعك ان تهبط مهرولا من القلعة، مـادمت قد امسكت بحـالة الـرؤية المسموعة حين لا تكتفى بـالنظر الى العمارة القـاهـرية الاسـلاميـة، بل تـراهـا بعيون مفتـوحـة حتى تسمع همس الحجارة ثم انفاسها ثم موسيقاها .

وقد يغريك هذا الاكتشـاف والكشف ايضا ان تسرع الخطى لتهبط من القلعة وتبدأ من جـديد من بداية القـاهرة الفاطميـة ومن البداية الأولى عند بـاب الفتوح حتى تذرع الشارع الأعظم كما كـانوا يسمونه قديما، وشـارع المعز لدين الله كما

نسميه الآن لتتوقف متأملا عند جامع الحاكم بأمر الله ولن تكفيك بعض أيام من باب الفتوح الى باب زويلة . لأن هذا الشارع متحف كبير فى الهواء الطلق .. ففيه كل الفنون المعمارية من شتى العصور ، ويقوم على حقيقة طراز فاطمى فى جامع الحاكم، والمسجد الأقمر، والمسجد الأفخر، وسوف تلحظ افعل التعظيم فى اسماء المساجد، ومنها الأزهر الشريف ، مثل الأقمر والأفخر، وقد اضاف كل عهد طرازاً وفنا فى القبة والمئذنة . وفى قلب هذا الشارع المضيء مجموعة السلطان قلاوون النادرة. ويتوسط هذا القلب اجمل الأسبلة وهى تحفة عبدالرحمن كتخدا .

ولا تكفيك ايام لرؤية ما ترى لأنك بعد ان وصلت الى حالة الرؤية المسموعة لن تكتفى برؤية الحجارة والعمارة وعليك ان تنظر وتبصر وتسمع همس الحجارة وألحانها وموسيقاها . لأن العين كما ترى قد تسمع ايضا موسيقى العمارة .

٩٤ رق الحبيب

اطل على النيل كل صباح منذ ثلاثين عاما لأنني اسكن شارع ابو الفداء الذى يطل على النيل فى فرعه الصغير بين امبابة والزمالك.. وكانت السعادة تغمرنى فى الفجر بين اشهر أمواج الضياء بين البزوغ والشروق حين ينتقل الضوء من البنفسجى الى البرتقالى حتى يمتلىء ضوء الصباح ثم يكتمل .

وكانت سعادتى لا تقل فى الليل عن الصباح. حين ينعكس الضوء ، ثم يتلألأ على صفحة النيل الفضية الهادئة . وكنت احيانا لا اصدق ان تلك الأمتار المحددة التى تلوح من نافذتى القريبة فى الدور الأول هى قطعة صغيرة من رحلة طويلة يقطعها النيل المثابر عبر تسع دول، حتى يلقى بفيضه الدائم المستمر الى البحر.

وقد احببت السكن بجوار النيل. وزاد من سعادتى ان سيدة الغناء العربى أم كلثوم كانت تسكن في نفس الشارع. ابو الفداء فى فيلتها التى تحيط بها الأشجار العالية.. وكنت احيانا ـ فى السبعينات .. المح ام كلثوم بقامتها تسمو وحدها فى هدوء ووقار قرب السادسة صباحا على شاطىء النيل. ويبدو أن الأطباء نصحوها بالسير على النهر حين بدأت صحتها تحتاج الى الرياضة والعناية .

وما مررت على بيت ام كلثوم فى منتصف شارع ابو الفداء فى رحلتى اليومية الى العمل إلا امتلأت فى داخلى بشىء من الاعتزاز ، لأن البيت لم يكن بيتا مثل بقية البيوت وكثيرا ما تمهلت كلما اقتربت من البيت الذى تسكنه صاحبة الصوت الذهبى فأحس لقاء سحريا وساحرا بين النيل .. وكوكب الشرق : ام كلثوم .

ولكن السعادة فى العادة لا تدوم .

منذ انقطع صوتها منذ عشرين عاما عن التردد فى ذلك البيت. وكان صوتها فى حديثها العادى اليومى عريضا قويا. ولن استطيع ان انقل شيئا من المشاعر يوم وفاتها ووداعها ، فقد تحولت الجنازة الى مظاهرة وحمل جثمانها آلاف المودعين. ولكننى لن انسى حتى الآن، وبعد عشرين عاما، بضعة أيام بعد وداعها ويوم مررت على بيتها الذى اصبح فيه الصمت مالكا .

تمهلت قليلا ، ولمحت على ضفة النيل فى مواجهة بيتها شيخا عجوزا لعله كان

فى السبعين. وكان الشيخ وحده يجلس على رصيف «الكورنيش» الحجرى، يعزف على الكمان بعض الحان لم اسمعها. وكان مستغرقا . ولعله كان احد افراد التخت، أو كان من عشاق الحانها، أو كان مجرد عجوز أراد ان يعبر عن احزانه على طريقته الخاصة .

وبعد عشرين عاما لا يزال صوتها الذهبى يملأ الشرق العربى ومصر، ومازالت اغانيها قبلة الشباب قبل الشيوخ من جيلنا. فلقد كانت ام كلثوم ظاهرة غنائية ومعجزة فنية وثقافية ، بل كانت ام كلثوم وزارة ثقافة قبل ان تصبح فى مصر وزارة للثقافة. وكانت ام كلثوم وصلة طرب جميلة .

كانت صلة وصل بين مصر وكل الذين يعرفون العربية، بل والذين لا يعرفونها. وقد كتب توفيق الحكيم مسرحية عنها، واختار نجيب محفوظ اسم ابنته على اسمها . وقال المثال محمود مختار انه استوحى فى تمثاله المشهور «نهضة مصر» وجه الفلاحة من وجهها ، وكتب عنها احد وزراء المعارف فى باكستان كتابا باللغة الاوروبية.. وقال الشاعر كامل الشناوى انها انشأت تقويما مصريا، مثل السنة الهجرية والسنة الميلادية، وكان يقول ان السنة الغنائية تبدأ فى مصر بغناء ام كلثوم فى يوم الخميس من أول كل شهر .

وكان يوم الخميس الأول من كل شهر هو يوم أم كلثوم فى جيلنا من عشاق الطرب. وكان يوم الاثنين من كل اسبوع هو يوم احمد رامى. لأن الشاعر الرقيق كان يعمل فى دار الكتب ، وكانت عطلة الدار يوم الاثنين، فكان يحضر معه دواوين الشعر الرصين والرقيق الى شارع ابوالفدا الذى كانت تسكنه ملهمته ومصدر وحيه.. ومعذبته .

فقد ظل احمد رامى يحمل اربعين عاما خاتما «دبله» نقش عليه حرفان هما : «أ . ك».

وقصة حب رامى لأم كلثوم من اروع قصص الحب العذرى فى عصرنا . لأنها قصة امتلأت بالقرب والبعد، والهجر والهيام. واشتهرت بالوفاء الجميل لأن رامى لم يبارح الصفوف الأولى من حفلاتها الشهرية الرائعة ، وكأنها كانت تغنى له وحده.

ومنذ عام ١٩٢٩ ، كشف رامى عن حبه الدقيق بهذه القصيدة الجميلة الفصيحة .

ـــ عشقتك للصوت الحنون وللهوى

وماكنت ادرى ما يجـــر هـــواك

تماديت فى هجرى وشردت مهجتى

وما غنيت يوما بغـــير ســماك

وقد بكى رامى بالفصحى وشكا بالعامية، وليس افصح من قصيدته العامية التى غنتها له ام كلثوم .

« ياللى رضاك أوهام

والسهد فيك احلام

حتى الجفا محروم منه » .

وحتى فى الجيل الذى سبق ، جيل شوقي وحافظ وبدايات ام كلثوم ، ادرك امير الشعراء موهبتها كما ادرك موهبة عبدالوهاب. ولم تكن الاذاعة ايامها رائجة بين الجماهير ، ولم يكن المطربون يعتمدون على الميكرفون . وادرك شوقي بفطنته انه يحتاج الى صوت ام كلثوم كما يحتاج الى صوت عبدالوهاب حتى يذيع شعره بين الجماهير .

وذات مساء دعا أمير الشعراء كوكب الشرق للغناء فى قصره «كرمة ابن هانىء» على الشاطىء الغربى للنيل فى الجيزة ، ثم رد شوقي لأم كلثوم الزيارة ظهر اليوم التالى .

واحتفت به أم كلثوم..

وقبل انصرافه، قدم إليها مظروفا مغلقا، فدهشت، وقال مروعة:

— إيه ده .. فلوس ؟

فقال شوقى :

— هذا من وحيك ..

وحين فتحت أم كلثوم الخطاب، وجدت ورقة كتب عليها أمير الشعراء قصيدته الشهيرة:

— سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها..

وظل صوت أم كلثوم قويا خفاقا فصيحا نقيا.. وكان صوتها من الأصوات الذكية، ففى الغناء أصوات قد تكون جميلة، ولكنها قد تكون أيضا غبية. ولكن صوت أم كلثوم كان من أذكى الأصوات، وكان صوتها الذكى القوى يزغرد فى أغنية: «مادام تحب بتنكر ليه». ويجلجل فى «الأطلال». كما كان رقيقا فى «هلت ليالى القمر»، وعذبا فى أغنية «رق الحبيب». ولا أظن أن أحدا خدم الفصحى كما فعلت أم كلثوم. لأنها شعشعت بأشعار شوقى وحافظ وناجى والأسمر وجورج جرداق ونزار قبانى وأحمد فتحى وعبدالله الفيصل. فأنشدت سبعمائة قصيدة. حتى توجت على عرش الغناء العربى، ولم يسقط التاج عن رأسها.

ولولاها لما انسجم الذوق العام مع المعانى الرفيعة الرقيقة..

وقد امتلكت كوكب الشيرق القلوب. ومازالت. وملكت نفوذا هائلا. وحصلت على أرفع الأوسمة من أغلب الحكومات العربية. وحين أنعم عليها بنيشان الكمال - أرفع وسام مصرى - أرسل إليها معجب رقيق هذه البرقية:

- شارع أبو الفدا..

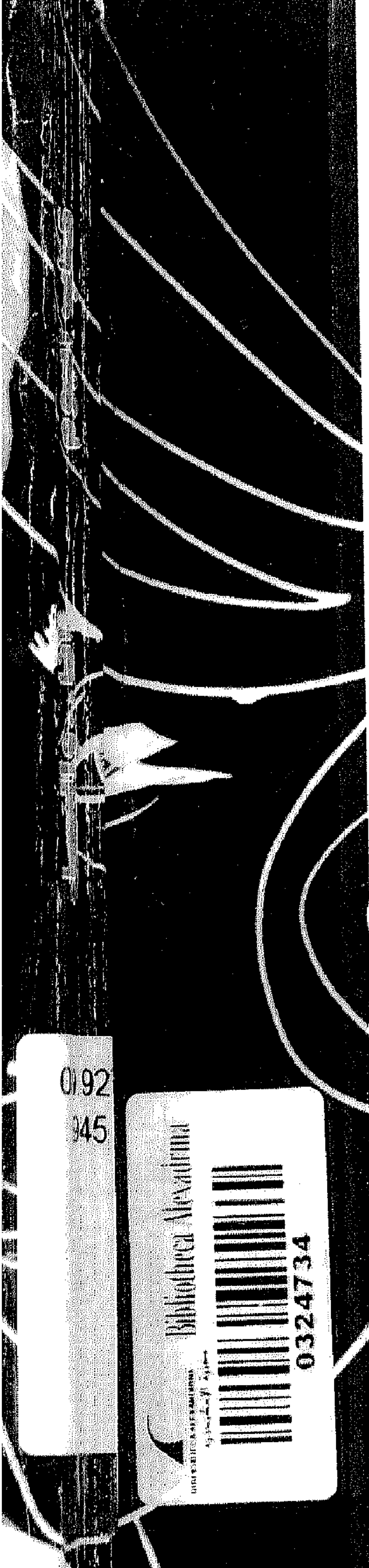
نيشان الكمال. بمنزل الآنسة أم كلثوم..

نهنئكم..

وكلما مررت على بيتها تمهلت. واشحت بوجهى حزينا لأن بيتها لم يعد قائما.. وقد هدم، واختفى البيت الجميل الذى كانت تحيط به الأشجار العالية، ولكن صوتها لايزال باقيا فى كل البيوت. وفى كل القلوب. وفى قلبى حين تغنى أغنيتى المحببة:

- رق الحبيب.

رقم الايداع ٥٩٩٠ / ٩٧
الترقيم الدولى I. S. B. N.
977 - 08 - 0632 - 3



هذا الكتاب

كامل زهيرى كاتب ومثقف وفنان كبير.. فهو يتأمل لوحة فنية لرسام بنفس الاستغراق والاهتمام الذى يقرأ فيه كتابا لمؤلف كبير او هو يستمع لسيمفونية لموزارت مثلا..! ويهتم بزيارة المتاحف والمعارض الفنية بنفس الاهتمام الذى يزور فيه المكتبات العامة..!

والى جانب انه فنان جدا فهو ايضا مثقف جدا.. فقد عاش فترة طويلة فى الهند وفرنسا اطلع خلالها على الثقافتين الهندية والفرنسية.. وتذوق عيون الادب العالمى الكلاسيكى والحديث..

ويتميز كامل زهيرى بأن له اسلوبا يقرب من الشعر تفوح منه موسيقى واضحة.. فهو يهتم بالتدقيق فى اختيار الكلمات بنفس المعاناة التى بذلها فى اختيار موضوعاته.

وفى هذا الكتاب «أنا والنساء».. يستعرض فيه كامل زهيرى عالم النساء خلال حياته العريضة.. سواء التقى بهن فى الحياة.. أو عرفهن من خلال القراءة والخيال..

وقد استطاع كامل زهيرى من خلال ثقافته الواسعة ونضجه الفنى واسلوبه الرشيق ان يلقى الضوء على عالم المرأة الخفى المليء بالاسرار..

نبيل أباظة

الثمن : ٥ جنيهات